المركز القومى للترجمة

تدهور إمبراطورية فرويد وسقوطها

تأليف: هانز ج. أيزينك
ترجمة وتقديم: عادل نجيب بشرى
مراجعة: محمد نجيب الصبوة

2077

هذا الكتاب عن "سيجموند فرويد والتحليل النفسى". وهناك كثير من الكتب التى تكلمت فى هذا الموضوع، مما يجعل القارئ على حق إذا ما تساءل عن السبب الذى يدعوه لإنفاق أمواله ووقته فى شراء كتاب جديد عن هذا الموضوع وقراءته؟ إن الإجابة عن التساؤل السابق، بسيطة جداً: فإن معظم الكتب الأخرى تم كتابتها بواسطة المشتغلين بالتحليل النفسى وأتباعهم من المؤمنين بتعاليم فرويد. ولعل هذا، هو السبب فى أنهم لم ينتقدوا أفكاره وتعاليمه؛ كما أنهم لم يكونوا على علم بوجود طرق ونظريات بديلة "Alternative Theories". أيضاً؛ فإن كتاباتهم استخدمت كأسلحة فى حرب دعائية شعواء، أكثر منها عرض علمى هادف لحقيقة الوضع الراهن الذى يواجهه التحليل النفسى.

يناقش الكتاب نظرية "التحليل النفسى" دون غيرها، مركزاً على الإسهامات التى تقدم بها فرويد.

تصميم الغلاف: عبد الله البسيوني

تدهور إمبراطورية فرويد وسقوطها

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 2077
- تدهور إمبراطورية فرويد وسقوطها
- هانز ج. أيزينك
- عادل نجيب بشرى
- محمد نجيب الصبوة
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

The Decline & Fall of the Freudian Empire

By: Hans J. Eysenck with a preface by Sybil B.G Eysenck

This edition is an authorized translation from the English language edition published by Transaction Publishers, 35 Berrue Circle, Piscataway, New Jersey 00854

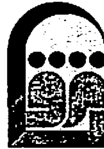
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

تدهور إمبراطورية فرويد وسقوطها

تـــألـــيــف : هـــانز ج. أيزينك
ترجمة وتقديم : عـادل نجـيب بشـرى
مــراجـــعـــة : محمد نجيب الصبوة



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تدهور إمبراطورية فرويد وسقوطها/ تأليف: هانز ج. أيزينك،
ترجمة وتقديم: عادل نجيب بشرى، مراجعة: محمد نجيب الصبوة
ط١، القاهرة - المركز القومى للترجمة، ٢٠١٢
٣٤٠ ص، ٢٤ سم
١- علم النفس
٢- الأطباء النفسيون
(أ) بشرى، عادل نجيب (مترجم ومقدم)
(ب) الصبوة، محمد نجيب (مراجع)
(جـ) العنوان ١٥٠

رقم الإيداع ٢٠١١/٢١٣٢٣
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-704-894-1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتـــويات

تقـديم المترجم 7

تصدير بقلم زوجة المؤلف 10

مقـدمة المؤلف 17

الفصــل الأول : فرويد الإنســان 37

الفصل الثــانى : التحليل النفسى طريقة للعـلاج 71

الفصل الثالــث : العلاج بالتحليل النفسى وبدائله 107

الفصل الرابــع : فرويد، ونمو الطفل وارتقاؤه 145

الفصل الخامس : تفسـير الأحلام والأمراض النفسـية فى الحياة اليومية 179

الفصل الســادس : الدراسة التجريبية لمفاهيم فرويد 227

الفصل الســابع : ثرثرة نفسـية جوفاء وتاريخ زائف 261

الفصل الثامــن : أرقد فى سـلام: تقييم 301

خاتمة المترجم 327

المراجـع 331

تقديم المترجم

في "مدرسة علم نفس الفرد" School of Individual psychology. لنا اهتمام خاص بدراسة "نفسية الطفل" لسببين: فهي دراسة مهمة لذاتها. وهي أيضًا مهمة بسبب الضوء الذى تلقيه على "السمات الشخصية" للفرد البالغ وعلى سلوكه. وبخلاف المدارس الأخرى، فإننا لا نسمح بوجود أى فجوة بين "النظرية" و"التطبيق". إننا نلتزم التزامًا مطلقًا بوحدة شخصية الفرد.

(ألفريد آدلر)

في كتابه «تعليم الأطفال»

فرويد والمنهج العلمى Freud & The Scientific Method

مما لا شك فيه أن مرحلة الطفولة تؤثر بطريقة واضحة ومباشرة على شخصية الفرد فى المستقبل، وعلى الطريقة التى سيتبناها فى التفكير عندما يصل إلى مرحلة البلوغ. ولعل هذا هو السبب الذى دفع بمؤلف كتابنا لأن يبدأ دراسته النقدية لـ"التحليل النفسى" Psychoanalysis وما تضمنه من مبادئ ومعتقدات، من خلال دراسة حياة فرويد ذاته، والتركيز على طفولته، والبيئة شديدة الخصوصية التى نشأ فيها، وعلاقاته بأفراد أسرته، خاصة أمه.

ولكن قبل أن نقرأ ما يريد المؤلف قوله عن: "طفولة فرويد" و"شخصيته"، أشعر أنه من الواجب علىَّ توضيح النقطة المهمة الخاصة بالأصول الواجب اتباعها خلال إجراء

أى أبحاث علمية، وأهمية استخدام "المنهج العلمى" The Scientific Method؛ خاصة إذا كانت هذه الأبحاث تتعلق مباشرة بما يؤثر على صحة الإنسان وتوازنه النفسى.

فى البدء، كان كل من عمل بـ"علم النفس" Psychology من خريجى كليات الطب؛ فإن كلا من "باڤلوڤ" Pavlov، و"آدلر" Adler، و"يونج" Jung، و"فرويد" Freud، و"مازلو" Maslow، وغيرهم من الرواد الأوائل فى علم النفس – بما فيهم مؤلف هذا الكتاب – مروا من خلال السنوات الطويلة المضنية من "الجهد" و"الدراسة" و"التدريب" النظرى والعملى الذى يتطلبه الحصول على "إجازة الطب" التى تسمح للفرد بممارسة المهنة.

وفى عصرنا الحالى، لا تزال "الوظيفة الأساسية" للطبيب هى أن: "يفحص"، و"يشخص"، و"يعالج" مريضه، وهو ما نعنيه عندما نتكلم عن: تبنى "منهج علمى" Scien-tific Method فى التعامل مع العلة التى يعانى منها المريض؛ فإن "الفحص الطبى" Medical Examination له أصول وقواعد مُصَممة بحيث تُمكِّن الطبيب من تجميع أدلة لها طابع خاص يمكن "ملاحظته" Observable، و"إجراء التجارب عليه" Empirical، و"قياسه" Measurable، وهذه الصفات الثلاث هى الصفات التى تؤهل هذه الأدلة لأن تحمل لقب: "أدلة علمية" Scientific Evidences وبدون هذه "الأدلة العلمية"، لا يمكن لنا تقبل صحة التشخيص. والشىء ذاته ينطبق على "الأمراض النفسية"... أو أن هذا هو ما يجب أن يحدث على أى حال.

لكن – للأسف – ما يجب أن يحدث، وما حدث فعلاً، شيئان مختلفان، فخلال السنوات الأولى من القرن العشرين، خرج من بينهم زمرة لا تعترف بـ"المنهج العلمى"، ولا تريد أن تخضع للأصول والقواعد المُصَممة لتجميع الأدلة العلمية واستخدامها، ورفضت – بتعنت – إجراء أى تجارب لقياس مدى صحة الادعاءات التى خرجوا بها علينا. وللأسف – مرة أخرى – كان على رأس هذه الزمرة أحد رواد "علم النفس" الحديث، وصاحب "اجتماع الأربعاء النفسى" الشهير، ومؤسس مدرسة التحليل النفسى: "Sigismund Schlomo Freud"، الشهير بـ"سيجموند فرويد" Sigmond Freud... والذى يدور من حوله موضوع كتابنا هذا.

منذ ما يزيد عن ربع قرن من الزمان، قبيل عام ١٩٨٥م، عندما قام "أيزينك" بتجميع المادة العلمية التى مكنته من تأليف كتابه: "تدهور الإمبراطورية الفرويدية وسقوطها"، كانت مناهج وأساليب "الطب النفسى" Psychological Medicine لا تزال تعانى من نقائص كثيرة؛ جعلته يحتل مرتبة أدنى من المرتبة التى يحتلها "الطب البدنى" Physical Medicine.

وبالطبع، هناك فروق كبيرة بين "الأمراض البدنية" Physical Diseases من ناحية، وبين "الأمراض النفسية" Diseases Psychological من ناحية أخرى، وهى فروق محددة وواضحة ولا يمكن إنكارها. وتتلخص هذه الفروق فى أن:

١- كانت معظم الأمراض النفسية لا تزال غير محددة المنشأ.

٢- معظم الأمراض النفسية لم يكن لها مسار محدد أو مراحل معينة تمر خلالها.

٣- معظم الأمراض النفسية لم يكن لها علاج حاسم يحقق الشفاء بصورة أكيدة... تضمن عدم عودة الأعراض، أو ظهور أعراض بديلة.

وعلى سبيل المثال؛ فإن مرضاً عضوياً مثل مرض "الزُّهْرِىّ" Syphilis :

١- ينشأ عن العدوى بـ"بكتريا لولبية" Spirochetal Bacterium، تسمى: "Treponema pallidum"، وهى التى لا تنتقل من إنسان لآخر إلا عن طريق التلامس الحميم (مثل الذى يحدث خلال الممارسات الجنسية، أو من الأم لطفلها "داخل الرحم" in utero فى النادر من الحالات).

٢- له ثلاث مراحل أساسية يكون من الممكن للبكتريا أن تتسبب فيها، أو يظل فى حالة كمون لسنوات طويلة. وفى مرحلته الثالثة والأخيرة - إذا تمكن من المخ - يتسبب فى "الخبل أو العته" Dementia أو "الشلل" أو كليهما؛ ثم الموت السريع.

٣- له علاج حاسم يحقق الشفاء بصورة أكيدة من خلال استخدام "البنسلين طويل الأمد". Penicillin G، أو بدائله، مثل (تتراسيكلين Tetracycline

أو (دوكيسيكلين) Doxycycline بالنسبة للحوامل أو من يعانون من حساسية تمنعهم من تعاطى "البنسلين".

هذا بخلاف "الأمراض النفسية" مثل: "الاكتئاب" Depression، أو "وسواس النظافة القهرى" Obsessive-compulsive washing، أو "الفصام" Schizophrenia، أو غيرها.

وبالنسبة للاكتئاب على سبيل المثال: لم يكن هناك اتفاق على منشأ محدد له، ولم تتمكن أى مدرسة نفسية من تقسيمه إلى مراحل أساسية معروفة أو لها حدود معينة، ولم يكن هناك أى علاج حاسم يحقق الشفاء بصورة أكيدة ونهائية؛ بحيث لا نفاجأ بعودة الأعراض مرة أخرى بعد فترات زمنية مختلفة، أو ظهور أعراض بديلة. وفى الواقع فإن التعامل مع الاكتئاب - خلال تلك الفترة - كان يتم من خلال العقاقير الكيميائية التى تخفف من حدة الأعراض فقط، ولا يوجد أى اتفاق بين المدارس النفسية المختلفة على "العلاج الأمثل" الواجب اتباعه.

لكن كل هذه الفروق لا تعنى أن عملية "فحص" المريض النفسى، و"تصنيف" الأعراض التى يعانى منها، عملية عديمة الفائدة. فإن الخطوات الهامة الخاصة بـ"المشاهدة" Observing، و"التمييز" Differentiating، و"التصنيف" Classifying هى الأدوات التى سوف تمكننا - فى المستقبل - من إحلال "النظام" محل "الفوضى" السائدة حاليًا، ومن تثبيت وضع "الاستدلال العلمى" Scientific Deduction المقنن بدلاً من الاستنتاجات "التفسيرية" Hermeneutical المبنية على غير أساس أو النابعة من "الموروث الشعبى" المتناقل.

فى هذا الصدد من الواجب علىَّ توضيح أن المسئولية تظل ملقاة على عاتقنا، وأنه من الواجب علينا "مشاهدة" و"تنظيم" و"تسجيل" الأعراض التى تبديها كل ظاهرة من الظواهر النفسية... قبل أن نتمكن من الوصول للتفسير الصحيح لها؛ إذا أردنا الوصول بـ"الأمراض النفسية" إلى نفس المكانة والتنظيم الذى وصلت إليه "الأمراض البدنية" فى عصرنا الحالى. وأن إجراء "التجارب المقننة"... هو السبيل الوحيد للتأكد من صحة ما توصلنا إليه من نتائج.

وعلى سبيل المثال، فإن العالم الكبير "كارل لانييس" Carl Linnaeus(*) قام بوصف وتصنيف عدد يقترب من "مليون" نبات وحيوان وكائن بحرى مختلف... قبل أن يتمكن "تشارلز داروين" Charles Darwin بعبقريته الفذة من ملاحظة التشابه الموجود بين عديد من هذه "الأنواع" Species التى وصفها وصنفها من سبقوه من العلماء والباحثين. وهو ما مَكّن "داروين"، فى النهاية، من وضع نظريته القائلة بأن:

كل الأجناس الحالية من الكائنات الحية بمختلف أنواعها قد تطورت من أسلاف أكثر بساطة، خلال رحلة زمنية طويلة جدا استغرقت ملايين السنين.

إن "نظرية فرويد فى التحليل النفسى"، ليست إلا انعكاساً لشخصيته العُصابية(**) والبيئة شديدة الخصوصية التى نشأ فيها، وعلاقاته بأفراد أسرته خاصة أمه. وكونها نظرية ترفض "المنهج العلمى" المتفق على اتباعه يجعلها نظرية غير مقبولة... بل عقيمة، وعقمها ينبع من عدم قدرة الأجيال التالية من الباحثين النفسيين من البناء عليها. هذه النظرية مثلها مثل كثير من الكائنات العتيقة المنقرضة، والتصميمات العقيمة؛ كائنات عتيقة منقرضة مثل: "الديناصور" أو "الدودو"، وتصميمات عقيمة عديمة الجدوى مثل "منطاد زبلن" لم تعد تصلح للوجود فى البيئة المعاصرة.

(*) "كارل لانييس": هو العالم السويدى الشهير (١٧٠٧-١٧٧٨م) الذى قام - هو وتلاميذه السبعة عشر - بتصنيف ما يزيد عن مليون نبات، وحيوان، وكائن بحرى (أسماك وغيرها). وهو الذى وضع المبادئ الأساسية للنظام الحديث فى التصنيف الذى ما زال متبعاً حتى الآن، والذى يقضى بتقسيم الكائنات إلى "ممالك" Kingdoms، و"طوائف" Classes، و"رتب" Orders، و"أجناس" Genera، و"أنواع" Species. هذا وقد حدثت تغييرات أساسية فى التقسيمة السابقة (تم إضافة ما يسمى بـ"الفصائل" Families، و"الشُعَب" Phyla، وغيرها)؛ وفى المبادئ التى تُتبع فى تصنيف الكائن الحى ذاته (التصنيف على أساس مبدأ القرابة الجينية)؛ حيث يصنف الإنسان وغيره من أنواع الشامبانزى المختلفة - الآن - على أنهم ينتمون جميعاً لنفس "الجنس" Genus. (المترجم)

(**) "العُصاب" Neurosis هو اختلال مزاجى طفيف، يتسبب فى أن يفقد الفرد توازنه النفسى ويصبح عاجزاً عن التصرف بالطريقة الاجتماعية الملائمة للموقف الذى يجد نفسه فيه. وعندما يفقد الفرد توازنه النفسى؛ فإنه يصبح غير مفيد لمن حوله، بل إنه قد يتسبب فى الإضرار بهم، وهو ما يدفع به فى النهاية لأن يكون عازفاً عن المضى قدماً فى الحياة. (المترجم)

وهى تختلف عنهم فى أنها لا تستحق منا أى مجهود لإنقاذها من الانقراض والزوال، بسبب الآثار الضارة التى خلفتها على كل من وقع فى حبائلها. ويكفينى فى هذا تذكير القارئ بالمقولة المعروفة التى حكم بها الفيلسوف الألمانى الشهير: "هيرمان إبنجهاوس" Hermann Ebbinghaus على أعمال فرويد:

"إن ما هو جديد فى هذه النظريات ليس صحيحًا، وما هو صحيح فى هذه النظريات ليس بجديد".

عندما انفصل "علم النفس" عن "الفلسفة" فى عام ١٨٧٩م، وأصبح علمًا مستقلا(*) بذاته، كان فرويد قد أصبح فى الثالثة والعشرين من عمره، وعلى وشك التخرج فى كلية الطب، أى أنه كان قد وصل بالفعل إلى مرحلة النضوج. ومنذ ذلك التاريخ، تبنى "علم النفس" الحديث المنهج التجريبى، ورفض الاستناد إلى الأدلة غير العلمية، وأخذ ينأى بنفسه عن منهج الفلسفة الأساسى الذى كان يكتفى بالتأمل والتفكير والاستبطان فى تفسيره للظواهر المحيطة بالإنسان. أما "فرويد" فإنه فضل الالتزام بالأساليب القديمة التى تطالبنا بالإيمان بفرضيات لم تثبت صحتها بعد، ولا تستند على أى أساس متين؛ وكأنه "نبى" يدعو شعبه لاعتناق دين جديد!

وفى النهاية، أحب أن أختم مقدمتى بالكلمات الحكيمة التى تحضرنى من أقوال الكاتب السياسى والصحفى الساخر "كارل لودفيج بورن" Karl Ludwig Börne (١٧٨٦- ١٨٣٧م)، الذى قال:

(*) يُرجع كثير من المؤرخين انفصال "علم النفس"، واستقلاله عن الفلسفة، إلى عام ١٨٧٩م عندما قام الطبيب الألمانى "فيلهلم ماكسمليان فونت" Wilhelm Maximilian Wundt (١٨٣٢-١٩٢٠م) بإجراء أبحاثه النفسية الأولى الشهيرة وتجاربه النفسية العملية فى مدينة "ليبزج" Leipzig، التى كانت فاتحة لما عرف - فيما بعد - باسم: "علم النفس التجريبى" Experimental psychology. (المترجم)

إن التخلص من أحد أوهامك

أفضل كثيرًا من اكتشـاف حقيقة جديدة.

وقد حان الوقت – بالتأكيد – لأن نتخلص من كل الأوهام الفرويدية.

عادل نجيب بشرى

القاهرة

فى الثالث من شـهر يونية

عام 2010

تصدير بقلم زوجة المؤلف

منذ سنوات عديدة قمت أنا وزوجي - مؤلف هذا الكتاب - بزيارة اختصاصي نفسي أمريكي معروف في أحد مستشفيات الطب النفسي الموجودة بنيويورك، وقد أعرب هذا الاختصاصي عن يقينه من أنه سوف يفصل من وظيفته لو أنه أعرب عن حقيقة مشاعره في أن العلاج باستخدام "التحليل النفسي" Psychoanalysis هو طريقة غير فعالة. أما حقيقة الأمر فهي أنه كان متشككًا، ورحب بمقالة هانز الصادرة في عام ١٩٥٢م التي تشككت في قيمة التحليل النفسي ككل؛ وخاصة عند استخدامه بوصفه وسيلة فعالة للعلاج (عنوان المقالة هو "تأثيرات العلاج باستخدام التحليل النفسي: تقييم عام"، جريدة علم النفس الاستشاري، العدد رقم ١٦، صفحات من ٣١٩-٣٢٤).

خلال هذه الفترة، كان فرويد يعتبر "المخلص" الذي سيتمكن من إنقاذ الأرواح. ولهذا فإن المقالة السابقة جلبت على زوجي سيلاً من النقد والاعتراضات من قبل المحللين النفسيين الذين يمارسون المهنة، والذين راعهم جرأة التحدي الذي تقدم به زوجي.

ومرت السنوات، وأصبح هانز أكثر اقتناعًا بأن فرويد لا يستحق ذلك التملق الأعمى. وفي الواقع، فإن كثيرين من المرضى ورطوا أنفسهم في جلسات باهظة الثمن ومضيعة للوقت. ومع هذا، فإن العلاج الشافي ظل أبعد ما يكون عن متناول أيديهم. بعد قراءة طويلة ومتأنية لكتابات فرويد، كانت وجهة نظر هانز هي أنه من الممكن اعتبار فرويد "أديبًا عبقريا" تمكن من التعبير عن نظرياته ببلاغة عظيمة، إلا أنه لم يكن هناك أي محاولات علمية للتأكد من صحة تقنيات التحليل النفسي التي خرج بها علينا. وفيما يبدو، فإنه كان علينا تقبل فرويد ونظريته عن يقين، وإلا كان اتهام كل من يرفضها بأنه يعاني نوعًا ما من أنواع المقاومة اللاشعورية.

وهكذا، فإن الاعتراض الأساسى على جميع أنواع العلاج النفسى - خاصة العلاج باستخدام "التحليل النفسى" - هو افتقارها إلى نظرية علمية أو تجارب تؤكد صحتها. لقد كان المعالج يعتمد على تاريخ كل حالة، ولم يسع إطلاقًا للبحث عن أى إثباتات علمية، وكان هناك كثير من الادعاءات التى تؤكد حدوث شفاء ناجح! لكنه كان هناك أيضًا كثير من الحديث عن الفشل المروع الذى حدث لمرضى أصبحوا فى حالة أسوأ بعد تعرضهم للعلاج. ولعل هذا هو السبب فى أن هانز قد قرر - بعد مرور ٣٠ عامًا تقريبًا على مقاله السابق - أن الأمر يحتاج للكشف عنه فى كتاب كامل، وبدأ فى عام ١٩٨٥م، فى تأليف الكتاب الحالى: "تدهور الإمبراطورية الفرويدية وسقوطها".

من السهل على أى شخص أن ينتقد، لكن المصدر الحقيقى لقوة انتقادات هانز هو أنه لم يكتف بالتشكيك فى العلاج التقليدى باستخدام التحليل النفسى، لكنه اقترح علينا طريقة بديلة: "العلاج السلوكى" Behavior Therapy. وهذه الطريقة البديلة تعتمد على نظرية تعليمية علمية، أظهرت أنها أكثر فاعلية من كل الطرق السابقة فى العلاج.

لقد تطلب تأليف هذا الكتاب كثيرًا من الشجاعة، خاصة وأنه تم فى مواجهة "روح العصر" Zeitgeist، وما كان سائدًا خلال تلك الفترة الزمنية، من تأييد أعمى لنظرية فرويد. أما فى عصرنا الحالى، فقد تزايدت أعداد من يتشككون فى صحة تقنيات "التحليل النفسى"، خاصة بعد أن أصبح العلاج النفسى صناعة اقتصادية نامية، ولم يقرر أى شخص بعد التأكد من مدى كفاءة هذا العلاج.

من بين كل الكتب التى كتبها هانز - والتى بلغت ٧٨ كتابًا - فإن الكتاب الحالى هو أحبها إلى نفسى، وقد يكون أفضلها جميعًا.

سيبل أيزينك

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب، عن "سيجموند فرويد" و"التحليل النفسى"، وهناك كثير من الكتب التى تكلمت فى هذا الموضوع، مما يجعل القارئ على حق إذا ما تساءل عن السبب الذى يدعوه لإنفاق أمواله ووقته فى شراء كتاب جديد عن هذا الموضوع وقراءته؟ إن الإجابة عن التساؤل السابق بسيطة جدا؛ فإن معظم الكتب الأخرى ... تم كتابتها بواسطة المشتغلين بالتحليل النفسى وأتباعهم من المؤمنين بتعاليم فرويد. ولعل هذا هو السبب فى أنهم لم ينتقدوا أفكاره وتعاليمه؛ كما أنهم لم يكونوا على علم بوجود طرق و"نظريات بديلة" Alternative Theories. أيضًا؛ فإن كتاباتهم استخدمت كأسلحة فى حرب دعائية شعواء، أكثر منها عرضًا علميًا هادفًا لحقيقة الوضع الراهن الذى يواجهه التحليل النفسى. وبالطبع، فإن هناك عديداً من الاستثناءات للقاعدة السابقة. وأحد أهم هذه الاستثناءات تم ذكره فى نهاية كتابى هذا فى الجزء الخاص بالمراجع. وهى كلها كتب مهمة وجديدة من تأليف: "سلوواى" Sulloway، و"إلانبيرجر" Ellenberger، و"ثورنتون" Thornton، و"ريلر" Rillaer، و"روزن" Roazen، و"فرومكين" Fromkin، و"تيمبانارو" Timpanaro، و"جرينبايم" Gruenbaum، و"كلين" Kline، وغيرهم. وهم جميعًا يحملون قيمة خاصة بالنسبة لطالب العلم المحترف الذى يكون عليه دراسة هذه الموضوعات. أما بالنسبة للقارئ العادى الذى يحاول أن يكتشف لنفسه ما عرفه المحترفون عن تعاليم فرويد، فإننا لا ننصحه بهذا. ولقد ذكر كل هؤلاء من أجل خاطر القراء الذين يرغبون فى التحقق بأنفسهم من المراجع التى أشرت إليها فى متن كتابى هذا. وكل واحد منهم، تفحص حقيقة الأمور بدقة، وقام بتمحيص الأدلة والتفاصيل ليتأكد من صحتها، وما إذا كانت قد حدثت بالفعل أم لا.

وعلى هذا، يكون كتابى مبنيا على معارف ومعلومات الشخصيات المذكورة فى الفقرة السابقة، وغيرهم ممن قمت باستشارة كتبهم. وعلى القارئ تذكر أن ما يجعل كتابى هذا فريداً فى نوعه هو أننى قمت بتجميع المادة العلمية التى تغطى فروعًا كثيرة فى حقل "التحليل النفسى". فروعًا مثل: "تفسير الأحلام"، و"الأمراض النفسية فى الحياة اليومية"، و"تأثير العلاج بالتحليل النفسى"، و"التاريخ النفسى لفرويد"، و"علم أصول الإنسان"، و"الدراسات التجريبية التى تم القيام بها لاختبار مفاهيم فرويد"، وغيرها. وقد حاولت القيام بهذا، بدون اللجوء إلى استخدام المصطلحات الفنية المتخصصة، حتى أجعل كتابى مفهومًا بالنسبة للقارئ العادى الذى لم يتبحر فى دراسة فرويد، وليس له خلفية علمية بخصوص "علم أصول الإنسان" و"علم النفس".

لقد كان من السهل علىَّ تأليف كتاب خمسة أضعاف هذا الحجم، وملىء بالمصطلحات الفنية. ولكنى فضلت القيام بتأليف كتاب مختصر، يستخدم مصطلحات مألوفة، حتى يسهل على القارئ العادى فهمه. والجهود التى بذلتها حتى أنتهى من هذا الكتاب قد مكنتنى من أن أخلص عقلى من كثير من المفاهيم السابقة والجامدة. كما أنها جعلت المعلومات التى فهمتها أكثر وضوحاً؛ فمع كل مرجع لجأت إليه تم حل أحد الألغاز أو التناقضات التى كانت تمثل - من قبل - عقبات شديدة الصعوبة.

لقد ألقيت كثيراً من المحاضرات التى تناولت موضوعات متباينة من التى تم تناولها خلال هذا الكتاب، والمعنى المستخلص من هذه المحاضرات وجد طريقه داخل صفحات وتسرب إلى المعانى الموجودة فى فقراته. ولا يوجد لدىَّ أدنى شك .. فى أن بعض النقاد سيصفون كتابى هذا بأنه: "مثير للجدل". وللأسف فإنه لا يمكن لى أن أتفق معهم فى هذا الرأى؛ لأننى حاولت - قدر الإمكان - أن أتعامل مع الحقائق الموثوق بها فقط، وأن أضيف أقل ما يمكن إضافته من التعليقات والتفسيرات.

و"النتيجة" التى يمكن أن يخرج بها القارئ قد تكون "مثيرة للجدل؛ لأنها لا تتوافق مع النتائج التى توصل إليها أنصار مدرسة "التحليل النفسى"، إن هذا لا يجعلنا على صواب، ويجعلهم مخطئين، وإنما يظهر فقط أنه أصبح لدينا الآن قدر أكبر من

المعلومات المتوافرة سمحت لنا بأن نطور فهمنا لحقيقة التحليل النفسى. كما أنه يُظهر أن هناك حقائق جديدة تم اكتشافها مؤخراً، وأن هذه الحقائق قد كشفت لنا عن أشياء جديدة لم نكن نعرفها عن فرويد وعن "التحليل النفسى".

إن كثيراً من هذه الأدلة الجديدة المكتشفة تعارض بشدة الادعاءات التى قدمها فرويد وأتباعه. وكما هو واضح من "عنوان الكتاب"؛ فإن النتيجة النهائية المحتومة هى: تدهور النفوذ الذى تمتعت به "نظرية فرويد"، وتناقص حجم التقدير الذى كان يتمتع به "التحليل النفسى". ومما لا شك فيه أن الجميع قد أصبح على علم الآن بوجود تدهور واضح فى نفوذ تعاليم فرويد ... خاصة بين "الأطباء النفسيين" (الطبيب النفسى هو: طبيب متخرج فى كلية الطب ومؤهل من خلال دراسات طبية متخصصة تركزت على "الأمراض العقلية" Mental Disorders)، و"الاختصاصيين النفسيين" و"الفلاسفة"، والمتخصصين فى دراسة علم أصول الإنسان، والمؤرخين فى الولايات المتحدة الأمريكية، والمملكة المتحدة (إنجلترا). وللأسف، فإن التحرر من هذا السراب لم يمتد بعد إلى أمريكا الجنوبية وفرنسا وغيرها من الدول التى لا تزال متمسكة - بعناد - بالمفاهيم والنظريات العتيقة التى آمنت بها "مدرسة التحليل النفسى". وعلى الرغم من هذا، فإن الشكوك قد بدأت فى البزوغ هناك - أيضاً - وستقتفى أثرنا إن أجلاً أو عاجلاً.

وخلال تعاملى مع أعمال فرويد، فإننى انطلقت من وجهة نظر علمية بحتة، وقد يبدو لبعضنا أن هذا تزمت شديد لا داعى له، ومع ذلك فإنهم لا يزالون يرون أن مساهمات فرويد لم تكن إلا "محاولات تفسيرية" لا أكثر؛ فمن وجهة نظرهم كان فرويد يقدم لنا تفسيرات للمعنى الموجود فى "الأحداث العقلية" Mental Events، ولم تكن نظرياته دراسة علمية للسلوك البشرى!

ويؤكد بعضهم الآخر الأهمية الاجتماعية والأدبية الشديدة لكتابات فرويد، وينظر إليه على أنه "نبى" و"مجدد"؛ لأنه استطاع أن يغير عاداتنا الجنسية والاجتماعية، وأنه مثل "موسى" استطاع أن يصل بنا إلى: "عالم جديد".

إنهم يزعمون أن فرويد قد تمكن بالفعل من أن يؤدى كل هذه الأدوار السابق ذكرها ("نبى"، و"مجدد"، و"أديب")، لكننى غير مؤهل للحكم عليه فى هذه المجالات. فمن أجل الوصول إلى حكم سليم يحدد مدى أهمية "النبى" أو "المجدد" أو "الأديب" يكون من المفترض توافر معلومات خاصة بالتاريخ أو علم الاجتماع أو الأدب والنقد الأدبى. وهو ما لا يمكن لى أن أدعيه. ومن ثم؛ فإننى لن أهتم بهذه الجوانب من مساهمات فرويد. وإن كان لدىَّ ما أقوله بخصوص هذه الادعاءات؛ فعندما يزعم بعضهم بأنه من الواجب النظر إلى فرويد على أنه أكثر من مجرد "عَالِم بسيط" **Simple Scientist**، وأنه من الواجب النظر إليه على أنه الأصل الذى نبعت منه حركة جديدة فى التفسير! عندها، يكون من الواجب علىَّ توضيح أن فرويد نفسه ما كان ليقبل مثل هذا المنطق، والدليل على هذا ما قاله فرويد نفسه فى هذا الخصوص:

"من وجهة نظر العلم، فإنه من الضرورى علينا استخدام كل ما لدينا من قوى فى ذلك الاتجاه؛ وألاَّ نخاف من إعلان الرفض وتوجيه الاستنكار. فمن غير المسموح به إعلان أن "العلم" ليس إلا أحد حقول النشاط العقلى البشرى، وأن "الدين" و"الفلسفة" هى مجالات أخرى لها – على الأقل – القيمة نفسها؛ وأنه لا يجوز السماح لـ"العلم" بأن يتدخل فى الموضوعات الخاصة بالمجالين الآخرين، وأن كل مجال من هذه المجالات الثلاثة له القدرة نفسها على الوصول إلى **الحقيقة**، وأن كل واحد منا له حرية اختيار الطريقة المستخدمة فى الوصول إليها. ومن الممكن النظر إلى "الموقف السابق" على أنه: موقف محترم، ويتقبل الآخر، ويتسم باتساع الأفق، والتحرر من التعصب والانحياز، ولكن لسوء الحظ فإنه لا يمكن لنا تبنيه؛ فهو يحمل بين طياته كل الصفات الخبيثة والضارة لـ"وجهة نظر شاملة للعالم" **Weltanschauung**(*)؛ وهى قد تمت من خلال منظور "غير علمى" تماماً، أما ما يحدث فى الواقع؛ فهو أن "الحقيقة" **Truth** لا تتفاوض

(*) Welt-anschauung مصطلح ألمانى مركب من: "العالَم" Welt و"وجهة نظر" Anschauung، وبحيث تكون "وجهة النظر الشاملة للعالَم" من خلال "منظور معين". وطبقًا لفرويد، فإنها كانت – فى هذه الحالة – "من خلال منظور غير علمى تماماً". (المترجم)

محاولة تقبل الآخر، ولا يمكن لها أن تسمح بالحلول الوسط، أو أن تعترف بوجود حدود لا يمكن تجاوزها. و"البحث العلمى" ينظر إلى كل مجالات النشاطات الإنسانية على أنها مجال تخصصه، وأنه من الواجب عليه الدفاع عنها وتبنى موقف الناقد المتشدد ضد أى قوة تحاول اغتصاب هذه المجالات منه وإبعادها عن دائرة اختصاصه".

ومن الواضح أنه لا يسعنى إلا أن أتفق مع أفكار فرويد السابقة، وأن أؤيدها بكل قوة؛ لأنها تظهر - بوضوح - أنه كان يهدف لأن يكون "عَالِمًا" Scientist بكل ما فى هذه الكلمة من معان تقليدية. أما تلك الفئة من أتباعه التى تحاول أن تحط من أهمية "العلم"، وتزعم أنه يحتل مكانة وسط بين "الفلسفة" و"الدين"، فإنها لم تخدم فرويد إطلاقًا؛ بل إنها - فى الواقع - أساءت إليه. وفى هذا الصدد؛ فإن فرويد - مثله مثل "ماركس" Marx - كان كثيراً ما يشكو من أن أتباعه لا يفهمونه حق الفهم. وكان مثل ماركس الذى قال: "أنا لست ماركسيًا". فإن فرويد أيضًا، قال عبارة مشابهة ذكر فيها: "أنا لست فرويديًا". وأنا على ثقة من أن فرويد كان سينظر إلى محاولات هذه الفئة من أتباعه على أنها "خيانة" له؛ فهو ما كان ليقبل أى صفة بديلة عن صفة "عَالِم"، كما أن محاولات تصنيف أعماله على أنها "تفسير" لا أكثر تعتبر طريقًا مسدودًا، ما كان من الممكن لفرويد أن يرضى به. وخلال كتابى هذا، قمت بتقييم أعمال فرويد من خلال المعيار الذى ارتضاه لنفسه فى الفقرة السابقة (معيار العَالِم)، كما أننى تعاملت مع كل أعماله على أنها مساهمات علمية.

فى هذا الصدد؛ فإننى أرغب فى توضيح نقطة واحدة. فعندما قمت بتقييم "فرويد" على أنه "عَالِم"، و"التحليل النفسى" على أنه مساهمة فى "المجال العلمى"، فإننى لم أكن أحاول بهذا الحط من قيمة "الفن" أو "الدين" أو غيرها من التجارب الإنسانية. فلقد كنت أنظر دائمًا إلى "الفن" على أنه مجال ذو أهمية قصوى، ولا يمكن لى تصور الحياة بدون الفروع الفنية التى خرجت علينا من هذا المجال. فروع رائعة مثل: الشعر، والموسيقى، والدراما، والرسم، وغيرها. كما أننى أعترف أن "الدين" يعتبر بالنسبة لكثيرين أسمى وأعظم شىء فى الوجود؛ وأنه أقرب إلى حياتهم من "العلم" أو "الفن".

ولكن كل هذا لا يعنى أن "العلم" لا يختلف عن "الفن" أو "الدين"؛ فإن كل واحد منها له وظيفته فى الحياة، ولا يمكن لنا أن نستفيد أى شىء - أو نصل إلى أى نتائج إيجابية - عندما نتظاهر بأنه لا توجد أى اختلافات أو فروق بينها.

وعلينا تذكر أن "الحقيقة" التى يكتبها الشاعر تختلف عن "الحقيقة" التى يهدف إليها العَالِم؛ وأن ارتباط التعريف الشاعرى للحقيقة بمفهوم الجمال هو أمر يباعد بينهما كثيراً. وربما يكون هناك ارتباط من نوع ما بين "الحقيقة الشعرية" و"علم التفسير" (الطريقة التفسيرية التى زعم بعض أتباع فرويد أنها تشكل الجوهر الحقيقى لكل مساهماته)، لكن "الحقيقة" Truth بالنسبة لـ"العَالِم" Scientist هى - فقط - التى يمكن وضعها تحت الاختبار حتى نثق - من خلال البراهين - فى صحتها، وأنها ذات طابع عالمى ينطبق على الجميع فى كل زمان ومكان. وهذا يختلف بشدة عن "الحقيقة" Truth فى مجال الشعر أو الموسيقى أو الرسم أو المأساة. وحيث إن فرويد كان يبحث عن الحقيقة بصفته عَالِماً، فإن هذا، هو المعيار الذى يجب علينا استخدامه فى تقييم فرويد وكل أعماله.

دعونا الآن نحاول توضيح الفارق بين "الحقيقة الشعرية" و"الحقيقة العلمية"؛ فعندما كتب "كيتز" Keats(*) عن طائر العندليب، وفى قصيدة "بو" Poe عن الغراب الأسود، وغيرها من القصائد، لم يكن اهتمام هؤلاء الشعراء موجهاً نحو الأهداف التى تشغل فكر علماء الطيور. فى كل حالة من الحالات السابقة، كان اهتمام الشاعر مركزاً على تسجيل المشاعر الموجودة فى الموقف الذى يحاول وصفه. ولا يوجد لدىَّ أدنى شك فى أن أولئك الشعراء قد قاموا بتسجيل "الحقيقة" الموجودة فى هذه المواقف بكل صدق وشفافية، ولكنه علينا أن نتذكر هنا أنها: "حقيقة من وجهة نظر الشاعر"، وليست "حقيقة عالمية" تنطبق على كل زمان ومكان، وعلى هذا فهى حقيقة شعرية وليست حقيقة علمية؛ لأنها "حقيقة فردية" من وجهة نظر شخص واحد فقط.

(*) هو الشاعر الإنجليزى الشهير "جان كيتز" John Keats (١٧٩٥-١٨٢١م)، أما بالنسبة لـ"إدجار ألان بو" فإن له تعريفاً خاصا به فى الفصل الثانى من هذا الكتاب. (المترجم)

إن توضيح الفروق السابقة يرتبط بالاعتقاد الخاطئ السائد بين فئة معينة من الأفراد يعتقد الواحد منهم بأن الكُتاب والأدباء يتفهمون حقيقة "الطبيعة البشرية" بطريقة أفضل من علماء النفس، وأن أدباء مثل "شكسبير" و"جوته" و"بروست" Proust كانوا أفضل من "فونت" Wundt و"واطسون" Watson و"سكينر" Skinner. فى هذا الصدد فإننا نجد أنفسنا – مرة أخرى – فى حاجة لأن نفرق بين ما هو "حقيقة فردية"، وما هو "حقيقة عالمية"؛ فعندما تخبرنا "إليزابيث بارت براونينج" "إن الحزن اليائس يكون خاليًا من العواطف". فهل يتوافق هذا مع تجارب "عَالِم النفس" المتعلقة بالمريض المصاب بالاكتئاب؟

وعندما يخبرنا "شكسبير": "إن تعاطى الكحوليات بكثرة يثير الشهوات، ولكنه يحرم الفرد من القدرة على الأداء الجنسى الجيد". فهل هذه هى الحقيقة المطلقة؟

عند هذا الحد نجد أن "عَالِم النفس" يتقدم بكثير من الأسئلة، أسئلة مثل:

ما "كمية الخمور" التى استهلكها هذا الفرد؟ وما نوعها؟

وما "نسبة الكحول" الموجودة فى هذه النوعية من الخمور؟

وهل كان أداؤه السيئ نتيجة لشربه عدة أنواع مختلفة من الخمور؟

أو قد يفكر "عَالِم النفس" فى إجراء تجربة يتعاطى خلالها الفرد مشروبًا لا يحتوى على أى كحوليات ولكن له نفس اللون والطعم والقوام، ثم يقوم بدراسة تأثير هذا "المشروب الزائف" على الفرد الذى لا يعلم أنه قد استهلك مشروبًا خاليًا من الكحوليات، ويدرس النتائج التى يمكن الخروج بها من مثل هذه التجربة. فى مثل هذه الحالة الأخيرة يكون من الممكن استنتاج أن تأثير شرب الكحول يعتمد كثيرًا على "طبيعة البيئة" الموجود فيها الفرد والظروف الاجتماعية المحيطة به. فهل تمت عملية الشرب فى حفل اجتماعى ضم كثيرين؟ أو على انفراد؟

كما أن "طبيعة الفرد" ذاتها يمكن أن يكون لها تأثير قوى؛ فإن استجابة "الشخص المنطوى" تختلف كثيرًا عن استجابة "الشخص الاجتماعى" عند شربهما للكمية نفسها من الكحول، وهكذا.

ومما سبق، يمكننا استنتاج أن كلمات "شكسبير" تحتوى على كثير من "الحقيقة"، ولكنها حقيقة جزئية مبتسرة، ولا تغطى جميع نقاط الموضوع محل البحث.

ومن أى منطلق يمكن لنا القول بأن "عطيل" هو النموذج العالمى الأمثل للشخص الغيور؟ وأن شخصية "فالستاف" Falstaff(*) هى أحسن تمثيل للمحتال النصاب الذى يسعى لخداع الجميع؟ وأن "روميو" هو النموذج الأفضل لشخصية العاشق الولهان؟

إن كل واحد منهم يمتلك فى داخله "حقيقة فردية"، ولكنه علينا تذكر أنها "حقيقة" لا يمكن تعميمها. بعد قراءتك لهذا الكتاب، أسأل نفسك عن: الشخص الذى ستتوجه إليه طلبًا للنصيحة، إذا كان طفلك مصابًا بعادة "خبط الرأس" Head-Banging، أو إذا كان لديك طفل يعانى من التبول اللاإرادى، أو مريض مصاب بهوس غسل اليدين القهرى؟ هل ستذهب إلى "شكسبير" و"جوته" و"بروست"؟ أم لعَالِم النفس السلوكى الذى يمكنه ضمان الشفاء من هذه الاضطرابات النفسية خلال شهور قليلة؟ أعتقد أن الإجابة معروفة للجميع.

إن هذه النوعية من "المشاكل العملية" لا تدخل فى نطاق قدرات الشاعر، مثلها فى هذا مثل الوصف الشاعرى لطائر من الطيور، أو لموقف غرامى، فهو خارج نطاق قدرات عالم النفس، أما المؤمنون بأن فرويد كان مفسرًا عظيمًا فإنهم يحاولون - دون طائل - التوفيق بين الجانبين، وكلنا يعلم أن هذا مستحيل، وأن الفجوة بينهما ستظل دائمًا شديدة الاتساع.

ليس أمام "العَالِم" Scientist - خلال سعيه نحو "الحقيقة" - إلا أن يسلك أحد طريقين: **الطريق الأول** هو تبنى أسلوب النقد الواعى والبَنَّاء؛ فلا يوجد أى شىء أكثر أهمية - بالنسبة للعَالِم الحقيقى - من الاستماع إلى نظرياته وهى تناقش وتنتقد من

(*) شخصية "فالستاف" شخصية خيالية ظهرت فى ثلاث من مسرحيات شكسبير، وتسبب بطرقه الملتوية المخادعة فى وقوع الأمير "هال" Hal الذى أصبح - فيما بعد - "الملك هنرى الخامس" فى كثير من المشاكل. هذا وقد تبرأ الملك منه ومن أفعاله بعد وصوله إلى سدة الحكم. (المترجم)

قبل زملائه، فإذا كان هذا النقد على غير أساس علمى، ستكتب لنظرياته البقاء. أما إذا كان نقدًا بناءً، يكون عليه تعديل نظرياته أو تغيرها أو هجرها تمامًا. بالنسبة لأى نظرية علمية حقيقية يكون "النقد" هو شريان الحياة الذى يمدها بمقومات بقائها.

وللأسف، فإن أتباع مدرسة "التحليل النفسى" - وعلى رأسهم فرويد نفسه - كانوا يكرهون أى صورة من صور النقد بشدة. هذا، وقد كانت الأرجاع المعتادة من قبلهم: هو "اتهام الناقد" بأنه يعانى من "مقاومة نفسية - ديناميكية" psycho-dynamic Resistance ناجمة عن الآثار التى خلفتها "عقدة أوديب" التى حدثت له خلال الطفولة! وغيرها من الأسباب المشابهة.

أما الوضع السليم، فهو محاولة الحكم على النقاط التى قدمها من حيث مدى منطقيتها وارتباطها بالأفكار التى يتم نقدها، وبصرف النظر عن الدوافع التى جعلت الناقد يقوم بعمله هذا. أما استخدام أتباع نظرية "التحليل النفسى" لـ"حجة ضد الشخص" Argumentum ad Hominem(*) كرد على أى ناقد يعترض على منطقية النظرية وجدواها، فإنه يعتبر محاولة يائسة من أشخاص لا يستطيعون الرد بموضوعية على الانتقادات الموجهة ضدهم؛ وفى مجال العلم لا يمكن النظر إلى هذه الإجابة على أنها رد جاد أو مسئول.

ومن الناحية الجدلية، فإن بعضهم قد استخدم السلاح نفسه فى نقد فرويد ذاته، ومن ثم انتهوا إلى أن "التحليل النفسى" ليس إلا نظرية يهودية، وأن فرويد قد لجأ أثناء

(*) "الحجة ضد الشخص": هو مصطلح لاتينى يعنى أن تكون حججنا موجهة ضد شخصية الفرد ذاته والأشياء التى نعرفها عن أصله، وطبيعته، ومعتقداته. ويسير معنى المصطلح على النحو التالى: يقوم الفرد بطرح "نظرية" ما؛ لكن هناك "بعض الأشياء" التى تجعلنا نرفض هذا الفرد ونحكم عليه بالفساد، لهذا يكون من الواجب علينا رفض النظرية التى تقدم بها لأنها: "نظرية فاسدة مثله"! والمعنى المقصود من كل ما سبق: هو أنهم رفضوا نظرية فرويد لأنه "يهودى".

Person A makes claim X

There is something objectionable about Person A

Therefore the claim X is false. (المترجم)

تشكيله لهذه النظرية لاستلهام التاريخ والتعاليم اليهودية التى حصل عليها خلال نشأته والمراحل الأولية من دراسته. فى هذا الصدد، لا يمكن لى الحكم بموضوعية على ما إذا كان هذا صحيحًا أم لا، ولكن الموضوع برمته غير مرتبط بالمسألة محل البحث فى هذا الكتاب؛ فإنه من الواجب اختبار نظريات فرويد عن طريق المشاهدة ومن خلال إجراء التجارب عليها، من أجل أن نحدد - بموضوعية - ما إذا كانت سليمة أم لا. ولا يجوز أن تكون المسألة الخاصة بـ"خلفيته اليهودية" مؤثرة على طبيعة أو نوعية هذه الاختبارات.

قد تكون "خلفيته اليهودية" مثار اهتمام من الناحية التاريخية أو عند كتابة تاريخ حياة فرويد ذاته. أما خلال بحثنا عن "الحقيقة" - وما إذا كانت نظريته صحيحة أم لا - فإن "خلفيته" تكون قليلة الأهمية. وقد يختلف الموقف قليلاً، إذا كنا سنأخذ فى الاعتبار "الأمراض العُصابية" التى كان يعانى منها فرويد. عندها فقط، تكون "خلفيته الدينية"، وعلاقته بأبيه وأمه، مرتبطة بموضوع بحثنا. وعلى سبيل المثال: إذا كان من الصحيح أنه قد شكل نظريته الخاصة بالصراع الأوديبى (عقدة أوديب) على أساس خبراته الخاصة خلال مرحلة طفولته المبكرة ... فإن "خلفيته" تكون مهمة ومرتبطة بالموضوع محل البحث وتؤثر على قدرتنا لتقييم نظريته بموضوعية.

وكما سيرى القارئ فيما بعد، فإن المساهمات التى قدمها فرويد مرتبطة - بطريقة فريدة - بشخصيته، وهذا الارتباط يتطلب منا دراسة متأنية. وعلى الرغم من أن صحة نظرياته من عدمها تعد مسألة مستقلة تمامًا عن الأصل الذى انبثقت منه.

إن الكلام السابق نفسه ينطبق على ما نشر حديثًا(*)، وفى هذه المنشورات اقترح المؤلف أن فرويد قد قام - عن عمد - بتعديل نظرياته؛ ليس لأنها خاطئة، وإنما تخوفًا من أن تلقى ردود فعل عدوانية. هذا هو موضوع الكتاب المعنون، "فرويد: الاعتداء على الحقيقة" Freud: The Assault on Truth، الذى كتبه "ماسون" Masson(*) فى هذا

(*) نُشر هذا الكتاب لأول مرة فى عام ١٩٨٥م. (المترجم)

الكتاب تمكن "ماسون" من استخدام سجلات فرويد الخاصة، التى تضمنت مراسلاته مع "فلييس" Fliess. وعلى أساس هذه المراسلات، يدعى "ماسون" أن فرويد قد كتم - عن عمد - ما يعرفه عن الأدلة التى تثبت حدوث "إيذاء جنسى للطفل" Chid-molestation؛ وأن فرويد قد تعمد تزييف الأدلة العيادية وشهادات الشهود من مرضاه، واخترع بدلاً منها الفكرة القائلة بصدمة "الخيالات الجنسية الجامحة" Sexual Fantasies والدوافع ذات الطابع الأوديبى. وطبقًا لما ذكره "ماسون" فى كتابه، فإن فرويد يكون قد بدأ بهذا "النزعة" التى أدت بالتحليل النفسى إلى توجه بعيد عن العالم الحقيقى الذى نعيش فيه، وأن هذه النزعة هى الأصل الذى صدرت منه كل النتائج العقيمة التى عانى منها كل من عمل بالعلاج النفسى (المحللين النفسيين والأطباء النفسيين) فى جميع أرجاء العالم خلال تلك الفترة.

من الممكن أن يكون "ماسون" على صواب، وإن كانت الأدلة على صحة رأيه ليست قوية بالقدر الكافى. وعلى أى حال، فإن الدوافع الحقيقية الكامنة وراء أفعال فرويد، ليست مرتبطة بالاختبارات الواجب تطبيقها للتأكد من صحة نظرياته. وبالنسبة لنظرية "الغواية الأصلية" Original Seduction(*) فإنها ليست أكثر صحة من نظريته التالية والخاصة بصدمة "الخيالات الجنسية الجامحة"؛ فإنه من الواجب إخضاع كل من النظريتين للاختبارات التى تحدد مدى صحتها فى ظل ما هو معروف من حقائق. وأنا أتكلم هنا عن إجراء دراسات تجريبية واختبارات علمية، وليس دراسة الدوافع الافتراضية التى كانت موجودة لدى فرويد.

إن السلاح الثانى العظيم فى ترسانة العلماء هو قدرة الواحد منهم على أن يضع "فروضًا بديلة" Alternative Hypothese يمكن مقارنتها بالنظرية موضع الاختبار.

(*) نظرية "الغواية الأصلية": هى اعتقاد فرويد بأن الأطفال الصغار الذين يصابون بالعُصاب لا بد أنهم قد تم إغواؤهم جنسيًا بطريقة ما، إما بواسطة مشاهدتهم - عن طريق الصدفة - للعملية الجنسية؛ أو بواسطة إغواء جنسى مباشر من قبل أحد البالغين. (المترجم)

ويحدث هذا، لأنه من النادر جدا - فى مجال العلم - أن نجد أنفسنا أمام موقف يتوافر فيه تفسيرات واضحة ومقبولة لأى ظاهرة من الظواهر. أما الوضع المعتاد، فهو أن نجد أنفسنا أمام عدد من "التفسيرات" المحتملة التى يكون على الباحث أن يصمم اختبارات تجريبية تحدد من منها على صواب. قد تكون التجارب الحاسمة نادرة الوجود فى تاريخ العلم، لكن المحاولات الدائبة لتحديد ذلك "التفسير" الذى يتسم بالصحة أكثر من غيره، تمثل العنصر الأساسى والضرورى اللازم لتحقيق أى تقدم علمى. ومرة أخرى، نجد أن التحليل النفسى - وفرويد ذاته - قد تبنى موقفًا سلبيًا وعدوانيًا من أى تفسيرات أخرى أو نظريات بديلة تشرح ما يحاول هو شرحه. وعلى سبيل المثال: فإنهم لم يرحبوا بالنظريات البديلة التى قدمها "باڤلوف" Pavlov والخاصة بـ"الاستجابة الشرطية المتعلمة" Conditioned Reflex. إن ما فعلوه هو أنهم رفضوا ببساطة وجود أى فروض بديلة، ولم ينظروا بجدية إلى دراسة أى منها قبل رفضها، ولم يأخذوا فى الاعتبار احتمال أن التفسيرات الأخرى المطروحة قد تكون أفضل فى تفسير الأعراض التى يعانى منها المريض.

من خلال النطاق المحدود لهذا الكتاب، حاولت أن أشير إلى وجود نظريات بديلة لنظرية فرويد، وأظهرت الأدلة التى توضح صواب كل منها من عدمه. والسلوك العدائى المستمر من قبل أتباع نظريات فرويد تجاه أى نقد يوجه لهم، مهما كان بناء، وتجاه أى نظريات بديلة، مهما كان حجم وعدد الأدلة التى تؤيدها، يدل على مدى ضعف الروح العلمية لدى كل من فرويد وأتباعه. وهذه النقطة الأخيرة، تنتقص كثيرًا من مظهر التحليل النفسى؛ ومن قدرتنا على تقبله على أنه علم من العلوم الحقيقية.

هناك نقطة مهمة تثار ضد "مكانة" التحليل النفسى على أنه "علم حقيقى"، أثارها كثير من "فلاسفة العلم" Philosophers of Science من أمثال "كارل بوبر" Karl Popper، وإن كنت أعتقد أنه مخطئ؛ ولا يجوز النظر إلى آرائه بجدية، لقد اقترح علينا "بوبر" أن المعيار الذى يمكننا من التمييز بين "العلم الحقيقى" و"العلم الزائف" هو أن العلم الحقيقى يقدم فروضًا يكون من الممكن إثبات صحتها أو خطئها من خلال التجارب

أو الملاحظات. وقدم "بوبر" ثلاثة أمثلة على "العلوم الزائفة" وهى: "التحليل النفسى"، و"الماركسية" Marxism، و"التنجيم" Astrology. ثم يخبرنا أن كل واحد منهم لم يقدم أى فروض يمكن تعريضها للتجارب والملاحظات. لكن هذا غير صحيح، فبالرغم من وجود صعوبات كبيرة فى وضع تجارب يمكنها أن تختبر صحة الفرضيات التى قدمتها النظريات الثلاث السابقة، فإنها ليست أكثر صعوبة من وضع تجربة يمكن لنا بها اختبار "نظرية النسبية" Theory of Relativity لأينشتين.

أيضًا، فإن كل من هو على علم بالتعاليم الخاصة بالنظريات الثلاث لـ"التحليل النفسى"، و"الماركسية"، و"التنجيم" يعلم بوجود فروض وتنبؤات يمكن إخضاعها للتجارب. وسوف أظهر خلال الفصول القادمة أنه فيما يتعلق بـ"التحليل النفسى" – على الأقل – يكون من الواجب علينا رفض اعتراض "بوبر". وبالمثل؛ فإننى سأعرض وجهة نظرى القائلة بأنه عند وضع فروض نظريات فرويد تحت الاختبار، فإن النتائج تكون فى غير صالحها (أى أن تفشل فى اجتياز الاختبار). كل هذا يجعل من الواضح أن الاعتراض الذى قدمه "بوبر" هو اعتراض مرفوض؛ لأن المعيار الذى يريد تطبيقه معيار خاطئ. وفى الواقع، فإننا إذا استخدمنا هذا المعيار، لكان من الواجب علينا اعتبار نظرية التحليل النفسى "علمًا حقيقيًا"!

أما "فلاسفة العلم" المحدثون من أمثال: "أدولف جرينباوم" Adolf Gruenbaum؛ فإن الواحد منهم أشار إلى أن المعيار الذى تبناه "بوبر"، ليس إلا معيارًا لا علاقة له بالموضوع، وأنه يكون من الأفضل تبنى أسباب ملموسة مثل: "النقائص المنطقية" Logical Inadequacies التى تميزت بها نظرية فرويد، وفشلها فى توليد حقائق تؤيد ما ادعته من فروض إذا كنا نريد – حقيقة – إثبات أن التحليل النفسى ليس إلا "علمًا زائفًا".

وبالطبع فإن الانتقادات الموجهة لفرويد يمكن أن تمتد لتشمل تلاميذه وكل من اتبع طريقته فى التفكير، خاصة "كارل جوستاف يونج" C. G. Jung وأدلر اللذين انفصلا عنه، والذين قد تجاهلا الأسس الجادة والحتمية للعلم وتحولا نحو نوع من

الغيبيات[*] و"التصوف اللاعقلاني" Mysticism. لكن خلال كتابي هذا فإنني سأكتفي بالتركيز على فرويد وما قدمه لنا من تعاليم.

في هذا الخصوص، يكون من الواجب عليَّ توضيح نقطة شديدة الأهمية. فكثيراً ما يقال: إن "نظريات فرويد" لا تتطلب إثباتاً علمياً من النوع العادي الذي نستخدمه مع باقي النظريات؛ لأنها تجد ما يؤيدها من خلال "النتيجة النهائية" الإيجابية التي نحصل عليها بعد شفاء المريض. ولكن "جرينباوم" قد أظهر بوضوح أن هذا غير صحيح ولا يمكن لنا تقبله كبرهان على صحة أي نظرية. وحتى بالنسبة لتلك الفئة من الأفراد الذين يتقبلون المعيار السابق؛ فإنه يظل أمامنا مشكلة لا تُحل تتعلق باختيار الطريقة الواجب اتباعها مع كل مريض. فكيف يمكن لنا أن نختار - بدون تجارب مُتَحَكَّم فيها - بين كثير من "النظريات الديناميكية" الموجودة لدينا؟ فهل نلجأ إلى نوع من أنواع "المزاد الهولندي" Dutch Auction[**]، أو نقدم النظريات في "مطعم مفتوح" يتخير فيه المستهلك ما يريده؟ لأننا عندما نلجأ إلى تلك الأساليب، نكون قد هجرنا كل الأساليب العلمية المتعارف عليها وتجاهلنا كل قواعد المنطق وأصوله. أيضاً، فإن وجود كل هذه "النظريات الديناميكية" يجعل من الضروري العثور على طرق منطقية تمكننا من اختبار صحتها وصلاحيتها وما إذا كانت تتفق مع الأصول العلمية المتعارف عليها أم لا.

(*) أنا لست من أنصار "كارل جوستاف يونج"، ولكن الحكم السابق ظالم بطريقة مبالغ فيها، فإن "يونج" لم يتجنب الطرق العلمية بالطريقة التي وصفه المؤلف بها. وفي الواقع، فإن أحدث ما توصل إليه علم النفس في القرن الحادي والعشرين (ذلك الفرع الجديد الذي يسمى: "علم نفس النشوء والارتقاء" Evolutionary Psychology)... قد تبنى وجهة نظر "يونج" الخاصة بوجود "لاوعي جماعي Collective Unconscious" موروث؛ وأنه هو الذي يجعلنا نتبنى سلوكيات معينة عند "حدوث الموقف" الذي واجهه الأجداد من قبل. لأن هناك جزءاً من المخ البشري "مصمم فيزيائياً" Hardwired لتبني هذه النوعية المعينة من السلوكيات عندما يتطلب الموقف هذا. (المترجم)

(**) "المزاد الهولندي": هو مزاد يتم بطريقة عكسية؛ حيث يتم عرض الأسعار الأعلى أولاً، ثم يتناقص السعر حتى يقبل به أحد المشاركين في المزاد. (المترجم)

لكننا لم نتفق بعد على ماهية المكونات الأساسية التى تمثل "مساهمات فرويد". إذا عرضنا للأمر باختصار، فمن المتفق عليه أن "التحليل النفسى" له ثلاثة جوانب أساسية.

فى المقام الأول: يعتبر "التحليل النفسى" نظرية عامة فى علم النفس، وهو يحاول الإجابة عن الأسئلة الخاصة بـ"الدوافع" التى تحرك الشخصية، والمتعلقة بـ"النمو والتطور خلال الطفولة"، وأشياء أخرى كثيرة مثل "الذاكرة"، وغيرها من الجوانب الهامة فى "السلوك البشرى". ولعل هذا هو السبب فى أن بعضنا قد حاول الإشارة إلى أن التحليل النفسى يحاول تركيز كل جهوده على أشياء هامة ومثيرة بالنسبة للفرد العادى. وواقع الأمر هو أن لهم بعض الحق فى هذا؛ فبينما يتعامل "علم النفس الأكاديمى" Academic Psycholog - بطريقة علمية بحتة - مع أمور يعتبرها الفرد العادى أموراً متخصصة لا يستطيع فهمها إلا الخبراء، يركز "التحليل النفسى" جهوده على الأشياء السابق ذكرها فقط. لكن العبارة الأخيرة ليست صحيحة تمامًا؛ فإن "علم النفس الأكاديمى" يتعامل - هو الآخر - مع هذه الأشياء، وإن كان تعامله معها يتم بطريقة أقل إثارة لاهتمام الفرد العادى من الطريقة التى استخدمها فرويد.

فى المقام الثانى: يعتبر "التحليل النفسى" طريقة لعلاج المريض والتعامل مع الأعراض التى يشكو منها. وقد بدأت هذه العملية عندما تعاون فرويد مع صديقه "جوزيف بروير" Josef Breuer فى علاج المريضة ("أنًا أو.Anna O"). افترض الجميع أنها تعانى من الهيستيريا. وكما سنرى فيما بعد، فإن هذه المريضة لم تكن تعانى من أى مرض نفسى، وإنما كانت تعانى - فى الحقيقة - من مرض بدنى فيزيائى (كانت تعانى من مرض السل). والادعاءات التى حاولوا إقناعنا بها من أن المريضة قد شفيت، كانت ادعاءات كاذبة تمامًا. وبالرغم مما سبق، فإن الشهرة التى حققها "التحليل النفسى"... هى شهرته كـ"نظام للعلاج النفسى". وحيث إن هذا النظام يعتمد كثيراً على الفروض العامة المتعلقة بالنظرية التى وضعها فرويد فإن نجاح - أو فشل - هذه الطريقة فى العلاج هو أمر شديد الأهمية من الناحية "النظرية" و"العملية" أيضًا.

فى المقام الثالث: من الممكن النظر إلى "التحليل النفسى" على أنه "طريقة فى التمحيص أو البحث". وفى البداية، كان فرويد شديد الحماسة نحو احتمالات استخدام

الطرق التى ابتكرها فى العلاج، لكن الشكوك بدأت تراوده حتى ملأته بالتدريج؛ لدرجة أنه اعتبر أن العالَم سوف يتذكره على أنه الرجل الذى وضع أسس "طريقة" فى البحث وفحص "العمليات العقلية" Mental Processes، وليس كمعالج نفسى فذ. أما الطريقة التى نتكلم عنها فهى: "التداعى الحر" Free Association. فى هذه الطريقة، يقوم المعالج بطرح كلمة أو مفهوم أو مشهد من أحد الأحلام، أو أحد زلات اللسان أو القلم أو من أى مصدر آخر على مريضه. ويبدأ المريض فى الحديث بتوسع عما تم طرحه من أشياء أن هذه الطريقة فى "التداعى الحر" - طبقًا لفرويد - دائمًا ما تقود إلى الكشف عن اهتمامات المريض وميوله التى غالبًا ما تتكرر فى اللاوعى بحيث تشكل المادة التى تمكننا من فهم الدوافع الحقيقية للمريض، كما أنها أساسية فى اختيار الطريقة التى سيتم بها علاجه. أما الواقع - كما سنرى فيما بعد - فإن طريقة "التداعى الحر" كانت من ابتكار سير "فرانسيز جالتون" Francis Galton، وهو قد استخدمها قبل فرويد بسنوات طويلة. وهناك - بالتأكيد - كثير من القضايا الإيجابية التى يمكن قولها فى صالح هذه الطريقة، ولكنها - من وجهة النظر العلمية البحتة - تعتبر ضعيفة بصورة مؤسفة. وسوف أناقش هذه النقطة بتفصيل أكبر خلال فصول هذا الكتاب.

وغالبًا ما كان يتم المقارنة بين علم النفس كما قدمه فرويد من ناحية، و"النظام الهيدروليكى" Hydraulic System من ناحية أخرى، من حيث إن الأخير يقوم بتحويل مسار الطاقة من مكان لآخر؛ فلقد ادعى فرويد أنه يتم تحويل مسار الطاقة من أحد أجزاء "النفس" Psyche إلى جزء أو أجزاء أخرى، مثلما تحول العمليات الهيدروليكية طاقة المياه.

وقد أكثر فرويد من استخدام هذا "التشبيه الفيكتورى" Victorian Analogue(*) بالرغم من أنه لا يتناسب مع ما نعرفه عن طريقة عمل العقل البشرى. لقد كان فرويد

(*) التشبيه الفيكتورى: هو الادعاء بأن وجود نوع من التشابه بين صفتين من صفات شيئين مختلفين يجعل من المحتمل أن يمتد هذا التشابه؛ ليشمل المزيد من الصفات الأخرى.(المترجم)

يؤمن بأنه عند تعرض العقل البشرى لـ"فكرة" تثير الجهاز العصبى إلى حد لا يمكن احتماله، فإنه يتم تحويل هذه الطاقة وتوزيعها بطريقة تمنع "العناصر المهددة" من الوجود فى الجزء الواعى من العقل. وهكذا، طبقًا لآراء فرويد تبقى هذه "العناصر المهددة" مكبوتة فى اللاشعور. هذه الطاقة من الممكن أن تكون "جنسية" أو متعلقة بـ"غريزة البقاء" (فى النموذج الأول من آراء فرويد)، أو قد تتخذ صورة حب وحنان من ناحية أو عدوان وتدمير من ناحية أخرى (فى النماذج التالية من آرائه). إن "اللاشعور" - طبقًا لهذا - يصبح طبقات من الاستنتاجات التى لا يوجد ما يؤيدها من الواقع والتجارب. أما الواقع؛ فهو أن إجراءات وتفاعلات اللاشعور كانت معلومة وتَعرف عليها الفلاسفة وعلماء النفس لفترة امتدت لأكثر من ٢٠٠٠ عام قبل فرويد، وسيتم ذكر كثيرين منهم خلال فصول الكتاب. إن الصورة الغريبة لـ"اللاوعى" والقوى والميول التى تنسب إليه طبقًا لآراء فرويد وتصوراته، لم تجد ما يؤيدها من النتائج التى حصل عليها الباحثون الذين أتوا من بعده، كما أن نظريته فى هذا الخصوص تغيرت كثيراً خلال سنوات حياته بطريقة تجعل من الصعب على أى شخص تحديد تعريف دقيق لطبيعة "اللاشعور" عند فرويد.

ويحاول "النظام النفسى" Psychic System ككل المحافظة على توازنه فى مواجهة هذه الطاقة التى يتم توزيعها، عن طريق حماية نفسه من التهديدات التى يتعرض لها من الداخل والخارج. وهو يفعل هذا من خلال استخدام "آليات" دفاعية متعددة. هذه الآليات أصبحت معروفة، والأسماء التى تطلق على كل آلية تشرح وظيفتها. هذه الآليات هى: "التسامى" Sublimation، و"الإسقاط" Projection، و"النكوص" Regression، و"التبرير" Rationalization، وغيرها. لقد كان فرويد يعتقد أن هذه الآليات الدفاعية لا يقتصر استخدامها على من يعانون من العُصاب والذهان خلال مواجهة الواحد منهم لحدث درامى يصدمه لدرجة أن "الأنا" The Ego تعجز عن تحمله والتأقلم معه، وإنما تستخدم أيضًا بواسطة الفرد العادى الذى يواجه صعوبات عاطفية. وحتى يتمكن الفرد من إنجاز هذا؛ فإنه يقوم بتطوير وبناء النزعات الغريزية فى الجانب اللا شعورى من النفس (ما سماه فرويد: "الهو" Id)، حتى تتحول أجزاء منه

إلى: "الأنا" The Ego) ذلك الجـزء مـن نظام الفـرد المتصـل بالواقع) والـ"أنا-الأعلى" Super-ego) ذلك الجزء الذى يمثل ضمير الفرد وقدرته على التحكم فى الذات).

كذلك، تدعى نظرية فرويد بوجود "مراحل" معينة يمر خلالها الطفل خلال تطوره ونموه من طفل رضيع إلى فرد بالغ، وسيتم مناقشة هذه المراحل بتفصيل أكبر خلال فصول هذا الكتاب. وعلى وجه العموم، فإن هذه المراحل ذات "طابع جنسى" (لقد تم وضع علامات تنصيص حول مصطلح "طابع جنسى"؛ لأن فرويد كان يستخدمه بطريقة تعطيه معنى أوسع من المعنى المقصود خلال الاستخدام العادى له)، وهى "مراحل" مرتبطة بالفم، وفتحة الشرج، والأعضاء الجنسية. وحسب ادعاءات فرويد، فإنه عند فشل الفرد فى النمو والتطور بطريقة مناسبة تمكنه من عبور هذه المراحل بسلام، فإنه من المحتمل أن يظهر على الشخص البالغ أعراض العُصاب أو الذهان، وأن احتمالات حدوث هذا تتزايد عندما تنهار "آليات الدفاع" التى يستخدمها الفرد فى المراحل المبكرة من حياته للدفاع عن نفسه ضد "العناصر النفسية الخطيرة".

وأحد السمات المميزة لنمو وتطور "الطفل الذكر" - طبقًا لفرويد - هى أنه يقع فى حب والدته، ويرغب فى ممارسة الجنس معها، وينظر إلى والده باعتباره عدوًا منافسًا؛ عدوًا شديد القوة فى مقدرته أن يقف فى وجه هذا الحب؛ وأن يوقع الأذى به (يقوم بإخصائه)! وأن هذا هو ما كتبه لنا فرويد عن "عقدة أوديب" الشهيرة، التى سيتم الكلام عنها بتفصيل شديد خلال صفحات الكتاب. وطبقًا لآرائه فإن الصحة النفسية للطفل الذكر تعتمد على الطرق التى يتعامل بها مع هذا الموقف!!

ويكرس فرويد طريقته فى العلاج النفسى لمحاولة إخراج كل العناصر المكبوتة فى اللاشعور، وبحيث يصبح المريض على وعى تام بها. فعن طريق استخدام المعالج لطريقة "التداعى الحر" تصبح له علاقة خاصة بمريضه، وتعرف هذه العلاقة بـ"طريقة الطرح" Transference؛ لأن المريض يصبح مرتبطًا عاطفيًا بالمحلل النفسى الذى يوظف هذه العلاقة فى "علاج" مريضه. والطريقة السابقة تشبه فى بعض جوانبها - طبقًا لآراء فرويد - العلاقة بين الطفل وأبيه.

والسؤال الحقيقى محل الدراسة: هو ما إذا كانت تلك الأساليب تقود إلى "علاج"؟ وهو السؤال الذى سيحاول كتابى هذا الإجابة عنه. أما الآن، فإن هناك اتفاقًا شبه تام بين الخبراء على أن "التحليل النفسى" يفشل فى علاج المرضى.

لقد كان ما سبق تبسيطًا للمكونات الرئيسية التى تشكل "التحليل النفسى" طبقًا لنظرية فرويد. والغالبية العظمى من القراء على علم بكثير من جوانب نظريته. وإن كنت سأشرح مزيدًا منها خلال فصول الكتاب؛ عندما يستدعى الأمر هذا. وسأحاول - قدر الإمكان - الامتناع عن الإشارة لتلاميذ فرويد العديدين والأفكار التى أتوا بها عندما تمردوا على أفكار فرويد، وقاموا بوضع النظريات الخاصة بهم، ولعل أشهرهم هو: "يونج". وإن كانت القائمة طويلة، وأقل شهرة من أمثال: "ميلانى كلاين" Melanie Klein، و"ويلهام ستيكل" Wilhelm Stekel، ولا يسمح المجال بعرض أسمائهم جميعًا. إن مجرد وجود كل هؤلاء[1] يشير إلى وجود خلل رئيسى منتشر بينهم جميعًا؛ لأنهم يتبعون طريقة ذاتية فى إثبات صحة ما يزعمون، ولا يستطيع أى واحد منهم تقديم أى طريقة تمكننا من التفضيل بين مختلف النظريات المعروضة علينا. لكن هذا الكتاب، كما ذكرت سابقًا، مخصص لمناقشة نظرية "التحليل النفسى" دون غيرها، وسيكون مركزًا على المساهمات التى تقدم بها فرويد.

---

(١) لقد تم تقدير وجود أكثر من ١٠٠ مدرسة مختلفة - فى الوقت الحالى - تستخدم أسلوب التحليل النفسى فى نيويورك وحدها؛ وهم - جميعًا - مشتبكون فى حرب داخلية. (المؤلف)

الفصل الأول

فرويد الإنسان

قد يكون "**الشك**" حالة غير مريحة،
لكن "**اليقين**" حالة سخيفة ومنافية للعقل.
ڤولتير

إن هذا الكتاب يتناول بالأساس "التحليل النفسي"، والنظرية التى وضعها سيجموند فرويد منذ حوالى قرن من الزمان؛ فلقد كان فرويد يؤمن بأنه هو الذى أرسى أساس علم التحليل النفسى. كما ادعى أنه هو الذى وضع طرق العلاج الأساسية لمرضى العقول. إن هذا الكتاب يُقَيِّم وضع نظريات فرويد فى العصر الحديث، ويحدد مدى صحة ادعاءاته بأن تلك النظريات ذات قيمة علمية.

لكى ما ننجح فى كل هذا، علينا أن نبدأ بالحديث عن: "فرويد الإنسان"؛ فلقد كان فرويد فريداً من نوعه، كما أنه كان مليئًا بالمتناقضات؛ لهذا علينا أن نتعرف على الشخصية الغامضة التى كانت خلف نظريات التحليل النفسى.

وقد يظن بعضنا أن هذه بداية غريبة لمثل هذا النوع من الكتب؛ فنحن لا نبدأ كتاباً عن "ميكانيكا الكم" بالحديث عن شخصية "بلانك" Planck، كما أننا لا نروى تفاصيل حياة إسحاق نيوتن أو ألبرت أينشتين فى كتاب عن النسبية. ورغم صحة الفكرة السابقة؛ فإنه سيكون من المستحيل علينا تفهم الأعمال التى قام فرويد بإنجازها خلال حياته إلا إذا فهمنا الرجل ذاته، وهذا لأن كثيراً من نظرياته خرجت

من خلال فهمه لذاته وتحليله لشخصيته العُصابية. وفى كتابه "تفسير الأحلام" Interpretation of Dreams يعتمد فرويد على تحليله لأحلامه الشخصية، كما أن أفكاره فى علاج مرضاه اشتقت من خلال محاولاته لتحليل نفسيته وعلاج حالة العُصاب التى كان يعانى هو شخصياً منها، حتى إنه قيل عنه:

"إن فرويد هو الرجل الوحيد الذى تمكن من أن يطبع العالم أجمع بطابع الحالة العُصابية التى كان يعانى منها، وأن يفرض مشاكله الخاصة على الإنسانية جمعاء."

ولعل هذا فى حد ذاته يعتبر إنجازاً ملموساً؛ وإن كان يلقى بظلال من الشك على مدى علمية هذا الإنجاز.

أنا أدرك أن كثيراً من العلماء ينظرون إلى التحليل النفسى على أنه "فن" أكثر منه "علم"، وهذا لأنه فى الفن تكون وجهة نظر الفنان، هى العامل الرئيسى الذى يمكننا من فهم أعماله، فهى التى توضح لنا هدفه.

"**الفن**" يختلف عن "العلم" فى أنه **غير تراكمى**؛ فعلومنا الحالية أكثر تقدماً من العلوم التى كانت سائدة فى عهد "نيوتن"، لكن الفن المأساوى الحالى متخلف عن فن شكسبير، بل إنه متخلف عن فن المأساة الذى كان سائداً فى عهد قدماء اليونانيين. وبالمثل، فإن الشعر الحديث لن يصمد أمام المقارنة مع أشعار رجال مثل "ميلتون" أو "شيللى".

والشاعر – مثله فى هذا مثل كاتب الدراما – يستمد أفكار أعماله من تجاربه الشخصية. وهذا ما فعله فرويد؛ فقد كان يستمد أفكاره من تجاربه الشخصية وتقلباته العاطفية، وأرجاعه العُصابية. ولهذا يمكننى القول بأن التحليل النفسى قد يكون مقبولاً كـ"فن". ولكن إضفاء صفة "العلم" عليه أثارت كثيراً من احتجاجات العلماء والفلاسفة.

وقد كان فرويد على وعى بهذه الحقيقة، حتى إنه ادعى أنه ليس بعالم، بل إنه "الفاتح" The Conquistador، وقد كان هذا التضارب ظاهراً بعمق فى كل أفكاره،

حتى إنه كثيرًا ما أعرب عن آراء متناقضة بخصوص التحليل النفسى، وما إذا كان هو "علم" أم "فن". وسوف أناقش هذه الشكوك فيما بعد. أما الآن، فدعنا نكتفى بملاحظة أن "التحليل النفسى" كثيرًا ما كان يخرج من تحت مظلة "العلم" وطرقه المستقيمة المحددة.

قد يظن بعضنا أن هذا من سوء حظ "العلم"؛ فما الذى يضفى القداسة على "العلم" حتى إنه يجعلنا نرفض أفكارًا جميلة وعميقة مثل التى أتت بها الملاحم القديمة وقصص الأنبياء، بل إن هذه النظرة كثيرًا ما أتت من القائمين على التحليل النفسى ذاته؛ خاصة من خلال رغبتهم فى فهم معنى كلمة "العلم" على أنها تشمل التحليل النفسى. وأنا أعلم أن فرويد نفسه ما كان ليقبل هذا، وأنه كان يرغب فى أن يتم تقبل التحليل النفسى على أنه "علم"، بكل ما فى هذه الكلمة من معنى، بل إننى على يقين من أنه كان سينظر لمثل هذه الجهود على أنها محاولات ليس لها ما يبررها، لفهم وجهات نظره.

إن تقييم الأعمال التى قام فرويد بإنجازها خلال حياته بتلك الطريقة لا يتفق مع أفكاره الشخصية؛ فبالنسبة له كان التحليل النفسى "علم"، أو لا شىء على الإطلاق، وسنعاود بحث هذه المسألة فى الفصل الأخير من هذا الكتاب. أما الآن فإننا سنتحرى ادعاءات التحليل النفسى بأنه "علم" بالمعنى الحقيقى التقليدى المعروف عن هذه الكلمة، أى على أنه "Naturwissenschaft"، وليس "Geistewissenschaft"، هذان التعبيران يستخدمان بكثرة – فى ألمانيا – للتفرقة ما بين "العلوم الطبيعية" و"الدراسات الأدبية والتاريخية"؛ حيث يستخدم الشق "wissenschaft" لوصف أى نوع من البحث الأكاديمى أيًا كان وبصرف النظر عن طبيعته.

ولد فرويد فى يوم ٦ مايو من عام ١٨٥٦، فى قرية صغيرة تدعى "فرايبرج Freiberg تبعد حوالى ٢٤١ كيلو متر عن شمال شرق العاصمة النمساوية "ڤيينا"، وتقع – الآن – داخل الحدود التشيكية، وكانت أمه هى الزوجة الثالثة لتاجر ملابس يهودى، أما فرويد فكان ابنها الأول.

وبالنسبة للأب، كان له ابنان بالغان من زواجه الأول، وكانت أم فرويد أصغر من أبيه بعشرين عامًا، كما أنها أنجبت سبعة أطفال آخرين، لم يستطع أيٌ منهم أن ينتزع المكانة التى كان يتمتع بها سيجموند فرويد فى قلبها. وهذه المكانة المميزة، هى التى دعت فرويد - فيما بعد - إلى القول بأن ثقته بنفسه فى مواجهة العقبات، كانت ترجع إلى أنه كان المفضل لديها.

وعندما كان فرويد فى الرابعة من عمره، بدأت الأحوال المادية لوالده فى التدهور، وانتهى الأمر بأن انتقلت الأسرة بأكملها إلى "ڤيينا". وهناك التحق فرويد بـ "سبيرل جمانيزيم" Sperl Gymnasium؛ حيث استطاع أن يثبت تفوقه، بأن ظل الأول على فصله لمدة سبع سنوات متصلة. وظهر هذا التفوق فى مجال اللغات على وجه الخصوص؛ لأنه سرعان ما تعلم اللاتينية واليونانية، كما أنه أجاد قراءة كلٍّ من الإنجليزية والفرنسية بطلاقة. وفيما بعد قام بتعليم نفسه كلاً من الإسبانية والإيطالية. لكن أكثر ما أثار اهتمامه هو "الفلسفة". إلا أنه -فى النهاية- قرر دراسة الطب. وعندما بلغ السابعة عشر من عمره دخل جامعة "ڤيينا"، وبعدها بثمان سنوات، تخرج فيها، وعمل قليلاً بالكيمياء وعلم الحيوان، ولكنه استقر أخيرًا فى معمل إرنست بروكا للأبحاث الفيزيولوجية، وهناك درس لمدة ست سنوات، ونشر عديداً من الأبحاث ذات الطبيعة التقنية، ولكن أحواله المادية أجبرته - فى عام ١٨٨٢- على أن يأخذ درجاته العلمية ويذهب بها إلى مستشفى ڤيينا العام للعمل طبيبًا مبتدئًا، وإن كان قد استمر فى أبحاثه، وقام بنشر بعض الأبحاث عن التركيب التشريحى للمخ، واستمر اهتمامه بالجهاز العصبى للإنسان حتى بلغ الحادية والأربعين من عمره، عندما نشر دراسات علمية عن "الحبسة الصوتية"(*) Aphasia و"شلل المخ الرعاش" Cerebral Palsy عند الأطفال.

(*) حالة: "الحبسة الصوتية"، هى اختلال فى وظائف اللغة، وتتراوح هذه الحالة بين الاختلال البسيط إلى الفقد الكامل للقدرة على التعبير بالكلام أو الكتابة أو فهم المعنى الكامن وراء الكلمات المنطوقة، ويرجعها بعض الباحثين إلى سبب "عضوى" كتلف فى الفص الجبهى أو الصدغى، أو نتيجة للإصابة بجلطة دموية فى المخ، أو لسبب "وظيفى" كأن تكون الحالة أحد الأعراض الجانبية المصاحبة للإصابة بالهستريا. (المترجم)

هذا وقد كان فرويد قد عُين محاضراً فى علم الأمراض العصبية عندما كان فى التاسعة والعشرين من عمره، كما أنه تلقى منحة للسفر، مكنته من الدراسة لمدة خمسة شهور فى باريس تحت إشراف "شاركو" Charcot الذى كان مشهوراً بدراساته فى مجال "التنويم الإيحائى". ومن خلال احتكاكه بـ"شاركو"، أصبح فرويد مهتمًا بالدراسات النفسية أكثر من اهتمامه بالطب. وبعد عودته من باريس مباشرة، تزوج فرويد، وقام بافتتاح عيادة خاصة به. وحاول أن يصل إلى الشهرة، من خلال دراسة السلوك العُصابى لمرضاه. كما أنه حاول بناء نظرية يمكنها أن تتعامل مع الأمراض العُصابية، على أمل أن تمكنه من أن يصل إلى "علاج" ما فشل فيه من سبقوه.

لقد كان فرويد شديد الطموح طوال حياته، فبينما كان لا يزال طالبًا، كتب لخطوبته عن خططه المستقبلية، وكيف أنه سيحاول أن يصل إلى الشهرة. وقد قادته أمثال هذه المحاولات لأن يحاول استكشاف تأثير عقاقير جديدة مثل مادة "الكوكايين"، فقام بتجربتها على نفسه. وأكثر ما أثار اهتمامه بالكوكايين هو قدرة تلك المادة على تخفيف الآلام وخلق الشعور بالنشاط والنشوى، وقد اكتشف فرويد أن هذه المادة قد ساعدته فى التغلب على فترات الاكتئاب والخمول التى كانت تنتابه بين الحين والآخر، والتى كانت تعوقه عن إنجاز أعماله والاهتمام بأبحاثه، لكنه فشل فى إدراك مخاطر استعمال هذه المادة، وقدرتها على تحويل الفرد الذى يعتاد على تعاطيها إلى مدمن. وبسبب عدم إدراكه لمخاطر تعاطيها، فإنه كان ينصح باستخدامها، حتى إنه قام بوصفها لأفراد عائلته وأصدقائه، بل وصل به الحال إلى حد كتابة بحث عن استخدامات هذه المادة وقام بنشره، وقد لعب "الكوكايين" دوراً هاما فى نمو وتطور سيجموند فرويد، كما سنرى فيما بعد.

بسبب دراسته على يد "شاركو"، بدأ فرويد فى استخدام "التنويم الإيحائى" فى عيادته الخاصة، ولكنه كان غير راض عن النتائج. وتحولت اهتماماته لطريقة جديدة فى العلاج؛ طريقة قدمها صديقه وزميله "چوزيف بروير" Josef Breuer، الذى كان قد طور طريقة لعلاج المرضى بالتأثير عليهم بالكلام Talking Therapy، وقام باستخدام هذه

التقنية الجديدة فى علاج "الهستيريا" Hysteria(*)... التى كانت أحد أكثر الأمراض النفسية شيوعًا فى ذلك العهد. كانت الهستيريا تُعرِب عن وجودها من خلال أعراض جسدية تصل إلى حد الشلل فى بعض الحالات، ولكن هذه الأعراض الجسدية كانت تحدث دون أى علة عضوية، ولهذا أرجعها الأطباء إلى حالة المريض النفسية، وكان كثير من الأدلة يشير إلى أن هذه العلة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بحالة التقدم الحضارى المفاجئ، والتغيرات الكبيرة التى شهدتها أوروبا خلال القرن التاسع عشر. وقد كان هذا الاستنتاج بسبب الاختفاء شبه الكامل لمرض الهستريا فى العصور الحديثة. وعلى سبيل المثال: فإن أحد تلاميذى المتقدمين للحصول على درجة الدكتوراه أراد أن يتحقق من قدرة المصابين بالهستريا على القيام بأرجاع أو استجابات مشروطة، ولكنه - ولسنين طويلة - عجز عن العثور على عدد كاف من المرضى المصابين بالهستريا، حتى فى مراحلها الأولى.

أما "جوزيف بروير" فكانت لديه مريضة شهيرة تعانى من الهستريا، وكانت هذه المريضة تدعى "برثا بابينهام"، و"برثا" هذه كانت امرأة شابة وموهوبة وذات صلات بكثيرين من علية القوم. وفيما بعد، تم كتابة حالتها تحت الاسم المستعار: "آنًا أو." .Anna O. ويحكى لنا "بروير" أنه بعد أن استرخت "برثا" تحت تأثير التنويم المغناطيسى، فإنه أخذ يشجعها على الكلام(**) عن أى شىء يخطر على بالها، بعد عدة جلسات، بدأت الفتاة تُظهر استجابات عاطفية قوية ضد حادثة مؤلمة فى ماضيها؛ حادثة قامت بكبتها وإخفائها عن عقلها الواعى. وكنتيجة لاتباعه لهذه الطريقة فى

(*) كلمة Hysteria مشتقة من الكلمة اللاتينية Hystericus التى تعنى رحم المرأة، وحدث هذا لأن الجميع كانوا فى ذلك العهد (القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين) يعتقدون أن الهستريا هى علة لا تصاب بها إلا النساء. وكانت أعراض هذه العلة تتمثل فى شلل، وتشنجات، والسير أثناء النوم، وهلاوس سمعية وبصرية، ووصلت فى بعض الأحيان إلى حد الفقدان الكامل أو الجزئى للقدرة على الكلام والإحساس والتذكر والحركة. (المترجم)

(**) وفيما يبدو، فإن هذه كانت هى البداية لما عرف - فيما بعد - باسم علاج المرضى من خلال التأثير عليهم بالكلام (Talking Therapy). (المترجم)

التفريغ، فإن أعراض مرضها اختفت. وسنرى فيما بعد أن تفاصيل هذه الحالة نشرت فى كتاب اشترك فيه كل من "فرويد" و"بروير"، ونشر تحت اسم: "دراسات فى الهستريا" Studies in Hysteria، وتم وصف الحالة بطريقة مغلوطة وخاطئة تماماً؛ فالفتاة لم تكن تعانى من أى مرض نفسى أو عُصابى، بل كانت تعانى من علة جسدية خطيرة (مرض عضوى)، وبالطبع فإن تنفيسها عن الكبت الذى كانت تعانى منه لم يعالج مرضها العضوى. والمعلومات والتفاصيل التى نشرها فرويد عن هذه الحالة، ونتائج علاجه لها تختلف تماماً عن الحقائق المعروفة عنها.

وعلى أية حال، فإن زوجة "بروير" غارت من مريضته "برثا" مما أجبره على التوقف عن علاجها، وقام باصطحاب زوجته إلى ڤينسيا لقضاء شهر عسل ثان، أما فرويد فقد استمر فى استخدام هذه الطريقة بدلاً من التنويم الإيحائى خاصة فيما عرف باسم "التداعى الحر" Free Association(*)، كما أنه اتخذ من بعض أحلام المريض نقطة بداية لتحليلاته النفسية عن طريق تشجيعه على الكلام عن أى شىء يخطر على باله وهو يفكر فى عدد من المكونات التى يتكون منها حلمه، هذه الطريقة فى التداعى الحر كانت من ابتكار سير "فرانسيز جالتون" Francis Galton أحد مؤسسى مدرسة لندن فى علم النفس، وكان "جالتون" يستخدم قائمة مكونة من مئة كلمة، ويطلب من مريضه أن يذكر أول كلمة تخطر على باله، كما أنه كان يقيس سرعة الإجابة، هذا وقد كان "جالتون" يرى أن هذه الطريقة تُظهر كثيراً من الأمور المعنوية التى قد لا يستطيع المريض أن يعبر عنها، وعلى حد قوله:

"إن هذه الطريقة تظهر بوضوح الأسلوب الذى يفكر على أساسه المريض، كما أنها تظهر تكوينه العقلى، بطريقة قد تكون أكثر شفافية مما يرغب المريض فى

(*) التداعى الحر هو قائمة طويلة من مختلف الكلمات - والمختارة سابقًا بعناية - التى تقرأ على المريض، ويطلب منه أن يذكر أول كلمة تخطر على باله؛ كلمة تكون - فى رأى المريض - ذات علاقة بالكلمة التى قُرئت عليه. وطريقة التداعى الحر هذه، مثلها مثل التنويم المغناطيسى تستخدم كمجرد "أداة" فى محاولة من المعالج لاستخراج بعض مما هو مكبوت داخل العقل الباطن لمريضه. (المترجم)

الإفصاح عنه، ولعل أفضل انطباع تتركه هذه الطريقة، يتعلق بالكيفية التى يعمل بها العقل عندما يكون فى حالة غير كاملة من الوعى، كما أنها تقدم لنا الأسباب الكافية التى تدعونا للإيمان بوجود طبقة عميقة من العقل تؤدى عمليات بعيدة تمامًا عن مستوى وعينا بها، ولعل هذه الطبقة هى المسئولة عن الظواهر العقلية التى لا يمكن تفسيرها".

و إليكم تساؤل آخر عرضه "جالتون" يتصل بطريقته المذكورة آنفًا:

"إن النتائج التى حصلت عليها أعطتنى رؤية مثيرة وغير متوقعة لعدد من العمليات التى يقوم بها العقل، والأماكن المجهولة التى تتم فيها مثل هذه العمليات. وعلىَّ الاعتراف بأننى كنت غير مدرك لهذا من قبل. إن الانطباع العام الذى تركته علىَّ مثل هذه النتائج، هو نفس الانطباع الذى يشعر به كثير منا عندما يكون الطابق الأرضى من المنزل تحت الإصلاح.

وعندها فقط، نلاحظ – لأول مرة – مدى تعقيد شبكات الصرف والمجارى والكهرباء والغاز الموجودة به؛ عشرات الأمتار من الأسلاك والأنابيب .. التى كنا على غير علم بمجرد وجودها، ومع هذا، فإن حياتنا اليومية وراحتنا كانت تعتمد كل الاعتماد على نجاحها فى تأدية وظيفتها".

لقد قام "سى. تى. بلاكر" C. T. Blacker بتأليف كتاب عن "جالتون"، وفيه كتب التعليق التالى:

"من الأمور المثيرة للدهشة والإعجاب أن رجلاً مثل جالتون – وهو رجل خجول لديه كثير من الإعاقات الباطنية بخصوص الجنس – تمكن من الوصول إلى هذا النوع من النتائج باستخدام تلك الطريقة فى التداعى الحر، إن إنجازاته تعتبر شاهدًا على مدى شجاعته وقوة إرادته؛ لأنه من خلالها قد تمكن من التغلب على تلك الإعاقات الداخلية، التى هى أحد مهام المعالج الذى يقوم بالتحليل، وعلى حد قول جالتون نفسه، فإن هذه الطريقة كانت مُجهِدة جدا وأن قدرته على التحكم فى نفسه هى وحدها

التى مكنته من تنفيذ ما اعتزم عليه، وما قام به كلٌ من يونج وفرويد - فيما بعد - زاد هذا الاستنتاج وضوحًا، ولم يختلفا معه فى أى نقطة أساسية أو مهمة".

هذا، وقد قام "جالتون" بطبع استنتاجاته وملاحظاته فى دورية "الدماغ" Brain، وحيث إن فرويد كان مشتركًا فى هذه الدورية، فلا بد أنه كان على علم بأعمال "جالتون" المنشورة فيها. ومع كل هذا، فإن فرويد لم يشر مطلقًا إلى أبحاثه، كما أنه لم يعترف بأنه قد سبقه فى اقتراح وجود عمليات عقلية تتم على المستوى **غير الواعى**. لم تكن هذه هى أول أو آخر مرة يرتكب فيها فرويد هذه الفعلة، وهو الذى اعتاد أن يبخل عن إعطاء كل ذى حق حقه، خاصة بالنسبة لمن سبقوه من العلماء.

وحيث إن فرويد كان يعانى كثيرًا من الأعراض العُصابية، فقد قرر أن يحلل نفسيته، إلى جانب خبراته مع مرضاه. كل هذا قاده إلى أن يهتم بأحداث طفولته، وأن يركز - بصفة خاصة - على أهمية التطورات الجنسية المبكرة فى تشكيل العُصاب والأمراض النفسية، وتأثيرها على نمو شخصية الفرد وتطورها. لكل هذا قام فرويد بتحليل أحلامه، وأخذ يتحقق - من خلال أمه - من الأحداث المبكرة فى حياته، وكان فرويد يعتقد أنه قد عثر على بقايا عواطف مكبوتة من أيام طفولته الأولى، وأنه اكتشف مشاعر مدمرة وعدائية تجاه والده، وحب عميق تجاه والدته، وكان كل هذا هو بداية ما عرف باسم "عقدة أوديب".

وفى عام ١٩٠٠ قام بنشر أول وأكبر أعماله عن التحليل النفسى فى الكتاب المعروف باسم: "تفسير الأحلام"، كما أنه جذب عديدًا من الحواريين. وفيما بعد، كون منهم ما عرف باسم: "جمعية التحليل النفسى بڤيينا" Vienna Psychoanalytical Society. التى أحرزت سمعة مهنية عالية ومحترمة. ولكن فرويد كان يتحكم فى هذه المجموعة بيد من حديد، ويتخلص من كل من يعارضه، أو حتى من يفشل فى إظهار التأييد الكامل لكل أفكاره، وقد يكون "كارل چوستاف يونج" C. G. Jung هو أشهر من قام بالتخلص منه، ولعل فرويد نفسه لم يكن مدركًا لهذه الخصلة فيه، حتى إنه ذكر التعليق التالى فى خطاب كتبه عام ١٩١١:

"لقد حاولت دائمًا أن أكون متفهمًا لوجهات نظر من يعارضوني، ولم أحاول أن أفرض رأيي بحكم سلطاتي، رغم أن هذه الطريقة لا تكون فعالة دائمًا في الحياة العملية، إنها في هذا تشبه قائدي السيارات والمشاة؛ فعندما كنت أقود السيارة، كان غضبي يتنامى على المشاة المهملين مثلما كان يتنامى على قائدي السيارات اللذين لا يراعون من يمشي على قدميه، عندما كنت أنا من بين المشاة".

منذ ذلك الحين تحول "التحليل النفسي" إلى **طائفة** تقتصر على مريديه وأتباعه، وتعادي كل من لا ينتمي إليها، بل إن الأمر وصل إلى حد وضع الأعضاء الجدد تحت الاختبار لسنوات طويلة يتم خلالها تحليلهم نفسيًا بواسطة أعضاء الطائفة القدامى، حتى يتم التأكد من ولائهم.

قد يكون من غير المفيد – في هذه المرحلة – ذكر كل الأحداث التي مرت في حياة فرويد، ولكن الأحداث المتعلقة بنقاط بحثنا، سوف يتم مناقشتها في المكان المناسب من كل فصل. إن هناك كثيرين قد دونوا قصة حياة فرويد بالتفصيل في كتب عديدة، ولكن معظمهم – للأسف – كانوا من المداحين، وخالقي الأساطير، الذين تغنوا بأمجاد فرويد. وقد صوروه في صورة البطل الذي يجب أن يُعبد؛ لأنه معصوم من الأخطاء، والذي لا يجب توجيه أي نقد له، مهما كانت الأسباب. وحتى الحقائق المادية، كان يتم فهمها بطريقة مغلوطة، وتصويرها حسب أهوائهم حتى تتفق مع تعاليم النبي الجديد.

وللأسف، فإن الشيء نفسه يجب أن يقال عن كتابات فرويد؛ فإن أقل ما يمكن أن توصف به هذه الكتابات، هو أنها لم تمثل شهادة صادقة محايدة لما حدث في الواقع، ولقد ذكرنا بالفعل أنه كثيرًا ما كان يسلب من سبقوه حقهم فيما تم اكتشافه، ويقلل من دورهم في النتائج التي تم التوصل إليها، لقد كان فرويد مصممًا على أن يخلق أسطورة يكون "هو" – وإنجازاته – محورًا لها، لقد كان يرى نفسه في صورة البطل التاريخي الوحيد، الذي عليه أن يحارب كل الظروف البيئية المعادية المحيطة به، وأن عليه في النهاية أن يخرج منتصرًا، بالرغم من كل الاضطهادات التي لاقاها، ولقد كاد فرويد أن ينجح في هذا بفضل تأييد مريديه، الذين تمكنوا من إثارة إعجاب العالم به

من خلال تلك الصورة الزائفة التى رسموها له ولإنجازاته. وكل من له معرفة بالظروف التاريخية لتلك الفترة، سوف يلاحظ الاختلافات بين الوقائع التى قام فرويد بوصفها، وبين حقيقة ما حدث. ولعله من المفيد تتبع مجموعة من القواعد والمقاييس فى قراءاتنا لكتابات فرويد ومريديه، وسأعطى أمثلة توضح الأسباب التى دعتنى لاتباع مثل هذه القواعد.

القاعدة الأولى: هى قاعدة ذات أهمية بالغة لكل من يرغب فى تفهم حقيقة فرويد والتحليل النفسى، وهذه القاعدة تقضى بما يلى:

"إنه لا يجوز تصديق أى شىء مكتوب عن فرويد أو عن التحليل النفسى، خاصة إذا كان فرويد أو مريدوه هم من قاموا بكتابته، إلا إذا ثبت صحتها من خلال أدلة قوية".

وبمعنى آخر، فإن معظم ما كتبوه كان غير صحيح. وفى بعض الحالات سنجد أن العكس هو الذى حدث، ودعنا نأخذ فى الاعتبار ما قاله "سلوواى" Sulloway عندما تكلم عن "أسطورة البطل فى حركة التحليل النفسى" فهو يخبرنا بأنه قد تم إحاطة فرويد بهالة من الغموض الأسطورى بطريقة لم تحدث من قبل، ويضيف أن تلك الهالة الأسطورية قد حدثت على حساب الحقائق التاريخية المعروفة، ويشير "سلوواى" إلى أن هناك تباينًا كاملاً بين ما حدث فعلاً، وبين الأوصاف التى تم كتابتها حتى يتم خلق أسطورة جيدة، ومعظم المغالطات التى تم ذكرها بواسطة فرويد ومريديه أتت نتيجة ميلهم لخلق " أسطورة البطل" هذه.

وقد يتعجب القارئ الفطن ويتساءل:

"ولماذا علىَّ أن أصدق سلوواى، أو كاتب هذه السطور؟"

وأنا أتفق مع القارئ فى تساؤله هذا، وأنصحه بأن يعود إلى "البيانات الأصلية" Original Data، ومن حسن الحظ فإن هذا أمر سهل. خاصة أن كثيرين من المؤرخين الذين كتبوا عن فرويد – مثل "سلوواى"– قد أعادوا طباعة الوثائق الضرورية لفهم كل

حالة. وإذا كان ما أكتبه على هذه الصفحات يبدو للقارئ وكأنه أمر غير محتمل؛ فما على القارئ إلا أن يعود إلى الوثائق والبيانات الأصلية التى شكّلت على أساسها رأيي؛ فنحن هنا نتعامل مع أسطورة البطل، وكل الوثائق الضرورية موجودة فى كتاب "سلوواى".

إن هناك ميزتين رئيسيتين تصفان "أسطورة البطل" هذه فى تاريخ التحليل النفسى:

الميزة الأولى: هى التركيز على عزلة فرويد الفكرية خلال السنين الحاسمة التى اكتشف خلالها نظريته، والمبالغة فى وصف الاستقبال العدائى الذى قوبلت به هذه النظريات من قبل عالَم غير مستعد لتقبل مثل هذه الاكتشافات.

الميزة الثانية: هى التأكيد على أصولية فرويد المطلقة كرجل من رجال العلم، ومحاولة نسب الفضل إليه فى كثير من الاكتشافات التى قام بها غيره من معاصريه أو من سبقوه. ومرة أخرى، فإننى سأقتطف بعض ما قاله "سلوواى":

"إن كثيراً من الأساطير التى نسجت حول فرويد – وحول كونه "بطل التحليل النفسى" – لا تعود إلى كونه ذا شخصية ساحرة، أو لأن حياته كانت مليئة بالأحداث العظام، كما أنها لا يمكن أن تكون مجرد تشويه عشوائى لبعض الحقائق، ولكن ما حدث هو أن تاريخ حياة فرويد تماشى مع "نمط قديم" مشترك بين جميع أبطال الأساطير، وهو ما أجبر كُتاب سيرته الشخصية على مسايرة هذا النمط".

هذا يقودنا إلى محاولات تحديد المميزات الأساسية لـ"أسطورة البطل" التقليدية، وهذه المحاولة تقودنا فى رحلة خطرة لها ثلاثة بواعث عامة: **العزلة**، و**الاستهلال** (أو البدء)، و"**الإرجاع**" Return، وأول ما دعاه للقيام بهذه الرحلة هو مجرد المصادفة والظروف المحيطة، وفى حالة فرويد كانت المريضة "آنًا أو". .Anna O. وربما كان هناك رفض مبدئى – من قبل فرويد – لهذه الدعوة، فهو قد رفض الخوض فى مسألة "آنًا" إلا بعد ست سنوات، ولم يحدث هذا فى النهاية إلا تحت تأثير مباشر من "شاركو".

بعدها، واجه "البطل" سلسلة من التجارب الصعبة؛ فقد ضللته(*) النساء بغوايتهن؛ مما جعله يخرج عن طريقه. وفي هذه المرحلة يأتي "مساعد سرى Secret Helper" ليساند "البطل"، وفي حالة فرويد، كان هذا المساعد السرى هو صديقه "ويلهام فلييس Fliess Wilhelm"، الذى سانده خلال المرحلة التى قام فيها بتحليل نفسيته.

المرحلة التالية من رحلة "البطل" هى أكثرها خطورة؛ لأنه خلال مرحلة **الاستهلال** (البدء) يقوم بمواجهة ظلمات نفسه الداخلية، ويبعث الحياة من جديد فى قواه المنسية، ويقوم "سلوواى" بالمقارنة ما بين قيام فرويد بتحليل نفسيته بشجاعة، وبين الرحلة التى قام بها "إينيس Aeneas" إلى العالم السفلى فى محاولة منه لمعرفة مصيره، وبين الرحلة التى قام بها موسى عندما قاد العبرانيين فى خروجهم من مصر.

وقد أوضح "كيرت إيسلر Kurt Eissler"، وهو أحد المحللين النفسيين المعروفين كيف قام فرويد بتحليل نفسيته بحيث تتوافق مع نمط "البطل"، وإليكم مقتطفات من هذا الإيضاح:

" إنه لم يكن هناك من يقدر البطولة الضرورية لتنفيذ مثل هذه المهمة الصعبة (قيام الفرد شخصيًا بتحليل نفسيته)، ولكن كل من حاول القيام بمثل هذه المهمة يعرف مدى قوة الدافع الذى يدعوه إلى الهرب من مواجهة كل ما هو مكبوت فى الجزء اللاواعى من نفسيته، إن التحليل الذى قام به فرويد لنفسيته سيحتل - يومًا ما - مكانة بارزة فى تاريخ الأفكار، مثله فى هذا مثل الكيفية التى حدث بها، والتى ستظل - ربما أبد الدهر- محيرة لعلماء النفس".

بعد **العزلة والاستهلال** (البدء) نصل إلى "**الإرجاع** Return"، وفى هذا الباعث (**الإرجاع**) يكون "البطل التاريخى" قد اجتاز محنته، وخرج منها بمجموعة جديدة من

(*) قد يكون هذا الضلال هو نظرية فرويد فى الغواية، بمعنى: نظريته فى أن الأطفال الصغار الذين يصابون بالعُصاب لا بد أنهم قد تم إغواؤهم جنسيًا، وهى نظرية منعته مؤقتًا من اكتشاف النشاط الجنسى عند الأطفال الرضع وعقدة أوديب. (المترجم)

القوى التى يستطيع استخدامها فى خدمة زملائه من البشر، ولكن الطريق أمامه لم يصبح ممهدًا بعد؛ فهناك كثيرون كانوا يعارضون رؤيته الجديدة؛ لأنهم لا يستطيعون فهم الرسالة التى تحملها. وأخيرًا، يتمكن "البطل" - بعد صراع طويل - من احتلال المكانة التى يستحقها وينال الشهرة كحكيم الحكماء.

لقد فحص "سلوواى" - بدقة - الطريقة التى قوبلت بها نظريات فرويد فى الدوريات العلمية، ومن قبل النقاد عمومًا. ويزعم "إرنست جونز" Ernest Jones(*): أن أكثر اكتشافات فرويد الخلاقة قد تم تجاهلها؛ وأنه كان قد مضى أكثر من ١٨ شهرًا على نشره لكتاب "تفسير الأحلام" قبل أن يتم التعرض له لأول مرة فى الدوريات العلمية، وحتى بعدها، فإنه لم يُعرض إلا خمس مرات فقط، وفى ثلاث من هذه المرات الخمس كان العرض فى غير صالحه. ويستنتج "إرنست" من كل هذا أنه كان من النادر لكتاب بمثل هذه الأهمية أن يلقى مثل هذا التجاهل. ويضيف أنه بينما تم النظر إلى هذا الكتاب على أنه غير واقعى وسخيف؛ فإن: "ثلاث مقالات عن نظرية النشاط الجنسى" Three Essays on the Theory of Sexuality، الذى بحث فيها مسألة البراءة الجنسية خلال مرحلة الطفولة، اعتُبِرَ صدمة بالغة السوء، ونظر الناس إلى فرويد على أنه شيطان شرير ذو عقلية إباحية، واعتُبِرَ هذا الهجوم على البراءة النقية للطفولة أمرًا لا يغتفر.

(*) إرنست جونز (١٩٥٨- ١٨٧٩): طبيب نساء ومؤرخ إنجليزى من مواليد مقاطعة "ويلز" Wales، وهو من أوائل من حاولوا تطبيق مبادئ التحليل النفسى فى إنجلترا حتى من قبل أن يحظى بلقاء فرويد لأول مرة. وهو المؤرخ الرسمى الذى قام بكتابة تاريخ حياة فرويد، ونشر - بالإنجليزية - أعمال فرويد الكاملة. أيضًا لعب "إرنست" دورًا محوريًا وهامًا فى الدفاع عن فرويد ونظرياته؛ وفى مهاجمة ومحاصرة كل من حاول توجيه النقد لها خاصة "يونج" Jung، وظل وثيق الصلة به حتى وفاته. وعلى سبيل المثال: فإن "إرنست جونز" خاطر بحياته فى مارس ١٩٣٨ وذهب إلى فيينا لإخراج فرويد وأتباعه من اليهود من ألمانيا النازية، وفى لندن، استخدم علاقته الوثيقة بوزير داخلية بريطانيا العظمى آن ذاك لتأمين التأشيرات اللازمة لبقائهم هناك. (المترجم)

وأخيرًا، فإن مناصرته الحماسية للتحليل النفسى هى التى دفعت "المؤسسة الطبية الإنجليزية" British Medical Association للاعتراف رسميًا بالتحليل النفسى. (المترجم)

هذا، وقد حاول فرويد نفسه – فى سيرته الذاتية – أن يعطينا انطباعًا مماثلاً؛ فهو الذى يخبرنا: "لأكثر من عشرة سنوات بعد انفصالى عن "بروبير" لم يكن لدى أى أتباع أو مريدين. لقد كنت فى عزلة تامة، وفى ڤيينا تجاهلنى الجميع. وفى الخارج، لم يعرف أحد بوجودى، ونادراً ما عرض أحدهم – فى أى جريدة علمية – لكتابى "تفسير الأحلام" الذى نشرته عام ١٩٠٠م. وعلى الرغم من أن كتاباتى قد أزعجت نوم العالم بأكمله... فإنه لم يكن بإمكانى أن أعول على موضوعية النقاد أو تحملهم لآرائى".

إن كلامه السابق يتوافق مع أسطورة "العزلة" التى يتعرض لها "البطل" فى بداية رحلته وكفاحه، ولكنه ما علينا إلا أن نلقى نظرة واقعية على السجلات التاريخية التى تثبت أن نظريات فرويد قد لاقت استقبالاً مختلفًا تمامًا عن أحداث تلك الأسطورة التى حاول فرويد ومؤرخوه أن يفرضوها علينا؛ فكتابه "تفسير الأحلام" تم عرضه فيما لا يقل عن ١١ جريدة ومجلة دورية، منها سبع فى مجال الفلسفة، وعلم اللاهوت، وعلم النفس، والأعصاب، وعلم الجريمة. وكان كل عرض من هذه العروض مخصصًا بأكمله للحديث عن الكتاب، ولم يكن مجرد ذكر له، وبلغ مجموع كلمات هذه المقالات ما يزيد عن ٧٥٠٠ كلمة، وظهر معظمها بعد سنة واحدة من نشره للكتاب، وهو أسرع من المعتاد فى ذلك العصر.

أما بالنسبة لمقاله عن الأحلام Essay On Dreams فإنه لقى ١٩ عرضًا مختلفًا، وكلها ظهرت فى جرائد طبية ونفسية، وبلغ مجموع كلماتها ٩٥٠٠ كلمة فى المتوسط، خلال فترة لم تتجاوز ثمانية أشهر. وقد كان الباحثان "برى" Bry و"ريفكين" Rifkin هما من قاما بالحصول على النتائج السابق ذكرها. وفى هذا الصدد، ذكر الباحثان ما نصه:

"... لقد اتضح أن كتب فرويد عن الأحلام لاقت عروضًا واسعة، وتم ذكرها والتنويه بها فى كثير من الجرائد والدوريات العلمية، وكانت بعض هذه الدوريات مشهورة ومعروفة فى مجالها، بل إن رؤساء تحرير السير الذاتية السنوية فى كل من علم النفس والفلسفة اختاروا كتب فرويد عن الأحلام، وتم تضمينها فى إصداراتهم فى

نهاية عام ١٩٠١م تقريباً. أيضاً، فإنه تم ذكر مساهماته فى المجال الطبى، ومجال علم النفس، وكل الدوائر العلمية على المستوى الدولى. وكان كثير من هذه المقالات ذا صفة تفصيلية ومستوى علمى عال، وعديد ممن كتبوهم كانوا من الباحثين المحترمين المعروفين فى مجالهم، ولم ينقدوا آراءه إلا بعد تلخيص عادل لها".

ومن كل ما سبق، يمكننا استنتاج أن الكتابيْن اللذين كتبهما فرويد عن الأحلام قد لاقيا ما لا يقل عن ٣٠ مقالاً وعرضاً بلغت مجموع كلماتهم ١٧٠٠٠ كلمة، ويمكننا أن نلاحظ التناقض الواضح بين الحقائق، وبين ما زعمه فرويد وأنصاره عن هذه الفترة، خاصة فيما يتعلق بحجم النقد العدوانى لنظريته الجديدة عن الأحلام.

ولقد وصف أولهم كتابه عن الأحلام بأنه "فاتح لعصر جديد" Epoch-making، وعالم النفس "بول نايسك" Paul Naecke، الذى يتمتع بسمعة عالمية فى مجاله، وله باع طويل فى التعرض بالنقد لكثير من الكتب الطبية التى كتبت باللغة الألمانية، قال عن كتاب "تفسير الأحلام":

"إنه من أكثر الكتب عمقًا فى التفكير، وقد تم تَشكِيل الكتاب بتماسك، وكوحدة واحدة، بطريقة تدل على عبقرية كاتبه".

كما أنه من المثير أن نأخذ فى الاعتبار العرض الذى قام بكتابته عالم النفس "ويليام شترن" William Stern.. الذى وصفه "إرنست جونز" بأنه عرض مدمر وظالم، مثله فى هذا مثل الصمت التام (التجاهل). أما ما قاله "ويليام" فهو:

"إننى أعتقد أن أكثر مساهمات فرويد قيمة هى سعيه الذى لا يكل، لأنه لا يُحِد نفسه بحدود خلال محاولاته لشرح "عالم الأحلام"، و"نطاق الخيال"، و"دور الأفكار المترابطة"، و"النشاطات الخيالية الجامحة"، و"العلاقات الجسدية". وكيف أنه أوضح تعدد الخيوط التى تصل إلى عوالم من الشعور أكثر تبلوراً من العوالم التى نعرفها، وهو ما يمكننا من الوصول إلى فهم أكثر وضوحًا للكيفية التى يتم بها اختيار المواد التى يستخدمها الخيال وطريقة تشكلها، كما أن الكتاب يحتوى على تفاصيل عديدة

ذات قيمة مثيرة عالية، وملاحظات جيدة، ومشاهد نظرية، بل إنه يحتوى على مادة غنية – بصورة غير طبيعية – لمجموعة من الأحلام المسجلة بدقة، وهو ما سيكون محل ترحيب من أى باحث فى مجال الأحلام ."

والشىء نفسه ينطبق على كتابه المسمى "ثلاث مقالات عن نظرية النشاط الجنسى" Three Essays on the Theory of Sexuality، فلقد تم تقبله بطريقة جيدة من قبل الأوساط العلمية، وتلقى ما لا يقل عن عشر مراجعات (Reviews Ten)، كان أغلبها فى صالحه، ورحبت بالمساهمة الجديدة التى قدمها فرويد، وإليكم ما قاله "بول نايسك" فى هذا المجال:

"أنا لم أصادف – من قبل – أى عمل من الأعمال تمكن من معالجة موضوع بأهمية 'المشاكل الجنسية'، بمثل هذه الطريقة المختصرة والعبقرية بالنسبة لكلٍّ من الفرد العادى والمتخصص. إن هذا العمل قد فتح آفاقًا جديدة. وكلٌّ من المدرسين والآباء أصبح لديهم الآن تعاليم جديدة، تساعدهم على فهم النشاط الجنسى عند الأطفال، وبالرغم من أن المؤلف يكثر من تعميم افتراضاته – مثله فى هذا مثل الأب الذى يفضل أطفاله على غيرهم من الأطفال – إلا أن هذا يدل على مدى حبه لنظريته وإيمانه بها. وإذا عجزنا عن فهمه فى نقطة أو أخرى؛ فإن هذا لا ينتقص من قيمة هذا العمل ككل. والقارئ وحده يستطيع أن يشكل فكرة صحيحة عن مدى غنى محتويات هذا العمل وقيمته. إنه من النادر العثور على كتاب يستحق النشر مثلما يستحقه هذا العمل".

كما أن أحد علماء الجنس قرر أنه لا يوجد عمل نشر فى عام ١٩٠٥م يساوى فى قيمته البحث الذى نشره فرويد عن النشاط الجنسى.

ويشير "سلوواى" إلى المعنى الخطير الكامن فى أن كل من عرض لهذا الكتاب لم ينتقد قرار فرويد بأن يبحث فى النشاط الجنسى للأطفال الرضع. واقتصر نقدهم على التأكيدات التى حاول فرويد أن يفرضها بوجود مناطق فمية وشرجية حساسة جنسياً لدى الأطفال الرضع، وكما قال "إلانبيرجر" Ellenberger:

"إنه لا يوجد ما هو أبعد عن الحقيقة من الافتراض الشائع بأن فرويد هو أول من قدم نظريات جنسية جديدة عندما كان الحديث عن الجنس من المحرمات التى لا يمكن تجاوزها؛ ففى مدينة "ڤيينا" وحدها كان هناك "ساتشر ماسوتش" Sacher-Masoch، و"كرافت إيبينج" Krafft-Ebing، و"ڤينينجر" Weininger. وكان الجميع يقرأ لهم. ومن ثم فإن أفكار فرويد عن الجنس ليست بالغريبة عن مجتمع "ڤيينا" فى هذا العصر".

هناك أدلة أخرى كثيرة تناقض ما قاله فرويد وكتاب سيرته الذاتية، عن نمو التحليل النفسى وتطوره، والمصير الشخصى لـ"البطل". وعلى القارئ المهتم بمعرفة هذه الأدلة أن يقرأ "سلوواى"، و"إلانبيرجر"، وغيرهم. ولقد ذكرت قائمة كاملة بأسماء هؤلاء فى نهاية هذا الكتاب، ولكن ما ذكرته بالفعل يجب أن يكون كافيًا لإثبات أن ما قاله فرويد وكتاب سيرته الذاتية لا يمكن أخذه على أنه حقائق دقيقة، وأنهم قد فعلوا هذا بهدف بناء أسطورة تظهر فرويد على أنه "البطل" التقليدى؛ وأنهم لم يسمحوا لأى حقيقة بأن تقف فى وجه هدفهم هذا. وهذا يقودنا إلى القاعدة الثانية للقارئ المهتم بالحصول على معلومات حقيقية عن التحليل النفسى..

القاعدة الثانية: "لا تصدق كل ما قيل من قِبل فرويد وحوارييه وكُتاب سيرته الذاتية، عن نجاح العلاج باستخدام التحليل النفسى". وعلى سبيل المثال: دعنا نعود لحالة "آنًا أو. Anna O." السابق ذكرها؛ فطبقًا للأسطورة ، فإن "بروير" تمكن من علاج "آنًا" من الهستريا. فهل هذا هو ما حدث بالفعل؟

كانت "آنًا" فتاة فى الحادية والعشرين من عمرها عندما فحصها "بروير" لأول مرة، وقد أصيبت بمرضها هذا خلال فترة عنايتها بوالدها المريض، وحسب رأى "بروير"، فإن الصدمة العاطفية المتصلة بمرض الوالد ووفاته، كانت هى السبب الرئيسى للأعراض التى عانت منها، وقد استخدم معها "بروير" طريقة العلاج بالكلام (Talking Therapy) السابق الإشارة إليها، وهى الطريقة التى تبناها فرويد فيما بعد، ولقد ادعى الاثنان.. أن الأعراض التى عانت منها "آنًا" قد زالت بصفة نهائية بفضل هذا العلاج التفريغى (Cathartic Treatment).

ولكنه – مؤخراً – تم العثور على أوراق ووثائق هذه الحالة فى مستشفى بيلڤيوا سناتوريوم النفسى (Bellevue Sanatorium) فى مدينة "كرويزلينجن" Kreuzlingen السويسرية، وهذه الأوراق تحتوى على الدليل القاطع على أن الأعراض التى عانت منها "آنًا" كانت لا تزال موجودة سنين طويلة بعد توقفهما عن علاجها.

كانت هذه الأعراض، قد بدأت بـ"كحة هستيرية". وسرعان ما أصيبت المريضة بتقلصات عضلية، ثم شلل، وثورات عصبية، واضطرابات بصرية. وأخيراً، بدأت تعانى من تصرفات غريبة(*) خاصة بطريقتها فى الحديث. وكل هذه الأعراض لم يعالجها "بروير"، واستمرت لسنين طويلة بعد انقطاعه عن رؤيتها.

ما هو أكثر أهمية، هو أن المريضة لم تكن تعانى من الهستيريا على الإطلاق، بل إنها كانت تعانى من مرض جسدى عضوى خطير، وهو بالتحديد "سل السحايا" Tuberculoses Meningitis، وقد قامت "ثورنتون" Thornton بإعطاء وصف تفصيلى لهذه الحالة قالت فيه:

"إن المرض الذى عانى منه والد برثا، (كما سبق وذكرنا فإن الاسم الحقيقى لـ"آنًا" هو "برثا بابينهام")، هو تعقيدات متكررة من مرض السل الرئوى، الذى كانت تعانى – هى الأخرى – منه، وقد كان هذا المرض شديد الانتشار فى ڤيينا، ومساعدتها فى تمريض والدها جعلها تقضى ساعات طويلة بجوار فراشه، مما عرضها للعدوى. وبالإضافة إلى كل هذا، فإن والدها قد قام بإجراء جراحة فى بداية عام ١٨٨١ (ربما كانت هذه الجراحة لفتح الكيس الذى كان يعانى منه ووضع خرطوم فيه لتصفيته)، وقد تم إجراء هذه العملية فى منزله، بواسطة جراح من ڤيينا، وخلال مساعدتها فى تغيير ملابسه والتخلص من الإفرازات التى كان يصفيها الخرطوم،

(*) كانت المريضة تفهم عندما يوجه لها الكلام باللغة الألمانية، ولكنها – أحيانًا – ما كانت ترد باللغة الإنجليزية. وغيرها من المشاكل اللغوية الأخرى الغريبة والمتعلقة بطريقتها فى الكلام. أما بالنسبة للشلل: فإنها عانت من شلل فى الرقبة والذراع الأيمن. (المترجم)

تعـرضت للمـزيد من العـدوى، وبالرغم من كل جـهـودها، فـإن والدها قـد توفى، وقـد ساعدت حالة الإرهاق التى كانت تعانى منها فى تمكين بكتريا العدوى من جسدها."

ومن الواجب استخدام وصف "ثورنتون" المفصل، كمرجع يشير إلى استمرارية هذا المرض، وعلى أن العلاج الذى قام به "بروير" كان عديم الفاعلية ولا صلة له بالعلة التى كانت تعانى منها؛ وأنه كان يعتمد على تشخيص مغلوط للأعراض التى عانت منها هذه المريضة.

وعلى الرغم من هذا، فإن كل الادعـاءات التى ذكرهـا فرويد وحـوارييوه لم تكن إلا استنتاجات خاطئة، ولقد أوضـحت "ثورنتون" أن فرويد كان يعلم عن يقين بخطأ هذه الاستنتاجات، هو وعديد من حوارييه، وفى الحقيقة فإن "يونج" كان أول من أشار إلى زيف تلك الادعاءات بنجاح هذه الطريقة فى العلاج.

إن أمثال هذه القصة تجعلنا مدركين لمدى الحذر الذى نحتاج إليه، فى التعامل مع الادعـاءات التى يذكرها فرويد وحـوارييوه عن النجـاح الذى تم تحـقـيقـه. وخـلال الصفحات القادمة سوف نتعرف على عديد من الأمثلة التى تظهر مثل هذا الميل للادعاء بأن المريض قد عولج بنجاح تام، بينما حقائق الواقع تناقض هذا الادعاء، ومن أمثلة هذه الادعاءات حالة "رجل الذئاب" **Wolf Man**، التى سنتعرض لها بالتفصيل فى أحد الفصول اللاحقة. مرة أخرى، فإننا سنتعرض هنا لأسطورة "البطل"الذى يتغلب على عشرات من العقبات المستحيلة، ويتمكن من إحراز النجاح. ولكن للأسف، فإن كثيراً من نجاحات فرويد لم تكن إلا **خيالاً**.

وعلى القارئ المهتم بمعرفة الحقائق أن يدرس – بحرص – الحقائق التاريخية التى جمعها كثير من الكتاب مثل "سلوواى" و"ثورنتون" و"إلانبيرجر"، وغيرهم من مَن كشفوا عن التفاصيل الحقيقية لهذه الحالات؛ فعلينا تذكر أن الحقائق لا تتشابه إطلاقًا، مع القصص التى رواها فرويد.

القاعدة الثالثة: إن القاعدة الثالثة فى فحصنا لمساهمات فرويد هى:

"إنه يجب علينا ألا نتقبل ادعاءاته بالأصولية(*)، بل إنه علينا أن نفحص أعمال من سبقوه بدقة؛ للتأكد من حقيقة " من له السبق " فى الوصول إلى ما يدعيه فرويد وينسبه إلى نفسه"؟

لقد لاحظنا من قبل – فى حديثنا عن اكتشاف "جالتون" لطريقة التداعى الحر – كيف أن فرويد لم يكن سعيداً بوجود من سبقوه فى الوصول إلى الطرق التى نسبها إلى نفسه. وبالمثل، فإنه استخدم الأعمال العظيمة للعالم النفسى الفرنسى: "بيير جانيت" Pierre Janet التى كتبها عن "القلق"؛ ولم يشر إليها على أنها من إنجاز غيره. ولقد قام "إلانبيرجر" بتوثيق ما ارتكبه فرويد فى حق هذا العالم الفرنسى بطريقة جيدة، ولعل أوضح مثال على هذا هو التعاليم الخاصة بـ"اللاشعور".

لقد حاول مؤرخو فرويد أن يوحوا لنا بأنه كان أول من تمكن من دخول الهوة المظلمة لـ"اللاشعور"؛ فها هو "البطل" المتوحد – كما صوروه – يواجه الأخطار الفظيعة خلال بحثه عن الحقيقة، ولكنه لا يوجد ما هو أبعد عن الحقيقة من هذه الإيحاءات، وفى كتاب "هوايت" المعنون: "اللاشعور قبل فرويد" The Unconscious Before Freud ذكر المؤلف بالتفصيل المئات من الأشخاص الذين سبقوا فرويد فى افتراض وجود "العقل اللاواعى". بل إنه من الصعوبة بمكان العثور على أى طبيب نفسى لم يفترض وجود صورة ما من صور "اللاشعور"، خلال علاجه النفسى للعقل البشرى. وبالرغم من أنهم جميعًا قد اختلفوا فى تفاصيل طبيعة هذا "العقل اللاواعى"، فإنهم جميعًا اتفقوا على افتراض وجوده.

(*) الأصولية هنا تعنى أن فرويد نفسه هو **الأصل**: فهو "*أول من*" استخدم هذه الطريقة، أو عَرَّفَ أعراض هذا المرض، أو طبق ذلك الأسلوب أو تلك الطريقة فى العلاج. وليس ما قد يتبادر إلى أذهان بعضنا من "المعنى الدينى" لهذه الكلمة، الذى يقضى بالعودة للأصول. (المترجم)

أما بالنسبة لفرويد، فإنه قد اقترب – في تفاصيل افتراضاته لطبيعة "العقل اللاواعي" – من آراء "إيّه. فون هارتمان" E. Von Hartmann صاحب الكتاب المشهور: "فلسفة اللاشعور" Philosophy of the Unconscious، الذي نشر في عام ١٨٦٨م. هذا، وقد ركز مؤلف الكتاب على شرح تمثيلي لعديد من الإجراءات والعمليات التي يقوم بها العقل اللاواعي؛ حتى إن "هوايت" قال:

"في حوالي عام ١٨٧٠م لم يكن "اللاشعور" مجرد موضوع للحديث بين المحترفين، بل إنه أصبح المادة الأساسية التي يتكلم عنها كل من يريد أن يظهر ثقافته وتحضره. والكاتب الألماني "فون شبيلهاجن" Von Spielhagen في رواية له كتبت عام ١٨٩٠م قام بوصف الجو السائد في أحد صالونات برلين حوالي عام ١٨٧٠، وفي هذا الوصف سيطرت مسألتان على موضوعات المناقشة السائدة بين الموجودين في الصالون، المسألة الأولى: هي "ڤاجنر"، والثانية: هي "إيه. فون هارتمان"، فلم يكن للناس شغل إلا الموسيقى، وكتاب "فلسفة اللاشعور".

هذا الكتاب عبارة عن مجلد ضخم بلغ عدد صفحاته – عندما ترجم إلى الإنجليزية – ١١٠٠ صفحة، وفي هذا الكتاب، قام المؤلف بذكر كل من سبقوه في دراسة مسألة اللاشعور بما فيه كل الأفكار التي احتوتها الـ"ڤيدات" Vedas(*) الهندية،

(*) أحد أقدم الكتب المقدسة في الهند، وهو أكثرها أهمية، ويتكون من أربع "ڤيدات"، ويعود تاريخ أقدمها إلى النصف الثاني من الألفية الثانية قبل الميلاد (أي منذ أكثر من ٣٥٠٠ سنة)، وهي:

الجزء الأول: Rig-Veda (ترانيم ومزامير من أجل التواصل مع الآلهة) وارتبطت بالطب.

الجزء الثاني: Yajur-Veda (الطرق الواجب اتباعها في تقديم الأضاحي) وارتبط بالرمي بالسهام.

الجزء الثالث: Sama-Veda (ذخيرة من الطقوس والشعائر) وارتبطت بالموسيقى والرقص المقدس.

الجزء الرابع: Atharva-Veda (أحجبة وتعويذات) وارتبطت بالعلوم العسكرية. وكلها أشارت – بوضوح – لوجود عمليات تتم بصورة لا شعورية، قبل فرويد بمئات السنين. (المترجم)

وكتـابات كل من: "ليبنى" Leibniz، و"هَمّ" Hume، و"فيـخنر" Fechner، و"كانط" Kant، و"فـيـخـتـر" Fichter، و"هامـان" Hamann، و"هردر" Herder، و"شـالينج" schalling، و"شـوبرت" Schubert، و"ريخـتـر" Richter، و"هيـجل" Hegel، و"شـوبنـهاور" Schopen-hauer، و"هربارت" Herbart، و" كاروس" Carus، و"ڤونت" Wundt.

وكمـا قال "هوايت"، فإنه بحلول عام ١٨٧٠، فإن أوروبا كانت قد أصبـحت على استعداد لأن تهجر وجهة نظر "ديكارت" وأتباعه، بأن العقل ما هو إلا إدراك، ولكنهم لم يكونوا على اسـتعداد لأن ينتظروا أكثر من هذا حتى يأتى علم النفس ويتـعامل مع هذه المشكلة. ويخبرنا "هوايت"، بأن فرويد لم يقرأ "فون هارتمان" ولكنى لا أعتقد بصـحة هذا. وعلى أى حال، فإنه كان من المعلوم أن فرويد كان يمتلك كتابًا يشرح بالتفصيل الأفكار التى عبر عنها "فون هارتمان" فى كتاباته.

ولعل بعض المقتطفات من أقوال الأطباء النفسيين التقليديين فى إنجلترا، يمكن أن تعطينا فكرة عن مـدى أهميـة اللاشـعور، وكيـف أنه كـان مقـبولاً قـبل فـرويد بوقت طويل، وإليكم ما قـاله "لايكوك" Laycock فى كـتاب نشره عـام ١٨٦٠م: "يمكن القـول بأنه لا توجد "حقيقة عامة" مثبتة من خلال الخبرة الإنسانية؛ أو مقبولة عالميًا – بصفتها مرشدًا – فى أمور الحياة، مثل حياة "اللاشـعور" وأفعاله".

ولقد عبر "مـودزلى" Maudsley عن تفكير المدرسـة الإنجليـزية فى الطب النفسى فى كتابه: "الفيسيولوچيا وأمراض العقل" Physiology and Pathology of the Mind المنشور فى عام ١٨٦٧ عندما قال: "إن أهم جزء من النشـاط الذهنى – وهى العملية المركزية التى يعتمد عليها التفكير – هو "النشاطات الذهنية اللاشعورية".

وهنـاك عـديد مـن الأمثلة الأخـرى التى يمكن لنا أن نعـرض لها؛ فمـن كتـابات W. B. Carpenter، وJ. C. Brodie، وحتى كتابات D. H. Tuke.

ولهذا سأكتفي بذكر مقولة واحدة أخرى لـ"ڤيلهالم ڤونت" Wilhelm Wundt. الذى يعتبر الأب الروحى لعلم النفس التجريبى ومن أشد المؤمنين بالاستبطان(*) ويكون من الصعب تخيل مثل هذا الرجل مهتم بمسألة اللاوعى، وإليكم ما قاله:

"لحسن الحظ فإن عقولنا مجهزة بطريقة جيدة، حتى إنها تعد لنا الأسس الهامة التى نحتاجها لأفكارنا دون أن يكون لنا أى دراية بتفاصيل ما يحدث، ونحن لا نكون على وعى إلا بالنتائج فقط. إن هذا العقل اللاواعى، مثله مثل الكائن المجهول الذى يقوم بزرع وإنتاج الخضروات ويسلمها لنا جاهزة للأكل".

إن كل ما سبق يوضح لنا - بما لا يدع مجالاً للشك - أنه كان هناك كثير من الفلاسفة وعلماء النفس والأطباء الذين سلموا بوجود "العقل اللاوعى" قبل فرويد بزمن طويل، وفكرة أنه هو الذى اكتشف "اللاشعور" ليست إلا ادعاء أجوف. وفيما له صلة بهذه النظريات عن "اللاشعور": فإن الطبيب النفسى الألمانى الشهير "إيبنجهاوس" H. Ebbinghaus، الذى يعود له الفضل الكامل فى تقديم دراسة تجريبية متكاملة عن "الذاكرة" Memory قد قال عن نظريات فرويد:

"إن ما هو جديد فى هذه النظريات ليس صحيحًا، وما هو صحيح فى هذه النظريات ... ليس بجديد".

إن المقولة السابقة قد لخصت بدقة نظريات فرويد، بل وكل أعماله.

إن وجود نشاط عقلى لا وعى لنا به هو أمر مؤكد، ولكن "اللاشعور" عند فرويد.. يبدو كأسطورة من أساطير القرون الوسطى؛ أسطورة مملوءة بشخصيات خرافية

(*) الاستبطان: هو فحص المرء لأفكاره ودوافعه ومشاعره، وهناك تعليم يقضى بأن "علم النفس" يجب أن يعتمد - أساسًا - على معطيات مشتقة من "الاستبطان" بما يعنيه من نظرة متأملة لداخليات الفرد؛ وفحص الفرد لأفكاره ومشاعره والدوافع التى تحركه.(المترجم)

مـثل: الـ "هو" Id(*)، والـ "أنا" Ego(**)، والـ "أنا-الأعلى" Super-ego، والـ "رقيب" Censor(***)، و"إيروس" Eros(****)، والـ "ثاناتوس" Thanatos(*****).

وكلها مشربة بمجموعة مختلفة من "العقد"، مثل عقدة: "أوديب" Oedipu، وعقدة: "إلكترا" Electra. وهى عقد تبلغ حدًا من السخافة يجعلها لا تستحق أن توصف بأى صفة علمية.

دعونا الآن نعود إلى القواعد التى اقترحتها على القارئ لأعمال فرويد.

القاعدة الرابعة: تقضى هذه القاعدة بأن على القارئ أن يكون حريصًا فى تقبله للأدلة التى يقدمها فرويد - وكُتَّاب سيرته ونظرياته - على صحة نظريات فرويد، وفى الغالب الأعم، تكون هذه الأدلة فى غير صالح تلك النظريات.

(*) الـ Id: وتعنى الـ "هو" - أو الـ "هى" - وهو مفهوم ينطوى - عند فرويد وأتباعه - على النزعات الغريزية فى الجانب اللاشعورى من النفس، التى تكون خاضعة لمبدأ اللذة. ومعنى هذا - عند أتباع نظرية التحليل النفسى - هو "شخصية الفرد" كما كانت عند ولادته، وقبل أن تحدث لها أى تحويرات أو تعديلات نتيجة الاحتكاك بالبيئة أو نتيجة الخبرات والتجارب الواقعية التى تمر بها؛ فعند الولادة يكون كل ما لدينا هو الـ Id = "الهو" فقط. (المترجم)

(**) الـ"أنا" Ego: هى الشكل الذى تتحول إليه "شخصية الفرد" نتيجة لاحتكاكه بالبيئة المحيطة، وما فيها من واقع يجبره على التكيف والتحور حتى يصبح لكل فرد "الأنا" المميزة له. وعلى ذلك، فإن "الأنا" قادرة على تقييم الأمور وتوجيه سلوك الفرد فى طريق وسط بين رغبات "الهو" ودوافعها الغريزية، وبين النواهى والقيود التى تفرضها "أنا-الأعلى". أما الـ"الأنا-الأعلى Super-ego": فهى أحد جوانب "الأنا" الذى تشبع ببعض من "المثل العليا" المحيطة بالفرد، وتحاول فرضها على كل سلوكياته، فهى تمثل "ضميره". وكل منهما لها نشاطها الشعورى واللاشعورى. (المترجم)

(***) "الرقيب" Censor: هو الذى يقوم بحماية الوعى عند الشخص النائم .. طبقًا لأتباع نظرية التحليل النفسى، فهو يبعد عن الفرد النائم كل أنواع العقد والذكريات البغيضة، التى قد تكون مؤلمة له بما يفوق قدرته على الاحتمال، وهو ما قد يتسبب للنائم فى الاستيقاظ. (المترجم)

(****) "إيروس" Eros: هو إله الحب والرغبة الجنسية عند الإغريق، وكثيرًا ما استخدم فرويد وأتباعه هذا الاسم بمعنى: غريزة الحياة (غريزة البقاء)، أو بمعنى غريزة الحب (الغريزة الجنسية). (المترجم)

(*****) "ثاناتوس" Thanatos: هى غريزة الموت أو الفناء. (المترجم)

خلال بقية هذا الكتاب، سنجد كثيرًا من الأدلة التى تؤيد هذه القاعدة، لكننى سأعطى - الآن - مثالاً واحدًا على صحتها، وهذا المثال مأخوذ من نظرية فرويد عن الأحلام، التى يدعى فيها: أن الأحلام دائمًا ما تكون لـ"تحقيق الأمانى"، وأن هذه "الأمانى" تكون مرتبطة بأشياء مكبوتة منذ مرحلة الطفولة الأولى. وكما سنوضح فيما بعد - فى الفصل المخصص بتفسير الأحلام - فإن فرويد فى كتابه قد أعطانا كثيرًا من الأمثلة التى توضح الطريقة التى استخدمها فى تفسير الأحلام. ولكن ما يثير الدهشة هو أن كل الأحلام المذكورة لم يتعامل أىٌّ منها مع أشياء مكبوتة منذ مرحلة الطفولة الأولى، وهذه الحقيقة الأخيرة معترف بها، حتى من جانب تلاميذ مدرسة التحليل النفسى أنفسهم. وفى هذا المضمار سوف أستشهد بكلمات واحد من أكثر أتباع فرويد تشددًا، ألا وهو "ريتشارد م. جونز" Richard M. Jones؛ ففى كتابه "الجديد فى علم نفس الأحلام" The New Psychology of Dreaming، قال لنا:

"لقد فحصت كتاب "تفسير الأحلام" بدقة، ويمكننى أن أؤكد أنه لا توجد حالة واحدة من حالات "تحقيق الأمانى" يتوافر فيها المواصفات التى ذكرها فرويد على أنها تعبر عن: "أشياء مكبوتة منذ مرحلة الطفولة الأولى". وفى كل حالة نجد أن هناك أمانى، ولكن كل أمنية، إما أن تكون انعكاسًا لأمر خارجى فى الوعى، أو أمنية مكبوتة لمرحلة من مراحل ما بعد الطفولة الأولى".

وسوف أعود فيما بعد إلى بحث هذه النقطة.

دعنا الآن نأخذ مثالاً من طبيب أمريكى معروف؛ لأن هذا المثال سيوضح الصعوبات التى تواجه تفسير الأحلام طبقًا لنظرية فرويد، وهذه هى أحداث "الحلم"، كما رواه الطبيب: "حلمت امرأة شابة بأن هناك رجلاً يحاول أن يعتلى حصانًا صغيرًا بنى اللون يتسم ببعض الجموح، وقد كرر هذا الرجل محاولاته ثلاث مرات، وفى المحاولة الرابعة نجح الرجل فى اعتلائه، ومشى به... ".

من وجهة نظر فرويد، فإن ركوب الحصان يرمز إلى العملية الجنسية، ولكن المحلل (فرويد) بنى تفسيره للحلم على الترابطات الموجودة بين أجزائه؛ فالحصان يذكر الحالة

بأن اسم التدليل خلال طفولتها كان "Cheval"، وهى كلمة فرنسية تعنى "فرسة"، وكان والدها قد قال لها: إن هذه الكلمة تعنى حصانًا بالفرنسية، كما أن المحلل النفسى قد لاحظ أن مريضته كانت ضئيلة الجسم وذات شعر بنى، مثلها فى هذا مثل الحصان فى حلمها، وأن الرجل الذى كان يحاول اعتلاء الحصان فى الحلم، كان واحداً من أعز أصدقائها، ولقد اعترفت المريضة بأنه كان بينهما كثير من المناوشات ذات الطابع الجنسى؛ وأن هذه المناوشات قد وصلت - فى ثلاث مرات مختلفة - إلى حد أنه حاول أن يمارس الجنس معها، وفى كل مرة من هذه المرات الثلاث تمكنت من السيطرة على الموقف فى آخر لحظة، وأنقذتها قوة أخلاقها.

ولكن "الإعاقات الداخلية" Inhibitions خلال الأحلام لا تكون بنفس القوة التى تكون بها فى الحياة الواقعية؛ ففى خلال هذا الحلم حدثت "مناوشة رابعة"، وانتهت بـ"تحقيق الأمانى"، ولهذا فإن تفسير الترابطات الموجودة بين أجزائه يؤيد التفسير الرمزى للحلم.

والطبيب النفسى الفرنسى "رونالد دالبيز"، الذى كتب كتابًا مشهوراً باسم: "طريقة التحليل النفسى وعلاقتها بتعاليم فرويد"، ذكر أن:

"فى كل كتب "التحليل النفسى" التى فحصتها، لم أتمكن من العثور على حالة بمثل وضوح الحالة السابقة؛ فعندما يتم تجاهل نظرية التحليل النفسى تنتفى السببية بين حالة اليقظة وحالة الحلم، وتصبح مجرد مصادفات بحتة، فمن ناحية: اسم التدليل الفرنسى الذى سميت به المريضة خلال طفولتها ("فرسة") والمحاولات الثلاث الفاشلة لإغوائها، ومن ناحية أخرى: المحاولات الثلاث الفاشلة لصديقها فى اعتلاء الحصان. ولا يوجد بينهما أى رابطة غير مستقلة. وهذا - بالذات - هو ما يرفض أن يتقبله أولئك الذين يرفضون التفسيرات التى يقدمها "التحليل النفسى" للأحلام".

وكثيرون من قراء مثل هذه التفسيرات لـ"الحلم" مقتنعون تمام الاقتناع بأن التفسير يؤيد نظريات فرويد. ولكن النظرة المتأملة تثبت - بالتأكيد - أن هذا غير صحيح فإن نظرية فرويد تقضى بأن "الأمانى" محل البحث تكون فى "اللاشعور"، لكنه

يجب علينا أن نعترف بأنه من الصعوبة بمكان لامرأة كادت أن تتعرض للغواية ثلاث مرات (مثل مريضتنا) أن تكون في حالة من "اللاوعى" برغبتها فى ممارسة الجنس مع الرجل الذى حلمت به. كما أن "الأمنية" محل البحث هنا، ليست بالشيء المكبوت منذ مرحلة الطفولة الأولى، بل إنها "أمنية" ظاهرة وموجودة فى الوقت الحاضر. وبمعنى آخر، فإن التفسير الذى تكلمنا عنه ليس بفضل نظرية فرويد فى تفسير الأحلام، بل إنه على العكس يثبت عدم صحتها؛ فـ"الأمنية" الموجودة فى هذا الحلم موجودة فى "الوعى" وليس "اللاوعى". كما أنها موجودة فى الحاضر، وليست مكبوتة منذ مرحلة الطفولة الأولى، وهو ما يتعارض مع افتراضات فرويد، وهو - أيضًا - ما يثبت ما ذكرته القاعدة الرابعة من أن الحقائق التى يمدنا بها فرويد لإثبات صحة نظريته تؤدى إلى ثبوت العكس (إثبات خطئها).

ولكن كل هذا لا ينفى أن من ينتقدون نظريات التحليل النفسى ليس عليهم إنكار وجود رابطة مستقلة بين الحلم والحقيقة؛ فإن الصلة الرمزية موجودة - كما سنرى فى الفصل الخاص بالأحلام - وتم استخدامها منذ آلاف السنين فى تفسير الأحلام، ومن كل ما سبق، فإننا سنكتشف أن مجرد استخدام "المنطق الشائع" Common-sense فى تفسير الأحلام والرموز الموجودة بها - سيكون أفضل بكثير من استخدام طرق فرويد، التى لا تتضمن حالة "اللاشعور"، أو "أمانى" منذ مرحلة الطفولة الأولى، ولقد ذكرت هذا المثال لأوضح أسلوب استخدمه فرويد ومريديوه بطريقة متكررة ليجعلوا القارئ يؤمن بأن هناك حالات معينة تؤيد وجهات نظر فرويد، وبالرغم من أن هذه الحالات تثبت العكس.

إن تفسير الحلم يكون مقبولاً؛ لأنه يتفق مع قواعد المنطق الشائع. وهو ما يمنع القارئ من أن يفكر بعمق فيما إذا كانت هناك صلة حقيقية بين الحلم وتفسيره من ناحية، وبين نظرية فرويد فى تفسير الأحلام.

الآن قد وصلنا إلى النصيحة الأخيرة التى أقدمها للقارئ فى محاولاته لتقييم "نظرية التحليل النفسى"، وفى تقييم شخصية من قام بتقديمها لنا.

القاعدة الخامسة: تقضى هذه القاعدة بأنه "خلال دراستنا وفحصنا لتاريخ حياة أى شخص، فإنه من الواجب علينا ألا نغفل عن ملاحظة: ما هو واضح(*)".

عند شرحنا لأهمية هذه القاعدة يكون من الواجب علينا العودة لتاريخ حياة فرويد، وأن نحاول شرح التناقضات العظيمة التى يمثلها، إن هذا التناقض يظهر فى التغير المفاجئ وغير المتوقع الذى حدث لفرويد فى بداية عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر (١٨٩٠ - ١٩٠٠)؛ ففى السنوات الأخيرة من عقد الثمانينيات كان فرويد يعمل محاضراً فى الجامعة، ومستشاراً شرفياً فى معهد أمراض الطفولة ومديراً لقسم الأعصاب به. وكانت له كتابات منشورة - وواسعة الانتشار - فى مجال الأعصاب كما أنه كان طبيباً ماهراً ومعروفاً، وكان زواجه ناجحاً وسعيداً، بالرغم من التزايد السريع لعدد أفراد أسرته التى كان عليه أن يعولها. أيضاً، فإن عيادة الأمراض العصبية الخاصة به، كانت تدر عليه دخلاً وفيراً. وكان عضواً تقليدياً محافظاً فى الطبقة البرجوازية، ولكن كل هذا تغير فجأة، مع بداية عقد التسعينيات.

أول مظاهر هذا التغير ظهرت بوضوح فى فلسفته العامة، فبينما كان متزمتاً وڤيكتورى النزعة فى موقفه من الجنس؛ فإنه أصبح فجأة من أكبر الدعاة للتحرر والتخلص من كل الأخلاق والقيم الجنسية التقليدية السائدة. كما أن أسلوبه فى الكتابة قد تغير، وقد ظهر هذا بوضوح من خلال أوراقه المنشورة؛ ففى السابق كانت مساهماته العلمية واضحة ودقيقة وتلتزم بالمعلومات والمعارف الموجودة فى عصره، ولكن أسلوبه تحول - فجأة - فأصبح يستنتج بطريقة غير عادية، واتجه إلى وضع النظريات التى تؤيد أسلوبه الجديد فى التفكير.

وقد أخبرنا "إرنست چونز"، المؤرخ الرسمى الذى قام بكتابة تاريخ حياة فرويد أنه خلال هذه الفترة (ما بين عامى ١٨٩٢ - ١٩٠٠ تقريباً)؛ فإن فرويد قد مر بحالة تغير شامل فى شخصيته. وطبقاً لأقوال "چونز" نفسه؛ فإن فرويد:

(*) يشير المؤلف بـ"ما هو واضح" إلى إدمان فرويد للكوكايين، وتأثير هذا على النظريات الغريبة التى خرج بها علينا. (المترجم)

"عانى من "عُصاب نفسى" Psycho-neurosis حاد، تميز بتقلبات شديدة فى المزاج؛ فمن قمة النشوى .. إلى اكتئاب فظيع، وفترات من انحطاط الوعى وتدهوره".

وخلال الفترة نفسها بدأ فرويد يعانى من متاعب مجهولة فى القلب وسرعة ضربات القلب، وعانى من مرض غريب يسمى: "عُصاب الأنف" Nasal Reflex Neurosis، كما أنه بدأ مرحلة من الكراهية العنيفة لصديقه وزميله القديم "بروير"؛ صاحبت إعجابه الشديد وإخلاصه لصديق آخر وهو "ويلهام فلييس".

أما آخر التغيرات العظيمة، فكان مختصًا بنشاطه الجنسى، فبالرغم من تزايد أهمية الدوافع الجنسية فى نظريته للتحليل النفسى، حتى إنها أصبحت حجر الأساس لنظريته العامة، فإن "نشاطه الجنسى الشخصى" تناقص، حتى إنه مع نهاية القرن التاسع عشر توقف تمامًا عن ممارسة الجنس مع زوجته.

ولعل من أبرز الأعراض والتغيرات التى حدثت لشخصيته خلال تلك الفترة - هو إيمانه الفوضوى برسالته؛ فهو قد تقبل أسطورة "البطل"، التى سبق لنا ذكرها. وتزايدت ميوله الديكتاتورية للتحكم فى مريديه، والتخلص من كل من لا يؤمن إيمانًا أعمى بنظرياته، وهذا التصرف الأخير يختلف بشدة عن سلوكيات فرويد المبكرة... التى لم يظهر خلالها أيًا من هذه السمات الشخصية الغريبة والمرفوضة.

هذا وقد قامت "ثورنتون" بوضع افتراضات واضحة ومحددة - على أساس المراسلات التى تمت بين فرويد و"فلييس" - تشرح من خلالها كل هذه التغيرات المفاجئة التى حدثت له، فى ظل إدمان فرويد للكوكايين.

مما لا شك فيه أن فرويد "أدمن" الكوكايين؛ فهو قد استخدمه للسيطرة على نوبات الصداع المتكرر التى كانت تنتابه بصفة دائمة، كما أنه كان متحمسًا فى تحبيذ استخدامه لهذا العقار لكل من أراد التحكم فى حالته العقلية.

وقد كان "فلييس" قد طور نظرية سخيفة عن التأثير الذى ينتجه استخدام عقار الكوكايين، وكيف أنه يزيل آلام الصداع النصفى، وغيره من الأمراض، عن طريق شمه.

ولكن ما حدث بالفعل هو أن استخدام ذلك العقار بالطريقة الموصوفة (عن طريق الشم)، جعله يمتص بسرعة - عن طريق الأغشية المخاطية فى الأنف - حتى إن العقار كان يدخل مجرى تيار الدم ويصل إلى المخ بسرعة، ومن دون أى تغيير يذكر فى تركيبه، ولا يوجد أى شك فى أن "فلييس" قد تمكن من إقناع فرويد وجعله يستخدم الكوكايين من أجل علاج نوبات الصداع النصفى التى كانت تنتابه، ولتحسين "العصاب الأنفى" الذى كان يعانى منه.

وإليكم نص ما قاله "أرنست چونز" فى هذا الصدد: "... لقد كان فرويد - خلال تلك السنوات - يعانى من عدوى أنفية. وفى الحقيقة، كان الاثنان يعانيان من هذه العدوى (أى فرويد وفلييس)، وتولد بينهما اهتمامًا متبادلاً وغير عادى بحالة أنف الآخر، وقد كان "الأنف" قد لفت انتباه وأنظار "فلييس" بسبب تداعياته الجنسية؛ فقد قام "فلييس" بإجراء جراحتين لفرويد، كانت الثانية خلال صيف عام ١٨٩٥م. وخلالها، قام بوصف استخدام الكوكايين لفرويد باستمرار".

ولكن لسوء الحظ، فإن استخدام الكوكايين بهذه الطريقة أدى إلى وقوعهما فى دائرة مفرغة؛ فإن كثرة استخدام العقار أدت إلى أمراض أنفية، وأضرت بدلاً من أن تفيد، ولقد أشارت "ثورنتون" إلى هذا، عندما قالت: "إن مثل هذا المرض يتوافق مع ما هو معروف عن أعراض التعاطى المستمر لعقار الكوكايين؛ فمن "التنكرز"(*)، إلى "سيلان المخاط"، لظهور قشور على السطح الداخلى للأنف، وحدوث تقرحات، وتعدد حوادث "نزف الدم" من الأنف، وما يتلو كل هذا من ... عدوى حتمية. إن العدوى التى تلحق بالأغشية المتقرحة تؤدى إلى تلوث حاد فى الجيوب الأنفية، وهو ما عانى منه فرويد بالفعل خلال النصف الثانى من حقبة التسعينيات".

(*) "التنكرز" Necrosis: هو "موت موضعى" (تليف) يحل ببعض أجزاء غشاء من الأغشية مما يجعله يفقد مرونته فيتشقق أو يتقرح، ويصبح - بسهولة - عرضة للعدوى. (المترجم)

هذا هو إذن السبب فى الاهتمام غير العادى، الذى أظهره كلٌ منهما بأنف الآخر، والذى كان مسار تسلية لـ"إرنست چونز"، عندما وصف العلاقة بين فرويد و"فلييس" قائلاً: "لقد بدأ كلاهما يعانى من تأثير تعاطى الكوكايين على الدماغ، ومن هذا نبعت النظريات الغريبة التى خرج علينا بها الرجلان، خلال هذا العقد من الزمان".

وهناك دليل مباشر على صحة هذه النظرية فى كتابات فرويد نفسه؛ ففى كتابه "تفسير الأحلام" ذكر لنا فرويد أنه كان قلقًا على حالته الصحية، بينما كان يكتب عن حالة مرضاه، وهذا هو نص ما ذكره:

"لقد كنتُ أتعاطى الكوكايين - بصفة متكررة - فى هذه الفترة، فى محاولة منى لتخفيض حجم الأورام الأنفية التى كنت أعانى منها، ولقد سمعت - منذ أيام قليلة - أن إحدى مريضاتى قد اقتفت أثرى، واستخدمت الكوكايين، وأنها بدأت تعانى هى الأخرى من عُصاب حاد فى الغشاء المخاطى الأنفى".

وقد علقت "ثورنتون" على هذا بقولها: "لم تقتصر استخدامات فرويد للكوكايين على حالات الصداع النصفى التى كانت تنتابه بين الحين والآخر، بل إنه وقع فى واحدة من تلك الدوائر المفرغة، عندما كان يتعاطى العقار لتخفيض حجم الأورام الأنفية، ولكن هذا الاستخدام المتكرر كان يجعل تلك الأورام فى حالة أسوأ خلال المرات التالية، بعد أن يزول التأثير الأولى له، وتكون النتيجة الحتمية هى التعاطى المستمر".

فهل يمكننا اعتبار أن القضية مثبتة بما فيه الكفاية؟

إن معظم الأدلة "ظرفية" على أحسن الأحوال، ولكن أى قارئ لتحليلات "ثورنتون" المفصلة والموثقة سوف يجد أن هذه "الأدلة الظرفية" قوية بما فيه الكفاية، ويمكن الحصول على مزيد من الحقائق من خلال المراسلات التى تمت بين "فلييس" وفرويد، وبالرغم من أن عائلة فرويد قد رفضت أن تسمح لـ"ثورنتون" وغيرها من المحققين الأكاديميين بقراءة هذه الخطابات.

إنه مما لا شك فيه أن التغيرات التى حدثت لفرويد تتوافق بدقة مع التغيرات الجسدية والنفسية التى تحدث للمرضى المصابين بإدمان الكوكايين.

وهذا، قد يجعلنا نضل الطريق - مثلما فعل "فرويد" و"بروير" في حالة "آنًا أو."- ونفسر أعراض جسمية، على أنها حدثت لسبب نفسى أو عُصابى. وفى كلتا الحالتين قد يكون هناك سبب جسمانى. والأطباء التقليديون عادة ما تفوتهم الأمراض النفسية وينسبون الأعراض لأمراض جسمانية، والطبيب النفسى يرتكب خطأ مشابهًا وإن كان فى الاتجاه العكسى، والتحقيقات المفصلة والخالية من الفروض السابقة هى وحدها القادرة على إطلاعنا على الأسباب الحقيقية للمرض.

* * *

لقد قلنا ما فيه الكفاية عن تاريخ حياة فرويد، والأخطار التى قد نتعرض لها إذا أخذنا أقوال فرويد وحوارييه على أنها "حقائق" تم بالفعل إثباتها، ولعل القارئ قد شعر الآن بالقلق والشك فى كثير من النقاط محل البحث.

فكيف يمكن لفرويد أن يشرح نظرياته عن "الأحلام" و"اللاشعور" فى كتاب تفسير الأحلام، ويستخدم أحلامًا تتناقض كلها مع هذه النظريات؟

وكيف أن كثيراً من النقاد الذين اعتبرهم فرويد معادين له بشكل مبالغ فيه، فشلوا فى ملاحظة **ما هو واضح**؟(*)

وكيف أن المحللين النفسيين الذين يعترفون بهذا العيب ما زالوا يدعون أن كتابه "تفسير الأحلام" عمل عبقرى؟

إن هناك عديداً من التساؤلات المشابهة للأسئلة التى طرحتها سابقًا. والإجابة الأساسية يجب أن تكون: هى أن نظرية فرويد ليست بنظرية علمية بالمعنى المتعارف عليه للكلمة، وأنه تم تقديمها كـ"حملة إعلامية دعائية"، وبغض النظر عن الحقائق التى حوتها كل حالة، وبدلاً من أن تقدم كأدلة على نظرية علمية.

(*) لقد أصبح من المفهوم الآن أن المؤلف يعنى - بـ"ما هو واضح" - أن فرويد لم يكن أكثر من "مدمن للكوكايين" عندما خرج علينا بهذه النظريات العجيبة؛ وأن هذا، هو التفسير الوحيد المعقول لهذا الانقلاب المفاجئ فى آرائه، والتضارب الشديد فى وجهات نظره. (المترجم)

إن جهود تلك "الحملة الإعلامية" قد اتخذت شكلاً غير عادى، وبالرغم من هذا، فإن نقاد هذه النظرية لم يحصلوا على إجابات علمية على اعتراضاتهم، بل تم اتهامهم بالعداء للتحليل النفسى ومؤسسه، الذى ما هو إلا نتيجة لمعاناتهم من العُصاب والكبت لأمانى الطفولة ومشاعرها. إن تلك المحاولات تتنافى مع العلم، ولا يمكن التعامل معها بجدية.

وأيًا كانت أهداف "الناقد"؛ فإنه على "العَالِم" Scientist أن يتقدم بإجابات على الجزء العقلانى من الانتقادات، وهو ما لم يفعله أتباع التحليل النفسى مطلقًا. كما أنهم لم يأخذوا فى الاعتبار وجود فروض بديلة للفروض التى تقدم بها فرويد، وسوف نقوم بتوثيق هذا خلال الفصول القادمة.

إن هذه ليست خصائص "العلم"، ولكنها أقرب إلى خصائص "الدين" و"السياسة". ودور "البطل الأسطورى"، يختلف تمامًا عن دور "العالم الجاد"، وهو أكثر اقترابًا من دور "الرسول الدينى" أو "القائد السياسى"، وهذه التعبيرات الأخيرة، هى فقط التى يمكنها تفسير الحقائق التى ذكرناها فى هذا الفصل وشرحها.

* * *

لقد كان علينا فهم "شخصية فرويد" الإنسان قبل أن نستطيع فهم "التحليل النفسى" كحركة، وفى كل الفنون توجد علاقة قوية بين الفنان والأعمال التى ينتجها. أما بالنسبة لـ"العلم" Science فإن الأمر يختلف تمامًا؛ فحسابات التفاضل والتكامل كانت ستخترع على أية حال حتى بدون "نيوتن". حتى إن "ليبنيز" قد اخترعها، فى الوقت نفسه تقريبًا، وبطريقة مستقلة تمامًا عن طريقة "نيوتن". وفى هذا الصدد، فإن "العلم" يجب أن يكون مستقلاً عن "العالِم" Scientist وعن "شخصيته"، أما "الفن" و"التحليل النفسى"، فإنهما يعتمدان على شخصية الفنان بطريقة وثيقة. وكما سنرى فيما بعد، فإن حركة التحليل النفسى لا يمكن أن تُعتبر "حركة علمية" بكل ما فى الكلمة من معنى، وكل ما هو خارج عن المألوف فى هذا الفصل ينبع من هذه الحقيقة البسيطة.

الفصل الثانى

التحليل النفسى طريقة للعلاج

بالنسبة للرجل العادى، فإن التحليل النفسى معروف كأداة وطريقة تستخدم لعلاج العُصاب وبعض الأمراض الذهانية Psychotic، ومما لا شك فيه أن فرويد قد أضاف وطور فى نظرية "التحليل النفسى" وطرائقها بغرض علاج مرضاه، غير أنه بالغ فى الآثار الإيجابية لهذه الطرق، وكانت أولى هذه المبالغات: هى الادعاء بأن "التحليل النفسى" قادر على علاج المرضى العقليين وشفائهم من كل مشاكلهم، أما المبالغة الثانية: فهى ادعاؤه بأن "التحليل النفسى" هو وحده القادر على فعل هذا.

إن نظريته فى "العُصاب" و"الذهان" - تحدد أساسًا - إن شكاوى المريض الذى يذهب إلى الطبيب النفسى أو الاختصاصى النفسى ما هى إلا أعراض لأشياء أخرى أكثر عمقًا، و"لعلة خفية"؛ وأنه بدون علاج هذه "العلة"، فإنه لا يوجد أمل فى شفاء المريض من مشاكله. ولو أننا حاولنا التخلص من الأعراض فقط، فإنها ستعاود الظهور مرة أخرى، أو سيظهر - عوضًا عنها - أعراض بديلة. أو بمعنى آخر انضمام أعراض جديدة، تتسبب فى القدر نفسه من المعاناة وربما أكثر. ولهذا، فإن فرويد ازدراها عندما سماها "علاج الأعراض"، وهو ازدراء شاركه فيه كل من أتى بعده.

إن فرويد كان يؤمن بأن هذه "العلة الخفية" هى سبب الأعراض التى تظهر على المريض، وأنها تنتج عن كبت الأفكار والمشاعر، التى تتعارض مع مبادئ المريض وضميره الواعى؛ فهو يؤمن بأن هذه الأعراض ليست إلا انفجارًا لثورة الأفكار والأمانى

المكبوتة والموجودة فى اللاشعور، إن الطريقة الوحيدة لعلاج المريض هى أن نجعله يدرك بعض ما يدور فى داخله عن طريق تفسير أحلامه وزلات اللسان التى قد تخرج منه أحيانًا، وحالات النسيان، والأفعال غير المقبولة التى تنتج كلها عن أشياء مكبوتة، ويمكن استخدامها لنقتفى أثر المصدر الذى نشأت عنه.

وبمجرد أن يتحقق للمريض قدر من هذا "الإدراك"، وفرويد يعنى بهذا ليس مجرد الموافقة الواعية من المريض مع طبيبه، لكنه يعنى أيضًا التقبل النفسى للمريض بوجود ترابط سببى بين الأعراض و"العلة" الخفية، وأن هذا وحده هو الذى سيجعل الأعراض تختفى، ويجعل العلاج ناجحًا.

وأنه بدون هذا الإدراك فإن بعض طرق العلاج قد تنجح فى التخلص من الأعراض لفترة، ولكن "العلة" ستظل موجودة.

إن هذا النموذج - إذا نظرنا إليه من وجهة النظر الطبية للأمراض - كان جذابًا جدًا للمشتغلين بالطب؛ فإن الواحد منهم قد اعتاد على سماع:

"إنه لا يجب علاج الحمى مباشرة؛ لأنها ليست إلا أحد "الأعراض" لـ"علة" تتسبب فى رفع درجة حرارة الجسم، وأن ما يجب علينا فعله هو مهاجمة **"العلة الحقيقية"** التى تتسبب فى وجود الحمى، وأن الحمى ستختفى بمجرد أن يتم معالجة الفرد من "العلة الأساسية"، والتخلص منها".

وبالطبع - فإنه حتى فى الطب العام - تكون هناك صعوبات فى التفرقة بين ما هو "علة" أو "مرض" من ناحية، وبين ما هو مجرد "عرض" من ناحية أخرى، وعلى سبيل المثال: هل القدم المكسورة "مرض" أم "عرض"؟

إن فرويد وأتباعه لم يشكوا مطلقًا فى إمكانية تطبيق النموذج الطبى على الأمراض النفسية، وكما سنرى فيما بعد، فإن وجهة نظرهم ليست بالضرورة صحيحة، وقد تم تقديم وجهات نظر بديلة فى هذا المضمار.

وفى السنوات التالية من حياة فرويد، نجده قد تبنى وجهة نظر متشائمة بخصوص إمكانية استخدام "التحليل النفسي" كطريقة فى العلاج. وقبل وفاته بفترة قصيرة، صرح بأنه سوف يُذكر على أنه كان "رائدًا" فى طريقة جديدة لاستكشاف النشاطات العقلية أكثر منه "معالجًا" Therapist. وكما سنرى، فإن هناك عديدًا من الاعتراضات الخطيرة التى تشكك حتى فى كفاءة "التحليل النفسي" كطريقة فى العلاج. لكن حيث إن معظم أتباعه كان عليهم أن يتعيشوا من العلاج بـ"التحليل النفسي"، فإنهم رفضوا تبنى وجهة نظره المتشائمة فى هذا الخصوص. وحتى الآن، فإن هناك ادعاءات قوية - من قبل بعضهم - تشكك فى كفاءة التحليل النفسى كطريقة فى العلاج! والجيل الجديد من "المحللين النفسيين" Psychoanalysts يحبذون استخدامه كعلاج للأمراض الذهانية، مثل: "الفصام" Schizophrenia، و"اضطراب الهوس الاكتئابى" Manic-depressive Disorder، وفى هذا المضمار، فإن هناك اتفاقًا - شبه عالمى - على أن "التحليل النفسي" ليس لديه ما يقدمه، وإن كان لهم ادعاءات أقوى بخصوص أمراض الاضطرابات العُصابية؛ أمراض مثل: حالات "الحصر" (القلق المرضى الشديد)، واضطرابات "الرهاب"(*)، و"العُصاب الوسواسي" Obsessive Neurosis(**)، و"العُصاب القهرى" Compulsive Neurosis(***)، و"الهستيريا"، وغيرها من الاضطرابات العُصابية.

(*) "الرهاب" Phobia: هى ذلك الخوف المرضى الذى لا يوجد له مبرر منطقى من خلال الأحداث الواقعية التى حدثت بالفعل للمريض. (المترجم)

(**) "العُصاب الوسواسي": هو غرام المريض بالقيام بأعمال محببة لنفسه (مثل النظافة الزائدة عن الحد) بغرض إحكام سيطرته على من حوله. وهذه الأعمال، رغم منطقيتها، يتم التمادى فيها بطريقة مبالغ فيها حتى تصل إلى حد يجعل الحياة صعبة، بل شبه مستحيلة. (المترجم)

(***) "العُصاب القهرى": هو اضطراب نفسى يتصرف خلاله المريض وكأنه مجبر على القيام بأفعال "نمطية" Stereotyped غير منطقية و"لا تتصف بالتعقل" Irrational. ومن الممكن أن يصاب المريض بخليط من أنواع العُصاب السابق ذكرها؛ مثل ما يحدث فى حالة: "عُصاب الوسواس القهرى" Neurosis Obses-sive Compulsive، الذى كثيرًا ما يكون متعلقًا بالنظافة. (المترجم)

من الواضح أن المرضى لا يمضون سنين عديدة تحت العلاج، مع ما يتضمنه هذا من تكاليف طبية إلا إذا كانوا مقتنعين بأن "التحليل النفسى" يستطيع أن يحسن أحوالهم، أو أنه يعالجهم من أمراضهم. وقد كان "التحليل النفسى" دائمًا ما يحاول أن يغذى هذه المشاعر، وهو ما يزال يدعى، أنه طريقة ناجعة فى علاج الاضطرابات العُصابية، وهو ادعاء لم تثبت صحته مطلقًا.

هذه تهمة خطيرة، وسيكون هدفى فى هذا الفصل - والفصل الذى يليه - أن أحاول مناقشة الحقائق بالتفصيل، وأن أبرر الاستنتاج الذى توصلت إليه. ولكن قبل أن نفعل هذا، دعنا نتفحص أسباب أهمية هذه التهمة الخطيرة.

إن أهمية هذا التساؤل يمكن تلخيصها فى سببين:

السبب الأول هو: لو أنه كان حقيقيًا أن "التحليل النفسى" - كطريقة للعلاج - لا يمكنها أن تقوم بما هو مفترض منها أن تفعله، لتلاشى اهتمام الأفراد بها تدريجيًا، ولتوقفت الحكومات عن تخصيص الأموال للعلاج باستخدام "التحليل النفسى" وتدريب الأطباء عليه، ولنظر الناس إلى المحلل النفسى على أنه معالج غير ناجح، ولأصبحت وجهات نظره فى الأمور الأخرى مهملة ومزدراة بمجرد أن يتضح لهم أنه فاشل فى مهمته الأساسية وهى معالجة مرضاه.

السبب الثانى هو: أننا سوف نبدأ فى البحث عن طرق أخرى أفضل للعلاج؛ وهذا سيشعرنا بأننا لم نعد مضطرين لاستبعاد "الطرق" التى سماها فرويد "علاج الأعراض"، لمجرد أن فرويد ادعى وجود نظرية تقترح عدم فاعلية هذه "الطرق" ("علاج الأعراض") فى العلاج.

إن كل ما سبق هو نتائج عملية مهمة، وإذا أخذنا فى الاعتبار العدد الضخم من المرضى المصابين باضطرابات عُصابية - تخبرنا الإحصاءات أن واحدًا من كل ستة أشخاص فى المجتمع يعانى بشكل شديد من الاضطرابات العُصابية، وفى حاجة إلى العلاج - فإنه يجب علينا التقليل من درجة التعاسة والبؤس التى يُنتظر حدوثها

باستخدام طريقة ناجحة فى العلاج. إن التلويح بآمال زائفة، تقدمها أمثال هذه الطريقة، جعلت المرضى يدفعون مبالغ طائلة من الأموال فى مقابل معالجة فاشلة، والتسبب فى ضياع كثير من وقت وجهد المريض دون طائل - حتى وصل الأمر فى بعض الأحيان إلى زيارات يومية للمحلل النفسى لمدد زادت عن أربع سنوات - وهى كلها من الأشياء التى لا يمكن لنا أخذها ببساطة، أو الاستخفاف بها.

ومن وجهة النظر العلمية، فإن هناك نتائج نظرية أخرى أكثر أهمية لفشل العلاج باستخدام "التحليل النفسى"؛ فطبقًا لهذه النظرية فإن العلاج يجب أن ينجح. وإذا لم ينجح العلاج، فإن هذا يشير بقوة إلى عدم صحة النظرية.

لكن المنطق الجدلى السابق، غالبًا ما يكون مرفوضًا من قِبل العاملين فى مجال "التحليل النفسى"، الذين يؤمنون بأن العلاج غير مرتبط بالنظرية، وأن النظرية قد تكون صحيحة، حتى لو فشل العلاج باستخدامها!

ومن الناحية المنطقية فإن هذا ممكن بالطبع؛ فقد تكون هناك عقبات - لم يعلم فرويد بوجودها - قد أدت إلى فشل نظريته، بالرغم من صحتها. لكن الاحتمال السابق غير وارد، خصوصًا أن المشتغلين بـ"التحليل النفسى" لم يقترح أىٌّ منهم وجود مثل هذه العقبات على وجه التحديد. كما أنه لا يوجد من بينهم من أجرى أبحاثًا للكشف عن مثل هذه العقبات. وفى البداية، ادعى فرويد أن نجاح المعالجات التى قام بها هو أكبر دليل يؤيد صحة نظريته. ولهذا، كان على الفشل أن ينبهه إلى وجود أخطاء فى هذه النظرية. ولكن هذا لم يحدث.

وعلى الرغم من كل هذا، فإن ما ترك أكبر الأثر لم يكن تعدد حالات الفشل التى عانى منها فرويد بل تعدد النجاحات التى لاقتها "الطرق البديلة"، والتى سوف نقوم بمناقشتها فى الفصل التالى. إن هذه "الطرق البديلة"، تعتمد فى أساسها على ما رفضه فرويد وسماه: "علاج الأعراض". وطبقًا لنظريته، فإنه علاج فاشل أو ناجح فى المدى القصير فقط. أما فى المدى الطويل، فإن نتائج "علاج الأعراض" هذا ستكون عودة الأعراض أو ظهور أعراض بديلة.

والحقيقة هى أن هذه النتائج الرهيبة لم تحدث - كما سنرى فيما بعد - وهو ما تسبب فى توجيه ضربة قاتلة لنظرية فرويد ككل؛ فلقد كان فرويد واضحًا فى تنبئه بأن هذه النتائج - على أساس نظريته - كان يجب أن يتم التأكد من صحتها، وهو ما لم يحدث فى الواقع. ولهذا، فإنه من الصعب الادعاء بصحة نظريته. وهى واحدة من الحالات القليلة التى قام فيها فرويد بالتنبؤ صراحة على أساس نظريته، وقد كان معه الحق فى هذا، فمن الواضح أن النظرية تتطلب النتائج التى تتنبأ بها، وأن الفشل فى الوصول لهذه النتائج يجب أن يؤدى - بالتبعية - إلى الإيمان بفشل نظريته.

فى بعض الأحيان يكون من الممكن إنقاذ النظرية من نتائج التنبؤات الخاطئة، إما عن طريق إجراء تغييرات بسيطة فى النظرية، أو تسليط الضوء على بعض العوامل التى تسببت فى خطأ التنبؤات. ولكن أيًا مما سبق لم يحدث من قِبل المؤمنين بنظرية فرويد، بل إنه من الصعب تخيل مثل هذه المحاولة.

لكل ما سبق، فإننى أقرر بأن دراسة تأثيرات "التحليل النفسى" لها أهمية كبرى فى تقييم مساهمات فرويد، والأمر ليس مطلقًا لأن العلاج قد ينجح بالرغم من أن النظرية مغلوطة، كما أنه من الممكن للعلاج أن يفشل بالرغم من كون النظرية صحيحة، ومن الناحية النظرية، فإن الحذر أمر ضرورى حتى نتجنب الوصول إلى نتائج خاطئة وغير مبررة. أما من الناحية العملية، فلا يوجد شك فى أنه عند فشل العلاج يكون من الواجب عدم محاولة إقناع الآخرين باستخدام علاج أثبتت التجربة فشله.

ومن الخصائص المثيرة للانتباه فى "التحليل النفسى" أنه لم تتم أى محاولات - من قبل القائمين عليه - لإثبات فاعليته حتى وقت متأخر جداً. فمنذ البداية، كان فرويد نفسه يعارض الممارسات الطبية المعتادة، التى كانت تقضى بإجراء تجارب طبية مقننة يمكن من خلالها تقييم مدى كفاءة الطرق الجديدة فى العلاج، وقد قام كثيرون من أتباعه بتبنى هذا الأسلوب نفسه. وكانت وجهة نظر فرويد هى أن الإحصاءات التى تقارن بين من عولجوا باستخدام "التحليل النفسى" والذين لم يستخدم معهم ستعطى نتائج زائفة. وحجته فى هذا أنه لا يوجد مريضان متشابهان فى كل شىء. والعبارة

الأخيرة صائبة، ولكنه من الصواب أيضًا أن نأخذ فى الاعتبار إجراء تجارب طبية مقننة يمكن من خلالها تقييم مدى كفاءة العلاج؛ فإن هذا لم يمنع الطب من التقدم، بل إن استخدام مثل هذه التجارب التحليلية الطبية المقننة هو الذى مكننا من تجميع معظم معلوماتنا الطبية، وأن الفروق الفردية ستتلاشى إذا استخدمنا عينة كبيرة نسبيًا، كما أن تأثيرات العلاج ستصبح ظاهرة فى المتوسطات التى نحصل عليها، وإذا كان استخدام "التحليل النفسى" يساعد بعض، أو معظم، أو كل المرضى فى مجموعة المرضى الذين يتلقون العلاج، وإذا كان عدم استخدامه يترك المرضى فى "المجموعة الضابطة"(*) The Control Group من دون تحسن؛ فإنه يكون فى إمكاننا - بصفة عامة - تحديد نجاح الطريقة محل الاختبار.

وإليكم ما قاله فرويد فى هذا الصدد:

"إن بعض أصدقاء "التحليل النفسى" قد نصحونا بأن نعيد الأمور إلى نصابها، وأن نواجه حالات الفشل التى لحقت بنا، عن طريق إجراء إحصاءات توضح عدد حالات النجاح التى تمكنا بالفعل من تحقيقها، ولكنى رفضت الأخذ بهذا الاقتراح، وحجتى فى هذا هى أن الإحصاءات تكون عديمة القيمة لو أن المفردات محل البحث لم تكن متشابهة، وفى الواقع، فإن الحالات التى قمنا فعلاً بعلاجها لم تكن مفرداتها متشابهة فى كثير من خواصها. كما أن الفترة الزمنية كانت أقصر من أن تمكننا من الحكم على فاعلية العلاج. كما أن كثيرًا من الحالات كان من المستحيل ذكر تفاصيلها؛ فقد كانت لأشخاص احتفظوا بأسرار مرضهم والعلاج الذى تعرضوا له. وعلى هذا،

(*) الطريقة العلمية المتبعة لإجراء أى بحث علمى سليم هى: اختيار عينتين عشوائيتين من المجتمع محل البحث. وبعدها، تجرى التجربة العلمية على إحدى هاتين العينتين (وتسمى المجموعة التجريبية)، بينما تبقى العينة الأخرى (التى تسمى "المجموعة الضابطة" The Control Group) تحت المراقبة فقط، ودون أن يتم إجراء أى تجارب عليها، أو تقديم أى نوع من "العقاقير الحقيقية" لأفرادها (أى أنه يتم إعطاؤها "علاجًا زائفًا" Placebo treatment لا يحتوى على أى عقار فعال، أو لا يتم إعطاؤها أى شىء على الإطلاق). ويكون كل هذا بغرض الحفاظ عليها كعينة ثانية من المجتمع الأصلى (أى كـ"معيار") لمقارنتها بالتغيرات التى تحدث على العينة الأولى نتيجة إجراء التجربة عليها. (المترجم)

فإن شفاءهم قد بقى سراً هو الآخر، أما أقوى الأسباب ضد هذا الاقتراح فقد أتى عندما أدركنا الحقيقة التى تقرر أن الطبيعة البشرية - فيما يختص بمحاولة علاجها - هى طبيعة غير منطقية، حتى إنه لا يوجد أمل فى التأثير عليها من خلال جدل عقلانى.

وفى هذا الخصوص يمكننى القول بأن الطبيعة البشرية مستعدة تماماً لأن تصغى بانتباه لمحاولات العلاج الناجحة الموثقة بطريقة علمية؛ فقد يكون البشر غير منطقيين، ولكنهم لا يتسمون بانعدام المنطقية إلى الحد الذى يجعلهم يفضلون نظريات قُدمت دون إثباتات على نظريات تؤيدها نتائج تجارب تثبت صحتها!

لو أننا أخذنا عبارات فرويد التشاؤمية بجدية، لوجب علينا ملاحظة أنها لا تقتصر على العلاج باستخدام "التحليل النفسى"؛ لأن عبارته سوف تنطبق - بطريقة متساوية - على أى شكل من أشكال العلاج النفسى، كما أنها ستنطبق أيضاً على تأثيرات العقاقير على الاضطرابات النفسية أو الجسدية. ونحن نعلم أن الحقيقة تخالف ذلك، كما هو واضح من التاريخ المسجل للعلاج النفسى. وبالنسبة للذين يتفقون مع فرويد، فإن الاستنتاج الوحيد الذى يمكن أن يخرجوا به هو: إن "التحليل النفسى" هو طريقة للعلاج لا يمكن التحقق من فائدتها أو قيمتها. وفى المستقبل فإن هذا سيقود المحللين لرفض الأخذ بها كطريقة للعلاج من الاضطرابات النفسية، ناهيك عن إصرارهم على أنها الطريقة الوحيدة المناسبة.

إن التجارب العلمية المناسبة (أى التى تستخدم "المجموعة الضابطة" التى لا تتعرض إلى أى علاج)، هى وحدها القادرة على جعلنا ندرك حجم التأثير الذى يحدثه العلاج باستخدام "التحليل النفسى"، وهى التى تمكننا من حل المشاكل الخاصة بتحديد مدى فاعلية العلاج من عدمه.

لكن بدلاً من كل هذا، فإن فرويد قد تمسك بالاعتماد على التاريخ الفردى لكل حالة على حدة، مقترحاً علينا أن حدوث تحسن أو شفاء كامل للمريض، هو الإثبات الكافى على أن "التحليل النفسى" هو علاج فعال. وهناك ثلاثة أسباب رئيسية تجعلنا نرفض هذا المنطق، وهذه الأسباب هى:

السبب الأول: إن المرضى المصابين بالعُصاب أو الذهان معروفون بتقلباتهم الشديدة؛ فإن الواحد منهم قد يظهر تحسنًا ظاهرًا لمدة أسابيع، أو شهور، أو حتى سنين. ولكن أعراض الاضطراب النفسي قد تعاوده من جديد، ولتبدأ دورة جديدة من المرض. وفي الأغلب الأعم، فإن الواحد منهم يذهب إلى الطبيب النفسي عندما يكون في أدنى حالته (أدنى نقاط هذه الدورة المرضية). وخلال هذه الفترة، يكون من الممكن للطبيب المعالج أن يحسن من حالة المريض، كما أنه يكون من الممكن أن يكون المريض في مرحلة التحسن الطبيعية خلال دورته المرضية، التي كانت ستحدث على أي حال، سواء كان يعالج من قبل طبيب أم لا. وهو ما يعرف باسم ظاهرة "أهلاً _إلى اللقاء" Hello_ Goodbye. فالطبيب النفسي يرحب بالمريض قائلاً: "أهلاً"، ويقول له: "إلى اللقاء" عندما تتحسن اضطراباته النفسية. والادعاء أن التحسن الذي لحق بالمريض هو نتيجة لجهود الطبيب النفسي هو علاقة سببية شبيهة بما يسمى: فرض الدائرة المفرغة الذي لا يضيف جديدًا "Post Hoc Ergo Propter Hoc"، وهو علاقة جدلية لا تحمل أي منطق معنوي(*)؛ لأنها تحاول الربط بين حدثين **لم يثبت بعد** وجود أي رابطة منطقية بينهما.

لمجرد أن الحدث "ب" قد تبع الحدث "أ" فإن هذا لا يعني بالضرورة أن الحدث "أ" هو الذي تسبب في حدوث الحدث "ب"؛ بل إنه من الواجب علينا الحصول على أسباب أقوى من هذا، حتى نتمكن من أن ندعي بفاعلية هذه الطريقة في العلاج.

إن هذا هو السبب في حاجتنا إلى "المجموعة الضابطة" The Control Group السابق ذكرها، التي لا تتعرض إلى أي علاج. إن هذه المجموعة تمكننا من أن نقارن أوضاعها وحالاتها بحالة المرضى الذين تعرضوا – بالفعل – للعلاج؛ فقد يتحسن كل المرضى، ولكن قد يكون هذا التحسن لا علاقة له بالعلاج، وأنه كان سيحدث على أي

(*) يسمى هذا الفرض: فرض الدائرة المفرغة الذي لا يضيف جديدًا. ومثال ذلك: عند سؤال المريض لماذا ذهبت إلى الطبيب النفسي؟ يجيب: لأنني أعاني من مرض نفسي. وما الدليل على معاناتك من المرض النفسي؟ الدليل هو مراجعة الطبيب. هذا معناه أنه لا توجد بيانات واقعية محايدة أو أدلة من الواقع. (المراجع)

حال بدونه. و"المجموعة الضابطة" وحدها، هى التى تمكننا من التأكد من هذا الاحتمال؛ فعندما لا تتحسن حالة أفراد "المجموعة الضابطة"، بينما يُظهر أفراد المجموعة التجريبية المعالجة تحسنًا ملحوظًا، فإن هذا يعطينا سببًا يبرر الاعتقاد بأن المعالجة كانت فعالة وذات تأثير إيجابى. ولكن إذا تحسنت حالة أفراد "المجموعة الضابطة" بنفس السرعة والقدر الذى تحسنت به حالة المرضى الذين تلقوا العلاج؛ **فإن هذا يحرمنا من السبب الذى يمكننا من الادعاء بأن طريقة العلاج فعالة**. وكما سنرى فيما بعد، فإن هذا الوضع الأخير هو الذى ينطبق على العلاج باستخدام "التحليل النفسى".

السبب الثانى: ورغم أهمية هذا السبب، فإنه كثيرًا ما يهمل، وهذا السبب هو: الحاجة إلى إجراء متابعة دورية لحالة المريض بعد الانتهاء من علاجه؛ فإن ظاهرة "أهلاً _ إلى اللقاء" Hello _ Goodbye ترى أن الطبيب النفسى يصرف المريض وهو فى أحسن نقاط دورته المرضية، وهذا يعنى أن حالة المريض سوف تسوء. ومن هنا تنبع أهمية "متابعة المريض" لفترة تمتد لسنوات، وإلا فشلنا فى معرفة التأثير الكامل للعلاج المطبق؛ فقد يكون العلاج المطبق عديم التأثير على المدى الطويل.

أيضًا فإنه من الممكن أن يكون العلاج قد عَجَّلَ بقدوم أحسن نقاط الدورة المرضية، ولكنه عجز عن منع المريض من استكمال دورته والوصول إلى أسوأ حالاته مرة أخرى. **وهو ما يعنى عدم فاعلية العلاج**. وكما سنرى فى هذا الفصل – فى الحالة التى سيعالج فيها فرويد "رجل الذئاب" – فإن هذا الاحتمال لم يخطر على بال فرويد، وأن ما ادعاه من نجاح معالجة أمثال هذه الحالات، لم يكن – فى حقيقته – إلا فشلاً واضحًا. إن متابعة حالة المريض هى ضرورة مطلقة لتقييم أى نوع من أنواع العلاج.

السبب الثالث: إن هذا السبب ينشأ من الاقتراح الساذج بأنه على الطبيب النفسى ذاته أن يقرر فى كل حالة ما إذا كان العلاج قد نجح أم لا. مع علمنا بالدوافع التى قد تحث الطبيب على إعلان نجاح طريقته فى العلاج؛ فإن الطبيب – مثله فى هذا مثل المريض – لديه كثير من الدوافع التى تحثه على تأييد نوع بعينه من أنواع العلاج؛ فالطبيب مدفوع لرؤية النتائج من خلال منظار وردى. ولهذا، فإن شهادة كل من الطبيب

والمريض لا تكون مقبولة؛ فنحن فى حاجة إلى "معايير موضوعية غير متحيزة" حتى نتمكن من أن نقرر بوضوح أن تحسن فعل ملموس ومعنوى قد حدث فى حالة مريض بعينه، وهو ما لم يحدث من قبل العاملين بالتحليل النفسى؛ الذين يعتمدون - بعناد - على تقديرهم الشخصى لحالة مرضاهم، **ومثل هذه المعايير المتحيزة وغير الموضوعية غير مقبولة علميا.**

أحد الأسباب التى تقدم - أحيانًا - من قبل العاملين فى مجال "التحليل النفسى"، بخصوص رفضهم لإجراء تجارب عملية تستخدم "المجموعة الضابطة" ومتابعة طويلة الأمد لحالة المريض، هو صعوبة تنفيذ هذا الاقتراح. إنه مما لا شك فيه أن هذه التجارب العملية صعبة جداً. ولكن، من المهم أن نجعل "نقطة محورية" شديدة الوضوح؛ ففى مجال العلم، عندما يقوم أحدهم بادعاء أنه تمكن من إنجاز وتحقيق شىء ما - مثل الادعاء بأنه ابتكر طريقة جديدة فى العلاج - فإن عبء إثبات فاعلية هذه الطريقة الجديدة يقع على المدعى. ومن المعروف أنه أمر أكثر صعوبة على "العَالِم" Scientist أن يثبت نظريته من أن يخترعها. وأن أمثال هذه الصعوبات من الخصائص المميزة للمجال العلمى ككل، ولا تقتصر على "التحليل النفسى" وحده.

وعلى سبيل المثال: فإن إحدى النتائج التى خرجنا بها من نظرية "كوبرنيق" Copernicus، هى أن "موضع النجوم" يكون متغيراً بسبب حركة الأرض حول الشمس. بمعنى أن: "الموضع النسبى" للنجوم سيبدو مختلفًا فى شهر ديسمبر عنه فى شهر يونيو؛ لأن الأرض ستكون قد تحركت حول الشمس. ولكن إثبات النظرية الأخيرة كان صعبًا جداً بسبب المسافات الهائلة بين النجوم والأرض والتغيرات بالغة الصغر فى زوايا الرؤيا، حتى إن الأمر استغرق ٢٥٠ سنة قبل أن نتمكن من ملاحظة هذه الفروق الضئيلة. ولكن أمثال هذه الصعوبات "متوقعة"، و"تحدث كثيراً"، و"يجب التغلب عليها" قبل أن نتقبل أى نظرية.

لكن المشتغلين بـ"التحليل النفسى" يسخرون من أى محاولات علمية تجرى للتأكد من صحة النظرية متعللين بهذه الصعوبات، ولكنه حتى يحين الوقت الذى يتم فيه

إجراء تجارب ناجحة تثبت النظرية، **فإن التحليل النفسى لا يحق له الادعاء بنجاح نظريته فى العلاج**، ومجرد حقيقة أنهم رفضوا مثل هذا الواجب ينعكس سلبًا عليهم كأطباء وكعلماء.

فما المشاكل التى تعترض طريق إجراء تجارب طبية تحليلية عملية؟

بالنسبة للغالبية العظمى من الناس، قد يبدو الأمر بسيطًا؛ فما علينا إلا تجميع عدد كبير من المرضى، وتقسيمهم عشوائيًا إلى مجموعتين، تكون إحداهما موضع العلاج والتجارب، بينما تظل الأخرى غير خاضعة له بصفتها "مجموعة ضابطة"، ونطبق التحليل النفسى على المجموعة الأولى، أما المجموعة الثانية ("المجموعة الضابطة")، فإنها لا تتلقى أى علاج على الإطلاق، أو يقدم لها علاجًا زائفًا Placebo(*)، ويتم دراسة التأثيرات بعد مرور عدد معين من السنوات.

ولعل أبرز الصعوبات التى تنشأ هى الإجابة عن السؤال التالى:

ما المعايير المتفق عليها، حتى يمكننا تقرير أنه قد حدث للمريض تحسن، أو تم علاج المريض وأنه شفى تمامًا؟

فإن المريض عادة ما يظهر عددًا معينًا من الأعراض ذات الطبيعة المحددة؛ فقد يعانى من "الخوف المرضى" Phobia، أو "القلق الشديد" Anxiety، أو نوبات الاكتئاب، أو قد يشكو من الوسواس القهرى، أو من شلل هستيرى لأحد الأطراف. وفى كل الحالات السابقة يمكننا - بالتأكيد - قياس مقدار التحسن أو العلاج بعد استخدام "التحليل النفسى". وبالنسبة لمعظم الناس، فإن هذا يشكل نجاحًا مرغوبًا فيه لهذه الطريقة فى العلاج. ويقول "التحليل النفسى": إن هذا ليس بكاف، وأننا قد نكون لم ننجح بعد فى التخلص من "العلة" الخفية بصفة نهائية، وأن هذه "العلة" هى التى تتسبب فى

(*) "العلاج الزائف" treatment Placebo هو تقديم عقار له نفس مظهر العقاقير التى تُقدم إلى المجموعة الأولى، ولكنه لا يحتوى فى حقيقته على أى دواء فعال. (المترجم)

كل الأعراض التى يظهرها المريض. وبالنسبة لعديد من "الاختصاصيين النفسيين" Psychologist، الذين يتبنون وجهات نظر مختلفة بخصوص طبيعة العُصاب؛ فإن اختفاء الأعراض التى يعانى منها المريض يكون كافيًا فى حد ذاته. وهم لا يطالبون بما هو أكثر من هذا، بشرط عدم عودة الأعراض أو أى أعراض بديلة.

من طبيعة الأشياء أن أمثال هذه التساؤلات لا يمكن الوصول فيها إلى حل بدون أن نتفهم تمامًا مشكلة النظرية التى تختفى تحت سطح الاضطرابات العُصابية. وحتى الآن، فإنه لا يوجد ما يشير إلى أننا قد وصلنا إلى أى نوع من التوافق بخصوص هذه النقطة، وكل ما نستطيع قوله حتى نوفق بين كلا الجانبين هو أن اختفاء الأعراض أمر ضرورى، ولكنه غير كاف لإعلان أن الحالة قد شفيت تمامًا.

إن الأبحاث كانت تركز أساسًا على التخلص من الأعراض كشرط أساسى لإثبات حدوث علاج، ولكنها كانت تهمل إمكانية بقاء "العلة" على حالها. ما دام ذلك لم يؤدِّ إلى عودة الأعراض – أو ظهور أعراض بديلة – فإن المناقشة ستبقى مجرد خلاف أكاديمى ليس له أهمية عملية كبيرة، ومن المشكوك فيه أن تكون له أى أهمية علمية؛ لأنه تحت هذه الظروف فإنه لا توجد أى طريقة لإثبات وجود هذه العقدة المزعومة، والمشتغلين بالتحليل النفسى يرفضون هذا ويتركون التساؤل السابق مفتوحًا.

أما التساؤل المهم فهو:

هل نجح "التحليل النفسى" فى التخلص من "الأعراض" بصفة نهائية؟

لقد وضعت علامات التنصيص حول كلمة أعراض لأنه بالنسبة لكثيرين من الاختصاصيين النفسيين، فإن الطريقة التى يُظهر بها المريض حالة العُصاب ليست "أعراضًا" لأى "مرض"، وكما سنرى فيما بعد، فإن "الأعراض" ليست فى حقيقتها إلا "المرض" ذاته.

بعد التغلب على مشكلة "المعايير"، علينا الآن مناقشة مشكلة هيكل التجربة والمجموعة الضابطة؛ فإن المشتغلين بـ"التحليل النفسى" كانوا مُحَددين ومتأكدين من أن

نظريتهم فى العلاج مناسبة لعدد صغير جدا من المرضى العُصابيين، وهم حريصون فى المعايير التى يطبقونها فى اختيار هؤلاء المرضى، فهم يفضلون المريض الصغير السن الذى تلقى قدراً جيداً من التعليم، ومرضه ليس خطيراً جدا، ولديه قدر لا بأس به من الثروة. بمعنى أنهم يفضلون المريض الذى تكون احتمالات استفادته من العلاج أفضل.

فى هذا الصدد، من المهم أن نتذكر - دائمًا - هذه الملاحظة؛ حيث إن "التحليل النفسى" قد يصبح عديم الجدوى كتقنية فى العلاج؛ لأن معظم الناس لن يكونوا على قائمة المحلل النفسى حتى يمكنهم الاستفادة منه. وفى الواقع، فإن هناك عدداً قليلاً جداً من المرضى فى الوقت الحالى يعالجون باستخدام "التحليل النفسى". ومعظم ما يقوم به المحللون النفسيون حاليًا، هو "تدريبات تحليلية" Training Analyses، بأن يمارسوا التحليل مع المسجلين لدراسة الطب النفسى، وغيرهم ممَن يطمحون لأن يصبحوا أطباء نفسيين أو محللين نفسيين!

ولعل أكثر ما يبرز مدى خطورة مشكلة الاختيار هذه هو الحقائق المستخرجة من إحدى الدراسات التقليدية؛ ففى هذه الدراسة كان ٦٤ ٪ من المرضى الذين يعالجون باستخدام "التحليل النفسى" من الحاصلين على الماچستير والدكتوراه (مقارنة بما لا يزيد عن ٢٪ أو ٣٪ من المجموع العام). وكان ٧٢٪ منهم فى وظائف مكتبية أو أكاديمية، وتقريباً نصف عدد الحالات كانوا من المشتغلين بعمل متعلق بالطب النفسى أو "التحليل النفسى".

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن ما يزيد الأمور تعقيداً هو أن نسبة الرفض العالية جداً لعدد كبير من المرضى الذين يتوقفون عن متابعة فترة العلاج قبل أن تصل إلى نهايتها (حوالى النصف). وبصرف النظر عن كونهم صائبين أم مخطئين فإن المشتغلين بـ"التحليل النفسى" يتصرفون على أساس أن طريقتهم فى العلاج مناسبة لجزء صغير جداً من الحالات المصابة باضطرابات نفسية. ومن يتم اختياره لهذا العلاج يتمتع بأفضل الظروف العقلية والاقتصادية التى يمكنها أن تؤهل المريض

للشفاء، وهكذا، حتى لو كان "التحليل النفسى" مصدراً مهمًا من مصادر الصحة الذهنية، فإنه يكون غير متوافر لكل من يحتاجونه.

أما "المجموعة الضابطة" فإنها تمثل صعوبة أخرى؛ فعندما لا تتلقى أى علاج على الإطلاق، فإنهم قد يبحثون عن مصدر مختلف يحصلون من خلاله على العلاج، إما عن طريق الذهاب إلى ممارس عام (طبيب)، أو كاهن، أو عن طريق مناقشة مشاكلهم مع أصدقائهم وأفراد عائلاتهم. وبهذا، يكونون قد حصلوا على نوع من أنواع العلاج، حتى وإن كان علاجًا غير معترف به طبيًا. وعلى سبيل المثال، فإنه من المعروف أن "الاعتراف" فى العقيدة الكاثوليكية له تأثيرات علاجية، وهو - بالتأكيد - نوع من أنواع العلاج النفسى؛ فكيف لنا أن نمنع أعضاء "المجموعة الضابطة" من استخدام مثل هذه الطرق، مهما كان اختلافها مع "التحليل النفسى"؟

بالإضافة إلى ما سبق، فإن هناك مشكلة أخرى؛ فإن "التحليل النفسى" قد ينجح؛ لأن نظريات فرويد صحيحة، وقد ينجح؛ لأنه يحتوى على عناصر معينة لا تمت بصلة إلى نظريات فرويد، وهذه العناصر هى التى تكون مفيدة للمرضى العُصابيين.

فعلى سبيل المثال: فإن الاهتمام والتعاطف الذى يظهره المحلل النفسى والنصائح المساعدة كلها تمثل فرصة للمريض فى مناقشة مشاكله وتفهمها بطريقة أفضل.

والعناصر السابقة تسمى "الأجزاء غير المحددة" **Non-specific parts** من العلاج النفسى، وهى "غير محددة"؛ لأنها غير مشتقة من أى نظرية بعينها، أو أى علاج للأمراض العُصابية. ولكنها شائعة بين كل أنواع العلاج النفسى، ولا تختص بطريقة معينة دون غيرها.

والآن، كيف لنا أن نفرق بين التأثيرات الناتجة عن "ما هو محدد"، والناتجة عن "ما هو غير محدد"؟

إن الإجابة تكمن فى استخدام "العلاج الزائف" **treatment Placebo** على أفراد "المجموعة الضابطة"، وهذا يعنى إعطاءهم علاجًا عديم الجدوى، وهو علاج يتجاهل كل

العناصر المهمة التى تدخل فى تكوين العلاج بنظرية التحليل النفسى. إن "العلاج الزائف" يعتبر ضرورة مطلقة فى كل تجارب الطرق التحليلية المقننة؛ لأن إعطاء "مادة غير فعالة" وخاملة كعلاج زائف - عندما يكون المريض فى حالة توقع لعلاج فعال - يمكن أن ينتج عنها تأثيرات قوية، ويكون هذا بسبب القدرة على الإيحاء، وفى بعض الأحيان تكون تأثيرات "العلاج الزائف" مساوية فى القوة لتأثيرات العلاج الفعال، وكلها عوامل توحى بأن العقار ليس له تأثيرات محددة على المرض.

إن كثيراً مما سبق يمكن أن يحدث خلال تجارب العلاج النفسى. ونتيجة لهذا، يكون وجود "المجموعة الضابطة" ضرورياً للحصول على نتائج جادة ويمكن الاعتماد عليها. ويكون من الواضح مدى صعوبة تصميم طريقة فى العلاج يتوافر فيها شروط العلاج الزائف من حيث عدم احتوائه على أى من الأجزاء المحددة للنظرية محل الاختبار، وعلى أن يكون - أيضًا - معنويًا من وجهة نظر أفراد المجموعة؛ فإن هذه العملية ليست بالمستحيلة، ولكنها صعبة وتحتاج إلى كثير من التفكير والخبرة.

هناك صعوبات كثيرة أخرى، ولكننا سنركز على تلك الصعوبة التى يُعتقد أنها شديدة الأهمية من قبل القائمين على التحليل النفسى. إن هذه المشكلة لها أبعاد أخلاقية، فكيف لنا أن نبرر حرمان أفراد "المجموعة الضابطة" من علاج ناجح بسبب فضولنا العلمى؟

إن التساؤل السابق يفترض أن العلاج ناجح؛ بينما الواقع هو: أننا ما زلنا نحاول التأكد من مدى نجاحه، وافتراض أن العلاج ناجح لمجرد أن استخدامه قد أصبح منتشراً هو من الأمور الشائعة فى الطب. وحتى وقت قريب؛ فإن فاعلية وحدات الرعاية المركزة - بالنسبة لبعض الأمراض - كانت من الأمور المسلم بها. ولكن ارتفعت بعض الأصوات بالنقد، وأعربت عن شكوكها فى مدى فائدة هذا النظام، واقترحت أن العناية العادية الطبيعية فى منزل المريض يمكن أن يكون لها نفس الفاعلية. وتكرر الشىء ذاته، فإن التجارب التحليلية تم مقاومتها بشدة من قبل المؤيدين لبقاء نظام وحدات الرعاية المركزة، وكانت حجتهم فى هذا هو أن حرمان المرضى فى "المجموعة الضابطة"

قد يعرض حياتهم للخطر، وعندما تم القيام بالتجارب التحليلية أخيراً، تم إثبات الحقيقة التى تقرر أن وحدات العناية المركزة ليست بالبديل الأفضل، بل إنها فى الواقع أقل بدرجة طفيفة خاصة فيما يتعلق بإنقاذ حياة المرضى!

ولكن ما أن يتم إثبات أن إحدى طرائق العلاج هى: طريقة ناجحة وفعالة، فإن حرمان بعض المرضى منها يصبح تصرفًا لا أخلاقيًا. أما "القضية العكسية"، عندما تكون فاعلية العلاج من الأمور التى لا تزال محل تساؤل، أو من المحتمل أن يكون لها تأثير سلبى (بمعنى أن تجعل المريض فى حالة أسوأ) - كما اقترح بعضهم بالنسبة للعلاج باستخدام التحليل النفسى - فإن هذه "المشكلة الأخلاقية" لم تشغل بالهم! ومن الممكن أن يقال: إنه أمر غير أخلاقى ألاّ نحاول اقتراح طريقة جديدة فى العلاج بعد أن تمر بنجاح من مرحلة التجارب التحليلية؛ لأننا إذا لم نقم بهذا، فإن أنواعًا غير فعالة وخطيرة من العلاج قد تطبق على المرضى. كما أن شيوع استخدام هذه الطرق قد يمنع ظهور طرق جديدة أفضل، والأبحاث التى تؤدى إلى اكتشافها.

قبل أن ندخل فى دراسة نتائج التجارب التحليلية التى تم إجراؤها خلال السنوات الأخيرة، فى محاولة لإثبات النجاح النسبى أو الفشل النسبى فى العلاج باستخدام التحليل النفسى؛ فإنه من المثير القيام بدراسة لتاريخ بعض الحالات النمطية التى قام فرويد بتقديمها كنوع من الدليل المؤيد لادعاءاته بأن التحليل النفسى هو تقنية ناجحة وفريدة فى علاج الأمراض الذهانية.

فى هذا الصدد، علينا ملاحظة أن فرويد قد قام بتقديم عدد قليل جداً من الحالات، وأنه لم يقدم تفاصيل كافية تمكننا من الحكم على النجاح النسبى للعلاج الذى تم تطبيقه؛ فدائمًا ما كان يحتفظ بقدر من المعلومات الضرورية فى طى الكتمان بحجة: "حماية خصوصيات المريض"، ودائمًا، ما كان يتجاهل متابعة الحالة بعد انتهاء العلاج، الأمر الذى لا يمكننا من الحكم على مدى استمرارية الفوائد التى حصل عليها المريض من خلال علاجه باستخدام التحليل النفسى.

أبرز هذه الحالات، هى قصة: "**رجل الذئاب**"؛ لأن المؤيدين له اعتبروها واحدة من أبرز النجاحات التى حققها فرويد، كما أن فرويد نفسه كان يؤمن بهذا. وبعد مرور ٦٠ سنة على علاج فرويد لهذا المريض، فإن "رجل الذئاب" قام برواية قصته - فى مجموعة من المقابلات الشخصية الطويلة - مع "كارين أوبهولزر" Karin Obholzer، وهى صحفية واختصاصية نفسية نمساوية. وكانت نتيجة هذه المقابلات كتابًا مثيرًا جدًا لأى شخص يرغب - بنفسه - فى الحكم على ادعاءات فرويد. وفى هذا الصدد علينا تذكر أن فرويد قد قام بنشر تاريخ ست حالات فقط، وأنه قام بتحليل أربعة فقط من مرضاه بنفسه.

اشتق اسم "رجل الذئاب" من حلم قام فرويد بتحليله بالتفصيل وبطريقة مركزة، وإليكم نص كلمات المريض فى وصف هذا الحلم:

"لقد حلمت بأن الوقت كان ليلاً، وأننى كنت راقدًا فى فراشى بحيث كانت أقدامى فى مواجهة النافذة. ومن نافذتى كان من الممكن لى رؤية صف من أشجار الجوز الكبيرة، وكان الوقت شتاء. فجأة، انفتحت أبواب النافذة على مصراعيها بقوة، وأكثر ما أثار رعبى هو أننى رأيت بعض الذئاب البيضاء تجلس على شجرة الجوز الكبيرة الموجودة أمام النافذة، كان عددهم حوالى ستة أو سبعة ذئاب، وكانوا جميعًا شديدى البياض، حتى إنهم كانوا يشبهون الثعالب أو الكلاب التى ترعى الأغنام؛ لأنهم كانوا جميعًا ذوى ذيول كبيرة مثل الثعالب، وآذانهم منتصبة مثل الكلاب المنتبهة والمتحفزة لشىء ما. كنت فى حالة رعب شديدة من أن تهاجمنى الذئاب وتأكلنى، فأخذت أصرخ واستيقظت."

عانى المريض من هذا الكابوس منذ أن كان فى الرابعة من عمره. ومن خلال هذا الحلم استنتج فرويد سبب العُصاب الذى عانى منه المريض. وطبقًا لآراء فرويد، فإن إحدى الخبرات المبكرة فى طفولة هذا المريض، هى التى أوحت له بهذا الحلم، وهى التى أمدته بأسس خوفه من الخصاء Castration Fears. وطبقًا لفرويد، فإن المريض عندما كان عمره ١٨ شهرًا عانى من مرض الملاريا. وكان ينام فى غرفة والديه بدلاً من أن ينام فى غرفة مربيته كالمعتاد. وفى ظهيرة أحد الأيام شاهد عملية جماع جنسى تتكرر

ثلاث مرات أمام عينيه. وتمكن من رؤية الأعضاء الجنسية لوالدته، كما تمكن من رؤية الأعضاء الجنسية لوالده. وفى تفسير فرويد لهذا الحلم والمشهد الرئيسى فيه، فإن الذئاب البيضاء ترمز للملابس الداخلية لوالديه.

نتج عن هذا المشهد الرئيسى - طبقًا لفرويد - تدهور خطير فى علاقة المريض بوالده؛ فهو قد تعاطف مع أمه ، ومع النساء عمومًا؛ لأنه لاحظ - فى مرحلة مبكرة جداً من طفولته - أنها لا تملك العضو التناسلى الذكرى، أى أنها فى "حالة خِصاء" دائم Castrated State. وبالرغم من هذا، فإن المريض قد كبت ميوله الجنسية الشاذة نحو الذكور. وظروفه المعقدة لم تجد متنفسًا لها إلا فى إظهار اضطرابات شرجية، بدأ المريض يعانى منها. إن فتحة الشرج، هى العضو الذى يستطيع من خلاله أن يتشبه بالمرأة. وحيث إن "جنسيته المثلية" His Homosexuality ذات الموقف السلبى(*) تجاه الرجال كانت قادرة على أن تعبر عن نفسها من خلال منطقة الشرج. والاضطرابات الوظيفية فى أداء هذه المنطقة كانت تتطلب كثيرًا من الحساسية والرقة ذات الطابع الأنثوى، وقد أظهرها خلال الأمراض الأخرى التى عانى منها، وكان من المفترض أنها السبب فى الصعوبات الطويلة الأمد والمستمرة التى عانى منها المريض مع أمعائه، وكانت تتسبب فى عدم تمكنه من التبرز بطريقة طبيعية لفترات وصلت إلى شهور. وكلها كانت متصلة - فى رأى فرويد - بالصعوبات والمشاكل المادية التى عانى منها المريض، وإليكم بعض ما قاله فرويد فى هذا الصدد:

"فى الأوقات التى عانى منها المريض من أمراض أخرى، كانت أحواله المادية تتسبب فى زيادة معاناته بدرجة كبيرة، وكانت حالته المادية عاملاً فعالاً فى عدم قدرته على الاستقلال بنفسه والتعامل مع مشاكل الحياة، كان المريض قد حصل على قدر كبير من الثروة من خلال ميراث حصل عليه من والده وعمه، وكان من الواضح أنه يعلق

(*) "الجنسية المثلية": هى رغبة الفرد فى ممارسة الجنس مع أفراد من نفس "نوعه" His Sex؛ بمعنى أن ترغب المرأة فى ممارسة الجنس مع الإناث؛ وأن يرغب الرجل فى ممارسة الجنس مع الذكور، و"الجنسية المثلية ذات الموقف السلبى تجاه الرجال" تعنى أن يكون هو المتلقى (من يلعب دور المرأة). (المترجم)

كثيرًا من الأهمية على الظهور بمظهر الثرى، وأن فقده لهذا الإحساس كان سيؤذى مشاعره كثيرًا، ولكنه كان على غير علم بحجم ممتلكاته، أو بحجم نفقاته، أو حتى بحجم ما هو متبق من تلك الثروة".

أما المشكلة الثانية - من وجهة نظر فرويد - فكانت علاقة "رجل الذئاب" بالنساء؛ فالمريض كان يشعر بأنه منجذب نحو الخدم، بل إنه سقط فى هوى إحدى الخادمات عندما رآها راقدة فى وضع معين (وهو نفس الوضع الذى رأى فيه أمه خلال المشهد الرئيسى الذى سبق لنا أن ذكرناه). ومن كل هذا استنتج فرويد أن رجل الذئاب كان يعانى من "عُصاب وسواسى" Obsessional Neurosis، وأنه كان يُعالج من هذا الاضطراب النفسى، ومن الاكتئاب، ومن أعراض أخرى وصفها فرويد فى كتابه، وبعد مرور أربع سنوات على العلاج باستخدام التحليل النفسى - وإعادة التحليل المرة بعد الأخرى؛ لأن بعض الأعراض كانت تعاوده من جديد - فإن فرويد أعلن شفاء "رجل الذئاب" وانتهاء العلاج!

لكن بعد فترة قصيرة، شعر الرجل بحاجته إلى مزيد من التحليل، وعُولج بواسطة "روث ماك برونزفيك" Ruth Mack Brunswick، لمدة خمسة شهور فى المرة الأولى، وبعدها بسنتين تم علاجه - بطريقة غير منتظمة - لفترة استمرت عدة سنوات. وبالنسبة للمشتغلين فى "التحليل النفسى"، فإن العلاج ونتيجته يعتبران نصرًا مؤزرًا، ونجاحًا ساحقًا للتحليل النفسى.

ولكن ما رأى "رجل الذئاب" فى هذا الخصوص؟

لقد بدأ رجل الذئاب حواره مع "كارين أوبهولزر" بأن قال:

"أنا أشعر بضيق شديد، فلقد كنت أعانى من اكتئاب فظيع مؤخرًا. ولعلكِ تفكرين فى أن "التحليل النفسى" لم ينجح فى مساعدتى".

إن هذه الكلمات لا تشير إلى النجاحات العظيمة للطريقة التى تم استخدامها، وقراءة الكتاب بالتفصيل تظهر بوضوح أن العلاج الذى قام به فرويد لم يُفد المريض فى

أى شىء على الإطلاق، ولم يحسن صحته الذهنية، ولا الأعراض التى كان يعانى منها، فإن حالته استمرت فى التقلب خلال الستين سنة التالية بعد إعلان فرويد أنه قد شفى وكما لو أن المريض لم يتلق أى علاج.

توضح هذه الحالة – بطريقة جميلة – ضرورة "المتابعة طويلة الأمد" لكل حالة بعد انتهاء العلاج؛ فلا يمكن الادعاء بنجاح العلاج إذا اختفت الأعراض فقط، بل يجب التأكد من أنها لم تعاود الظهور خلال السنين التالية. ومن المعروف أن فرويد قد اتهم المعالجين الذين يستخدمون الطرق الأخرى بأنهم يتبعون طرقًا تؤدى إلى حدوث انتكاسة للمريض، وأعلن أن طريقته هى: "الطريقة الوحيدة" التى تقضى على العقد الأصلية الكامنة فى اللاشعور، وبهذا تمنع حدوث انتكاسة للمريض، ومع كل هذا، فإن الحالة التى كان يتفاخر بها كثيرًا، والتى أشار إليها – مرارًا وتكرارًا – على أنها أقوى دليل على مدى القيمة العلاجية التى يمكن الحصول عليها باستخدام "التحليل النفسى"، كانت مبتلاة بعديد من المعوقات والانتكاسات؛ فمن معاودة ظهور الأعراض الأصلية، إلى حدوث انتكاسات خطيرة، وحتى الاستمرارية العامة للاضطرابات التى أعلن فرويد شفاء مريضه منها.

وفى حالة المريضة "آنًا أو". .Anna O (كان اسمها الحقيقى – كما تذكرون – هو "برثا بابينهام")، ادعى فرويد – وأنصاره – أنهم حققوا انتصارًا مؤزرًا، ولكن طبقًا لنص ما قاله "هـ. فـ. إلانبيرجر" H.F Ellenberger. فى كتابه الشهير:

"اكتشاف اللاشعور" The Discovery of the Unconscious: "إن هذا يعتبر رؤية خاطئة لما حدث."

و"كارل جوستاف يونج" كان على علم كامل بكل تفاصيل هذه الحالة، وقد قال:

"لقد تحدث كثيرون عن هذه الحالة على أنها مثال عظيم لنجاح العلاج بالتحليل النفسى. فى الواقع، إن شيئًا من هذا لم يحدث؛ فالحالة لم تشف إطلاقًا، خاصة فيما يتعلق بالأعراض التى نسبت إليها".

وكما ذكرت سابقًا، فإن "آنًا أو." لم تكن تعانى من العُصاب إطلاقًا، ولكنها كانت تعانى من "سل السحايا". والادعاء بأنها كانت تعانى من أعراض نفسية، وأنها قد شفيت، هو ادعاء سخيف يوضح مدى حجم انعدام المسئولية التى يمكن أن تتخفى تحت غطاء العلاج بالتحليل النفسى. هذا، وقد خصصت "ثورنتون" فى كتابها "فرويد والكوكايين" صفحات عديدة ذكرت فيها هذه الحالة بالتفصيل، وأعلنت بوضوح: أن فرويد قد أعطى وصفًا غير دقيق، ومخالفًا للحقيقة، ولتفاصيل ما حدث فى الواقع. كما أنها قالت: إن فرويد قد أخفى حقيقة: "أن الفتاة لم تشف" من خلال طريقته فى العلاج التفريغى، وأنه كان يعلم هذا علم اليقين. إن هذه الحقيقة الأخيرة - وحدها - يجب أن تدفعنا إلى التفكير فيما يلى:

"إنه يحاول إثبات صحة نظريته من خلال عرضه لحالات يدعى أنه تعامل معها بنجاح، وحتى بفرض صحة ادعاءاته فى هذا الخصوص، فإن الحالات الناجحة وحدها لا تكفى لإثبات صحة أى نظرية. وهو يعرضها كنموذج يوضح الأسلوب السليم الواجب استخدامه فى تطبيق نظريته ثم يحيد عن هذا الأسلوب ويخالفه. لكنه عندما يقوم - عن عمد - بخداع القارئ فيما يتعلق بالحقائق الرئيسية الهامة المتعلقة بهذه الحالة - مثل النتيجة النهائية التى آلت إليها المريضة - فكيف لنا أن نأخذ الحالات التى قدمها لنا بجدية؟ وكيف يمكن لنا أن نثق فيه مرة أخرى؟".

هذا، وقد ظهرت بوضوح درجة المبالغة الشديدة - التى استخدمها فرويد فى تفسيره لـ"أحلام" و"كلمات" و"أفعال" مرضاه - فى دراسته للقاضى الألمانى "دانيال بول سكربر" Daniel Paul Schreber. وأهمية هذه الحالة لا ترجع إلى الشهرة التى حصلت عليها عندما تم اقتراح "الجنسية المثلية" كسبب من أسباب "الفصام الهذائى" Paranoia (هذاء الارتياب). ولكن، لأن هذه الحالة أظهرت بوضوح كيف أن فرويد كان على استعداد لأن يهمل مفاهيمه الخاصة ويضعها جانبًا، عندما تدفعه الضرورة لهذا، ولعلنا لا نزال نذكر أنه كان من متطلبات فرويد - لتفهم أعراض وعلل مرضاه - أن يحصل على تحليل مفصل وتفسير لأحلام وأحداث خاصة فى حياة المريض، وأنه كان

يفى بهذه المتطلبات.. من خلال "التداعى الحر" Free Association. ومع كل هذا؛ فإنه - فى هذه الحالة - لم ير المريض أبدًا، بل اعتمد اعتمادًا كليًا على مذكراته المكتوبة، وقد كان "دانيال" هذا رجلاً شديد الذكاء ومتعدد القدرات، ولقد أمضى عشر سنوات فى مصحات عقلية مختلفة على أساس أنه يعانى من علة عقلية حادة، وبعد أن شفى قام بطبع ونشر قصة طويلة، تضمنت "الضلالات" Delusions التى كان يعانى منها، ولكن هذا الكتاب لم يكن يحتوى على أى معلومات عن عائلته، أو عن فترة طفولته، أو عن تاريخ حياته قبل دخول المصحات العقلية. وهى كلها، معلومات ضرورية جداً من وجهة نظر المفاهيم التى يعمل بها "التحليل النفسى"، كما أن وصفه لمرضه لم يظهر الترتيب الزمنى لتطورات أعراض هذا المرض، ولكنه أعطانا فقط الشكل النهائى الذى اتخذه هذا المرض. ومما زاد الطين بللاً قيام الناشر باقتطاع أجزاء من كتاب "دانيال"، وقد كانت هذه الأجزاء هى أكثرها أهمية من وجهة نظر "التحليل النفسى"!

وبالرغم من كل هذا، فإنه تبقى لنا - فى كتاباته - عديد من الخداعات السرابية ILLUSIONS(*)؛ فإن "دانيال" يخبرنا - فى كتاباته - بأنه قد تحاور مع "الشمس"، و"الأشجار"، و"الطيور". وكيف أن "الرب" GOD تحدث معه بلغة ألمانية فصيحة، وكيف أن كل أعضاء جسده قد تغيرت وتحورت، وكيف ستكون نهاية العالم، وكيف أن "الرب" قد اختاره لينقذ الجنس البشرى من الهلاك.

وقد ركز فرويد على اثنين من "الخداعات البصرية" ILLUSIONS(*) التى كان يعتقد أنها أساسية فى فهم حالة المريض؛ فلقد كان "دانيال" يعتقد أنه يمر بمراحل التغير التى ستحوله من "رجل" إلى "امرأة"، كما أنه كان قد اشتكى من أنه قد عانى

(*) المؤلف استخدم كلمة "ضلالات" Delusions فى العبارة الأولى، التى تعنى "تخاريف" و"ضلالات" المريض، ولكنه عاد بعد هذا، ليستخدم كلمة "خداعات" ILLUSIONS فى كل العبارات التالية، التى تعنى "السراب" أو "الخداع البصرى للحواس". وأنا أعتقد أنه لا يزال يعنى بها "ضلالات" و"تخاريف" المريض؛ فالاعتقاد بأن "الرب" GOD تحدث معه بلغة ألمانية فصيحة هى "تخاريف" و"ضلالات"، وليس "سرابًا" أو "خداعات حسية". (المترجم)

من اعتداءات جنسية شاذة من قبل طبيب الأعصاب "فليتشزج Flechsig" الذى كان يعالج حالته فى أول الأمر.

من خلال هذين الضلالين، افترض فرويد أن كبت "دانيال" لمشاعر الشذوذ الجنسى ("الجنسية المثلية") هو السبب فى علة "الجنون الهذائى" التى كان يعانى منها، ثم بدأ فرويد يعمم هذا.. على كل أمراض الفصام الهذائى. وقرر أنها نتيجة لكبت مشاعر "الجنسية المثلية" الموجودة لديه. فطبقًا لفرويد؛ فإن حبه للجنسية المثلية اتخذ من والد "دانيال" هدفًا له فى البداية. وبعدها، من طبيب الأعصاب "فليتشزج Flechsig". وبعدها من "الرب" أو "الشمس" و"الأشجار".

ويخبرنا فرويد أن الأصل الذى نبعت منه كل هذه الأعراض يكمن فى "عقدة أوديب" التى عانى منها "دانيال" خلال طفولته، وأن هذا نبع من خوفه من الخصاء، مما جعل فكرة أن يكون مستسلمًا جنسيًا لوالده تتسلط عليه. إن هذه الرغبة النابعة من اللاشعور ظلت مجهولة من قبل "دانيال" عندما وصل إلى مرحلة البلوغ، وقد قامت سلسلة من آليات الدفاع النفسى بحمايته من هذه الحقيقة. وقد تم هذا من خلال تحويل تلك الرغبة إلى شىء معاكس، ففى البداية تحولت إلى كراهية، ثم إلى "إسقاط" Projecting[(١)]، ثم إلى "إحلال" الكراهية ووضعها فى شخص آخر، وهو ما أدى فى النهاية لاعتقاده أن الآخرين يكرهونه. وهكذا يكون لدينا سلسلة معقدة لما يسميه القائمون على "التحليل النفسى" بـ"الإسقاطات"؛ فالمريض ينكر ما بداخله، ويدعى بأنه يحب والده، ثم يضع بدلاً منها: 'أنا لا أحبه'، ثم: 'أنا أكرهه'، ثم: 'أنا أكرهه لأنه يكرهنى ويضطهدنى'.

---

(١) الإسقاط هو محاولة الفرد الادعاء بأن الآخرين يعانون (أو ارتكبوا بالفعل) ما يعانى هو منه (أو ما ارتكبه هو بالفعل)، ولا يجرؤ على الإفصاح عنه. كأن يبدأ الفرد فى اتهام الآخرين بالكذب عندما يشعر بأن الآخرين قد بدؤوا يكتشفون كذبته، ويخشى أن يُفتضح أمره؛ فتكون أخر آلياته فى الدفاع عن نفسه هى: "الإسقاط": أى محاولة الادعاء بأن الآخرين هم الذين يكذبون.

ولكن النقاد أشاروا إلى أن شذوذ "دانيال" الجنسى لم يكن الجنسية المثلية Homosexuality، بل كان الرغبة فى تغيير جنسه Transsexuality(*)؛ وأن علته الذهانية كانت "الفصام" Schizophrenia، وليس هذاء الارتياب. وموضع اهتمامنا بهذه النقطة، ليس فى تحديد حقيقة ميوله الجنسية، أو حقيقة العلة(**) التى يعانى منها. ولكن موضوع اهتمامنا مركز على الكيفية التى قام بها فرويد بخلق "خدعة عظمى" مبنية على نظريات تعتمد على أسس غير حقيقية؛ فكيف يمكن لأى شخص أن يقوم بتجميع ذكريات شخص مصاب بالفصام - عبث الناشر بها واقتطع أجزاء مهمة منها - وبدون الرجوع إلى "مراحل العلة" التى سبقت ظهور الأعراض. وبعد كل هذا يعتبر أن ما لديه هو "الحقيقة"؟

وكيف يمكن له أن يختبر مدى مصداقية نظرية بهذا التعقيد؟

مما لا شك فيه أنه من حق العلماء أن "يستنتجوا"، وأن "يكونوا نظريات جديدة"، ولكن فى حالة فرويد، فإن نسبة ما هو "حقيقى" لحجم "المستنتج" ضئيلة جداً، وحالة "دانيال" هذا تعتبر أصدق تمثيل لضآلة حجم الحقائق، والفجوة الهائلة بينها وبين النظرية.

وعندما نفحص عن قرب عديداً من الحالات الأخرى التى تعامل معها فرويد، فإنها لن تكون فى وضع أفضل من وضعها فى هذه الحالة وأنا لن أخوض فى تفاصيل كثيرة ذكرها غيرى من المؤرخين النفسيين والطبيين من أمثال "ثورنتون"،

(*) الشذوذ الجنسى المعروف باسم الرغبة فى تغيير الجنس Trans-sexuality هو رغبة "الرجل" فى أن يصبح امرأة، ورغبة "المرأة" فى أن تصبح رجلاً. (المترجم)

(**) العلة الحقيقة التى عانى منها القاضى "دانيال" - طبقاً لما كشفت عنه مذكرات "والد دانيال" - هى: أن هذا الوالد الأحمق كان يعتنق أفكاراً شاذة، وغريبة، وشديدة التزمت فى تربية أطفاله. وهو ما دفع بابنه الأكبر (الأخ الأكبر لدانيال) للإقدام على الانتحار، ودفع بدانيال إلى أحضان الأوهام والجنون، ومن أمثلة الأساليب الشاذة التى تبناها: تحميم الطفل الرضيع - بدءاً من سن ثلاثة شهور- فى ماء بارد به مكعبات ثلج! وتقميط جذع الصبى بمجموعة من المشدات والأربطة التى تجبره على الجلوس بطريقة معتدلة على مائدة الطعام!! (المترجم)

ولكنى – فى الفصل الرابع – سأشرح حالة مماثلة بكثير من التفصيل، وهى حالة "هانز الصغير" Little Hans، تلك الحالة التى يفترض الجميع أنها قد وضعت أسس علاج الأطفال باستخدام "التحليل النفسى"، أما الآن فإننى سأكتفى بتقرير أنه: حتى بفرض أن الحالات الفردية يمكنها أن تبرز القيمة الحقيقية لأى علاج؛ فإن الحالات القليلة التى أبرزها فرويد يجب اعتبارها فشلاً ذريعًا فى علاج وتحديد نوع المرض أو العلة التى تعانى منها كل حالة، وليس نجاحًا مؤزرًا، مثلما حاول فرويد أن يقنعنا.

وأنه إذا كان هذا هو أحسن ما يمكن أن يقال عن العلاج باستخدام "التحليل النفسى"؛ فإنه يحق لنا أن نتعجب عما هو رأى العلماء والنقاد الذين لا يتفقون معه فى الرأى!

إن هناك إمكانية واحدة أخرى لم نذكرها بعد فى تقييمنا لنظرية فرويد؛ فلو كانت النظرية صحيحة لأمكننا أن نستنتج من هذا أن المريض – بسبب اكتشافه للسبب الحقيقى الكامن وراء الأعراض التى يعانى منها – ستختفى أعراض علته. وفى الواقع، فإن كثيرًا من المشتغلين بالتحليل النفسى يزعمون أن أعراض العلة تختفى. ولكن فرويد نفسه، لاحظ أن هذه الرابطة غير موجودة، بل إن العكس هو الصحيح. فلم يكن هناك ارتباط كبير بين تحسن حالة المريض، وشفاء "العلة" التى زعم أنه كان يعانى منها. ولكن هذه الحقيقة، لم تضايقه كثيرًا. وادعى أن انخفاض معامل الارتباط لم يكن بهذه الخطورة. ولكن من وجهة نظر تقييم مدى الفائدة العلاجية، فإن هذا يحرمها من آخر الإمكانات التى تسمح بإثبات فاعلية نظرية من النظريات فى علاج المرضى. والفجوة الضخمة فى الارتباط بين تحسن حالة المريض ووعيه بعلته (اكتشافه للسبب الحقيقى الخفى وراء الأعراض التى يعانى منها) يمكن استخدامها كدليل قوى على عدم صحة النظرية. ومن ناحية أخرى، فإن عدم وجود ارتباط يجب أن يجعلنا نتشكك فى صحتها.

قبل أن نأخذ فى الاعتبار التجارب التحليلية التى تم القيام بها للتأكد من فاعلية العلاج النفسى بصفة عامة، و"التحليل النفسى" بصفة خاصة؛ فإنه من المفيد أن نعلق على أحد النقاط الجدلية التى يقدمها المشتغلون بـ"التحليل النفسى" فى محاولاتهم

لتبرير النهج والإجراءات التى يستخدمونها؛ فهم يدعون أن نهجهم قد لا يزيل الأعراض، ولكنه يُمكِّن المريض من أن يتأقلم مع الأعراض بسعادة أكثر، وأن يتعلم كيفية التعايش معها. كما أنهم يدعون بأن التحليل النفسى يجعل المريض شخصًا أفضل؛ وإن كانوا لم يخبرونا بالمجال الذى تحسن فيه المريض وأصبح أفضل، وهو ما يجعل من المستحيل علينا قياس هذا التحسن. إن هذه الادعاءات قد تكون إشارة منهم إلى بعض التحسن الذى شعر به المريض، لكنه لا يوجد ما يؤيد هذه الادعاءات، بل إن المشتغلين بـ"التحليل النفسى" أنفسهم لم يحاولوا أن يقدموا أدلة تحليلية أو ظرفية تؤيد هذه الادعاءات. وكل ما لدينا هو ذلك الكم الهائل من الادعاءات بأن "التحليل النفسى" قد تمكن من تحقيق العجائب، ولا يوجد ما يثبت حقيقة ما يدعون.

وحجة بعضهم فى هذا هى: "إذا لم يكن هناك بديل لـ"التحليل النفسى" و"العلاج النفسى"، فإن الفوائد التى نحصل عليها منهما تفوق الأموال والوقت المنفق عليهما، وبالرغم من أن المريض قد لا يشفى بشكل كامل، فإنه يستمد – من العلاج – بعض القوة والثقة بالنفس، وغيرها من الفوائد". ولكن حتى هذه الحجة... غير صحيحة؛ لأن هناك طرقًا بديلة للعلاج، وهذه الطرق "أقصر"، و"أكثر فاعلية"، ويمكنها إزالة الأعراض، وتحسين حالة المريض، وسوف نذكر هذه الطرق فى الفصل التالى (الفصل الثالث)، وفى ظل الظروف السابقة، فإن حتى هذا الادعاء لا يجد ما يدعمه، ولا ينقذ المشتغلين بالتحليل النفسى من تهمة: استخدام علاج غير فعال.

هناك مشكلة أخرى، كثيرًا ما تلح علينا الآن، بالرغم من أن المحللين النفسيين يتجاهلونها، وهذه المشكلة هى أن هناك "تأثيرات سلبية" لاستخدام التحليل النفسى، بمعنى أن علاج المريض بالتحليل النفسى قد يجعله فى وضع أسوأ مما هو عليه الآن، وفى كتاب "هانز ستروب" Hans Strupp[(١)] وزملائه المعنون: "العلاج النفسى للأحسن

---

(١) كان "هانز ستروب" دائمًا من المدافعين عن العلاج النفسى، ولا يمكن اعتباره من النقاد المعادين لهذا الأسلوب فى العلاج، وبالنسبة لمن يؤمنون بأن أى نقد يوجه إلى "التحليل النفسى" ما هو إلا مقاومة نفسية تحاول أن تحمى حقيقة ما من الظهور، فإن المعلومة السابقة قد تكون ذات أهمية خاصة! (المؤلف)

أم للأسوأ" Psychotherapy for better or Worse ذى العنوان الفرعى "التأثيرات السلبية للعلاج النفسى" - يقدم لنا المؤلف مناقشة تفصيلية للمشاكل، ويخبرنا بأن هناك كثيراً من الأدلة على أن التحليل النفسى يمكن أن ينجم عنه تأثيرات سلبية، وأن معظم المشتغلين بالتحليل النفسى يعلمون هذه الحقيقة؛ فلقد اقترح بعضهم أن النقص الظاهر فى فاعلية التحليل النفسى قد يعود إلى أنها ذات تأثيرات إيجابية قوية، ولكن تقابلها تأثيرات سلبية قوية، مما يلاشى من مفعولهما، لو أن هذا حقيقى، لما كان هذا فى صالح العلاج باستخدام التحليل النفسى؛ فمن الذى على استعداد لأن يتناول عقاراً قد يجعله أحسن بكثير أو أسوأ بكثير؟

وكيف يمكن لمنهج علاجى مصمم بغرض التخلص من أعراض مثل المخاوف والقلق، وهدفه أن يرفع الاكتئاب والعقد، التى من المفترض أنها تختفى خلف هذه الأعراض، كيف له أن يتسبب فى العكس؟ فهو يجعل المرضى أكثر قلقاً واكتئاباً؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل معقدة نوعاً ما، كما أنها من المحتمل أن تكون مرتبطة بشخصية الطبيب المعالج وأسلوبه، وفى الفصل الثالث سوف نناقش النظرية البديلة لنظرية فرويد، التى تظهر أنه بإمكاننا معالجة المرضى العُصابيين من خلال طرق محددة، تهدف بطريقة مباشرة إلى تقليص حجم "القلق الحصرى"، و"الشد العصبى"، و"القلق".

هناك إثباتات لا تدع مجالاً للشك فى أن "المعالج" Therapist ذا الشخصية المتفائلة التى تتميز بالود والتعاطف، والمستعد لأن يساند مريضه، وأن يعطيه أصدق النصائح - تكون لديه فرص أفضل فى تخفيض حجم القلق الذى قد يعانى منه المريض، مما يزيد من احتمالات الوصول إلى علاج شاف ناجع. كما أن هذه الاختبارات - أيضاً - هى التى تظهر المشكلة العكسية، فإن "المعالج" ذا الشخصية المتشائمة التى تتسم بالقسوة وانعدام التعاطف، الذى يتركز اهتمامه على تطبيق نظريات فرويد ومنهجه فى تفسير أحلام وسلوك المريض بدلاً من أن يكون مستعداً لأن يعطيه أصدق النصائح التى يمكن أن تساعده، وأن مثل هذا النهج فى العلاج من المرجح أن يزيد من قلق ومتاعب المريض إلى أبعد مدى.

وهكذا، فإن كل التعليم والتدريب الذى يتلقاه المشتغلون بالتحليل النفسى، والدور الذى تعلموا أن يؤدوه خلال تدريباتهم هو الذى يقف فى طريق الوصول إلى علاج ناجح، ومن المرجح أن يكون له تأثيرات عكسية على المريض.

وهناك كثير من الحقائق الموثقة عن التأثيرات السلبية لاستخدام "التحليل النفسى". ولكن، بالنسبة للقارئ غير المتخصص، فإن وصف تاريخ حالات فعلية قد يكون أكثر تأثيراً وأسهل فى القراءة. وهناك مجلدان مكتوبان من وجهة نظر المريض، وفى كل مجلد يتضح لنا سلوك "المحلل النفسى" وتأثيراته على المريض، والمجلد الأول له عنوان بسيط "الانهيار" Breakdown، ومؤلفه هو الاختصاصى النفسى التجريبى الشهير "ستيوارت سيزرلاند" Stuart Sutherland، الذى يروى لنا قصة الانهيار العصبى، والمغامرات العصيبة التى مر بها مع عدد من المحللين النفسيين و"ستيوارت" هذا ليس بعالم النفس المجرب والمثقف فحسب، ولكنه كاتب جيد جداً أيضاً، ووصفه الجيد المفصل لما حدث له خلال تجاربه العصيبة سوف يعطى القارئ - الذى لم يمر بتجربة التحليل النفسى - فكرة عن التأثيرات الفظيعة التى تحدث نتيجة للموقف التقليدى النمطى الذى يتخذه "المحلل النفسى" من مريضه، خاصة إذا ما كان يعانى من "القلق الشديد" و"الاكتئاب" بسبب مخاوفه العُصابية.

وبالطبع، فإن موقف "المحلل النفسى" البارد الذى يميل إلى تأويل كل حلم أو تصرف لا يساعد على تحسين هذا الموقف. ووصف المؤلف - فى حد ذاته - مرعب، ويوضح - فى أسلوب رائع - تفاصيل الحقائق الصارخة، التى سنقرؤها خلال الصفحات التالية.

أما المجلد الثانى، فإنه مخصص بأكمله للتجارب التى حدثت مع خمسة من الأطباء النفسيين. ومؤلفته ادعت أن اسمها هو "كاثرين يورك"، وأطلقت على الكتاب اسم: "إذا كانت الآمال مجرد خداع" If Hopes Were Dupes، وهى قد أخفت خلف هذا الاسم الزائف - "كاثرين يورك" - شخصيتها الحقيقية كممثلة مشهورة جداً، والكتاب يحتوى على وصف حقيقى لجهودها ومحاولاتها التخلص من أمراضها

الذهانية بمساعدة الطب النفسى، وخلال صفحات الكتاب تظهر لنا معاناتها وتجاربها المريكة، بالنسبة لشخص دخل عالم "التحليل النفسى" وهو يجهل ماهية هذا العالم، وعنوان الكتاب نفسه مأخوذ من قصيدة شعرية من تأليف "آرثر هيو كلوف"، والشطر الآخر من البيت الشعرى كالآتى:

إذا كانت الآمال مجرد خداع فإن مخاوفنا قد تكون أكاذيب

If Hopes Were Dupes, fears may beliars.

ولعل أكثر ما سوف يصدم القارئ هو التشابه بين الخبرات التى مر بها كل من "كاثرين" و"ستيوارت"، عندما تعاملا مع "التحليل النفسى"، ومن بين العوامل المشتركة ما يظهره موقف "المحلل النفسى" من عدم التعاطف، والبرود، ونقص المشاعر الإنسانية عمومًا، وفى هذا الخصوص، فإنه من غير المهم بالنسبة لنا أن نفرق بين ما إذا كان "موقف" المحلل النفسى هو موقفًا مفتعلاً خضوعًا لقواعد نظرية فرويد، أم أنه موقف طبيعى يعبر عن حقيقة شخصية المحلل؛ فإن التأثير المدمر الذى يعانى منه المريض يكون متساويًا فى الحالتين.

عندما نتكلم عن تأثير "التحليل والعلاج النفسى"؛ فإنه من الواجب علينا ألا ننسى أن هذا العلاج المدعى كثيراً ما أدى إلى زيادة حادة فى معاناة المريض. إن هذا تحذير رهيب لكل من يشعر بأن مشاعر القلق والاكتئاب قد تقوده إلى أريكة "المحلل النفسى"، وأن الآمال التى يدخل بها المريض قاعة الفحص من المرجح أن تكون مجرد خداع، ولكن مخاوف المريض من غير المرجح أن تكون مجرد أكاذيب، أما عن التساؤل الخاص بمدى أخلاقية السماح للمشتغلين بالطب، بأن يتسببوا فى المزيد من الألم والمعاناة لمرضى يعانون بالفعل من اليأس والاكتئاب، فهو سؤال سأترك الإجابة عنه للقارئ.

وإلى الذين ينظرون إلى العلاج باستخدام "التحليل النفسى" طبقًا لطريقة فرويد، على أنه "عم" أو "خال" طيب، حسن النية، يحاول مساعدة مرضاه خلال تجاربهم

الصعبة عن طريق تهدئة مخاوفهم، والوقوف بجانبهم على وجه العموم، على هؤلاء أن يأخذوا فى الاعتبار حالة معينة – تم إبلاغ فرويد بها – وهى حالة "دورا" Dora. هذه المريضة كان اسمها الحقيقى هو "آيدا باير" Ida Bauer. "دورا" هذه امرأة شابة، وجذابة، وشديدة الذكاء، وهى قد أتت لفرويد، عندما كانت فى الثامنة عشرة من عمرها. واشتكت من أنها تعانى من نوبات متعددة من الإغماء المصحوب بالتشنجات و"الهذيان الارتجافى" Delirium، والتهاب الغشاء المخاطى، كما أنها كانت – أحيانًا – ما تفقد صوتها، وتتسارع أنفاسها، وتتثاقل أقدامها.

إن كل الأعراض السابقة تشير إلى وجود "مرض عضوى". وبالفعل كانت "دورا" قد نشأت فى بيت والد يعانى من السل (الدرن) Tuberculosis(*). كما أن والدها هذا كان قد أصيب بـ"الزُّهْرِىّ" Syphilis(**) قبل مولدها. أيضًا، فإن كلاً من الأب والابنة أظهرا أعراضًا متطابقة للربو Asthma(***)، وعندما أخذت "دورا" تناشد فرويد أن يأخذ فى الاعتبار حالة الزُّهْرِىّ ومتاعبها؛ فإن فرويد شرح لها أن كل الأمراض العُصابية،

(*) "السل": أحد أمراض "البكتريا العَضَوية" التى تنتقل بسهولة شديدة بين البشر.. خاصة فى البلاد الفقيرة المزدحمة؛ حتى إن أكثر من ربع سكان العالم – حاليًا – يحملون بكتريا المرض.. وإن لم تظهر عليهم "أعراضه". وأعراضه: كحة جافة.. مصحوبة – أحيانًا – بقطرات دم، وحمى، وعرق ليلى، وانخفاض الوزن، وله أعراض أخرى مختلفة عندما يصيب أجزاء أخرى بخلاف الرئة، وعلاجه صعب جدًا، ويستغرق شهورًا طويلة، ويتطلب التزامًا كاملاً وتعاونًا من جانب المريض. (المترجم)

(**) "الزُّهْرِىّ": مرض آخر تتسبب فيه "بكتريا لولبية"، وينتقل عن طريق ممارسة الجنس (S.T.D.). وقد انتقل إلينا من العالم الجديد (الأمريكتين) على يد "كولومبس" Columbus وبحارته، الذين تسببوا فى وباء ١٤٩٤م الذى كاد أن يُهلك مدينة "نابولى" Naples الإيطالية. ظلت أعراض هذا المرض شديدة الغموض – حتى نهاية القرن التاسع عشر – حتى إن العلماء كانوا يطلقون عليه: "المقلد العظيم" The Great Imitator؛ لأنه كان يحاكى أعراضَ كثيرٍ من الأمراض الأخرى، وهو ما جعل "التشخيص المبكر" أمرًا شديد الصعوبة، بل شبه مستحيل. لكن مع حلول عام ١٩٤٦م أصبح من الواضح أن "البنسلين" Penicillin قادر على التعامل معه وهزيمته بطريقة أفضل من العقاقير القديمة التى استخدمت منذ ظهوره (الزئبق والزرنيخ). (المترجم)

(***) "الربو" هو اضطراب فى التنفس يحدث بسبب حساسية صدر المريض به.. ومن أعراضه الصعوبة فى التنفس وكثرة الكحة، وغالبًا ما تحدث أزمة الربو – عن طريق انكماش الشعب الهوائية وانغلاقها– بسبب الحساسية الشديدة تجاه أحد الروائح الكريهة أو غير المحببة أو تلوث الهواء؛ وإن كانت كثيرًا ما تحدث دون أى مقدمات. (المترجم)

قد تصاحبها "أعراضًا جسدية" Somatic Compliance لبعض الحالات المرضية غير الظاهرة! ولقد ادعى فرويد - من خلال خبراته التحليلية الطبية - أن مرض الزُّهْرِىّ عادة ما يكون عاملاً مؤثرًا فيما يسبب المرض العُصابى خلال المراحل الأساسية من تنشئة الطفل!! وبالرغم من أنه افترض وجود "أصل عضوى" لمتاعبها؛ فإنه اعتبر "دورا" مجرد امرأة أخرى، ضعيفة الإرادة، وأنها تظهر سلوكًا لا يمكن احتماله عندما تعبر عن "الملل من الحياة" Taedium Vita، وأنها - حتى فى هذا - تتصنع وتعبر عن مشاعر غير أصيلة!

وهكذا، بدون أى فحص مناسب، ومن خلال مجرد استماعه للأعراض التى وصفتها المريضة، فإن فرويد قرر أن "دورا" تعانى من العُصاب، وأن السبب العضوى لهذه الكحة المستمرة التى تعانى منها - طبقًا لما قرره فرويد - لم يكن إلا "الطبقة السفلى" Lower Stratum التى تتخفى "الحقيقة" تحتها! وهى تتصرف مثل حبة الرمل التى يبنى من حولها كائن المحار الصدفى لؤلؤته. وكنتيجة لهذا النهج فى التحليل، فإنه لم يعبأ إطلاقًا بالأعراض العضوية التى أظهرتها، أو مؤشراتها، ولكنه استمر فى علاجه لها على أساس: إن الأمل الوحيد فى الشفاء هو فى التغلب على مراوغة المريضة، ومحاولاتها التملص والهرب من "الحقيقة". وفيما يبدو، فإن فرويد لم يحاول أبدًا أن يُخضع "دورا" لفحص طبى شامل (للكشف عن أمراضها العضوية)، بل اكتفى بتعرِيضها لكم هائل من الإزعاج والضغط والإنهاك الذهنى.

وفى كتاب "چانيت مالكوم" المعنون "التحليل النفسى: المهنة المستحيلة" Psychoanalysis: The Impossible Profession، فإن المؤلفة أشارت إلى أن فرويد قد تعامل مع "دورا" كما لو كانت خصمًا خطيرًا؛ فهو قد دخل معها فى جولات صراعية، ونصب لها الفخاخ، ودفعها واستفزها حتى أصبح ظهرها إلى الحائط، وأغرقها بتفسيراته التى لا نهاية لها، وكان فظيعًا فى أسلوبه مثل كل الأفراد الموجودين فى محيط عائلتها. وفى النهاية، هربت منه (انقطعت "دورا" عن التحليل النفسى بعد مضى ثلاثة شهور على بدايته).

وعلى سبيل المثال، دعنا نأخذ فى الاعتبار تصرفات فرويد عندما ادعت "دورا" أنها تعانى من الزائدة الدودية، لقد تجاهل فرويد وجهة نظرها، وقرر أن آلام الزائدة الدودية ما هى فى الحقيقة إلا عرض لـ"حمل هستيرى" يعبر عن أحلامها الجنسية الجامحة الموجودة فى اللاشعور. أما بالنسبة لحالة الربو التى كانت تعانى من أعراضه، فإنه ربطها بحالة والدها الذى عانى من الأعراض نفسها، ولكنه حصر هذا الارتباط فى منطقة واحدة؛ فهو قد ادعى أنها قد سمعت أباها وهو يتنفس بصعوبة خلال ممارسته للجنس!

أما الكُحة التى كانت تعانى منها - فطبقًا لفرويد - لم تكن إلا نداء جنسيًا خجولاً، وحسبما قال "فريدريك كروز" فى مقاله المعنون "المعلومات على الطريقة الفرويدية" The Freudian Way of Knowledge، فإنه بعدما تحول فرويد إلى التبتل(*)، فإن استنتاجاته ذات الطابع الجنسى تزايدت بطريقة عظيمة، وأصبح تشخيصه مهتمًا بالجنس أكثر من اهتمامه بأعراض المرض الحقيقى، وإليكم بعض ما قاله "فريدريك" فى هذا الخصوص:

"فى تاريخ الحالات الجديدة، فإن فرويد قام بأداء دور المحقق "دوبين" Dupin فى قصص الكاتب "بو" Poe(**)، وقد قام فرويد بملأ قصصه بعديد من لمسات الانتقام الثأرية، على حساب "دورا"؛ فقد كانت إحدى مشاكل "دورا" وشكاويها متعلقة بتشجيع والدها للإغراءات التى كان يقدم عليها زوج عشيقته، وقد كان من الطبيعى - فى هذا

(*) التبتل: هو الامتناع عن الجنس، وقد كان فرويد قد امتنع تمامًا عن ممارسة الجنس مع زوجته فى نهاية القرن التاسع عشر. (المترجم)

(**) هو "إدجار آلان بو" Edgar Allen Poe (١٨٠٩-١٨٤٩) الشاعر والكاتب الأمريكى الساخر، الذى كان له فضل الريادة، فى مجال القصص البوليسية التى يلعب فيها "محقق معين" دور البطولة، وشخصية C. Auguste Dupin هى النموذج الذى سار على هداه كثير من الكتاب الذين أتوا من بعده، وأشهرهم شخصية "شارلوك هولمز" Sherlock Holmes. والمعنى المقصود هو أن فرويد كان يعامل "مريضته" مثلما يعامل المحقق البوليسى "المجرم المطارد". (المترجم)

المربع الغرامى الشاذ - أن تكون فتاة فى الثامنة عشر من عمرها خائفة ومرتبكة، وهى بالتأكيد أكثرهم براءة فى هذا الجو الدنس. ولكن فرويد كان يحاول إثبات أن متاعب "دورا" قد نتجت - أساساً - عن عقلها. وعلى سبيل المثال: عندما علم فرويد أنها - منذ عدة سنوات - كانت مشمئزة من هذا الهجوم الجنسى العنيف من قِبل هذا الرجل الصغير. استنتج فرويد من هذا أن تصرفات "دورا"، وهى لا تزال فى الرابعة عشر من عمرها، لم تكن إلا تصرفات هستيرية تماماً!

أما أنا فما كنت لأعتبر تصرفات أى شخص هستيرية، إلا إذا كان - عندما يوضع فى وضع يثير مشاعره الجنسية - لا يشعر إلا بالمشاعر غير السارة، وأننى كنت سأفعل هذا بصرف النظر عما إذا كان هذا الفرد قادراً على إظهار أعراض جسدية أم لا".

لكن فرويد كان مقتنعاً بأن امرأة صغيرة تعانى من مشاكل عُصابية لا بد أنها تمارس العادة السرية، وأنه من غير الممكن تحقيق أى تقدم أو تحسن حتى تعترف الفتاة بهذا، وطبقاً لقانون "فلييس" Fliess فإن تكرر حدوث حالات تبليل الفراش يكون بسبب ممارسة العادة السرية(*)، ومن ثم أجبر "دورا" على أن تعترف أنها استمرت فى التبول فى الفراش بعد مرحلة طفولتها، كما أنه ألمح إلى أن التهاب الغشاء المخاطى وآلام المعدة ما هما إلا إحدى نتائج الاستمناء (العادة السرية)!

هناك مثال آخر، يذكر عن هوس فرويد وحاجته الشديدة لأن يجد تفسيراً جنسياً لكل نوع من أنواع السلوك؛ فلقد أعرب ذات مرة عن أن ثقل قدميها ما هو إلا إشارة لقلقها بخصوص رغبتها الجامحة فى أن تصبح حاملاً! وهناك أمثلة كثيرة مشابهة، ولكنها مساوية فى سخافتها، ونستطيع أن نتعرف عليها بسهولة فى وصف فرويد لهذه الحالة؛ فهو قد أسقط على "دورا" تفسيراته الخاصة، التى لم تكن إلا انعكاساً لعقدته هو الشخصية. وما سبق، ليس إلا نماذج قليلة من الطريقة التى عالج بها فرويد "دورا".

(*) إشارة ساخرة من المؤلف لاعتقاد " فلييس" بأن تبليل الفراش نتيجة للاستمناء هو "قانون". (المترجم)

والقارئ يستطيع أن يتخيل كيف أن أمثال هذا السلوك من قبل المحلل سوف يؤثر بالسلب على فتاة غير متزنة، لا تزال فى الثامنة عشر من عمرها، وتعانى من ظروف نشأتها داخل عائلة، أقل ما يمكن أن توصف به هو أنها عائلة شاذة وغريبة. فتاة محرومة من العون الذى يُفترض من الأب أن يقدمه، ومشتهاة من قبل رجل عدوانى يعتبره الوالد صديقًا له، ويوافق على تصرفاته، لا لسبب عدا كونه زوج عشيقته. وبدلاً من أن تجد المساعدة والتعاطف من قبل طبيبها المعالج، فإنها تواجه بمواقف عدائية، وخصم مصمم على أن يكون هدفه الوحيد هو إذلالها، وأن يلصق بها دوافع وسلوكيات أجنبية وغريبة عنها؛ فإذا كان هذا هو النموذج الأمثل للعلاج بالطريقة الفرويدية؛ فلا عجب أن نهجه هذا قد جعل مرضاه فى حالة أسوإ بدلاً من أن يساعدهم على التحسن!

فى النهاية، علينا ملاحظة أن وجود "طرق" و"نظريات بديلة" **Alternative Theories** فى العلاج هو أمر شديد الأهمية فى محاولتنا لتقييم "نظرية" **Theory** التحليل النفسى كنظرية، وكطريقة فى العلاج. وفى مجال العلم، فإن وجود النظرية السيئة يكون أفضل من عدم وجود أى نظريات؛ فإنه من الممكن لنا أن نحسن فى نظرية سيئة، ولكن إذا لم يكن لدينا أى نظريات؛ فإننا سنتوه فى غابة كثيفة من الحقائق غير المتصلة بعضها ببعض.

وينطبق الشيء نفسه على "العلاج" **Treatment**؛ فإن أى طريقة فى العلاج قد تكون أحسن من عدم وجود أى طرق على الإطلاق؛ لأننا - فى هذه الحالة - نستطيع أن نرفع من معنويات المريض، وأن نعطيه أملاً، وأن نؤكد أن هناك ما يمكن فعله من أجل تحسين حالته، ودفعه لأن يؤمن بإمكانية شفائه، وعندما يكون لدينا نظريات بديلة وعلاجات بديلة، فإنه يصبح لدينا طريقة أقوى وأكثر فاعلية فى تقييمهم.

وعندها فقط يكون من الممكن المقارنة بين النظريات، ويكون بإمكاننا أن نصمم التجارب لنرى فى صف من ستكون النتائج المرغوب فى حدوثها.

وبالمثل فإن وجود "طرق بديلة" للعلاج يجعل من الممكن لنا المقارنة بينها؛ لنرى أيها أفضل؟ وما حجم الفروق بينها؟ وأمثال هذه الأسباب هى التى ستدفعنا – فى الفصل الثالث – لأن نناقش "النظريات البديلة" لنظرية فرويد، ولأن نتفحص باختصار أنواع العلاجات التى اقترحتها هذه الطرق البديلة، وأمثال هذه المقارنات ضرورية فى محاولة تقييم "التحليل النفسى"؛ فهى تضيف إلى معلوماتنا، وهى التى تمكننا من إصدار حكم أكثر صلابة ودقة؛ حكمًا يعبر عن القيمة الحقيقية لـ"التحليل النفسى".

الفصل الثالث

العلاج بالتحليل النفسى وبدائله

لو أن الإنسان بدأ باليقين، فإنه سينتهى إلى الشكوك.

لكنه إذا اكتفى أن يبدأ بالشكوك، فإنه سيصل إلى اليقين.

فرانسيس بيكون

حتى عام ١٩٥٠ كانت ادعاءات "التحليل النفسى" بأنه قادر على علاج المرضى العُصابيين بنجاح، وبأنه الوحيد القادر على الوصول إلى "الشفاء الدائم"، كانت مقبولة بين الأطباء النفسيين والاختصاصيين النفسيين. وبالرغم من أنه كانت هناك أصوات ترتفع بالنقد لنظرية "التحليل النفسى"، فإن هذه الأصوات أُسكتت. ويمكن القول بأن "التحليل النفسى" كان تيارًا رئيسيًا فى التفكير النفسى فيما يختص بالشخصية، والعُصاب، وفى كل ما يتعلق بعلم النفس الاجتماعى عمومًا. لكن هذا الوضع تغير، عندما بدأ عدد من النقاد فى فحص الأدلة المتاحة المتعلقة بمدى كفاءة التحليل والعلاج النفسى وفاعليته؛ خاصة عندما فشلوا فى العثور على أى بيانات تؤيد هذه الادعاءات، ومن بين من أيدوا وجهة النظر السابقة، التى تقرر أن التحليل النفسى قد فشل فى إثبات ادعاءاته: "بِى. چى. دنكر" P. G. Denker، و"سى. لانديز" C. Landis، و"إيه. سالتر" A. Salter، و"چيه. ويلدر" J. Wilder، و"چيه. زوبين" J. Zubin. ولعل أشهرهم كان "دونالد هب" Donald Hebb، الذى أصبح - فيما بعد - رئيسًا لجمعية

"التحليل النفسي الأمريكية"، وقد تم توثيق نمو هذه الحركة بطريقة جيدة بواسطة "آلان كازدين" Alan Kazdin فى كتابه "تاريخ التحولات السلوكية" History of Behaviour Modification.

لقد ركز "كازدين" فى أحد مقالاته على هذا الموضوع، وقمت أنا بنشر هذا المقال فى عام ١٩٥٢، وكان هذا المقال من أكثر المقالات النقدية تأثيراً فى تقييم العلاج النفسى، ولعله من المفيد أن نتفحص النقاط الجدلية المستخدمة فى هذا المقال.

فى البداية، قمت بفحص التساؤل الذى يستفسر عما يحدث للعُصابيين الذين لا يتلقى الواحد منهم أى نوع من العلاج النفسى، وكانت الإجابة مفاجئة، فإن الظواهر أوضحت أن العُصاب ما هو إلا اضطراب يزول من تلقاء نفسه. وبمعنى آخر، فإن العُصابى تتحسن أحواله بدون أن يتلقى أى علاج!

فبعد فترة من الوقت تمتد لحوالى العامين تبين أن ٢/٣ (ثلثى) عدد المرضى تتحسن حالتهم كثيراً، حتى إنهم يعتبرون أنفسهم قد شفوا تماماً، أو على الأقل تحسنت حالتهم. إن الأرقام السابقة شديدة الأهمية؛ لأنها تشكل "خط الأساس" Baseline لعقد أى مقارنة، وأى علاج يستحق هذا الوصف يجب أن يكون أكثر فاعلية من هذا حتى يمكننا أن نعتبره علاجاً ناجحاً، ولقد تأكدت الحقيقة السابقة، من خلال تأكدنا من أن معدل التحسن السابق كان ثابتاً حتى فى الحالات المؤمن عليها، بمعنى أنه حتى فى الحالات التى كان الفرد فيها يتسلم نقوداً من شركات التأمين بغرض العلاج، وتتوقف هذه النقود عندما يجد الفرد نفسه قد شفى. وبمعنى آخر، فإنه حتى بالرغم من وجود دافع قوى يدفعهم للتمسك بالأعراض العُصابية، فإنهم أعلنوا شفاءهم!

إن عمليات التحسن بدون علاج هذه قد تم تسميتها ظاهرة "التحسن التلقائى" Spontaneous Remission، وتشبه فى طبيعتها ما يحدث للمصابين بمرض البرد العادى؛ فبعد ثلاثة أو أربعة أيام من إصابة الفرد بالبرد، فإن المرض يشفى، ويحدث هذا بغض النظر عما يقوم به الفرد، كما أنه يشفى حتى إذا لم يفعل هذا الشخص أى شىء، وإذا أرجعنا حقيقة الشفاء إلى أن هذا الفرد قد أخذ "ڤيتامين سى"،

أو "أسبرين"، أو "قدح من الويسكى" نكون قد لجأنا للعلاقة السببية الزائفة التى تسمى: "فرض الدائرة المفرغة" Post Hoc Ergo Propter Hoc، التى هى علاقة جدلية لا تحمل أى منطق معنوى؛ لأنها تحاول الربط بين حدثين لم يثبت بعد وجود أى رابطة منطقية بينهما.

فمهما فعل الفرد فى اليوم الأول أو الثانى، فإن البرد ستختفى أعراضه بعد أيام قليلة، ولكن هذا لا يعنى أن الشفاء قد حدث بسبب ما فعله الفرد، أو العلاجات والعقاقير التى تناولها، فكلنا نعرف أن المرض كان سيختفى على أى حال، وينطبق المنطق نفسه على العُصاب؛ لأن هناك عددًا كبيرًا من المرضى العُصابيين يتم شفاؤهم بطريقة تلقائية خلال سنتين، لكل هذا، يكون علينا أن ندرس - بحرص - الأحداث التى وقعت خلال هاتين السنتين؛ حتى نتمكن من الحكم عما إذا كان العُصاب قد اختفى تلقائيًا، أم أن اختفاءه كان نتيجة لشىء ما حدث للفرد خلال الفترة التى سبقت "الشفاء".

وفى هذا الخصوص، فإن "التلقائية" تعنى ببساطة: أن الشفاء قد حدث دون استخدام الطب النفسى، وهى لا تعنى شفاء بسبب معجزة حدثت بدون أى أسباب على الإطلاق.

وعندما قارنت بين التقارير التى ادعت النجاح باستخدام "التحليل النفسى"، وبين الحالات التى تم شفاؤها تلقائيًا؛ فإن الإجابة التى حصلت عليها أوضحت أنه لا يوجد فارق حقيقى أو معنوى يحدثه استخدام طريقة "التحليل النفسى". وبمعنى آخر، فإن المرضى الذين خضعوا للعلاج باستخدام "التحليل النفسى" أو ما شابهه لم تتحسن حالتهم بمعدل أسرع من المرضى الذين لم يتلقوا أى علاج على الإطلاق، ولقد استنتجت من فحصى للتقارير التى غطت ما يقارب عشرة آلاف حالة أنه لا توجد أى أدلة حقيقية على فاعلية "التحليل النفسى".

ومن المهم أن نلاحظ الإطار الذى تمت فى حدوده هذه الاستنتاجات؛ فأنا لم أقل: إن التحليل أو العلاج النفسى قد ثبت عدم جدواه، لأن هذا يكون مبالغة تخرج عن

حدود الأدلة العلمية الموجودة، ولكننى أقرر ببساطة: أن المحللين والمعالجين النفسيين لم يستطيعوا إثبات ادعاءاتهم بأن الطرق التى يستخدمونها فى العلاج أفضل من غيرها على الإطلاق، أو أنها فعالة، وهناك صعوبة فى الوصول إلى تلك النتيجة؛ لأن الأرقام كانت واضحة جداً، ومع هذا، فقد كانت هناك محاولات كثيرة لإثبات خطأ النظرية ظهرت فى مجلات علماء النفس والمعالجين النفسيين والأطباء النفسيين فى السنوات التى تلت نشر المقال السابق.

ولقد أشار النقاد - ومعهم كل الحق فى هذا - إلى أن الأدلة المقدمة جيدة جداً؛ فقد تم تقديم النذر القليل من المعلومات عن التشخيص الدقيق لحالة المرضى، كما أن الظروف المعيشية للمرضى الذين عولجوا، والذين لم يعالجوا كانت مختلفة تماماً، كما كان هناك احتمال أن المعايير التى اعتمد عليها كل معالج وباحث غير متطابقة، وكان هناك فروق فى العمر، والوضع الاجتماعى، وغيرها من المتغيرات أو العوامل الموجودة بين كل مجموعة من المجموعات. وفى الواقع ، فإن مقالى قد أشار إلى قلة عدد الأدلة، وقد كانت نقاط الضعف المختلفة هذه هى السبب فى أننى لم أستنتج أن الدراسات التى استخدمتها قد أثبتت أن "التحليل النفسى" عديم القيمة؛ فإن الخروج بمثل هذه النتيجة يكون مبالغة فى الاستنتاج على أساس الأدلة الضعيفة المتاحة. ولكن كلما تعرضت الأدلة للمزيد من النقد، تزايدت قوة الاستنتاجات، وخاصة أن الأدلة قد فشلت فى إثبات قيمة "التحليل النفسى"، ومن المنطقى أن نحتاج إلى أدلة قوية لإثبات كفاءة أى علاج، فإذا كانت الأدلة المتاحة موضع انتقاد شديد، فمن الواضح أنها لن تستطيع إثبات كفاءة العلاج.

ولقد نسب كثير من النقاد - إن لم يكونوا جميعًا - إلىَّ أننى قد استنتجت من هذه الأدلة الضعيفة أن "التحليل النفسى" قد ثبتت عدم صلاحيته كطريقة ناجحة فى العلاج، ولقد فاجأنى هذا النقد، فقد كنت شديد الحرص فى توضيح أننى لم أدع هذا؛ فلقد كتبت إجابة واضحة تشير إلى أنهم قد أساءوا فهمى. ولكن - حتى الآن - فإن هذا الفهم السيئ لما قلته ما زال يظهر على السطح بين الحين والآخر. ولعل هذا،

ليس بالأمر الغريب على كثير من المشتغلين بالتحليل النفسى؛ لأن هذه هى طريقتهم فى الحياة. وأى نقد يوجه إليهم يتسبب فى ظهور أرجاع عاطفية قوية، تجعل من المستحيل عليهم أن يروا المنطق الجدلى للنقد الموجه إليهم، أو أن يقرءوا بحرص وموضوعية نقد موجه لعقائدهم المقدسة.

فى السنوات التالية، كان هناك تزايد عظيم فى عدد الدراسات التى بحثت فى مدى كفاءة "التحليل النفسى"، وكثير منها كان أفضل بكثير من الدراسات التى اعتمدت عليها فى أوراقى الأصلية، وفى عام ١٩٦٥ نشرت مقالاً ثانياً، وفى هذا المقال، خرجت بثمانية استنتاجات، وفيما يلى ملخص لها:

١- إنه عندما قارنا "مجموعات ضابطة" تكونت من أفراد غير مصابين بالعُصاب ولم يتلقوا أى علاج نفسى، بـ"مجموعات تجريبية" تكونت من الأفراد المصابين بالعُصاب الذين خضعوا للعلاج باستخدام "التحليل النفسى"؛ فإن كلتا المجموعتين شفيتا من أعراض العُصاب خلال نفس الفترة الزمنية تقريباً.

٢- عندما تمت المقارنة بين الجنود الذين تعرضوا لانهيار عُصابى والذين لم يتلقوا أى علاج نفسى، وبين الجنود الذين عولجوا نفسيًا؛ فإن فرص عودة كلتا المجموعتين للخدمة كانت متساوية تقريباً.

٣- عندما تم إبعاد الجنود المصابين بالعُصاب عن الخدمة؛ فإن فرص شفائهم لم تتأثر سواء تلقوا علاجًا نفسيًا أم لا.

٤- إن المدنيين المصابين بالعُصاب، الذين تم علاجهم باستخدام "التحليل النفسى" شفوا - أو تحسنوا - بالدرجة نفسها التى تحسن بها من لم يعالج نفسياً.

٥- الأطفال الذين يعانون من اضطرابات انفعالية، والذين عولجوا نفسيًا، شفوا أو تحسنت حالتهم بالدرجة نفسها - تقريبًا - التى تحسنت بها "مجموعة ضابطة" من الأطفال الذين لم يتلقوا أى علاج نفسى.

٦- المرضى العُصابيون الذين عولجوا باستخدام إجراءات علاجية نفسية، تنطلق من نظريات التعلم، كان تحسنهم أسرع بشكل جوهرى من الذين عولجوا باستخدام التحليل النفسى، أو العلاج النفسى الانتقائى(*) (أو التكاملى)، أو من الذين لم يعالجوا على الإطلاق.

٧- المرضى العصابيون الذين عولجوا باستخدام العلاج النفسى.. كان تحسنهم أكثر بطئًا بشكل جوهرى من الذين عولجوا بواسطة "العلاج النفسى الانتقائى"، بل إن هناك احتمالاً فى أن معدل تحسنهم كان أقل فى سرعته، خاصة عندما نأخذ فى الاعتبار العدد الكبير من المرضى الذين نبذوا العلاج وانقطعوا عن متابعته.

٨- باستثناء طرق العلاج النفسى التى تعتمد على "نظريات التعلم"؛ فإن النتائج المنشورة للأبحاث التى أجريت على العسكريين، والمدنيين المصابين بالعُصاب، وعلى الأطفال والبالغين، كلها تقترح أن التأثيرات العلاجية .. للعلاج بـ"التحليل النفسى" ضئيلة أو معدومة، وأنها لا تمثل أى إضافة للتأثيرات غير المحددة التى يحدثها العلاج الطبى الروتينى، أو تضيف للأحداث والخبرات التى تحدث فى حياة المريض العادية.

وهناك نقطتان أحب أن أذكرهما، فيما يتعلق بالاستنتاجات السابقة. النقطة الأولى شائقة؛ فإن المرضى الذين يخضعون للعلاج باستخدام "التحليل النفسى" من النوع الذى يمكن تصنيفه على أنه يتمتع بـ: الشباب، والجاذبية، والطلاقة فى الحديث، والذكاء، والنجاح. إن أمثال هؤلاء الأفراد لهم مصير حسن؛ حيث يميلون إلى الشفاء من الأعراض التى يعانون منها بصرف النظر عن العلاج الذى يقدم لهم. وينتج عن المحكات التى يختارها المشتغلون بالتحليل النفسى استبعاد كثير من المرضى المصابين بـ"الاضطرابات الحادة" (اضطرابات مثل "الشذوذ الجنسى" بمختلف أنواعه، و"إدمان الخمور")، واستبعاد كل من لا يتطلب العلاج بالكلام، وكل من يُعتقد بأنه غير مناسب

(*) هى مجموعة من الإجراءات المختارة والمنتقاة بعناية لتناسب حالة كل فرد وطبيعة تكوينه، وهى لا تلتزم بمبادئ نظرية "التحليل النفسى". (المترجم)

للعـلاج النفسى، وهـكذا، يكونون قد استبعـدوا المرضى العُصـابيين، والمتـمـردين، والعنيدين، والأكثـر صـعـوبة. وركـزوا جـهـودهم على أولئك الذين يكون من المرجح أن تتحسن أعراضـهم على أى حال.

وفشلهـم فى الوصـول إلى إنجـاز أفضل من الأشكال المنتقاة من العلاج النفسى أو لا علاج على وجه الإطلاق؛ حيث لا يتم استبعاد أى مرضى يبدو وكأنه يقترح علينا أن "التحليـل النفسى" أقـل - فى مفعوله - من الأشـكال المنتقاة من العلاج النفسى، أو لا علاج على وجه الإطلاق.

أما النقطة الأخرى التى يجب ملاحظتها، فهى العدد الكبير من المرضى الذين عولجوا باستخدام "التحليل النفسى"، والذين نبذوا العلاج وانقطعوا عن متابعته قبل أن ينتهى، وهذا يدخلنا فى خلاف يتعلق بالإحصاءات الخاصة بحالات الشفاء بعد العلاج باستخدام التحليل النفسى؛ فهل يجب أن نأخذ فى الاعتبار الـ ٥٠ ٪ - أو أكثر- الذين انقطعوا عن متابعة العلاج قبل أن يظهروا أى تحسن، واعتبارهم حالات فشل. أم أنه من الواجب حذفهم وتجاهلهم؟

لقد كـانت وجـهـة نظرى - دائمًـا - هـى أنه من الواجب أخـذهم فى الاعـتـبـار، واعتبارهم حالات فشل؛ فعندما يأتى المريض إلى الطبيب لكى يعالج ويشفى، وينصرف دون أن يتحقق له أى تحسن ملحوظ؛ فإن العلاج يكون قد فشل بوضوح. ومما يزيد فى قوة هذه المناقشة، المنطق الغريب الذى يستخدمه المحللون النفسيون؛ فطبقًا لمعتقداتهم، فإن المرضى ينقسمـون إلى ثلاث مجمـوعات: المجمـوعة الأولى: تضم المرضى الذين تم علاجهم بنجاح، وحصلوا على الشفاء. المجموعة الثانية: تضم المرضى الذين لا زالوا تحـت العـلاج، وهـو عـلاج قد يطول إلى عدة سنوات، بل إنه قد يصل إلى ثلاثين سنة أو أكثر. المجموعة الثالثة: تضم المرضى الذين نبذوا العلاج وانقطعوا عن متابعته، ونحن نعرف أن المحلل النفسى يزعم أن عـلاجه دائمًا مـا يحقق النجاح. ولهـذا، فإن المجموعة الثانيـة لا يمكن النظر إليها على أنها فشل، بل يجب عليهم الاستمرار فى تلقى العلاج مهما طال الزمن ... لعشر أو عشرين أو ثلاثين سنة أو حتى وفاتهم. فإذا

انقطعوا عن متابعة العلاج أو توفوا، يكونون بهذا قد انضموا إلى المجموعة الثالثة، وتكون وجهة نظر المحلل النفسى أن هذا المريض قد كان سيشفى لو أنه تابع العلاج. ولهذا، لا يجوز اعتباره حالة من حالات الفشل. ولكن هذا النوع من الجدل مرفوض؛ لأنه باستخدام هذا المنطق فإنه لن تكون هناك أى حالات فشل؛ فإما أن يُصرف المريض لأنه عولج وشفى (ونحن على تمام العلم - من خلال "حالة رجل الذئاب" - بما يمكن أن يعنيه هذا!)، أو يكون عليه أن يستمر فى العلاج إلى ما شاء الله.

ومن خلال هذا التعريف السخيف؛ فإنه لا يمكن أن يكون هناك أى حالات فشل. وكنتيجة لهذا، فإنه يكون من المستحيل علينا أن نعارض ما يفترضه "التحليل النفسى"؛ لأن العلاج دائمًا ناجح! والمنطق الذى يستخدمه المشتغلون بالتحليل النفسى يشبه ما قام به "جالن" Galen - الطبيب اليونانى الذى كان يعيش فى القرن الثانى بعد الميلاد - والذى كتب العبارات التالية فى تأييده لاستخدام أحد طرقه الطبية:

"إن كل من يشرب هذه الوصفة الطبية سوف يشفى خلال فترة قصيرة، إلا هؤلاء الذين لا يستطيع الدواء أن يساعدهم؛ فكلهم سيموتون، ولن يخفف أى عقار آخر من آلامهم. ولهذا، فإنه من الواضح أن هذا العقار لا يفشل إلا فى علاج الحالات التى لا يمكن علاجها".

قد يكون ما سبق "صورة كاريكاتورية" ساخرة للمنطق الذى استخدمه المشتغلون بالتحليل النفسى، ولكنها تحتوى على كثير من روح المناقشة التى يقترح كثيرون منهم استخدامها فى ردهم على الانتقادات المبنية على الإحصاءات المنشورة عن معدلات فشلهم.

هناك سبب آخر، وقد يقودنا لأن نتعجب عن سبب الأداء السيئ لـ"التحليل النفسى". كما أن هذا السبب قد يساعدنا فى تفسير هذا الأداء السيئ. لقد سبق لنا ذكر: أن المحلل النفسى يختار مرضاه بطريقة تجعله يحتفظ بمن يعتقد أنه لديه فرصًا أكثر فى النجاح معهم، وأن هذه الطريقة تستبعد كل من هو مصاب باضطرابات خطيرة. ومع هذا، فإنه يبدو أن كثيرين من زبائن المحلل النفسى لا يعانون من أى مرض عصبى على الإطلاق.

وبالنسبة لمعظم المترددين على المحلل النفسى (زبائنه)، فإن "التحليل النفسى" يمثل ما سماه النقاد بـ"الاستغلال السيئ للصداقة" Prostitution of Friendship، وبألفاظ أخرى، فإن هناك عيوبًا – فى شخصية وتكوين الواحد منهم – تمنعه من أن يُكَوِّن صداقات، ومن أن يحتفظ بذلك النوع الجيد من الأصدقاء الذين يستطيع الوثوق بهم. ولهذا، فإن الواحد منهم يدفع للمحلل النفسى حتى يقوم المحلل بتأدية هذه الوظيفة؛ فهو – فى هذا – مثله مثل الرجل الذى يدفع للعاهرة فى مقابل حصوله على الجنس، وهذا لأنه غير قادر – أو غير مستعد – لدفع الثمن الضرورى للحصول على العواطف والحب والحنان المطلوب منا جميعًا، حتى نحقق علاقة جنسية لا علاقة لها بالتجارة والمصالح.

بعض المرضى الآخرين – خاصة فى أمريكا – كان الواحد منهم يميل لزيارة المحلل النفسى؛ لأنه "الموضة"[(١)]؛ حيث يكون الواحد منهم قادرًا على الكلام عن "محلله النفسى"؛ وهو الأمر الذى يسمح له بالظهور بمظهر من ينتمون – حقيقة – إلى علية القوم. وهكذا، فإن المريض يستطيع أن يتناول عشاءه، وهو يحدث الآخرين عن "البصيرة النافذة" و"الحكمة" التى اكتسبها من "محلله النفسى"!

إن كل هؤلاء لم يكونوا مرضى أساسًا. ومن ثم، فإنه لا يمكن شفاؤهم. وعادة الاعتماد على "المحلل النفسى"، مثلها فى هذا مثل عادة الاعتماد على الكاهن أو المنجم أو ساحر القبيلة، وكلها سرعان ما تتحول إلى عادات راسخة فى الذات، وما دامت الأموال متوافرة للمريض، فإن هذا يظل مبعث تسلية له. ولكنها كلها أشياء لا علاقة لها بالاضطرابات الذهانية الخطيرة محل الدراسة. إن "المحلل النفسى" – عندما يؤدى دور العاهرة أو الممثل – قد لا يتناسب مع المفهوم الذى طوره فرويد وحواريوه عن "المداوى أو المعالج الشعبى" The Healer، وإن كان عادة ما يطبق على أية حال.

---

(١) كانت هذه الفعلة هى الصيحة الشائعة "الموضة"، ولكن هذه العادة بدأت الآن فى الزوال. (المؤلف)

بعد الملخص الثانى الذى نشرته عام ١٩٦٥، فإن عدد المقالات المنشورة عن مشكلة مدى كفاءة العلاج باستخدام التحليل النفسى تزايدت كثيراً، كما أنه تم فحص قدر كبير من المعطيات بدقة. وهناك كتاب صدر حديثًا بعنوان: "تأثيرات العلاج النفسى" The Effects of Psychological Therapy، من تأليف "S. Rachman"، و"T. Wilson"، وسوف أقتطف بعض النتائج التى توصلا إليها بعد كثير من التحليل الدقيق لكل الأدلة المتاحة:

"إن حدوث "التحسن التلقائى" Spontaneous Remission للاضطرابات العُصابية، هو الذى أمد "أيزنك" Eysenck بالأساس الذى بنى عليه تقييمه المتشكك فى قيمة العلاج باستخدام التحليل النفسى؛ فبالرغم من أنه قام - فى البداية - بتحليل قدر غير كاف من المعطيات، فإنه توصل إلى أن أحسن التقديرات المتاحة تقرر أن حوالى ٢/٣ ثلثى كل حالات الاضطراب العُصابى سوف تتحسن تلقائيًا خلال عامين من بدايتها. وفحصنا للأدلة المتراكمة خلال ربع القرن الماضى تضعنا فى موقف المؤيد لتقديرات "أيزنك" الأصلية. ومن الممكن تحسين تقديراته لكل مجموعة من المجموعات المصابة باضطرابات عُصابية، ولكنه أصبح من الصعب الدفاع عن تلك الافتراضات المبكرة، التى تقضى بافتراض ثبات معدل التحسن التلقائى، وعندما ننظر إلى الانتشار الواسع لحالات التحسن التلقائى، فإنه يصبح من الصعب إنكار هذه الحقيقة، وتصبح الادعاءات بوجود قيمة خاصة لأحد صور العلاج النفسى مبالغة غير مقبولة، كما تصبح ندرة الأدلة التى تؤيد هذه الادعاءات بوجود قيمة خاصة مصدراً للتعجب؛ فإن الوصف الذى نحصل عليه من المرضى الذين تبدو مراحل علاجهم مطولة إلى حد مضجر، تتفوق على الوصف الطويل الذى نسمع به عن التحسنات العظيمة التى تحدث فى حالة بعينها، ولكن الأمر الأكثر أهمية هو ندرة أى شكل من أشكال التقييم المقنن لتأثيرات العلاج باستخدام التحليل النفسى، ونحن لا نعلم بوجود أى دراسة منطقية مقننة من هذا النوع، وبحيث تكون قد أخذت فى الاعتبار التغيرات التلقائية، أو مساهمات التأثيرات العلاجية غير المحددة (مثل تأثيرات "العلاج الزائف" Placebo، وغيرها).

وبالنظر إلى طموحات، واهتمامات، وتأثيرات "التحليل النفسي"، فإن الواحد منا قد يميل إلى التوصية بتبنى المزيد من الصبر. ولكن، تبقى الحقيقة بأنه لم يتم إحراز أى تقدم كاف فى مجال محاولة الوصول لتقدير علمى، أو حتى معايير شبه مرضية للنتائج، وأنا أعتقد أن المستهلك ذاته سيكون أقل صبراً عندما يتفحص الأدلة التى تؤيد ادعاءات المحلل النفسى بأن لديه علاجاً فعالاً".

وفيما يبدو، فإن التغير الكبير قد حدث فى النظرة المتفحصة والمدققة فى معدلات "التحسن التلقائى" Spontaneous Remission للأنواع المختلفة من العُصابيين، ومن المؤكد أن هذه الاختلافات موجودة. وعلى سبيل المثال: فإنه فى حالة اضطرابات الوسواس القهرى نجد أن "التحسن التلقائى" يقع بمعدلات أقل من معدلات التحسن التلقائى لاضطرابات القلق، بينما يقع التحسن التلقائى للأعراض الهستيرية بين المعدلين السابقين، ولقد أشار المؤلفان السابقان فى كتابهما إلى أن الباحثين سيتوجهون - فى المستقبل - نحو دراسة الاختلافات بين معدلات التحسن التلقائى، داخل كل اضطراب نفسى على حدة، وعندما يتم هذا فإنه سيكون بإمكاننا الحصول على تقديرات أكثر دقة عن احتمال حدوث تحسن تلقائى بين الأفراد المصابين باضطراب عُصابى بعينه.

وقبل أن نبدأ فى مناقشة طرق العلاج البديلة - خاصة تلك الطرق المبنية على نظريات التعليم التى ذكرت بالفعل فى ملخص النتائج الذى تم الحصول عليه من خلال الدراسات التى أجريت لتقييم مدى كفاءة العلاج - فإنه من الضرورى أن نأخذ فى الاعتبار وجهات نظر الأطباء النفسيين الآخرين الذين درسوا الأدلة، وخرجوا بنتائج تختلف عن نتائج المؤلفين السابقين فى كتابهما المذكور. وعلى سبيل المثال، فإن: " A. E. Bergin" قد اقترح - فى كتابه المعنون "المصنف فى العلاج النفسى والتغيرات السلوكية" Handbook of Psychotherapy and Behaviour Change الصادر فى عام ١٩٧١- أن معدل التحسنات التلقائية الأقرب إلى الحقيقة، هو ٣٠٪ وليس ٦٦٪ (٢/٣)، ولكن أعمال "برجن" Bergin - كما أوضح المؤلفان فى نقدهما الطويل - تحتوى على كثير من الخصائص الغريبة التى تجعل أعماله غير مقبولة.

أولاً: قام "برجن" بأخذ المتوسطات لنتائجه من عدة دراسات جديدة، ولكنه نسى أن يضمنها الدراسات القديمة التى بنيت أنا عليها تقديراتى!

ولقد أشار المؤلفان السابقان إلى أن الدراسات الجديدة كان يجب أن تؤخذ فى الاعتبار مع الدراسات القديمة، أو على الأقل فى ضوء المعلومات المتاحة حاليًا.

ثانيًا: إن "برجن" أهمل عددًا من الدراسات الأكثر ارتباطًا بالقضية محل البحث (معدل التحسن التلقائى)، واستخدم دراسات أقل ارتباطًا بمعدل التحسن التلقائى.

ثالثًا: بعض الدراسات التى استخدمها "برجن" لتأييد نسبة الـ ٢٠ ٪ التى قدرها - لا تتعامل فعليًا مع التحسن التلقائى للاضطرابات العُصابية!

ويمكن توضيح هذه النقطة من خلال فحص بعض الدراسات التى استخدمها، وعلى سبيل المثال، ففى دراسة أجراها "D. Cappon".. قدر "برجن" أن معدل التحسن التلقائى هو صفر٪ (٠,٠ ٪)، لكن الفحص الدقيق لهذه الدراسة سيعطينا عددًا من المفاجآت.

المفاجأة الأولى: هو عنوان الدراسة ذاته، الذى كان: "نتائج العلاج النفسى" Results of Psychotherapy، كان "كابون" Cappon قد أجرى دراسته على ٢٠١ مريض، ويخبرنا بأن بعض هؤلاء المرضى قد تحسنت حالتهم، لكن بعضهم الآخر ساءت حالتهم. وفى كل هذا، لم يعطنا "كابون" أى أرقام تمكننا من حساب معدل التحسن التلقائى. ومع هذا، فإن "برجن" خرج علينا بمعدل صفر ٪. وفيما يبدو، فإنه استخلص هذا من الوصف الذى كتبه "كابون" فى مقدمة تقريره عن مرضاه. وفى هذا التقرير ذكر "كابون": "إن أعراضهم، أو مشاكلهم الأساسية، أو اختلالاتهم امتدت لفترة ١٥ سنة فى المتوسط سابقة على بداية العلاج".

من الواضح أن "كابون" كان يتعامل مع مجموعة من المرضى الذين لم يظهروا أى "تحسن تلقائى". وبالفعل، فلو أن ثلثى (٢/٣) المرضى أظهروا تحسنًا؛ فإن الثلث (١/٣) لم يظهر أى تحسن، وأى رقم نخرج به يجب أن يعتمد على نوع من أنوا ع

العينات العشوائية وليس عينة اختيرت على أساس أنها احتفظت بالأعراض العُصابية لمدة متوسطها ١٥ سنة!

المفاجأة الثانية: تقريبًا نصف المرضى الذين درسهم "كابون" كانوا يعانون من اضطرابات أخرى غير اضطراباتهم العُصابية. ولا يوجد دليل يثبت لنا أنهم لم يعالجوا قبل رؤيتهم لـ"كابون"، ولا يمكننا افتراض أن التشخيص - فى بداية العلاج - كان يتناسب مع أحوالهم فى السنوات التى سبقت العلاج. كل هذا يجعل من الواضح أن هذه الدراسة عديمة الأهمية فى محاولاتنا للإجابة عن السؤال الخاص بمعدل التحسن التلقائى.

ولقد أشار "برجن" إلى دراسة أخرى اعتبرها مؤيدة لتقديره بأن معدل التحسن التلقائى هو صفر ٪. هذه الدراسة، قام بها (J. Oconnor). ومرة أخرى نجد عنوان هذه الدراسة غريبًا جدا: "تأثيرات العلاج النفسى على قرحة غشاء القولون المخاطى" The Effects of Psychotherapy on the Course of Ulcerative Colitis.

مما لا شك فيه أن قرحة الغشاء المخاطى للقولون تختلف بشدة عن العُصاب. ولهذا، فإن هذه الدراسة - أيضًا - تكون عديمة الأهمية فى محاولاتنا للإجابة عن السؤال الخاص بمعدل التحسن التلقائى للعُصاب. هذا، وقد تم تشخيص المرضى، ولكن من بين الـ٥٧ مريضًا بقرحة القولون المخاطى الذين تلقوا علاجًا نفسيًا، والـ٥٧ مريضًا بقرحة القولون المخاطى الآخرين الذين لم يتلقوا علاجًا نفسيًا؛ فإن ثلاثة مرضى فقط من كل مجموعة، كانوا من "العُصابيين النفسيين" Psychoneurotic!

وهكذا فإن - حتى لو كانت هذه الدراسة ذات أهمية بالنسبة لفحص معدل التحسن التلقائى - أحسن الأرقام تكون ٣ ضد ٣. أما الحقيقة، فهى أن "النسبة المئوية للمعدل" لا يمكن استخراجها من هذه الدراسة؛ لأن كل النتائج قد أعطيت لنا على شكل متوسطات حسابية للمجموعة. ولهذا، فإن نتائج المرضى الثلاثة العُصابيين فى المجموعة التى تلقت العلاج، ونتائج العُصابيين الثلاثة فى المجموعة الثانية التى لم تتلق العلاج لا يمكن تحديدها!

ولقد ذكر "برجن" كثيراً من الدراسات الأخرى، ولكن معظمها لم يكن له علاقة طبيعية بمشكلة معدل التحسن التلقائى بين الأشخاص المصابين بالعُصاب، كما أنه تجاهل عديد من الدراسات الجيدة ذات الصلة القوية بالمشكلة محل الدراسة، ومن ثم فإنه يمكننا استنتاج أن نسبة الـ ٣٠٪ المشهورة التى خرج علينا بها "برجن" لا تقوم على أساس متين، ويجب تجاهلها. وأى قارئ لم يقتنع بعد بأن النتائج التى خرج بها "برجن" خاطئة، بل وغير مسئولة، عليه أن يقرأ النقد الذى كتبه المؤلفان السابق ذكرهما بالتفصيل.

وهناك عرض آخر للأدلة التى جذبت كثيراً من الاهتمام، ولقد نشر هذا العرض كل من "L. Luborsky"، و"B. Singer" فى كتابهما: "دراسات مقارنة فى العلاج النفسى "Comparative Studies in Psychotherapies" ذى العنوان الفرعى الذى يتساءل: "هل حقيقى أننا جميعًا قد فزنا، ويجب أن نحصل على جوائز"؟ من أرشيف الطب النفسى العام -٨-١٠٠ ٣٢،٩٩٥ لسنة ١٩٧٥م، الذى ادعى أنه قد وجد كثيراً من التأييد لوجهة النظر القائلة بأنه من الحقيقى أننا جميعًا قد فزنا، ويجب أن نحصل - جميعًا - على جوائز، وهو نفس القرار الذى أعلنه علينا "دودو Dodo"(*) فى قصة "أليس فى بلاد العجائب" Alice in Wonder Land(**)، وكما يقول "لوبورسكى" Luborsky:

"إن معظم الدراسات المقارنة من مختلف أشكال العلاج النفسى قد وجدت فروقًا غير جوهرية فى نسب المرضى الذين تحسنت حالتهم مع نهاية العلاج النفسى".

(*) هو طائر ضخم لا يستطيع الطيران، وقد انقرض خلال القرن السادس عشر من جزيرة "موريشيوس" Mauritius فى المحيط الهندى بعد سنوات قليلة من اكتشاف بحارة الغرب للجزيرة؛ هذا وقد كان الـ"دودو" Dodo ينتمى لفصيلة الحمام وإن كان أضخم منه بكثير؛ لأنه قيل: إن وزنه كان يصل لـ ٤٠ كيلو جرام أحيانًا؛ ويرمز اسم الـ"دودو" - فى اللغة الإنجليزية المعاصرة - للشخص المتخلف عن عصره أو الأبله الذى تتميز تصرفاته بالحماقة ومجافاة المنطق. (المترجم)

(**) إحدى قصص الأطفال الخيالية الشهيرة التى كتبها "تشارلز دودجسون" Charles dodgson فى عام ١٨٦٥م، وفى المشهد الذى ذكره المؤلف يقترح عليهم الـ"دودو" تجفيف أجسادهم المبتلة عن طريق الجرى حول أنفسهم - بطريقة اعتباطية - فى سباق تمنح فى نهايته الجوائز للجميع وبلا تفرقة! (المترجم)

ولكن للأسف، فإن "المنطق" و"طريقة التنفيذ" التى استخدمها "لوبورسكى" فى بحثه تشبه ما قاله "دودو" فى القصة الخيالية، عندما توصل إلى نتائجه بطريقة اعتباطية، لا تعتمد على أى منطق. وبالمثل، فإن "لوبورسكى" توصل إلى نتائجه اعتباطيًا، سواء باستخدامه - أو عدم استخدامه - لدراسات ضرورية أساسًا.

ومرة أخرى، فإن هناك نقدًا مفصلاً للمؤلفين السابقين ذاتهما فى كتابهما المذكور آنفًا، وقد يكون من غير المناسب الخوض فى المزيد من التفاصيل بهذا الخصوص. وفى الواقع، فإن "لوبورسكى" - فى نهاية مقاله - قد بدأ يناقض نفسه وكل ما سبق له قوله؛ فلقد وصل إلى استنتاجات مشابهة لما توصلت أنا إليه بخصوص كفاءة العلاج، وفى نهاية عرضه يخرج علينا بهذا الفرض:

"إذا كنا متشككين فى كفاءة أى صورة من صور العلاج النفسى؛ فمن الذى يستطيع أن يقول: إن أحد أنواع العلاج النفسى أحسن من الأخرى، أو أحسن من عدم توافر مجموعات العلاج النفسى، إن هذا يتسق مع نقص الأدلة التى تشير إلى وجود أى كفاءة للعلاج النفسى".

وكان رده:

"إن الفروق غير الدالة إحصائيًا بين مختلف أنواع العلاج لا ترتبط بالتساؤل الخاص بمدى كفاءة هذه الطرق، أو الفائدة المستفادة منها؛ فإن نسبة مئوية عالية من المرضى تبدو كما لو أنها تستفيد من أى علاج يقدمه العلاج النفسى، أو الإجراءات النفسية المضبوطة".

ولكن الاستنتاج الأخير غامض بطريقة غريبة ويبتعد عن الاستنتاجات التى يخرج بها مؤيدو العلاج النفسى!

وأخيرًا، فإنه من الواجب علينا ذكر دراسة أخرى نشرت تحت اسم "فوائد العلاج النفسى" The Benefits of Psychotherapy، بواسطة "مارى لى سميث" وآخرين، وهذه الدراسة عبارة عن كتاب مثير جدا، وقد خرج علينا بنتائج إيجابية جدا فيما يختص بتأثيرات العلاج النفسى وكفاءته، وإليكم بعض ما قاله مؤلفو هذا الكتاب:

"إن العلاج النفسى كان دائمًا – وبانتظام – مفيد فى شتى المجالات، وفوائده لا تقل عن الطرق البديلة المكلفة مثل: التدريس، واستخدام الطب. إن فوائد العلاج النفسى لا تتصف بالاستمرارية، ولكن فوائد الطرق البديلة لا تتصف هى الأخرى بالاستمرارية"・

ثم يستمرون فى القول:

"إن الأدلة تؤيد بقوة كفاءة العلاج النفسى. والصحفيون قد يستمرون فى الطعن والتشهير بالمحترفين الذين يستخدمون العلاج النفسى. ولكن كل من يحترم ويتفهم الكيفية التى تتم بها "الأبحاث الواقعية" Empirical Research(*)، يجب أن يعترف بأن العلاج النفسى قد أثبت بالفعل فاعليته. وفى الواقع، فإن هذه الكفاءة قد أُثبتت بالفعل مرارًا وتكرارًا، والمغالطات التى لا تزال تأتى من قبل النقاد الأكاديميين التقليديين للكتابات التى تعرض لنتائج العلاج النفسى – الذين يَدّعون أن كل الدراسات لم تلق القدر المناسب من التحكم أو المراقبة – إن المغالطة المنطقية التى يحاول بها النقاد النظريون تبرير النتائج التى خرجت بها – والذين يدعون أن الدراسات لم تلق القدر الكافى من الضبط والسيطرة – ويكون من الصعب عليهم تقديم أعذار جديدة لا تجلب الشكوك فى حقيقة نواياهم ودوافعهم."

وأصواتهم تعلو – الآن – تدريجيًا بالادعاءات التالية:

"إن التحليل النفسى قد أثبت فائدته للبشر من جميع الأعمار، مثلما أثبت التعليم المدرسى فائدته لنا، وكما أثبت الطب قدرته على العلاج. وهو مثلهم أيضًا؛ لأنه يسعى لتحقيق نفس الأهداف التى سعى لتحقيقها الطب والتعليم؛ فإن التحليل النفسى يؤدى وظيفته بطريقة جيدة، حتى إنه قد بدأ يهدد الحدود الصناعية التى بنتها العادات

(*) المقصود هنا من "الأبحاث الواقعية" هو تلك النوعية من الأبحاث التى تعتمد على نتائج الاختبار العملية وحدها، دون أخذ العلوم والنظريات فى الاعتبار، ويكون استخراج النتائج – من هذه التجربة – بناء على ملاحظات الباحث فقط. (المترجم)

والتقاليد بين مؤسسات العلاج والتطوير. إن ما نقترحه هو أن المحلل النفسى يجب أن يكون له - على الأقل - حق طبيعى على هذه الأدوار الموجودة فى المجتمع؛ خاصة إذا ما كانت مؤيدة بأبحاث مضبوطة، وتم التحكم فيها؛ وسواء كانت هذه الأبحاث خاصة أو عامة، ما دامت تهدف لمساعدة المريض والمنبوذ وكل من أصابه السوء".

وتستمر ادعاءاتهم اليائسة فى محاولة لإقناع كل من ليس له تجربة مع قضيتهم، ولكن الفحص الدقيق لأعمالهم يؤدى بنا - فى كل مرة - إلى النتائج العكسية.

كما أن "سميث" وزملاءها وجهوا انتقاداتهم للتقارير الأولية الخاصة بهذه الأدلة، وعلى سبيل المثال: فإنهم انتقدوا عدم وجود قوائم شاملة كاملة لكل أعمالهم، واعتبروا أن التركيز على التقارير الجيدة للأبحاث هو أمر غير مرغوب فيه، وهذا لأن مثل هذا القرار يكون تقديريًا فى كثير من جوانبه. وطبقًا لهذا، فإنهم قاموا بتجميع كل تقارير البحوث المتاحة عن نتائج العلاج باستخدام التحليل النفسى؛ التى تم فيها استخدام "المجموعة الضابطة" **Control group** و"المجموعة التجريبية" **Experimental group**، وبعدها قارنوا - مقارنة كمية - بين النتائج التى حصلوا عليها من كلتا المجموعتين، ثم تم حساب ما يعرف باسم "حجم التأثير **Effect Size**" أو (ح.ت. **E.S.**)، وهذا الرقم يكون صفرًا عندما .لا يكون هناك فرق بين المجموعتين، وإذا كان الرقم موجبًا فإن "المجموعة التجريبية" تكون قد تحسنت، وإذا كان الرقم سالبًا فإن "المجموعة التجريبية" تكون قد تدهورت حالتها عن "المجموعة الضابطة". ويسمى هذا التحليل بـ"التحليل البعدى" **Meta analysis**.

ولقد أشاروا إلى أن البيانات يمكن تحليلها بطرق مختلفة؛ بمعنى أن يأخذوا فى الاعتبار "نوع العلاج" **Type of therap**، وطول فترة العلاج، وطول مدة التدريب التى حصل عليها المعالج... إلخ. وفى النهاية، عرضوا لنا نتائجهم فى جدول يظهر متوسط "حجم التأثير" **Effect Size** أى متوسط الـ(ح.ت.) لـ ١٨ نوعًا مختلفًا من العلاج مقرونًا بعدد من الدراسات التى اعتمدت عليها إحصاءات كل نوع من هذه الأنواع الثمانية عشر المختلفة.

إن هناك كثيراً مما يمكن قوله عن الطريقة السابقة ذاتها؛ فإنه من غير الطبيعى - فى دراستنا للأدلة العلمية - أن نتعامل بالطريقة نفسها مع كل من الدراسات الجيدة والدراسات السيئة، وأن نعطى لكل منهما الوزن نفسه؛ لأن معظم العلماء يقومون باستبعاد الدراسات التى لم يتم التحكم فيها، أو إجراؤها، أو تحليلها بطريقة جيدة، وعلى أى حال، دعونا نتجاهل الانتقادات الكثيرة التى يمكن توجيهها للنظرية ذاتها، ولنركز على النتائج الفعلية. إن نتائج العلاج "النفسى الدينامى" psychodynamic تنتهى بـ"حجم تأثير" Effect Size مقداره ٦٩, ٠ (٦٩ ٪)، وهذا - فى رأيهم - يعتبر "حجم تأثير" بالغ القوة، ويؤيد وجهة نظرهم القائلة بأن "العلاج النفسى الدينامى" psychodynamic therapy يعتبر ناجحاً جداً؛ لأنه أفضل من عدم تقديم أى علاج.

وهم يدرجون علاجات أخرى عديدة، لها نتائج مساوية للعلاج النفسى الدينامى أو أفضل. وهكذا، فإن "التطمين المنظم" Systematic desensitization، الذى يعد أسلوباً من أساليب العلاج السلوكى يكون له حجم تأثير (ح.ت.) مقداره ٠٥, ١، وهو ما يقرب من ضعف حجم تأثير العلاج النفسى الدينامى، أى ٥٠ ٪. أما آخر النتائج فى الجدول (١٨) فهى نتائج "العلاج الزائف" Placebo treatment - كما شرحنا معناه من قبل - وهو علاج زائف لا منطق له ولا معنى، ولا نهدف من تقديمه للمريض إلى تحقيق أية فائدة. إن الغرض من تقديم هذا "العلاج الزائف" هو جعل المريض يعتقد أنه يتلقى علاجاً ما، بينما هو فى الحقيقة يتلقى علاجاً عديم الفاعلية تماماً.

إن "العلاج الزائف" يمثل قدرتنا على التحكم فى التأثيرات غير المحددة، ومن أمثلة هذه التأثيرات غير المحددة، عندما يذهب المريض إلى معالج نفسى وهو الأمر الذى يجعله يعتقد أنه يتلقى علاجاً ربما من خلال حواراته مع طبيبه. ولهذا، يحدث له قدر من التحسن على الرغم من أنه لا يحصل على علاج حقيقى فعال، ومن ثم يجب أن يكون لدينا "نوع من الضبط"، ولعله من المثير أن نحصل على حجم تأثير (ح.ت.) مقداره ٥٦, ٠ (٥٦ ٪)، وهذا يعنى حصولنا على نتائج قريبة جداً من نتائج العلاج النفسى الدينامى. وبمعنى آخر، يمكننا القول: إنه عندما يتم استخدام مجموعة ضابطة

مناسبة (المجموعة الضابطة المناسبة هى المجموعة التى تتعرض للعلاج الزائف) فإن "العلاج النفسى الدينامى"(*) psychodynamic therapy يكون عديم التأثير.

ولقد ظهر هذا بوضوح.. فى التقييم الذى أجرته " سميث " وزملاؤها؛ فلقد أظهر هذا التقييم أن "العلاج السلوكى" Behavior Therapy أكثر تفوقًا – من الناحية العلمية – على جميع أنواع "العلاج بالكلام" Talking Therapy، ولكننا لن نتمسك بهذه النقطة؛ لأنه لدينا أسباب أخرى تدعونا إلى تجاهل النتائج التى توصل إليها هذا البحث. ولعله من المهم التركيز على أن "سميث" وزملاءها كان يجب أن يأخذوا "العلاج الزائف" على أنه علاج فعلى، خاصة فى ظل التعريف الذى يتبنوه للعلاج النفسى. أما هذا التعريف – كان أول من قدماه هما "ميلتزوف" Meltzoff وكورنريتش Kornreich – فإنه يسير على الوجه التالى:

"إن العلاج النفسى هو تطبيق لتقنيات مشتقة من مبادئ التحليل النفسى، ويقوم على تطبيقه أشخاص مؤهلون، لديهم تدريبات وخبرات تمكنهم من فهم هذه المبادئ، ومن تطبيق التقنيات ... بغرض مساعدة الأفراد على إعادة تشكيل بعض سماتهم الشخصية، ومن أمثال هذه السمات: "المشاعر"، و"القيم"، و"الاتجاهات" Attitudes، و"السلوكيات"، وغيرها من السمات التى قد يقرر المعالج أنها فى حاجة إلى إعادتها على حالة التوافق أو التكيف".

ومهما قالوا، فإنه لا يمكن اعتبار "العلاج الزائف" إحدى التقنيات المشتقة من المبادئ المعروفة عن التحليل النفسى، كما أنه لا يمكن القول بأن "العلاج الزائف" يطبق

(*) "العلاج النفسى الدينامى": هو التفاعلات التى تحدث داخل نفسية الإنسان؛ فكل شخص لديه رغبات جياشة، تتفاعل وتتنازع فى داخله بعضها مع بعض، وتريد كل منها أن تتفوق على غيرها من الرغبات وتحظى بالسيادة. وعلى سبيل المثال: يكون لدى الفرد وقت محدود، ويرغب فى زيارة أصدقائه، وفى اللعب، وفى الاستذكار. ونظرًا لضيق الوقت – أو عجز الإمكانات – تتصارع هذه الرغبات فى داخله حتى يقرر الفرد أيًا منها تستحق الفوز. ويكون العلاج النفسى الدينامى من خلال تفسير ما يحدث للمريض، حتى يدرك طبيعة التفاعلات التى تدور داخله، والصراعات التى يعانى منها. (المترجم)

بغرض مساعدة الفرد على إعادة تشكيل سلوكه وإعادته إلى حالة التوافق التى يجب توافرها بين سمات شخصيته.

ومن المهم هنا ملاحظة أن علماء آخرين قد قاموا بتحليل كل الدراسات السابقة، مع استخدام مجموعات "العلاج النفسى" ومجموعات "العلاج الزائف" (أى المجموعات الضابطة)، وأنهم لم يجدوا أى فروق جوهرية فى النتائج. ولهذا، يمكننا أن نقرر بوضوح أنه عندما يتم استخدام جميع إجراءات الضبط المناسبة فإن الأدلة تؤيد استنتاجى الأصلى، ولا تدعم النتائج التى توصلت إليها "سميث" وزملاؤها من "البيانات" Data الخاصة بها!

ولعله من العجيب أن "الكتاب" الذى خرجت به علينا "سميث" وزملاؤها هو المرجع الذى يستشهد به المعالجون النفسيون على أنه الدليل القاطع على فاعلية الطرق التى يستخدمونها، وكثيرًا ما مُدح هذا الكتاب فى الدوريات والمجلات الخاصة بالتحليل النفسى من دون أدنى إشارة للوضع الغريب الخاص بموضوع "العلاج الزائف". والسبب فى هذا أن مهنة العلاج النفسى يمتهنها عدد من "علماء النفس" Psychologists، و"المحللين النفسيين" Psychoanalysts، و"الأطباء النفسيين" Psychiatrists أكبر من الذى تجذبه أىٌ من فروع علم النفس الأخرى. ونتيجة لهذا فإن هناك اهتمامًا مهنيًا موروثًا فى إثبات أهمية نشاطاتهم وقيمتها. وعلى كل من يدرس هذا النوع من الإنتاج البحثى أن يعى هذا؛ لأنه بدون هذا الوعى، فإنه سيكون من الصعوبة بمكان فهم كل تلك الادعاءات المتناقضة التى ذكرناها.

وفى هذا الكتاب نفسه، هناك مزيد من النقاط المثيرة التى تتناقض تمامًا مع الاستنتاجات التى خرج بها المؤلفون علينا؛ فدعنا نعود مرة أخرى إلى التعريف، وعندها سنلاحظ أن العلاج النفسى – طبقًا للتعريف السابق – يجب أن "يطبقه أشخاص مؤهلون؛ لديهم تدريبات وخبرات تمكنهم من فهم هذه المبادئ؛ ومن تطبيق هذه الأساليب".

وطبقًا لهذا التعريف، فإنه يمكننا استنتاج أنه كلما ازدادت فترة تدريب المعالج النفسى، حصلنا على نتائج أفضل.

ولكن التحليلات التى أجرتها "سميث" وزملاؤها لم تعثر على أى أدلة تؤيد هذا الاستنتاج؛ فلقد أوضحت هذه التحليلات - بالنسبة لعلاج الاضطرابات العُصابية - أن أسوأ أنواع التدريب كان لها الفاعلية نفسها التى كانت لأحسن هذه الأنواع وأكثرها طولاً وتخصصًا. فإذا كان هذا حقيقيًا، فإننا مجبرون على الاعتقاد بأن "العلاج النفسى" هو مهارة (فن) لا يمكن تعلمها، وأنها شىء يكتسب بعد مقدمة مختصرة فى مجال العلاج النفسى. وعلى ما يبدو، فإن هذه المهارة المكتسبة يكون لها الفاعلية نفسها ونجاح التدريب الطويل المكثف!

ولكن واقع الأمر هو أنه لا يوجد من بين المعالجين النفسيين من يتفق مع هذا الاستنتاج. ومع كل هذا، فإن "سميث" وزملاءها يبنون استنتاجاتهم المتفائلة - بخصوص فاعلية العلاج النفسى - على هذه الأسس السخيفة.

كذلك فإنه من المتوقع أن يكون لطول مدة العلاج النفسى شأن فى تحديد مدى فاعلية هذا العلاج، وأن تكون العملية العلاجية القصيرة أقل نجاحًا من العلاج الذى يستغرق مدة أطول، ولكن الواقع غير هذا.

فإن "سميث" وزملاءها توصلوا إلى استنتاج مخالف لهذا؛ فهم قد قرروا أن طول مدة العلاج النفسى يعد تغيراً غير جوهرى؛ فإن أقصر فترات العلاج - التى لم تكن تستمر إلا لساعة أو اثنتين - كانت ناجحة مثل أطول فترات العلاج التى كانت تستمر أحيانًا إلى عدة سنوات!

ومرة أخرى، فإننا سنجد أن المحللين النفسيين والمعالجين النفسيين لا يتفق أىٌ منهم مع هذا الرأى؛ لأن كل فريق منهما يؤمن بأن هذا الجزء من نظريتهم يتطلب كثيراً من البحث والعلاج الطويل. وهكذا، فإننا نجد أن الاستنتاجات المتفائلة التى توصلت إليها "سميث" وزملاؤها تتناقض مع المعتقدات الحاسمة التى يعتنقها المعالجون النفسيون أنفسهم.

كما أنه لا يمكن الظن أن الحالات الأكثر صعوبة تتلقى علاجًا أطول، وهو ما يفسر النجاح المحدود الذى لقيه العلاج النفسى طويل الأمد. وكما سبق لنا أن بينا

فإن التحليل النفسى هو أحد صور العلاج التى تفضل استخدام التطبيق طويل الأمد. ومع هذا، فإن المحلل النفسى يختار المرضى الذين لا يعانون من حالات حادة، ويكون من المتوقع أن يتعافى الواحد منهم بسرعة!

وهناك كثير من الخصائص الأخرى الغريبة المتعلقة بكتاب "فوائد العلاج النفسى" The Benefits of Psychotherapy. ولكن لعل فيما سبق الكفاية لإقناع القارئ بخطأ الاستنتاجات التى خرجت بها "سميث" عن مدى فاعلية هذا العلاج.

أما بالنسبة لـ"جلاس" Glass و"ميلر" Miller، اللذين لم يكن لديهما بيانات علمية خاصة بهما تؤيد وجهات نظرهما. ومع ذلك، فإن كتابهما اعتبر أحسن دليل على أن العلاج النفسى والتحليل النفسى ذو فاعلية، وحتى الآن - بعد ٣٠ سنة من نشر المقالة التى أشرت فيها إلى عدم وجود أدلة على فاعلية العلاج باستخدام "التحليل النفسى" وما يقرب من ٥٠٠ مراجعة علمية مكثفة فى هذا الخصوص - فإن الاستنتاج النهائى لا يزال يقر بعدم وجود أدلة مادية على أن التحليل النفسى أو العلاج النفسى لهما أى تأثير إيجابى فى علاج الاضطرابات العصبية. هذا بالإضافة إلى: "العلاج الزائف" عديم المعنى.

بغض النظر عن تلقينا علاجًا من عدمه، فإننا نتعافى من أمراض مثل نزلات "البرد" و"الأنفلونزا". والأمر ذاته ينطبق على العُصاب؛ فإننا فى النهاية نتعافى من الأمراض والاضطرابات العُصابية، وإن كان الأمر يستغرق مدة أطول، كما أن الشفاء التام لا يكون بالأمر المؤكد، وحتى إذا تحسن ٢/٣ (ثلثى) المرضى بعد فترة زمنية طولها عامان أو شفوا تمامًا بدون علاج؛ فإن هذا يعنى أن ١/٣ (ثلث) المرضى لم تتحسن حالتهم، وهو ما يعنى أننا ما زلنا فى حاجة إلى علاج نفسى أكثر فاعلية وسرعة؛ فإذا ما تَمَكنًا من تقديم العلاج الناجح إلى الأشخاص الذين لا يحدث لهم "تحسن ذاتى" Spontaneous Remission، أو تَمَكنًا من تخفيض مدة العامين لأولئك الذين يتم شفاؤهم ذاتيًا؛ فإننا بهذا نكون قد توصلنا إلى طريقة ذات قيمة وفائدة اجتماعية.

فـهل توجـد هنـاك أى نظريات بديلة لنظرية فـرويد؟ وهل هـذه النظريات تعطينا أنواعًا من العلاج أكثر فاعلية من التحليل النفسى والعلاج النفسى؟

إن الإجابة عن هذا السؤال: نعم بالتأكيد.

ففى كتابى "أنت والعُصاب" You and Neurosis تعاملت مع احتمال أن "العلاج السلوكى" Behavior Therapy يقدم لنا هذا الحل، أما فى الكتاب الحالى، فإننى سأقدم ملخصًا سريعًا لمحتويات هذه النظرية، والأدلة التى تؤيد فاعليتها. وبالطبع، فإن هناك عديدًا من الاختلافات بين المشتغلين بـ"العلاج السلوكى"، ورغم أن هذه الاختلافات "مثيرة" و"ذات دلالة خاصة"، فإن هذا الكتاب ليس بالمكان المناسب لها؛ فإن هذا الكتاب عن فرويد وليس عن "بافلوف" Pavlo الذى يمكن اعتباره مؤسس "العلاج السلوكى"، ولقد كان "بافلوف" هو أول من قدم مفاهيم مثل: "الإشراط" Conditioning، و"الانطفاء" Extinction. وقد كان "واطسون" J. B. Watson هو مؤسس "العلاج السلوكى" فى أمريكا، وهو الذى أثبت نجاح أسلوب "العلاج السلوكى" فى تتبع جذور الاضطرابات العُصابية وعلاجها.

وربما يكون من الأفضل أن نتكلم قليلاً عن مبادئ "الإشراط" Conditioning، وغالبية الناس على علم بتجربة "بافلوف" الشهيرة، التى أثبت من خلالها أن لعاب الكلب لا يسيل لمجرد سماعه صوت جرس فى المعمل. ولكن لعاب الكلب يسيل عندما يرى الطعام، وهو قد نجح فى إثبات أن الجرس (الذى سماه: "المنبه الشرطى أو "م. ش.") إذا دق قبيل تقديم الطعام (الذى سماه: "المنبه غير الشرطى" أو ("م. غ ش.")، فإنه بعد تكرار هذه العملية عدة مرات فإن الكلاب يسيل لعابها لمجرد سماع صوت الجرس وحده، وهذا يعنى أن الباحث كان يدق الجرس فقط، فكان يسيل لعاب الكلاب. هذا هو لب ظاهرة ما يعرفه علماء "العلاج السلوكى" بـ"التشريط" Conditioning. ولم تقتصر مساهمات "بافلوف" على اكتشاف هذه الظاهرة وإثباتها فحسب، بل إنه حدد القوانين التى تتبعها هذه الظاهرة. وهى مجموعة معقدة من القوانين لا يمكن لنا أن نعرض لها هنا. ولكن، علينا أن نعرض لواحد منها على الأقل .. وهو الذى نسميه: "الانطفاء" Extinction.

عندما نكتسب أو نتعلم الاستجابة الشرطية (سيلان لعاب الكلاب بعد سماع الجرس)؛ فإن هذه الاستجابة الشرطية تميل لأن تتكرر المرة بعد الأخرى، فإذا أردنا التخلص منها، يكون علينا إتباع طريقة معينة، تسمى طريقة "كف الاستجابة الشرطية" (أو الانطفاء). وهذا يعنى تقديم المنبه الشرطى عدداً كبيراً من المرات بدون تأكيده، بمعنى أن يتم دق الجرس عدداً كبيراً من المرات بدون أن يتلوه تقديم الطعام. وبالتدريج، فإن سيلان اللعاب الذى يحدثه (المنبه الشرطى = الجرس) يتلاشى تدريجياً حتى يتوقف تماماً. وهكذا، فإن الخاصيتين الأساسيتين للمنبه الشرطى، هما: "الاكتساب (أو التعلم)" Acquisition، و"الانطفاء" Extinction. ونحن نعلم كثيراً عن القوانين التى نتحكم بها فى خواص كل منهما ("الاكتساب" و"الانطفاء").

ولكن لماذا تعد عملية التشريط قضية مهمة لمن يدرسون السلوك العُصابى؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال دعنا نوضح "طبيعة الإنسان". فمن المتفق عليه عالميًا أن الإنسان حيوان اجتماعى، وأنه محدد جزئيًا فى سلوكياته بدوافع بيولوچية موروثة، وداخلة فى تكوينه، ومشتقة من مسببات چينية، وهذا التحديد البيولوچى لسلوكياته داخل فى أعماق تكوينه الجسمى الذى تشكل خلال ملايين السنين من النشوء والارتقاء. وبالمثل فإن الإنسان محدد جزئيًا فى سلوكه بعوامل اجتماعية، وهذه العوامل هى التى تعلمه وتشكل مواقفه وسلوكه خلال تعاملاته وتفاعلاته مع زملائه، وهكذا.

بعض علماء النفس يؤكدون دور الجانب البيولوچى، بينما يؤكد آخرون دور الجانب الاجتماعى، كدوافع محددة للسلوك البشرى. ولكنه من المهم أن نتذكر - هنا - أن الإنسان حيوان "حيوى اجتماعى" Biosocial(*)، وأن كلتا المجموعتين من الدوافع شديدة الأهمية فى محاولاتنا لفهم السلوك البشرى.

(*) المؤلف هنا يعنى أن "مجموعة العوامل الحيوية"، و"مجموعة العوامل الاجتماعية" تؤثر كل منهما فى السلوك البشرى. وهذا ما قصده من وصفه للإنسان بأنه "حيوان حيوى اجتماعى" Bio-social animal، وأن خليطًا من تلك العوامل الحيوية، والعوامل الاجتماعية يؤثران فى سلوكه. (المترجم)

وبالطبع فإن معظم سلوكيات البشر تمر عبر الدماغ، ويظهر دماغ الإنسان دلائل واضحة على التطورات التى حدثت له خلال تاريخه الطويل، ولقد أشار كثيرون إلى أن الإنسان لديه دماغ ثلاثى (أو - إذا جاز التعبير - ثلاثة أدمغة فى دماغ واحد)؛ فأقدم هذه الأدمغة هو ما يسمى بدماغ الزواحف، أو "جذع الدماغ"، الذى ما هو إلا جسر ما بين "قشرة الدماغ" The Cortex، والأعصاب الداخلة والخارجة منه، وفوق جذع الدماغ يوجد "الدماغ القديم" The Paleocortex، ويتكون فى معظمه من "الجهاز العصبى الطرفى" Limbic System(*)، ويختص بالتعبير عن المشاعر والأحاسيس، ويحيط به الجزء الثالث: "القشرة الحديثة" The Neocortex التى تسمى "المخ الجديد"، وهذا الجزء - بنموه الضخم - هو الذى يميز الإنسان عن أغلبية الحيوانات، كما أن هذا الجزء هو المسئول عن التفكير، والقدرات اللغوية، والقدرة على حل المشكلات، وكل "العمليات المعرفية" Cognitive Processes التى تميز البشر عن الوحوش.

إن "العُصاب" ما هو إلا نوع من الاضطراب فى الجزء الثانى من الدماغ، الذى يتكون فى معظمه من "الجهاز العصبى الطرفى". ومن الخصائص المهمة للاضطرابات العُصابية أنه من الصعوبة بمكان التأثير عليها من خلال مجموعة من الإجراءات التى تنبع من الجزء الثالث المعروف باسم "الدماغ الجديد" The Neocortex، وكمثال على هذه الخاصية المهمة: المرأة التى تعانى من "خوف مرضى من القطط" Cat Phobia؛ فهى تعلم تمام العلم فى "دماغها الجديد" Her Neocortex أن هذه المشاعر سخيفة، وذلك لأنه لا يوجد أى خطر حقيقى من القطط. ومع هذا، فإن هذه المشاعر موجودة داخلها.

(*) "الجهاز العصبى الطرفى": هو جهاز يقع تحت الفصين الأماميين (الفصين الواقعين فى مقدمة الجبهة) ويعلو جذع الدماغ؛ مما يعنى أنه جزء من المخ البدائى القديم للثدييات المشيمية، ذلك الجزء الذى مكنها من أن تبدأ فى التعرف على المشاعر؛ وجعلها قادرة على التعبير عنها، ومن التجارب المعملية اتضح أنه كلما ازداد نشاط هذا الجهاز كلما تزايدت الأفكار السلبية الكئيبة وأصبح الفرد أكثر عدوانية وازدادت حالة اللامبالاة لديه، ومن هذا أمكن لعلماء الأعصاب استنتاج أن هذا الجهاز يختص بالمشاعر والعواطف وكل ردود الأفعال الهجومية البدائية العنيفة. (المترجم)

وكل هذا لأن "الدماغ الجديد" و"الدماغ القديم" ليسا على اتصال وثيق بعضهما ببعض، ولكن هناك القليل من التفاعل النسبى بينهما.

إن لغة "الدماغ القديم" هى مفهوم "التشريط" Conditioning طبقًا لـ"باڤلوڤ"، وحدث أن أسلاف الإنسان القديم - قبل أن يطور دماغه الجديد بعهود سحيقة - كان عليهم أن يتعلموا تجنب الأماكن الخطرة، وأن يتجمعوا فى أماكن أخرى حيث يتوافر الماء والغذاء، ولقد اكتسبت كل الحيوانات هذه المهارة من خلال عمليات "التشريط" Conditioning طبقًا لـ"باڤلوڤ"، وهو ما حدث فى حالة أسلاف الإنسان أيضًا؛ فلقد اكتشفنا أنه يمكن اكتساب المشاعر بالطريقة نفسها؛ فما علينا إلا أن ندق الجرس فى نفس الوقت الذى نُعرض فيه الفرد لصدمة كهربائية. وبعد تكرار هذه العملية عدة مرات، فإننا سنجد أن الفرد سيظهر الأرجاع أو الاستجابات الجسدية ذاتها عند دق الجرس، وهى التى كان يظهرها عند معاناته من صدمة كهربائية!

و"القلق المرضى" وغيره من مشاعر الخوف يكون من السهل على الإنسان اكتسابها. ولهذا، فإن "باڤلوڤ" - ومن بعده "واطسون" - وضعوا النظرية التى تقول:

"إن الاضطرابات العُصابية ما هى فى الحقيقة إلا استجابات انفعالية مكتسبة (تم تعلمها)" Neurotic disorders are essentially conditioned emotional responses

وهناك تجربة معروفة أجراها "واطسون" أوضحت هذه النقطة؛ فلقد قام واطسون بـ"تشريط" conditioned طفل عمره ١١ شهرًا يدعى: "ألبرت". لقد كان هذا الطفل يحب اللعب مع الفئران البيضاء. ولخلق "خوف مرضى" Phobia من الفئران تم إحداث ضوضاء مخيفة خلف رأس ألبرت فى كل مرة حاول فيها الطفل أن يلمس أحد الفئران، بعد تكرار هذه التجربة عدة مرات ... بدأ ألبرت يظهر خوفًا ملحوظًا من الفئران. وشَمل هذا الخوف كل الحيوانات والأشياء ذات الفراء الأبيض، حتى لو كانت ذقن بابا نويل، أو معطفًا من الفراء، ولقد استمر هذا الخوف لمدة طويلة من الوقت. من هذا، استنتج واطسون أنه قد تمكن من تشريط (إكساب) الطفل عادة جديدة، حتى تملكه خوف مرضى. أيضًا، فإن واطسون قد اقترح أن المخاوف التى من هذا "النوع"

(مخاوف من النوع الذى ينبع من القلق) يمكن التخلص منها من خلال قانون "الانطفاء" Extinction" الذى سبق لنا شرحه.

وكانت إحدى تلميذاته، "مارى كوفر چونز"، قد تمكنت من إثبات الحقيقة السابقة عندما قامت بعلاج عدد من الأطفال الذين يعانون من مخاوف عُصابية ومرضية. وقد حدث هذا فى أوائل عقد العشرينيات من القرن الماضى (القرن العشرين)، ولقد شكلت هذه النظريات والدراسات الأساس الذى قام عليه العلاج السلوكى الحديث.

وهناك عديد من الطرق التى يمكن بها استخدام العلاج السلوكى، ولكن الطرق الرئيسية الثلاثة هى "التطمين المنظم" Desensitization و"الغمر" flooding و"النموذج" modelling، وسوف أشرح باختصار معنى هذه المصطلحات الثلاثة.

أولاً- «التطمين المنظم» Desensitization :

على سبيل المثال دعنا نأخذ حالة المرأة التى تعانى من خوف مرضى من القطط، وهذا لأنها كانت قد عانت من صدمة حدثت لها فى الماضى. إن العلاج السلوكى ينظر إلى هذه الصدمة على أنها "استجابة شرطية" conditioned response، وسيقوم المعالج بالبحث عن طريقة يتمكن من خلالها من إطفاء جذوة هذا الخوف. فى البداية، سيقوم المعالج بتعليم المريض عدة طرق للاسترخاء. بمعنى أنه سيعلمه أولاً كيف يرخى مختلف عضلات جسمه؛ لأن الشد العضلى هو أحد الأعراض التى تدل على وجود مستوى مرتفع من الخوف والقلق، وتمرينات الاسترخاء هذه هى التى تضع الأساس لعملية "الانطفاء" Extinction.

الآن يمكننا بناء مدرج لمستويات الخوف(*)؛ فعن طريق سؤال المريض والاستفهام منه، يمكننا أن نعرف ما المواقف - أو الأشياء - التى تسبب مشاعر الخوف، وما المواقف - أو الأشياء - التى تنتج أقل درجة من الخوف. وهكذا، فى حالة المرأة

(*) المؤلف هنا يعنى أن مخاوف المريض أصبحت مرتبة من أقل درجة إلى أشد درجة. (المترجم)

التى تعانى من خوف مرضى من القطط، فإن أقل المواقف - أو الأشياء - التى تسبب أقل درجة من الخوف قد تكون "صورة" لقطة صغيرة على مسافة بعيدة منها. أما أكثر المواقف - أو الأشياء - التى يمكن أن تُنتج أشد درجة من الخوف، فقد تكون قطة كبيرة متوحشة موضوعة على حُجرها (أو بين أحضانها). فى البداية، يتم وضع المريضة فى حالة من الاسترخاء الكامل، وعندما يتم إنجاز هذا، يطلب منها أن تتخيل أحد المواقف - أو الأشياء - التى تسبب أقل درجة من الخوف، ثم يتم عرض "صورة" القطة الصغيرة عليها من بعيد، إن القلق الذى يسببه هذا المنبه الشرطى (صورة القطة الصغيرة)، ليس من القوة بحيث يخرج المريضة من حالة الاسترخاء والهدوء. وبهذا، نكون قد تمكنا من تحقيق بعض "الانطفاء" Extinction.

وبالتدريج، يتقدم المعالج فى تعريض المريضة لمخاوف أشد فى مستواها، وعندما يصل إلى أعلى درجات الخوف، يكون قد تمكن من إطفاء أعراض الخوف لديها تماماً، وتكون المريضة قد شفيت، ولن تعود هذه السيدة لإظهار أعراض الخوف من مواقف أو أشياء لها علاقة بالقطط.

لقد أثبتت هذه الطريقة نجاحها التام، كما أنه يمكن تطبيقها على حالات "الخوف المرضى" Phobias الأكثر تعقيداً. أيضاً، يكون من الممكن تطبيقها على حالات القلق والاكتئاب وغيرها من الأعراض العُصابية الأخرى. ولقد اقتصرت فى وصف هذه الطريقة على أبسط صورها فقط. وبالطبع، هناك كثير من التفاصيل والتعقيدات التى لم يتم مناقشتها أو التعرض لها. و"أسلوب التطمين المنظم" هو - الآن - أكثر طرق العلاج السلوكى استخداماً، وهو - بلا شك - من أكثرها نجاحاً.

ثانياً- «الغمر» Flooding :

وسبب تسمية هذه الطريقة بالغمر، هو أن المريض يُغمر بالمشاعر المرضية المتعلقة بما يسبب له القلق أو الخوف المرضى. وبمعنى آخر، فإن هذه الطريقة هى عكس الطريقة السابقة؛ لأنها تبدأ من حيث انتهت تلك الطريقة؛ فالغمر يبدأ من قمة الهرم

(أى أكثر المواقف - أو الأشياء - التى يمكن أن تسبب أشد درجات الخوف). وهذه الطريقة - أيضًا - يمكنها أن تحقق "الانطفاء" Extinction، وسأشرح فيما بعد مثالاً طويلاً يوضح طريقة عملها.

ثالثًا- «النمذجة» Modeling:

فى هذه الطريقة، يُعرض على المريض "نموذج" (قدوة) لفرد - سواء أكان هذا الفرد هو المعالج ذاته، أم أى فرد آخر يختاره المعالج - يتعامل بنجاح مع الموقف - أو الشىء - الذى تسبب فى الخوف للمريض. وهكذا، إذا كان هناك طفل يخاف خوفًا مرضيًا من الكلاب؛ فإنه من الممكن أن يرى أحد أصدقائه أو أقاربه وهو يداعب كلبًا ضخمًا، ويلعب معه ويصادقه. وبالتدريج، فإننا سنجد أن "الانطفاء" Extinction قد تحقق. وبعد فترة، سيصبح الطفل قادرًا على الاقتراب من الكلب، والتغلب على خوفه المرضى.

أما الآن، فدعنا نأخذ فى الاعتبار مثالاً بعيدًا - بعض الشىء - عن التطبيقات المباشرة لـ"العلاج السلوكى"، ونقارن بينه وبين "التحليل النفسى". وأرجو ألا يفهم القارئ من اختيارى لهذا المثال بالذات أنه الحالة الفريدة التى تمكن "العلاج السلوكى" من شفائها والتعامل معها بنجاح؛ فكل "الاضطرابات" المختلفة التى أمكن وصفها بأنها "عُصابية" يمكن شفاؤها تمامًا بطرق "العلاج السلوكى".

والأسباب التى دفعتنى لاختيار مرض "وسواس غسل اليدين القهرى" Obsessive-compulsive hand-washing، هى كالآتى:

١- إن هذا الاضطراب السلوكى له مظاهر وعواقب واضحة، وأهم هذه العواقب طول المدة التى تضيع فى تنظيف اليدين، وفى تجنب حدوث أى تلوث لهما. وبمعنى آخر، فإن الفرد يتصرف بطريقة غير منطقية بسبب القيود التى تفرضها عليه الطقوس التى يجد نفسه مجبرًا على أدائها، وما إذا كان التخلص من هذه الطقوس سيخلف من ورائه طقوسًا أخرى ذات أعراض عقلية أو جسدية. وربما تكون - الطقوس الجديدة - أكثر تعقيدًا وإهدارًا للوقت.

٢- السبب الثانى الذى دعانى لاختيار هذا الاضطراب السلوكى هو أنه مقاوم لـ "التحسن الذاتى" Spontaneous Remission، كما أنه يقاوم محاولات علاجه باستخدام التحليل النفسى، والعلاج النفسى، والصدمة الكهربائية، وغيرها من الطرق. وباختصار، فإنه يمكن القول بأن جميع الطرق التى استخدمت لم تحظ بأى نجاح، ولهذا فإننا بدأنا من تاريخ مملوء بالفشل، والدكتور "مولان" Malan – وهو أحد أشهر أطباء التحليل النفسى الإنجليز – قد اعترف فى كتابه الأخير "العلاج النفسى الفردى والعلاجات النفسية الدينامية" Psychodynamics المطبوع فى عام ١٩٧٩م – أنه لم ير أبدًا أى حالة لهذا المرض تم علاجها بنجاح من خلال التحليل النفسى. بل إنه ذكر – صراحة – أنه يظن أن "العلاج السلوكى" هو الطريقة الأمثل التى يمكن استخدامها فى علاج هذا الاضطراب.

لأول وهلة، قد لا يبدو هذا المرض – وغيره من طقوس النظافة الأخرى – خطيرًا، ولكن الحقيقة هى أن هذا المرض له تأثير مدمر جدًا لقدرة الفرد على التأقلم مع مشاكل الحياة، والاحتفاظ بوظيفته، ورعاية أسرته. ويكون الفرد الذى يعانى من هذا الاضطراب عاجزًا عن الذهاب إلى عمله؛ لأنه يهدر كثيرًا من الوقت فى طقوس النظافة، كما أن حياته الأسرية تكون ممتلئة بالصعوبات للسبب نفسه، والنتيجة النهائية لهذه الطقوس ولعزلته الاجتماعية هى أن المريض يصبح قلقًا ومكتئبًا، بل إنه يميل إلى الانتحار أحيانًا. لكل ما سبق، فإنه من الواجب اعتبار هذا الاضطراب خطيرًا جدًا، ومن أكثرها مقاومة للشفاء، سواء من الناحية النفسية أو الجسدية.

٣- إن هذا السبب يتعلق بالاعتراض الذى كثيرًا ما تُنتقد به نظرية "العلاج السلوكى"، وهو اعتراض نابع من "مبادئ التشريط أو التعلم" Conditioning Principles التى انبثقت أساسًا من تجارب أجريت على الحيوانات، وأن العُصاب البشرى أكثر تعقيدًا من هذا بكثير، ولا يمكنه الاستفادة من هذه النماذج البسيطة. وفى الواقع فإن أحد أسباب اختيارنا لعُصاب الوسواس القهرى كمثال هو أن هناك نماذج لتجارب جيدة أجريت على الحيوانات يمكننا أن نشتق منها طريقة العلاج. وبهذا، يكون الاعتراض الذى كثيرًا ما تنتقد به نظرية "العلاج السلوكى"... غير حقيقى.

من غير الممكن لنا أن نحدد - سابقًا - مستوى التعقيد الذى يمكن للعلاج السلوكى مواجهته حتى يحقق النجاح، والدراسات التجريبية وحدها هى التى تستطيع أن تخبرنا بهذا.

إن منظور التجربة - الذى منه سوف نشتق طريقة العلاج - هو كما يلى:

فى صندوق كبير مقسم بفاصل إلى قسمين يتم وضع كلب، أرضية كل قسم من أقسام الصندوق مصنوعة من قضبان معدنية متصلة بالكهرباء، بحيث يمكن لنا إعطاء الكلب صدمة كهربائية. يمكن للصندوق إصدار "ضوء متقطع" Blinking light، وهو الذى يمثل فى هذه الحالة: "المنبه الشرطى"، أما الصدمة الكهربائية فإنها ستكون "المنبه غير الشرطى".

تبدأ التجربة، عندما يصدر الضوء المتقطع (المنبه الشرطى)، وبعدها بـ١٠ ثوان يتم إعطاء الكلب صدمة كهربائية (المنبه غير الشرطى)؛ فيقفز الكلب فوق الفاصل إلى الجزء غير المكهرب من الصندوق، ومن ثم ينطفئ الضوء. بعدها ببرهة قصيرة يصدر الضوء، وبعدها بـ١٠ ثوان تمامًا يتم إعطاء الكلب صدمة كهربائية فى المكان الذى كان آمنًا من قبل. ومرة أخرى، يقفز الكلب إلى الجزء الآخر من الصندوق.

وهكذا، فإن الكلب الذى سرعان ما تعلم أن يقفز إلى الجزء الآخر مع كل صدمة كهربائية، يجد نفسه يقفز بمجرد صدور المنبه الشرطى، وحتى قبل أن يشعر بالصدمة الكهربائية. يمكننا القول - الآن - بأن الكلب قد أصبح "مُشرَّطًا" Conditioned. فى هذه المرحلة من التجربة يتم إزالة الكهرباء تمامًا. ومع هذا، فإن الكلب يستمر فى القفز إلى القسم الآخر من الصندوق فى كل مرة يصدر فيها الضوء. ويتكرر هذا عشرات، ومئات، بل وآلاف المرات. وبمعنى آخر، فإنه يمكننا القول بأن: الكلب قد اكتسب عادة الوسواس القهرى، وأن هذه العادة سوف تظل ملتصقة به، وأنه لن يتخلى عنها تلقائيًا.

إن التشابه بين مريض "وسواس غسل اليدين القهرى" والحالة السابقة واضح؛ فإن المريض يغسل يديه حتى يستريح من القلق المتعلق بالتلوث، والكلب يقفز من قسم لآخر حتى يستريح من القلق المتعلق بإمكانية حدوث صدمة كهربائية، أما حقيقة الأمرين، فهى أن **التلوث لن يؤذى المريض، كما أن الكلب لن تحدث له صدمة كهربائية**.

ومن هذا نرى أن كلتا العادتين: "غير واقعية"، و"غير تكيفية". وكلتاهما عادة قوية جدًا، ومن الصعب التخلص منها. وهو ما رأيناه بالفعل فى حالة المريض البشرى. وبالنسبة للكلب، فإن هذه العادة العُصابية الجديدة سيكون من الصعب جدًا التخلص منها.

وأحد التجارب التى أجريت على الكلب - بغرض التخلص من هذه العادة العُصابية الجديدة - هى أن نعيد توصيل الكهرباء من جديد. وفى هذه المرة، فإن الكهرباء وصلت إلى القسم الذى يقفز إليه الكلب بحثًا عن الأمان، وليس للقسم الذى يقف عليه. ولكن هذه التجربة لم تفلح، وكل ما نجحت فى إحداثه هو أنها زادت من قلق الكلب وجعلته يقفز بسرعة أكبر وبمزيد من الطاقة.

فكيف يمكننا علاج هذا الكلب؟

إن الإجابة عن هذا السؤال هى ما يسميها المعالج النفسى بطريقة "الغمر مع منع الاستجابة" **Flooding with response prevention**، وهى تسير كما يلى:

يتم رفع الفاصل الذى يقسم الصندوق إلى ارتفاع لا يتمكن معه الكلب من القفز من قسم إلى آخر. وعندها، يتم إصدار "المنبه الشرطى". وهو ما يُنتج مستوى عاليًا من القلق لدى الكلب، فيبدأ فى النباح، والعدو فى قسمه من الصندوق، ويقفز على الحوائط، كما أنه يبول ويتبرز، مظهرًا علامات خوفه الشديد. الجزء السابق من التجربة هو ما نعنيه بـ"الغمر"؛ فإن الكلب يتم غمره فى فيض من المشاعر التى تنتج عن ظهور "المنبه الشرطى"، وتحت الظروف الطبيعية يتمكن الكلب من القفز فوق الفاصل، وبهذا يتمكن من تجنب "المنبه الشرطى"، لكن عملية القفز أصبحت مستحيلة - الآن - لأنه تم منع الاستجابة، بمعنى أن الفاصل كان من الارتفاع بحيث إنه منع الكلب من القيام بالاستجابة.

إن ظهور علامات الخوف الشديد فى البداية يقل تدريجيًا. وفى النهاية يهدأ الكلب. وبعد حوالى نصف الساعة، تظهر عليه علامات الهدوء الكامل. وبمعنى آخر، فإن الكلب يكون قد حدث له "إزالة تدريجية لحساسيته" **Desensitized** تجاه الموقف. ونكون

بهذا، قد حققنا قدراً لا بأس به من "الانطفاء" (انطفاء العادة وتوقف الاستجابة). وبعد تكرار التجربة عدداً كافياً من المرات، فإن الكلب يشفى تماماً. ودليل شفائه هو أنه يمكننا أن نخفض الفاصل الذى يُقسم الصندوق، وعند إصدار "المنبه الشرطى" (الضوء) فإن الكلب لن يحاول القفز.

الآن علينا أن نحاول أن نستفيد من التجربة السابقة فى علاج المريض الذى يعانى من "وسواس غسل اليدين القهرى"، إن المشكلة فى غاية البساطة، فما على المعالج إلا أن يشرح للمريض ما الذى عليه أن يفعله؟ ولماذا يجب عليه استخدام هذه الطريقة بالذات فى العلاج؟ وبعدها - عندما يوافق المريض على اتباع العلاج - يتم إدخاله إلى غرفة ليس بها إلا منضدة ومقعدان، على المنضدة يوجد وعاء مملوء بالرمال وغيرها من القاذورات. يجلس كل من المعالج والمريض على المقعدين المتقابلين، ويدخل المعالج يده فى الوعاء، ويرفع بعض الرمال والقاذورات. وعندها، يطلب المعالج من المريض أن يفعل الشىء ذاته. يحاول المريض - بعد أن يكون قد أدخل يده فى الوعاء - أن يرفع بعضاً مما فيه. ولكنه - على الفور - يشعر بقلقه يزداد، ويرغب فى الذهاب لغسل يديه، ولكن المعالج يطلب منه البقاء فى مقعده، وعدم تنظيف يديه، إن هذا الإجراء "يغمر" المريض بمشاعر مشابهة للمشاعر التى غمرت الكلب عند زيادة ارتفاع الفاصل إلى حد منعه من القفز، ولكن التشابه لا يقف عند هذا الحد؛ فكما حدث مع الكلب، فإن مشاعر الخوف والقلق التى تغمر المريض، سرعان ما تقل تدريجياً. وبعد مرور حوالى ساعة أو ساعتين، سيتمكن المريض من الجلوس فى مقعده، وبالرغم من أنه سيظل غير سعيد بهذا الوضع، فإن درجة الخوف والقلق لديه ستكون قد انخفضت إلى حد كبير. عندما يصل المريض إلى الحد الذى تتوقف فيه المعاناة من الخوف والقلق يتم إيقاف التجربة. وعندها فقط، يتم السماح له بغسل يديه. يتم تكرار هذه الإجراءات عدة مرات خلال فترة تتراوح ما بين شهرين وثلاثة أشهر؛ بحيث تكون هناك جلستان كل أسبوع. وطبقاً للنظرية، فإن المريض يكون قد تم شفاؤه. **فهل هذا هو ما يحدث فى الحقيقة؟**

فى كتاب العالمين "راكمان" S. Rachman، و"هودجسون" R. Hodgson المسمى: "الوسواس والطقوس القهرية" Obsessions and Compulsions، نجد تفصيلاً كاملاً للتجارب التى أجرياها، والطرق التى استخدماها فى العلاج. والإجابة هى: إن ما بين ٨٥-٩٠ ٪ من كل المرضى يشهدون تحسنًا ملحوظًا، أو يتم شفاؤهم تمامًا. أيضًا، فإن تتبع حالات المرضى - بعد انتهاء العلاج - كشف عن عدم وجود أى علامات انتكاس. كذلك، لم يتم العثور على أى أدلة تؤيد حدوث أى نوع من أنواع "الأعراض البديلة".

وفى الواقع، فإن العكس هو الصحيح، فإن حياة المريض المهنية والعائلية تستمر فى التحسن بعد نهاية فترة العلاج. أيضًا، فإن المستوى العام للقلق والاكتئاب يستمر فى الانخفاض. وطبقًا لروايات المرضى وعائلاتهم، فإن العلاج كان فى النهاية ناجحًا.

وكل هذا يتعارض مع التوقعات التى كان فرويد يخرج علينا بها، بل إنها تتعارض مع افتراضاته الخاصة بنتائج ما يحدث عند القيام بـ"علاج الأعراض فقط" Purely Symptomatic Treatment. وعلى هذا، فإنه يجب النظر إلى التجربة السابقة على أنها دليل قوى ضد نظريات التحليل النفسى.

من الواضح أن مثالاً واحدًا فقط لن يكون كافيًا لإثبات تفوق "العلاج السلوكى"، والقارئ يستطيع أن يجد مناقشة مستفيضة بهذا الخصوص فى كتاب "كازدين" و"ولسون" والمسمى "تقييم العلاج السلوكى" Evaluation of Behavior Therapy.

لعل الأدلة قد أوضحت - الآن - أن "العلاج السلوكى" ليس فقط أكثر نجاحًا من غيره من طرق العلاج النفسى، بل إنه أكثر فاعلية وسرعة؛ فالمشكلة الآن لم تعد تأخذ سنين طويلة، بل أصبحت مسألة شهور - بل أسابيع فى بعض الأحيان - قبل أن تظهر بوادر النجاح. أما حالات الفشل، التى يحدث خلالها "انتكاس"، أو "ظهور أعراض بديلة" فهو ما يجب اعتباره الدليل الحاسم ضد "نظرية التحليل النفسى"؛ لأنها تتعارض مع توقعات فرويد - ومريديه - الواضحة فى هذا الخصوص. ولعله من الأمور التى تدعو إلى السخرية المريرة أن أولَئك الذين لا يستطيعون أن يعالجوا حتى الأعراض يتهمون "العلاج السلوكى" بأنه لا يستطيع إلا علاج الأعراض!

إن نظرية "التشريط"، و"الانطفاء" الخاصة بالعُصاب تمكننا من شرح عديد من الحقائق التى كانت غامضة من قبل. ومن بين مئات الأنواع الموجودة الآن من العلاج النفسى؛ فإن هناك عديداً من الأنواع التى تنجح بنفس الطريقة التى ينجح بها عدم استخدام أى علاج. بمعنى أن: المريض كان سيتحسن على أى حال، وحتى إذا لم يقدم له أى علاج أيًا كان، وهو ما نسميه "التحسن التلقائى" **Spontaneous Remission**، وربما يكون من الأفضل لنا شرح هذا "التحسن التلقائى"، ولماذا يحدث؟ وعندها سنستطيع تفسير السبب فى نجاح عديد من طرق العلاج. وهل يمكن أن يتسق هذا مع "نظرية الانطفاء"؟

دعونا نأخذ فى الاعتبار حقيقة ما يحدث للحالات التى يحدث لها "التحسن التلقائى"؛ فالمريض يذهب بمشاكله إلى "رجل دين"، أو "معلم"، أو "طبيب"، أو "صديق"، أو "قريب". وعلى أى حال؛ فإن ما فعله المريض ليس إلا تقليداً باهتًا للإجراءات التى تحدث فى "إزالة الحساسية بالتدريج" **Desensitization** التى سبق لنا وصفها، فالشخص الذى يتحدث معه المريض سيتعاطف معه، وسيحاول أن يساعده بقدر الإمكان، وهذا سيخفض من مستوى قلق المريض. وهكذا، فإن المريض سيصبح فى حالة هدوء. وسيميل – أولاً – إلى مناقشة المشاكل التى تتسبب له فى أقل قدر من القلق. وبعدها، سيعرض المشاكل الأكثر خطورة.

من الطبيعى ألا تكون هذه هى الإجراءات السابقة فى نجاح "العلاج السلوكى"؛ لأنه لا يتم تنفيذها بطريقة منظمة، وكلما تم تنفيذها بطريقة أكثر شبهًا بـ" إزالة الحساسية بالتدريج" من القلق أو الخوف، زادت فرص نجاحها. وفيما يبدو، فإن هذا التشابه هو الذى سيمكننا من تفسير النجاح النسبى للتحسن التلقائى، وهو ما سيوضح لنا أنه لم يكن هناك أى تلقائية، بل إنه كانت هناك مجموعة من الإجراءات المتشابهة مع "العلاج السلوكى".

الشىء ذاته يحدث عندما يذهب المريض لزيارة معالج نفسى، أيًا كانت انتماءاته؛ ففى هذه الحالة أيضًا، فإن المريض سيجد شخصًا يتعاطف معه ويحاول أن يساعده.

ومرة أخرى، فإن المريض يجد من يصغى إلى قصته، وللصعوبات التى يشكو منها، والأشياء التى تقلقه. وكما سبق وذكرنا، فإن المجموعة السابقة من الإجراءات تكون أقل نجاحًا من "التطمين المنظم"، وهذا لأنه لم يتم برمجتها وإعدادها بالطريقة السليمة، لكنها ستلاقى قدرًا من النجاح مساويًا لإجراءات "التحسن التلقائى"، وإذا تذكرنا أن "سميث" و"جلاس" و"ميلر" قد أظهروا لنا أن طول فترة التدريب التى يحصل عليها المعالج لا تُحدث أى فارق جوهرى؛ فإنه يمكننا أن نعمم هذه النتيجة لتشمل - إلى جانب "المعالج النفسى" - رجل الدين، والمعلم، والطبيب، وأصدقاء وأقرباء المريض، الذين لم يتلق أىٌّ منهم أى تدريب منظم، ولكن مجرد وجودهم واستعدادهم للإصغاء يساعدهم على تفعيل إجراءات "التطمين المنظم".

وعلينا - فى هذا الخصوص - تذكر أن التدريب الذى يحصل عليه المعالج النفسى يتوافق مع نظرية المدرسة التى يتبعها، وكما رأينا، فإن هذا التدريب لا يؤثر على نجاح العلاج. ومن كل ما سبق يمكننا أن ندعى أن "نظرية الانطفاء" يمكنها أن تفسر كل الظواهر التى رأيناها، وهو ما يخالف الواقع مع أى نظرية بديلة.

من الأسئلة التى عادة ما تطرح: لماذا يوجد إذن هذا العدد الكبير من المرضى والمعالجين الذين يؤمنون بفاعلية العلاج باستخدام أساليب "التحليل النفسى"؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل تَظهر لنا بوضوح فى تجربة شهيرة كان "سكينر" Skinner هو أول من أجراها.

هذه التجربة متعلقة بجذور التطير أو "التفاؤل والتشاؤم"(*) Superstition.

لقد قام هذا العالم بتجميع مجموعة من طيور الحمام فى قفص كبير جدًا، وتركهم فيه طوال الليل، وخلال فترات غير متساوية كانت آلة كهربية تقوم بقذف مجموعة من

(*) كلمة Superstition تعنى "التطير" و"الإيمان بالخرافات". وفى اللغة العربية، فإن "التطير" هو كل من "التفاؤل أو التشاؤم" بأحداث معينة، ولكن حيث إننا نتكلم - هنا - عن مثال به طيور؛ فإنه من الأفضل عدم استخدام كلمة "التطير" حتى لا يختلط الأمر على القارئ. (المترجم)

حبوب الذرة داخل القفص. فى الصباح، لاحظ "سكينر" أن عدداً من الحمام يتصرف بطريقة غريبة. فإحداهن كانت تمشى ورأسها مرتفع فى الهواء، بينما كانت حمامة أخرى تدور فى دوائر مغلقة وقد لامست الأرض بأحد جناحيها، وحمامة ثالثة كانت ترفع ريشات ذيلها بطريقة مستمرة.

فما الذى أصاب هذه الطيور؟

إن الإجابة على هذا السؤال - فى ظل نظرية التشريط - هى كالآتى:

لقد كانت هذه الطيور تتحرك بطرق مختلفة عندما تم - فجأة - القذف بمجموعة من حبوب الذرة. وعلى الفور، قامت الطيور بابتلاعها. طبقًا لنظرية التعلم الشرطى فإن حبوب الذرة قامت بدور المنبه الشرطى، جاعلة هذه الطيور راغبة فى تكرار الحركة التى كانت تقوم بها عندما تم إلقاء حبوب الذرة. فى هذا المثال، كانت إحدى هذه الطيور تمشى ورأسها مرتفع فى الهواء. وحمامة أخرى كانت تلامس بجناحها الأرض، وكانت الثالثة ترفع ذيلها وتخفضه، وقامت هذه الطيور بتكرار تلك الحركات المرة بعد الأخرى حتى لحظة سقوط المجموعة الجديدة من حبوب الذرة، وهو ما زاد فى تأكيد أهمية تلك الحركات بالنسبة للطيور الثلاثة. عندما سقطت المجموعة الثالثة من الحبوب، أصبحت هذه الطيور الثلاثة مقتنعة بأن هذا حدث بسبب قيامها بتلك الحركات. وهكذا تكونت داخل تلك الطيور نزعة لـ"التفاؤل" Superstition (الإيمان بـ"خرافة" لا أساس لها فى الواقع)، وتأكدت لديها العلاقة بين ما تقوم به من حركات وسقوط الحبوب، ويعتقد "سكينر" أن إيمان المرضى والمعالجين بفاعلية التحليل النفسى يرتكز على هذه الأسس السابقة نفسها.

فحيث إن المريض ستتحسن حالته على أى حال - كما سبق وأظهرنا من خلال التحسن التلقائى - فإنه ينسب هذا التحسن إلى العلاج الذى تلقاه، وفى الواقع، فإنه لا توجد أى علاقة حقيقية بين الاثنين، وعندما يصل المريض - أو المعالج - إلى هذه

القناعة، فإنه يتم صرف المريض بحجة أنه "شفى". أما الحقيقة التى تقول: إن المريض غالبًا ما تسوء حالته مرة أخرى؛ فإنها لا تثير اهتمام المعالج ولا تزعزع من ثقته فى قناعاته.

إن التفاؤل والتشاؤم "عادة" يصعب التخلص منها، وعدم استنادها إلى أى سبب أو تجربة يدل على حقيقة أصلها غير المنطقى، وهذا هو واحد من تناقضات علم النفس؛ فإن المحللين النفسيين الذين يدعى الواحد منهم أنه يقدم أفكارًا علمية ومنطقية إلى عالم الأمراض الذهانية والشعورية غير المنطقى يخضع - هو ذاته - لهذه العادة الشرطية المكتسبة، أما أن يصبحوا قادرين على إقناع عامة الناس بصدق نظرياتهم، وفاعلية طرقهم فى العلاج، فهو معجزة العصر.

الفصل الرابع

فرويد ونمو الطفل وارتقاؤه

إنهم يقدمون استنتاجات نظرية بلا أى تجارب
عملية تؤيدها، وتكون الأخطاء هى النتيجة.

مايكل فارادى

الآن، بعد أن انتهينا من تناول قضية كفاءة العلاج النفسى وتأثيره، باستخدام طريقة فرويد فى التحليل النفسى، فإنه علينا أن نلتفت إلى نظرياته بخصوص جذور الأعراض العُصابية؛ فطبقًا لفرويد تكون "الأمانى الجنسية التلقائية – فى مرحلة الطفولة – هى وحدها القادرة على أن تمد الأعراض العُصابية النفسية بالقوة الدافعة التى تجعلها تتشكل وتتبلور".

وطبقًا لهذا، يكون من الضرورى علينا أن نبحث فى هذا الفصل "نظرية فرويد" فى نمو الطفل وتطوره. كما أن هذا سيعطينا الفرصة لفحص مدى صحة الادعاءات القائلة بأن نظريات فرويد تحتوى على عنصر تجريبى أصيل. أيضًا، كما أنها تمكننا من اختبار وجهة نظر "كارل بوبر" Karl Popper، التى تقول بأن: "التحليل النفسى" ليس إلا "علمًا زائفًا"؛ لأنه لا يقدم أى توقعات يمكن إثبات زيفها. وأخيرًا، ستكون لدينا الفرصة لفحص ملف حالة "هانز الصغير" Little Hans، الذى يُنظر إليه على أنه بداية التحليل النفسى الخاص بالأطفال. كما أنه يعتبر واحدًا من أعظم نجاحات فرويد فى العلاج. وسنرى بأنفسنا حجم الحقيقة فى هذا الادعاء، وما إذا كانت هناك نظريات

بديلة يمكنها أن تشرح - بطريقة أفضل - حقيقة الأعراض العُصابية التى عانى منها "هانز الصغير".

ولعله من الأمور المثيرة أن نبدأ بفحص ادعاءات "كارل بوبر" بخصوص عدم إمكانية إثبات زيف تعاليم فرويد من عدمها. لأول وهلة، قد يبدو لنا أنه مخطئ، ومع ذلك فإن هناك بعض الاستنتاجات التى حصلنا عليها من نظريات فرويد، وهذه الاستنتاجات يمكن إخضاعها للتجارب التى تمكننا من التأكيد على زيفها من عدمه، وأحد هذه الأمثلة هو استنتاجه لعودة الأعراض، أو ظهور أعراض بديلة فى حالة استخدامنا لما سماه "علاج الأعراض" Symptom-oriented Treatment. وكما رأينا من قبل، فإن هذا لم يحدث، ويمكن اعتبار هذا: "دحضاً" لمكون أساسى من مكونات نظرية فرويد. ولكن التركيز على إمكانية إثبات الزيف فقط لا غير سيؤدى بنا إلى عدم فهم وجهة نظره؛ فإن "كارل بوبر" أطلق على بعض النظريات التى يمكن التحقق من ادعاءاتها فقط اسم: "علم زائف" أيضًا. وبالرغم من ثبات زيفها، فإنها لا تزال تحتفظ بمعجبين؛ فإن ما يميز جميع أعمال فرويد .. شىء أكثر أصولية وخطورة، كما أنه من الصعب دحضه بمجرد إثبات زيفه.

وفى المقال الذى كتبه "فرانك سيوفى" Frank Cioffi بعنوان: "فرويد و"فكرة" العلم الزائف Freud and the Idea of Pseudo-Science، تم إيضاح الفكرة السابقة؛ فلقد ذكر المؤلف ("فرانك") أن هناك كثيراً من الأشياء الغريبة فى نظرية التحليل النفسى وتطبيقاته، التى تبدو عديمة الجدوى ولا داعى لها، وهو يقترح أن هذه الأشياء موجودة لهدف واحد هو محاولة منع الآخرين من دحض النظرية، ويقوم "فرانك" بتسجيل عدد من هذه الأشياء الغريبة، ومعظمها يختص بالتنوع الظاهر فى الطرق التى يمكن بها تقييم صحة ادعاءات التحليل النفسى، مثل: "ملاحظات عن سلوك الأطفال"، و"أبحاث فى الخصائص المميزة لتاريخ الطفل الجنسى واضطراباته العُصابية"، وكلها تكون فى انتظار نتيجة "المقاييس الوقائية" المبنية على ادعاءات فرويد بوجود علاقات سببية، وكلها تشير فى النهاية إلى شىء واحد ("التفسير")، لنكتشف - أخيراً - أنه سراب ووهم، ولا يمكن التأكد من صحته.

هذا، وقد كان فرويد بنفسه هو الذى يقوم بـ"صياغة الأساليب" الواجب اتباعها من أجل الوصول إلى هذا "التفسير". وفى هذا الخصوص، كان لديه عدة "طرق" مثل: "ترجمة الإجراءات اللاشعورية إلى إجراءات شعورية"، و"ملء الفجوات من خلال استخدام مفاهيم شعورية"، و"بناء سلسلة من الأحداث الواعية تكون موائمة ومكملة للأحداث التى يعتقد بوجودها فى اللاشعور"، و"الاستدلال على وجود أحلام جامحة لدى المريض من الأعراض التى يعانى منها، وبعدها ينقلها إلى وعى المريض"، وكما أوضح "فرانك سيوفى": فإنه من خصائص "العلم الزائف" أن الافتراضات التى تشكل هذا العلم تكون متسقة مع التوقعات التى خرجوا بها علينا. فهم يسمحون لهذه الافتراضات بأن ترشدهم، ويعتبرون تحققها نصراً لهم، ولكن عدم تحققها لا ينتقص من مصداقيتهم!

وفى كلمات أخرى، فإن "العلم الزائف" يحاول أن يقنعنا بالشىء وضده فى ذات الوقت؛ فعندما تكون التجربة مؤيدة لوجهات نظرهم، فإنها تقبل كإثبات لصحة نظريتهم. ولكن عندما تكون نتائج التجربة معارضة للافتراضات محل البحث، فإنهم يرفضونها على أساس أنها عديمة الجدوى، وليست وثيقة الصلة.

وقد قام "فرانك سيوفى" باستخدام نظرية فرويد فى نمو الطفل وتطوره؛ ليوضح لنا رغبة فرويد القوية فى منع الآخرين من دحض نظريته. ومن المهم هنا أن نلاحظ أنه - طبقًا لما قاله "كارل بوبر" - فإن هناك عَالمًا آخر قدم لنا "علمًا زائفًا"؛ وهذا العالم هو كارل ماركس؛ لأن ماركس - هو الآخر - اعتمد على استنتاجات كثيرة، بدلاً من أن يتقصى الحقائق من خلال التجربة والخطأ. وفى حالته، فإن ماركس افترض أن البروليتاريا(*) يجب أن تكون فى المقدمة لكى نتمكن من إحداث أى تقدم تاريخى. ولكن أمنيات وخطط هذه الطبقة يجب فهمها بطريقة صحيحة، حتى تكون مقبولة من وجهة النظر الماركسية، ولا يوجد هناك من هو أصلح للقيام بهذا من الماركسيين أنفسهم

(*) البروليتاريا - فى النظرية الماركسية - هو الاسم الذى أطلق على الطبقة العاملة التى لا تملك أيًا من الأدوات أو المقومات الرأسمالية اللازمة للإنتاج. (المترجم)

والموجودين فى الحزب الشيوعى. وبالطبع، فإن فهمهم هذا لم يكن ذا صلة وثيقة بأمانى ورغبات تلك الطبقة، ولم يضايق هذا ماركس وخلفاؤه، وهو ما حدث مع فرويد، الذى لم تضايقه الحقيقة التى تقول: إن استنتاجاته كانت غير مقبولة من قبل مرضاه ومنتقديه. وحيث إنه لا يوجد أى نموذج مطلق يمكننا أن نقيس عليه القيمة الحقيقية للاستنتاجات، فإنه من الواجب علينا أن نعتمد على التجربة وملاحظة الحقائق.

إن نظرية فرويد الخاصة بنمو الطفل وتطوره معروفة، ولكن من الممكن تلخيص تفاصيلها فيما يلى: ينشأ "الولد الصغير" وهو لديه رغبة فطرية فى ممارسة الجنس مع أمه، ولكنه يشعر بالخوف من محاولة تحقيق هذه الرغبة؛ لأن وجود الأب يخيفه؛ خاصة أن الأب يبدو وكأنه لديه حقوق سابقة على الأم. لكل هذا، فإن الطفل الذكر يعانى من "خوف الخصاء"، خاصة عندما يلاحظ أن أخته لا تملك قضيبًا. وهذا يعمل على زيادة مخاوفه، ويضطره إلى كبت رغباته نحو أمه، التى قد تستمر فى الوجود – فى المراحل التالية من حياته – داخل اللاشعور، هذه الرغبات تعرف باسم "عقدة أوديب"، وهى التى تتسبب – فى المراحل التالية من عمر الطفل – فى كثير من الأعراض العُصابية الفظيعة.

يجعل فرويد "عقدة أوديب" هذه هى المحور الذى تدور من حوله "نظرية التحليل النفسى"، وسنرى فيما بعد ما إذا كان هناك أى أدلة تجريبية تؤيد هذا الافتراض، وهناك مزيد من الفروق والاختلافات الدقيقة الأخرى فى نظرية فرويد، ولكن فيما ذكرناه حتى الآن ما يكفى ليأخذ القارئ فكرة عن طبيعة نظريته.

وبالطبع تسببت هذه الآراء فى صدمة كل من قرأها لأول مرة، ولكنها بالغة الأهمية؛ لأنها ذات قيمة توضيحية فى كشف جذور العُصاب، والأدلة التى تقدمها لتأييد طرق التحليل النفسى، ومن الطبيعى أن فرويد كان يؤمن بأن آراءه هذه تمثل صفات عامة، مر بها كل الأطفال الذكور، ويمكن تأييدها من خلال مراقبة الأجيال الجديدة من الأطفال.

وكما قال بنفسه: يمكننى أن أشير - برضى كامل - إلى حقيقة أن الملاحظة المباشرة قد أكدت الاستنتاجات التى توصل إليها التحليل النفسى. وبهذا تكون الملاحظة قد أمدتنا بأدلة جيدة على صلاحية الطريقة المستخدمة فى البحث.

وفى أكثر من مناسبة ذكر فرويد أن افتراضاته الطبية بخصوص الحياة الجنسية للطفل الذكر يمكن التحقق منها من خلال: "الملاحظات المنظمة" لسلوك الأطفال، ولقد أشار فرويد - فى ملف حالة "هانز الصغير" - إلى أن مراقبة الأطفال وملاحظة سلوكهم تعتبر إثباتًا مباشرًا وقويًا على صحة هذه النظريات الأساسية، كما أنه أشار إلى إمكانية مراقبة الطفل مباشرة؛ لأن براءته الفطرية تمكننا من فهم الدوافع الجنسية والميول والرغبات، التى قد نعانى كثيرًا إذا حاولنا أن نتفهمها من مراقبة البالغين، كما أنه أيضًا ذكر أن الفتيات الصغيرات تنظر الواحدة منهن إلى البظر على أنه شىء أقل قيمة من القضيب الذكرى.

أما بخصوص "عقدة أوديب"، فإنه كتب:

"فى هذه المرحلة من حياة الطفل، فإن هذه الدوافع تستمر - بدون قيود - كرغبات جنسية مباشرة، وإثبات هذا هو أمر غاية فى السهولة، بل إنه من الصعب تجاهل حقيقة هذه الدوافع حتى إذا بذلنا أعظم الجهد فى سبيل ذلك".

ولعل أوضح تقاريره التى جاهر فيها بأن الملاحظة المباشرة للطفل العادى تؤيد نظريات التحليل النفسى - هى التى قال فيها:

"فى البداية، كانت كل آرائى - بخصوص النشاط الجنسى للطفل - مؤسسة على نتائج تحليل نفسية البالغين، ولهذا، فإننى أعتبره نصرًا مؤزرًا أن كل استنتاجاتى تم التحقق من صحتها، عندما تم مراقبة الأطفال وتحليلهم، ورغم أن هذا تم بعدها بسنوات عديدة، وإن كان هذا النصر قد فقد بعض حجمه عندما لاحظت تدريجيًا أن من طبيعة هذا الكشف أن يخجل الواحد منا من فشله بالقيام به. وكلما احتفظنا بهذه الملاحظات عن الأطفال أصبحت الحقائق أكثر وضوحًا، وزاد عجبى من الجهد الذى قام به بعضنا لتجاهل هذه الحقائق".

وبمعنى آخر، فإن الملاحظة المباشرة تكون كافية لإثبات نظريات فرويد، وأن على المرء أن يبذل كثيراً من الجهد حتى ينجح فى تجاهل تلك الحقائق، فما الذى حدث - فى الواقع - عندما قام اختصاصى نفسى متخصص ومدرب تدريباً جيداً بالبحث عن أدلة تؤيد نظريات فرويد؟ ما الذى حدث عندما درس هذا العالم سلوك أطفاله الخمسة، وكل نواحى نموهم وتطورهم الذهنى من مراحل الطفولة المبكرة وحتى وصلوا إلى سن أربع أو خمس سنوات؟

لقد قام عالم النفس "ڤالنتين" C. W. Valentine - وهو عالم نفس إنجليزى معروف عمل بالتدريس - بهذا، ولقد نشر هذا العَالِم ملاحظاته فى كتاب:

"علم نفس: المراحل المبكرة من الطفولة"، الذى نشر عام ١٩٤٢، وبالإضافة إلى تقاريره التى كتبها عن أطفاله الخمسة؛ فإنه ضمَّن الكتاب ملاحظات عدد من تلاميذه السابقين، وزملائه الذين كتبوا عن أطفالهم، عندما عانوا من بعض المشاكل النفسية الخاصة.

وهو قد ناقش كل هذه الأدلة وقارنها بالتقارير والمذكرات المنشورة - من قبل باحثين موثوق بهم - بخصوص حياة الأطفال خلال السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من حياتهم، كما أنه أشار إلى عشرات السجلات التى كانت متاحة له. لكل هذا، فإنه لا يمكن القول بأن "ڤالنتين" كان - فى البداية - ناقداً للتحليل النفسى، وعدواً من أعداء فرويد. بل على العكس من هذا، فإن "ڤالنتين" كان فى البداية متعاطفاً مع استنتاجات فرويد؛ فهو الذى قال:

"إن فى إمكانى القول بأننى كنت شديد الانجذاب لكتابات فرويد الأولى التى ظهرت باللغة الإنجليزية، وأننى قد رفضت التعصب الذى عومل به، لمجرد أنه كتب بصراحة فى الأمور الجنسية. وأخيراً، فإننى نشرت كتابا مختصراً أقدم فيه بعض أفكاره الأساسية، وأظهرت العلاقة التى تربط بين هذه الأفكار وعلم النفس العام، ولكل هذا، فإننى آمل أن أبرأ من تهمة التعصب ضد وجهات نظر فرويد".

أما الآن، فدعونا نعود لما قاله "ڤالنتين" عن الصلة بين ملاحظاته من ناحية، ونظريات فرويد من ناحية أخرى. فى البداية، تعامل "ڤالنتين" مع وجهات نظر فرويد الخاصة بالصلات القائمة بين أطفال العائلة نفسها، وركز على العداء الأخوى المفترض وجوده بينهم. إن الملاحظات التى خرجت بها - أنا وآخرون - تتعارض مع وجهات النظر التى عبر عنها فرويد، بخصوص موقف الأطفال الصغار تجاه إخوتهم الأصغر منهم من الصبيان والبنات؛ فلقد كتب فرويد: "إنه من المؤكد أن الطفل الصغير يكره إخوته الأصغر منه، وأن لديه مشاعر سيئة نحوهم، ونستطيع بسهولة ملاحظة هذا فى الأطفال بين سن ٢,٥ - ٤ سنوات، عندما يولد لهم أخ أو أخت جديدة".

ولقد أشار "ڤالنتين" إلى أن ملاحظاته الخاصة تظهر عكس هذا؛ فإن أول ما يظهر على الطفل هو الحنان الفطرى تجاه المولود الجديد، وأن هذا يحدث قبل ظهور أى علامات الغيرة، والسجلات المتاحة تثبت أن أرجاع كل الأطفال تكون ضمن حدود هذا النمط، وفى الواقع فإنه من النادر أن نعرف خبرة أكثر إسعاداً للطفل الصغير من سماعه أن هناك مولوداً جديداً سوف ينضم إلى أسرته، كما أن الأدلة تشير إلى أن معظم الأطفال الصغار لا يظهرون أى غيرة، وإن كان بعضهم يتعلم أن يخفى مشاعره بعد السنين الأولى.

أما فيما يتعلق بـ"عقدة أوديب"، فإن ملاحظات "ڤالنتين" كانت أكثر تحديداً لأنه قال:

"إن فرويد قد ادعى أن الأطفال الذكور - فى حوالى سن العامين - يقعون فى غرام أمهاتهم، حتى إن الواحد منهم يغار عليها، ويكره أباه، وأن هذه هى بوادر "عقدة أوديب"، أما بالنسبة للفتيات، فإن الواحدة منهن تصبح متعلقة بأبيها، وتبدأ فى النظر إلى أمها، على أنها منافسة لها. وأنا لم أستطع أن أجد أى دليل على عقدة أوديب هذه، فى سلوك أى من أطفالى. وفى الواقع، فإننا سنرى أن معظم الأدلة تؤيد عكس هذا، وخاصة فيما يتعلق بحقيقة أن الفتيات - فى حوالى سن العامين - يفضلن أمهاتهن أكثر من الأولاد فى السن نفسها".

أما فرويد فيدعى أن الأولاد يبدءون فى معاداة الأب، والفتيات هن اللائى تزداد محبتهن له، والعلاقة بين الأطفال والآباء تكون كما هو متوقع فى الأحوال العامة على هذا النحو:

فى البداية، يكون هناك ارتباط قوى من البنات والأولاد بأمهم؛ فهى التى تغذيهم وترعاهم، أما فيما بعد - بعد العام الثانى من عمر الطفل - فإنهم يبدءون فى الانجذاب نحو الأب؛ فهو الذى يداعبهم، ويضفى جواً من الإثارة والمرح على حياتهم حتى ولو كان أكثر قسوة عليهم من الأم، وقد ظهر هذا الانجذاب فى الفتيان أكثر من الفتيات بعد نهاية العام الثانى أو الثالث من عمرهم. أما بالنسبة للفتيات، فإن اهتماماتهن وذوقهن يكون أكثر ميلاً نحو اهتمامات وذوق الأم.

وفى مناقشته للدوافع الجنسية - التى ادعى فرويد وجودها - لدى الأطفال الصغار فإن "ڤالنتين" قال:

"على الرغم من الحقيقة التى تقول: إن عدداً من العُصابيين - أو الأشخاص المنجذبين لوجهات نظر فرويد أو المهتمين بالنواحى غير العادية من سماتهم الشخصية - يتذكرون دوافع جنسية تعود إلى المراحل المبكرة من طفولتهم؛ فإن هذه الحقيقة وحدها لا تكفى لإثبات وجود دوافع جنسية عند الأطفال، وإذا استثنينا الحقيقة التى اكتشفها فرويد نفسه فيما بعد، والتى تقول: إن كثيراً من هذه الحالات - بل معظمها - تكون الذاكرة متوهمة لهذه الأحداث. والفكرة ذاتها ليست إلا "خيالاً جامحاً منحطاً" Retrogressive fantasy، وأن الأدلة التى تظهر على الأطفال الطبيعيين - والمستمدة من ملاحظات مباشرة - تدل على وجود دوافع جنسية لدى الأطفال، هى أدلة واهية جداً".

أيضاً فإن "ڤالنتين" ذكر كثيراً من ملاحظات المحللين النفسيين المشاهير، ووصف نتائج استطلاع قام هو بإصداره لـ١٦ من هؤلاء المحللين النفسيين فيما يلى:

"إن خلاصة نتائج هذا الاستطلاع هى أنه بصرف النظر عن نوع الطفل - ذكر أو أنثى - فإن أسباب تغير ميول الطفل تعود إلى تأثير الأسلوب المتبع فى التربية،

وحالات الغيرة، وأن هذه الأسباب تقدم تفسيرًا معقولاً للحقائق، ولا تؤيد وجود "عقدة أوديب" المفترضة".

وأخيرًا، فإن "ڤالنتين" يقرر:

"بالنسبة لتأثير وقوة الدوافع الجنسية، فإن الخبرات التى تحدث خلال فترة المراهقة، وما يليها من فترات - مقنعة بما فيه الكفاية - أما بالنسبة لفكرة وجود سلوك جنسى عند الأطفال الرضع، طبقًا لأقوال المرضى أنفسهم، فإنها إما:

(أ) مقترحة بواسطة محلل نفسى، وهو ما ظنه فرويد فى وقت من الأوقات، أو

(ب) أن تكون ما فهمه المريض من مشاعر ودوافع خفية؛ وبحيث يكون المريض قد بالغ فى فهم ما تعنيه، أو أساء تفسير ما حدث.

(جـ) ما إذا كان الموقف كله حقيقًا، ولكن فى بعض الحالات غير العادية فقط، وليس هذا مجال مناقشته هنا، ولكن حقيقة ما ذكره المرضى فى التقارير - والتى صدقها فرويد فى البداية - التى ثبت زيفها فيما بعد لا بد أن يكون ذا مغزى".

وفى تعليقه الأخير، أشار "ڤالنتين" إلى الاقتراح الذى قدمه المحللون النفسيون بأن الذين لا يؤمنون بـ"عقدة أوديب" والأهمية القصوى للجنس فى المراحل المبكرة من الطفولة إنما يرفضون قبول الحقيقة عن عمد وعن تحيز. وفى هذا الخصوص، فإنه يستشهد بكل من فرويد وجلوڤر. وبعدها يقول "ڤالنتين":

" إن ردى على اتهاماتهم بالتحيز ورفض قبول هذه الحقيقة غير المستساغة هو:

إن الاختصاصى النفسى الذى يؤمن بتأثير اللاشعور يجب عليه أن يكون حريصًا فى استخدامه لهذه المقولة ضد الآخرين؛ فقد يتم الرد عليه - كما حدث بالفعل - بأن السبب فى استمرار إيمانهم بعقدة أوديب فى مواجهة أدلة تؤيد العكس هو أنه لديهم رغبة "لا شعورية" تدفعهم للمحافظة على مكانتهم، كما أن أطباء التحليل النفسى

الذين يحتفظ الواحد منهم بعديد من المرضى الذين يدفعون أتعابه لمئة أو مئتى زيارة متفرقة - يرغب الواحد منهم فى الاحتفاظ بإيمانه بصحة وجهات نظره، وبكفاءة الأساليب العلاجية التى يستخدمها. أنا هنا لا أحاول الإيحاء بأن هذا هو السبب الكامن وراء معتقداتهم؛ فأنا لا أومن بهذا على وجه العموم، ولكنى أريد أن أشير إلى أنه لا يجوز للمؤمنين بعقدة أوديب أن يتهموا منتقديهم بالتعصب الأعمى، أو بوجود دوافع لا شعورية، أو عديمة القيمة؛ لأنهم فى هذا يكونون مثل الشخص الذى يعيش فى بيت من زجاج، ويمد خصومه بأحجار بالغة الضخامة. بل إنهم أمدونا بالفعل باسم لهذه الفعلة، عندما أطلقوا عليها اسم: الإسقاط Projection.

وفى هذا الخصوص، علق فرويد نفسه قائلاً: "من الواضح أن الهجوم العنيف على آراء الآخرين لن يؤدى إلى أى نتائج." ولكن من المؤسف أن فرويد وأتباعه لم يعملوا بهذا التعليق الحكيم.

هذا وقد تم نشر كتاب "ڤالينتين" - لأول مرة - فى عام ١٩٤٢، ومنذ هذا التاريخ ظهر كثير من المقالات والكتب التى تؤيد بقوة استنتاجاته، وملاحظاتى الشخصية أقل تنظيماً منه، ولكنها مدعمة بالرغبة فى الكشف عن حقيقة ادعاءات فرويد بأنه من الممكن اختبار صحة افتراضاته من خلال مجرد الرقابة المباشرة لسلوك الأطفال الصغار جداً، وأنا أيضاً فشلت فى أن أجد أى أدلة تؤيد وجود عقدة أوديب، أو وجود رغبات جنسية مبكرة .. فى أى من أطفالى الخمسة.

من هذا، يمكننى الظن بأن فرويد كان مخطئاً عندما أكد إمكانية إثبات فروضه، وأنه لا بد من بذل كثير من الجهد حتى يكون من الممكن تجاهل فروضه. أما الحقيقة، فإنه من الصعب العثور على أدلة تؤيد وجهة نظره هذه، وحتى الأشخاص الذين كانوا يميلون إلى نظريات فرويد منذ البداية - مثل "ڤالينتين" - أصبحوا الآن يوافقون على هذا.

فما استجابات فرويد تجاه تلك المحاولات التى بذلت لدحض أهم نظرياته؟

دعونا نقرأ ما قاله "سيوفى" **Cioffi** عن هذا:

"فى بعض الأحيان – عندما كان فرويد تحت ضغط التقارير التى لا تؤيده – كان ينسى مقولته بخصوص سهولة إثبات صحة ملاحظاته عن سلوك الأطفال الصغار، ويعلن إصراره على أن هذه الملاحظات لا يمكن أن يقوم بها إلا فئة قليلة من الأشخاص المؤهلين لهذه المهمة، وفى هذا الخصوص فإن فرويد قال: 'إن "الطبيب المتخصص"، الذى "مارس التحليل النفسى" هو وحده القادر على الوصول إلى هذا النوع من المعلومات، وهو وحده القادر على الوصول إلى حكم محايد وغير متأثر بميوله وقناعته الشخصية، ولو أن الجنس البشرى كان قادرًا على التعلم من الملاحظة المباشرة للأطفال، لما كان هناك داع لكتابة هذه المقالات الثلاث'[(١)]".

وكان رد "سيوفى" هو: "إن مثل هذا التراجع هو خاصية شائعة فى التحليل النفسى".

وبالفعل فإن موقف فرويد من التحقيقات والملاحظات المباشرة للسلوك البشرى هو موقف غامض بكل المقاييس.

إذا كان البناء الإكلينيكى لخبرات الطفولة المبكرة حقيقيًا، وإذا كان الأطفال قد تعرضوا لتهديدات بـ"الخصاء" **Castration**، أو تم إغواؤهم جنسيًا، أو شاهدوا والديهم وهم يمارسون الجنس، لكان من الممكن التحقق من دقة هذه الذكريات، ولكان من الممكن اختبارها بطريقة مباشرة من خلال إجراء التحقيقات المناسبة.

لكن فرويد لا يتفق مع هذا؛ فهو الذى قال:

"قد يكون من المغرى محاولة أخذ الطريق السهل، وأن نقوم بملء الفجوات فى ذاكرة المريض عن طريق سؤال أفراد أسرته الأكبر سنًا، ولكنه لا يجوز – إطلاقًا –

---

(١) فى إشارة من فرويد لمقالاته الثلاثة التى سبق لى أن أشرت إليها فى الفصل الأول، والمسماة: "ثلاث مقالات عن نظرية النشاط الجنسى" Three Essays on the Theory of Sexuality. (المؤلف)

القيام بمثل هذه المحاولة؛ فإحدى نتائجها السيئة، هو أن المعالج يصبح معتمداً على أمثال هذه المعلومة، وفي الوقت نفسه تهتز الثقة في تحليلات المعالج، وتصبح عرضة للنقض والإبرام، وعلينا معرفة أن كل ما يمكن أن يتذكره المريض سوف يظهر - على أي حال - عند إجراء المزيد من التحليلات".

ويمعنى آخر، فإن محاولة فهم المعاني الكامنة خلف الرموز التي يتذكرها المريض في أحلامه. والسلوك اليومي له أهم من الملاحظات المباشرة التي يتذكرها شهود فعليون. وهذا؛ لأن الشهود يكونون مثل محكمة النقض والاستئناف، وهو ما سعى فرويد لتجنبه بكل الطرق؛ فطبقًا لفرويد، لا يجوز أن يكون هناك أي مصدر خارجي لأدلة تتعارض مع فهمه، أو تشير لعكس ما أشار هو إليه.

ولعل الأغرب من هذا هو ما قاله فرويد - في عبارة أخرى - عندما اقترح علينا أن التحليلات التي يقوم بها للأحلام هي بمنزلة ذكريات حقيقية؛ فهو الذي قال:

"إن ما يبدو لي: هو أن التذكر ممكن الاستعاضة عنه بالأحلام؛ لأن تحليل هذه الأحلام يقودنا مرة أخرى إلى نفس المكان. ولأنه يعيد إنتاج كل جزء من محتوياته في صور وأشكال جديدة؛ **فإن الحلم ما هو إلا نوع آخر من أنواع التذكر**".

إن العبارة الأخيرة مذهلة بل فظيعة؛ فمما لا شك فيه أن هناك اختلافات شديدة بين التفسيرات النسبية للرموز المعقدة الموجودة في الأحلام، وبين "الذكريات الحقيقية" المؤكدة التي يكون المريض على يقين من أنه يتذكرها. وما نحن في حاجة إليه - حقيقة - هو العثور على طريقة لاختبار مدى مصداقية ودقة ما خرجنا به من استدلالات واستنتاجات. إن فرويد - ببساطة - يفترض صحة استنتاجاته وما خرج به من استدلالات، ولكن هذا هو بالذات ما نحتاج إلى إثباته، وسنعود - مرة أخرى - إلى هذا التساؤل في الفصل الخاص بتفسير الأحلام.

وفي محاولة من فرويد لإقناعنا بصحة فهمه للدوافع الجنسية لدى الأطفال يقوم بإبراز نقطة أخرى غريبة فهو يؤكد لنا أن صحة نظرياته تظهر من خلال أن هذه

النظريات تؤدى إلى "علاجات ناجحة"، ولكن هذا يتناقض مع أتباعه، الذين يحاول الواحد منهم أن يقنعنا بأن فشل العلاج لا يعنى أن النظرية فاشلة، أما ما يقوله فرويد:

"إذا بدأنا من آلية العلاج؛ فإنه يصبح من الممكن لنا أن نُكَون - ونرتب - أفكاراً محددة عن الجذور التى نشأت منها أصول المرض".

وفى مكان آخر، يكتب لنا ما معناه أن "خبرات الطفولة" وحدها، هى فقط التى تستطيع أن تشرح لنا قابلية الفرد لأن يصاب بصدمة عصبية فيما بعد؛ لأنه من خلال كشف الستر عن آثار هذه الذكريات المنسية، وجذبها إلى الوعى - يمكننا أن نكتسب القوة التى تسمح لنا بالتخلص من الأعراض.

ولكن كما سبق لنا أن رأينا فى الفصول السابقة، فإنه لا يوجد ما يدل على أن التحليل النفسى يكسبنا القوة التى تسمح لنا بالتخلص من الأعراض؛ فإذا أخذنا وجهة نظر فرويد فى الاعتبار، وهى التى تقضى بأن صحة نظرياته تَظهر من خلال أن هذه النظريات تؤدى إلى علاجات ناجحة، فإن وجهة نظرنا يجب أن تكون: حيث إنه لم يحدث علاج .. فإن النظرية تكون غير صحيحة.

لقد أشار عديد من النقاد إلى أن نظرية فرويد الخاصة بالاضطرابات العُصابية فى الطفولة مليئة بالتناقض ولا تتوافق مكوناتها؛ فهو يستشهد بوجهتى نظر متعارضتين؛ فمن ناحية، يبدو وكأنه ملتزم بوجود تاريخ جنسى لأمراض العُصاب، وهو ما يجعله معرضاً للنقد، ومن ناحية أخرى، فإنه يصر على عالمية الأعراض المرضية.

إنه بهذا، كمن يقول: فى جذور كل الأعراض العُصابية التى يمكن أن تمر علينا سنجد "صدمة" - أو خبرة سيئة - تعود بنا إلى أيام النشاطات الجنسية الأولى، ويكون هذا واضحاً بدرجة كافية؛ لأنه يقرر وجود علاقة عامة بين "الخبرات السيئة"، وبين ما يحدث فيما بعد من ظهور أعراض عُصابية.

ولكن فرويد هو أيضاً الذى قال: "إن البحث والتحقيق فى الحياة العقلية للأشخاص الطبيعيين أدى إلى اكتشاف أن تاريخهم الجنسى خلال الطفولة لم يكن

بالضرورة مختلفًا عن الحياة العقلية للأشخاص المصابين بالعُصاب أو الذين تظهر عليهم أعراضه".

إذا كان هذا صحيحًا، فإن معدل حدوث صدمات - خبرات سيئة - خلال طفولة العُصابيين لا يسمح لنا أن نقرر بوجود ارتباط من عدمه؟

وعلى هذا، فلا بد من أن يكون هناك "شيء ما" فى استجابة الطفل تجاه الصدمة قد ميز طفولته العُصابية عن الطفولة العادية. وبالفعل، فإن فرويد قال: "إن الشيء المهم هو: "استجابة الفرد" للخبرات التى مر بها، وما إذا كان قد قام **بكبتها** أم لا".

فهل "الكبت" هو الذى يفرق ما بين "الطفولة العُصابية"، و"الطفولة غير العُصابية"؟

إن الإجابة يجب أن تكون لا؛ لأنه كما سبق وقال فرويد: فإن كل البشر قد مروا بصدمات - خبرات سيئة - وأنهم جميعًا قد كبتوها بصورة أو أخرى. وفى مكان آخر، نجد فرويد يقول هذا بالفعل: "إن الجميع قد مروا خلال هذا الوضع، وكل واحد منهم قام بكبته، ونجح فى أن ينساه".

وفى الواقع، فإن فرويد لم يصل إلى أى قرار محدد بخصوص ما يفصل الطفولة المبكرة للعُصابى، عن الطفولة المبكرة للشخص الطبيعى، ولقد أوضح "سيوفى" هذا، عندما قال:

"إن تفسير هذا التضارب فى أقواله، وكل هذه التناقضات ينبع من أن فرويد كان محكومًا بضرورتين تكشفان ازدواجية معاييره. هاتان الضرورتان هما: أن "يفصح"، وأن "لا يفصح" عن أى أحداث الطفولة هى التى تُعرض الشخص العادى للإصابة بالعُصاب؛ فهو - من ناحية - يرغب فى الإفصاح عن ادعاءاته السببية بأن: "الجنس" يؤدى دورًا "مُمرضًا" Pathogenic(*) فى حياة الطفل المبكرة، التى هى الأساس لإيمانه بأن العُصاب ليس إلا المظهر الخارجى للصراعات الجنسية التى عانى منها

(*) أى إن "الجنس" يؤدى دورًا يتسبب خلاله فى حدوث "الأمراض". وفى هذه الحالة، يكون كلامه عن الأمراض العُصابية. (المترجم)

الفرد خلال طفولته. ومن ثم، صلاحية الطرق التى يستخدمها فرويد فى العلاج، وفى الوقت نفسه - من الناحية الأخرى - نجده: لا يرغب فى الإفصاح؛ لأنه لو فسر ادعاءاته السببية بوضوح لأصبحت عرضة للتفنيد والدحض. وهذا، لا يعرضها وحدها للخطر، وإنما يعرض - أيضًا - "الطريقة" التى تم بواسطتها التوصل لهذه الادعاءات (نظريته). وهكذا، كانت الطريقة الوحيدة المتاحة أمامه لتبرير الإجراءات التى يتبعها هى: التلميح بوجود علاقة سببية؛ وفى الوقت نفسه التنكر لهذه التلميحات حتى يوفر لنظريته ما تحتاج إليه من حماية".

وسوف نرى - فيما يلى - أنه بينما يعتمد فرويد كلية على تفسيراته للأحلام، والأخطاء فى الحديث، والأفعال (الزلات الفرويدية)، وغيرها من المعطيات الغامضة الضبابية: فإن كل ما سبق لا يمدنا بأدلة يمكن الوثوق بها أو الاطمئنان إليها. وسريان هذه الأدلة وشرعيتها يعتمد على افتراض صحة النظرية، وعدم وجود ما يشكك فيها، ولكن من الواضح أن مثل هذا الإثبات المستقل لم يتوافر بعد، ويمكننا ذكر ما قاله المحلل النفسى الشهير "جد مارمور" Judd Marmor فى هذا الصدد:

"طبقًا لوجهة نظر المحلل؛ فإن مرضى كل مدرسة نفسية يبدو وكأن الواحد منهم يُظهر البيانات التى تؤكد نظريات وتفسيرات الأشخاص القائمين على تحليلهم!

وهكذا، فإن كل نظرية تميل لأن تصبح "صادقة ذاتيًا"(*) Self-Validating؛ فأتباع "فرويد" يقدمون بيانات تؤيد عقدة أوديب والقلق من الخصاء، وأتباع "يونج Jung" تكون بياناتهم عن الأسلاف واللاشعور الجماعى، وأتباع "رانك Rank" عن قلق (حصر) الانفصال، وأتباع "آدلر Adler" عن السعى الحثيث للذكور ومشاعر النقص، وأتباع

(*) الكاتب يتكلم عما يسمى فى علم النفس الحديث: "Observer-expectancy Effect" أو "Founder Effect" وهو أن كل محلل كان يجد ما يؤكد نظرياته وتفسيراته الشخصية؛ لأن طبيعة الأسئلة التى يوجهها لمريضه... تكون متأثرة بالمدرسة الفكرية التى يؤمن بها أو بأفكاره الشخصية، وهو ما يدفع بعض المحللين النفسيين الآن (فى القرن الحادى والعشرين) - خاصة فى أمريكا - للامتناع التام عن إلقاء الأسئلة عن أى موضوع لم يتكلم عنه المريض! وهو - فى رأيى - أسلوب بعيد تمامًا عن الصواب. (المترجم)

"هورنيت" Horneyite عن تعظيم وعبادة الصور، وأتباع "سوليڤان" Sullivan عن اضطرابات العلاقات الداخلية... إلخ. وواقع الأمر أنه فى مثل هذه التبادلات المعقدة - التى يمثلها العلاج باستخدام التحليل النفسى - يكون هناك تأثير متبادل بين المريض والمعالج، وخاصة تأثير المعالج على مريضه. ولأن هذا التأثير الأخير يكون عظيمًا أكثر من المعتاد؛ فإن كل ما يُظهر المحلل اهتمامًا به، ونوع الأسئلة التى يُوَجهُهَا، ونوع البيانات التى يختار أن يهتم بها أو يتجاهلها، والتفسيرات التى يقدمها لمريضه، كلها تمارس تأثيرًا معنويًا دقيقًا على المريض، وتجعله يقدم مزيدًا من البيانات المتحيزة لاهتمامات المعالج وتفسيراته".

فإذا كان مشاهير المحللين النفسيين أنفسهم يعترفون بهذه الأخطاء الأساسية فى التفسير؛ فهل على الناقد أن يؤكد النقطة التى تقول: إننا فى حاجة إلى أنواع أخرى من الأدلة، حتى يمكننا تصديق نظريات فرويد المليئة بالتأملات النظرية المحفوفة بالمخاطر، وأن نستنتج أنه من الأفضل لنا الاعتماد على الملاحظات المباشرة - مثل التى أمدنا بها "ڤالينتين" وغيره، بدلاً من رفضها فى صالح "تفسيرات" تم التحكم فيها بطريقة غير منطقية، وفى هذا الصدد يقول "سيوفى":

"إن كل من يتفحص التفسيرات التى قدمها فرويد سيكتشف أنه عادة ما كان يبدأ بالفرضيات التى تحددها نظريته فى هذا الخصوص، وبعدها يبدأ فى نسج روابط بين الأعراض والفرضية الموجودة فى نظريته، متحركًا مجيئًا وذهابًا حتى يصبح بينهم رابطة تمكنه من الخروج بالتفسيرات. أما الواقع، فهو أنها تفسيرات زائفة؛ تفسيرات تربط بين أشياء لا علاقة لها بعضها ببعض. وهذا الأسلوب الغريب هو الذى مكنه من الربط بين "التنفس العنيف" أثناء ممارسة الجنس، وبين نوبة من نوبات "عسر التنفس" Dyspnoea. وأن يربط بين "الجنس الفموى"(*) Fellatio، و"الكحة العصبية" Tussis Nervosa.

(*) الجنس الفموى: هو ممارسة جنسية تتم عن طريق لعق الأعضاء الجنسية بالفم، واللسان. وعندما يتم لعق القضيب، فإنه يسمى: "Fellatio" (إثارة القضيب عن طريق لعقه)، أما عندما يتم لعق البظر، فإنه يسمى: "Cunnilingus" (إثارة البظر عن طريق لعقه). (المترجم)

ويربط بين "فقدان العذرية"، و"الصداع التصفى"، وبين "بلوغ قمة النشوة الجنسية"، ونوبة تشنجات حدثت خلال "الإغماء الهستيرى"، وبين "آلام الوضع"، و"آلام الزائدة الدودية"، وبين "الرغبة فى الحمل"، ونوبات "التقيؤ الهستيرى"، وبين "الخوف من الحمل"، ومرض "فقدان الشهية العصبى"(*) Anorexia Nervosa (النحافة المتعمدة)، وبين "نزول الطفل أثناء الولادة"، و"القفز من مكان مرتفع بغرض الانتحار".

وبين "الخوف من الخصاء"، و"هوس الانشغال برفع القبعة". وبين "الاستمناء"، و"عصر البثور وفقئها". وبين "المرحلة الشرجية"، و"الإمساك الهستيرى". وبين "حالة الولادة"، و"سقوط حصان يجر عربة". وبين"الانبعاثات الليلية"، و"تبليل الفراش". وبين"الإنجاب بدون زواج"، و"العرج". وبين "الشعور بالذنب عند التغرير بالمراهقات"، و"الإجبار الخاص بتعقيم أوراق النقد قبل تداولها"... إلخ".

لا يمكن لعلم - أيًا كان هذا العلم - الاعتماد على التفسيرات الذاتية وحدها، ولا على أوصاف فرويد وتفسيراته لنمو الطفل وتطوره مع ما يقترحه علينا من أسس لنمو الأعراض العُصابية وتطورها؛ فكلها أمور لا يمكن القبول بها، ويمكن معارضتها ونقدها باستخدام حقائق وبراهين قوية، وستزداد قوة هذه النتيجة عندما نفحص - بالتفصيل - حالة "هانز الصغير"، التى تعتبر "حجر الأساس" لنظريات فرويد وتحليلاته، والتى بنى على أساسها "التحليل النفسى للأطفال".

ولكن قبل أن نتحول إلى حالة "هانز الصغير" وأمراضه العُصابية؛ فإنه من المهم أن نلفت الأنظار إلى التناقض بين روايات فرويد عن طفلين، كل منهما فى حوالى الرابعة من عمره. أحد هذين الطفلين: هو "هانز الصغير"، الذى كان على وشك أن يتم عامه الخامس، أما الطفل الآخر، فهو "هربرت الصغير"، الذى كان من المفترض أنه

(*) "فقدان الشهية العصبى" أو النحافة المتعمدة: هو مرض يصيب الفتيات فى سن المراهقة غالبًا، ويندر حدوثه بين النساء البالغات، أو الرجال. ومن أعراضه: رفض الأكل المتعمد. وخلاله تفقد المريضة كثيرًا من وزنها، حتى تصبح فى حالة هزال شديد، ويتوقف الحيض. لكنه نادرًا ما تنتهى الحالة بالوفاة بسبب الجوع، أو الالتهابات المتداخلة. (المترجم)

أصغر من "هانز" ببضعة شهور، وقد تم وصف هربرت هذا على أنه: نموذج لما تحدثه التربية المتفتحة فى الأطفال؛ فلقد قال عنه فرويد: "إنه صبى رائع؛ وأن والديه اللذين يتصفان بالذكاء امتنعا عن كبت أى جانب من جوانب نموه وتطوره."

وفيما يبدو، فإن "هربرت الصغير" قد أظهر كثيراً من الاهتمام بأجزاء جسده المختلفة، خاصة عضوه الجنسى، الذى أطلق عليه: "Wee Wee maker"، وهو قد أطلق عليه هذا الاسم؛ لأنه لم يتعرض لأى تخويف أو كبت لمشاعره بالذنب؛ فتمكن من أن يعبر بحرية عن أفكاره، وهكذا - طبقًا لما قاله فرويد - فإن "هربرت الصغير" الذى تمت تربيته بواسطة والدين متفهمين لـ"أصول التحليل النفسى"، سيكون من المرجح أن يصبح واحداً من الشخصيات غير العُصابية فى عصرنا.

قارن بينه وبين "هانز" التعيس الحظ، الذى - طبقًا لما قاله فرويد - ليس إلا نموذجًا لكل النقائص؛ فقبل أن يتم عامه الرابع هددته أمه بالخصاء، كما أن ولادة أخته الصغرى جعلته يتساءل عن المصدر الذى يأتى منه أطفال؛ فقام والده بإخباره عن الأكذوبة الخاصة بـ"طائر اللقلق"(*)، وهو ما جعل من المستحيل عليه أن يتساءل عن الجنس، وهكذا، فإن "هانز" غرق - جزئيًا بسبب الحيرة التى سببها فهمه الطفولى للجنس - فى خوف مرضى من الحيوانات قبيل بلوغه عامه الخامس، وطبقًا لنظرية فرويد، فإنه من الواضح أن "هانز الصغير" كان من المحتم عليه - بسبب الطريقة التى تم تربيته بها - أن يقع فريسة للاضطرابات العُصابية خلال فترة حياته.

لكن انتظروا لحظة! إن "جونز" Jones فى كتابه الشهير الذى روى فيه قصة حياة فرويد - يخبرنا بأن "هانز"، و"هربرت" هما طفل واحد، وأن "هربرت" قد رويت قصته أولاً، وبعد أن سقط صريعًا لاضطراب العُصاب، والخوف المرضى من الحيوانات أصبح اسمه "هانز"، وفى الواقع، فإن فرويد اقترح علينا أن هذا الطفل عانى بشدة من

(*) أسطورة اعتاد الوالدان - فى الجزء الغربى من العالم - أن يقصوها على أطفالهم عندما يتساءل الأطفال عن المكان الذى يأتى منه إخوتهم الصغار، وتقضى هذه الأسطورة بأن "طائر اللقلق" هو الذى يأتى بالطفل الوليد حاملاً إياه فى منقاره الطويل. (المترجم)

ذلك "الخوف المرضى" Phobia بسبب الطريقة التى تم تربيته بها، وعلى حد قول فرويد نفسه: "حيث إنه تم تربيته دون إرهاب أو تخويف، فإن حالة القلق المرضى (الحصر) أصبح لديها فرصة أكبر فى أن تظهر بحرية؛ فلم يكن هناك أى مكان لدوافع مثل "تأنيب الضمير"، أو "الخوف من العقاب"، التى تساهم - بلا شك - فى تقليل حجم حالة القلق عند الأطفال الآخرين".

إن كل هذه التناقضات، وكل هذا الالتباس والغموض فى نظرية فرويد - يجعل من محاولة اختبار فروضها أمراً مستحيلاً تماماً.

خلال فحصى لحالة "هانز الصغير"، كان من حسن حظى أن تمكنت من الحصول على النقد الذى قدمه الأستاذان "ولب" J. Wolpe، و"راكمان" S. Rachman، وهو ليس إلا تفسيراً بديلاً للتفسيرات التى قدمها فرويد. ولقد تتبعت مناقشاتهما بالتفصيل؛ لأنها توضح - بطريقة جميلة - الجوانب غير المنطقية فى التنظير(*) الذى يقدمه لنا فرويد، كما أنها توضح لنا أهمية وجود الافتراضات البديلة التى اقترحاها.

باختصار، كان "هانز الصغير" هو ابنًا لرجل يميل إلى وجهات نظر "التحليل النفسى"، بالإضافة إلى أنه كان وثيق الصلة بفرويد. فى الجزء الأول من شهر يناير من عام ١٩٠٨، كتب الأب خطابًا لفرويد أخبره فيه أن "هانز" - الذى كان وقتها فى الخامسة من عمره - قد أصيب باضطراب عصبى، كانت أعراض هذا الاضطراب هى: "خوف من الخروج إلى الأماكن المفتوحة"، و"اكتئاب" فى المساء، و"خوف مرضى" من أن يقوم حصان بعضه فى الشارع، وكان والد "هانز" قد اقترح أن الطريق قد أصبح ممهداً لهذه الاضطرابات بسبب حنان أمه الزائد وعنايتها المفرطة به.

إن خوفه من الحصان يعود إلى أنه قد تم تخويفه - بطريقة ما - من "قضيب ضخم" Large Penis.

(*) "التنظير" Theorizing المقصود به هنا وضع النظريات، وليس البحث عن نظير أو مشابه. (المترجم)

لقد ظهرت الأعراض الأولية فى اليوم السابع من شهر يناير، عندما ذهبت الخادمة بهانز إلى الحديقة فى نزهته اليومية. هناك بدأ الطفل فى البكاء، وطالب بالعودة إلى أحضان أمه، وعندما سُئل - فى المنزل - عما حدث: بدأ الطفل فى البكاء ولم يخبرهم بأى شىء. فى اليوم التالى - بعد كثير من التردد والبكاء - ذهب مع والدته إلى الحديقة مرة أخرى. وعند عودته إلى المنزل - وبعد كثير من التردد والصراع الداخلى - أخبرنا هانز: " لقد كنت خائفًا من أن حصانًا سوف يعضنى".

كما حدث فى اليوم السابق، فإن "هانز" قد أظهر كثيرًا من الخوف فى المساء، وطالب أمه بأن تحتضنه، ولقد أبلغونا بأن الطفل قال: "أنا أعلم أنه علىَّ الذهاب فى نزهة إلى الحديقة غدًا، وأن الحصان سوف **يدخل الغرفة**".

فى نفس هذا اليوم سألته أمه عما إذا كان قد أمسك بـ **Widdler**، وهو الاسم الذى كان يستخدمه الطفل للإشارة إلى "قضيبه"، وكان رده بالإيجاب. وفى اليوم التالى، حذرته أمه من القيام بهذه الفعلة مرة أخرى.

ولعله مما يثير عجب القارئ - عند هذه النقطة - معرفة أن تحليلات فرويد لم تكن مبنية على أى شىء من اكتشافه؛ فلقد كانت كلها مبنية على المعلومات التى قدمها والد "هانز"، الذى كان على اتصال دائم بفرويد من خلال الرسائل، وقد كان هناك كثير من المناقشات بينهما بخصوص ذلك الخوف المرضى الذى يعانى منه "هانز"، لكن فرويد لم ير "هانز" خلال كل هذه التحليلات إلا مرة واحدة فقط! كانت هذه هى طريقة فرويد العجيبة فى العلاج، وفى وضع الأسس لتحليل نفسية الأطفال. ولكن العجيب فى الأمر هو أن القليلين من المشتغلين بالتحليل النفسى وجدوا هذا غريبًا!

عند هذه النقطة، قدم لنا فرويد تفسيره لسلوك "هانز"، ورتب مع والد الطفل الطريقة التى سوف يخبر بها الطفل عن أن مخاوفه من الحصان ليست إلا هراء، وأن حقيقة الأمر هى أنه مغرم بوالدته، وأنه يرغب فى أن يكون فى فراشها. إن سبب خوفه من الحصان هو اهتمامه الزائد بعضو الحصان الجنسى، كما أن فرويد اقترح تقديم بعض المعلومات الجنسية للطفل، وإخباره بأن الإناث لا يمتلكن قضيبًا.

بعد هذا، كان هناك مزيد من التقلبات فى حالة الطفل، ولكن بصفة عامة، فإن الخوف المرضى الذى عانى منه ازداد سوءًا. كما أن حالة الطفل تدهورت بعد عملية استئصال اللوز.

بعد أن تعافى الطفل من علته الجسدية، حدث عديد من الحوارات - بينه وبين أبيه - بخصوص "خوفه المرضى" His Phobia. واقترح الوالد أن هناك علاقة بين هذا الخوف المرضى، وتعود الطفل على لمس قضيبه. وأكد الوالد - فى هذه الحوارات - على أن النساء لا يمتلكن قضيبًا. كما أنه حاول - بصفة عامة - تثقيف "هانز" بنظريات الجنس النفسية المرتبطة بالعُصاب الذى يعانى منه.

ولا يمكننى أن أعرض - هنا - لكل التفاصيل، ولكن فى ٣٠ مارس حدثت المقابلة الوحيدة بين الطفل وفرويد، وقرر الأخير أن الطفل لا يزال يعانى من خوفه المرضى من الأحصنة بالرغم من كل التثقيف الذى حصل عليه، وأخبرهم "هانز" بأن أكثر ما يضايقه هو الأشياء التى توضع على رأس الحصان (غمامة الحصان(*) واللجام)، وقد فسر فرويد "اللجام" على أنه يمثل شوارب الرجل، وسأله عن هذا!

وبعدها، أخبر الطفل بأنه خائف من والده، وأنه مغرم بوالدته. وفى النهاية، أخبره بأن مخاوفه من الوالد لا أساس لها!!

بعد هذا بفترة قصيرة، أخبر "هانز" والده بأن أكثر ما يخيفه هو ذلك الشىء الموضوع فى فم الحصان، كما أنه اعترف بخوفه من سقوط الحصان، وخوفه من المركبات التى تجرها الأحصنة، وعندما سأله والده عن هذا!، حكى له "هانز" عن واقعة رآها، سقط خلالها حصان كان يجر إحدى المركبات العامة، وأن الحصان كان يرتدى شيئًا أسود على فمه، وقد أكدت والدته على حقيقة تفاصيل هذه الرواية، وطبقًا لما قاله والده، فإن حالة من القلق الشديد (الحصر) بدأت بعد هذه الواقعة مباشرة. وفيما يبدو، فإن الشىء الأسود الذى كان يلبسه الحصان على فمه لم يكن إلا اللجام.

(*) الغمامتان اللتان تمنعان الحصان من النظر إلى جانبى الطريق، وتحصر مجال الرؤية - بالنسبة إليه - على ما هو أمامه؛ فهى بهذا تجبره على النظر إلى الأمام فقط. (المترجم)

خــلال كل تلك الفــترة، حــاول الأب أن يستمر فى زرع "أفكار التحليل النفسى" فى ذهن طفله الصغير، ولكن الطفل كان كثيراً ما يرفض اقتراحاته، وإن كان ينفذ بعضها تحت الضغط.

فى النهاية، تعافى "هانز" الصغير كما هو متوقع من حالة بسيطة مثل حالته، ولا توجد أى أدلة على أن تفسيرات التحليل النفسى التى حصل عليها قد ساعدته بأى شكل من الأشكال. وفى الواقع، فإنه لا توجد علاقة بين الأوقات التى تحسن فيها والأوقات التى عُرِّفَ خلالها بأفكار التحليل النفسى.

فما الذى يمكن قوله عن هذه الحالة، التى يمكن قراءتها بالكامل مع النقد الذى وجهه "ولب" و"راكمان" لمن يهمه فهم الطريقة التى كان يُجرى بها فرويد أبحاثه.

ففى المقام الأول: فإن المواد المستخدمة – فى هذه الحالة – "منتقاة"؛ فلقد تم التركيز على مواد بعينها؛ لأن لها علاقة بنظرية التحليل النفسى، كما أن هناك ميلاً إلى تجاهل عديد من الحقائق، حتى إن فرويد نفسه ذكر أن الأب والأم كانا من أقرب الملتصقين به. وبالطبع، فإن "هانز" كان يُشجعهما – بصفة دائمة وبطرق مباشرة وغير مباشرة – على أن يخرجا بالحقائق التى لها علاقة بتعاليم التحليل النفسى.

وفى المقام الثانى: كان من الواضح أن رواية الأب لا يمكن الوثوق بها، وهذا لأن تفسيراته – لأقوال طفله – لم تكن متسقة مع ما هو معروف من خلال حقائق الموقف (الكلمات التى استخدمها "هانز" الصغير بالفعل). أيضًا، فإن هناك كثيراً من التحريفات فى تقارير الأب؛ ولذا يجب قراءتها بكثير من الحذر والحيطة.

وبالمثل، فإن شهادة "هانز" نفسه لا يمكن الوثوق بها؛ فلقد أخبرنا بأكاذيب كثيرة فى الأسابيع القليلة الأخيرة من الخوف المرضى الذى تعرض له، وكثير من تقاريره كانت تتصف بعدم الاتساق، بل وصلت إلى حد التناقض أحيانًا، والأهم من كل هذا هو أن كثيراً من وجهات النظر والمشاعر التى نسبت للطفل كانت تنتمى – فى الحقيقة –

لوالده، الذى كثيراً ما كان يحاول الكلام نيابة عنه، ولقد اعترف فرويد نفسه بهذا - وإن كان قد حاول تصوير هذه الفعلة بصورة أكثر جاذبية - عندما قال:

"خلال التحليلات، كان علينا أن نقول لـ"هانز" كثيراً من الأشياء التى لم يستطع أن يعبر بنفسه عنها، فلقد كان علينا أن نقدم إليه أفكاراً لم يُظهر علامات امتلاكها بعد، كما أنه كان علينا أن نلفت انتباهه إلى اتجاهات كان والده يتوقع أن يأتى منها شىء ذو قيمة، وكل هذا ينتقص من "القيمة الدليلية للتحليل" The Evidential Value of the Analysis، ولكن الإجراء لا يتغير فى كل حالة. **وهذا، لأن التحليل النفسى ليس فحصًا علميًا محايدًا، وإنما هو مقياس علاجى**".

وعلى هذا، فإن فرويد يبدو وكأنه يتفق مع منتقديه الكثيرين، الذين يقولون: **إن التحليل النفسى ليس بالتمحيص العلمى المحايد**، وهذه المقولة تخفض من القيمة الدليلية لهذه التحليلات حتى تصبح منعدمة تقريباً.

لقد فسَّر فرويد الخوف المرضى الذى يعانى منه "هانز".. على أنه "عقدة أوديب"؛ وأن هذه العقدة، هى التى تشكل جذور مرضه، وفى هذا يقول فرويد:

"لقد كان لدى "هانز" عديد من الميول التى تم كبتها بالفعل، وعلى حد علمنا، فهو لم يستطع مطلقًا التعبير عن نفسه بحرية كاملة، فلقد كان "هانز" يشعر بالغيرة، والعداء ضد والده، وكانت لديه دوافع سادية(*) ذات طابع جنسى تجاه والدته، وقد كان هذا

(*) السادية، نسبة للمركيز دى ساد، هى انحراف نفسى وجنسى، ويتمثل فى أن يستمد "الشخص السادى" لذته الجنسية مما يلحقه بالآخرين من ألم نفسى أو بدنى، وبصفة أعم، فإن هذا التعبير يشير إلى اللذة المرضية التى يشعر بها السادى عند تعذيبه للآخرين (سواء أكانوا من نفس النوع (رجل أو امرأة) أم طفل أو حيوان)، وحسب "تفضيله الجنسى" His Sexual Preference. وتنسب "السادية" إلى المركيز دى ساد La Marquis de Sad. وأول من ابتكر هذا الاستخدام للكلمة - بالمعنى السابق - هو عالم النفس الألمانى "كرافت إيبينج" Krafft - Ebing فى عام ١٨٨٦م فى كتابه: "الأمراض النفسية ذات الطابع الجنسى" Psychopathia Sexualis، الذى أثار غضب وتحفظ رابطة الطب النفسى الإنجليزية، حتى إنهم نظروا فى أمر إلغاء عضويته. =

الكبت المبكر هو الأعراض الأولى للمرض الذى عانى منه فيما بعد، إن تلك المشاعر العدوانية لم تستطع العثور على أى متنفس لها، وسرعان ما أتت فترة زمنية خاصة من الإثارة الجنسية الشديدة، حاولت خلالها هذه المشاعر أن تجد لنفسها مخرجًا بأى طريقة، وعندها، بدأت معارك ما أطلقنا عليه اسم: "المخاوف المرضية Phobia" تتفجر من داخله".

كان هذا - بالطبع - هو نظرية "عقدة أوديب" المشهورة، وطبقًا لتلك النظرية فإن "هانز" الصغير كان يرغب فى أن يحل محل والده. ولهذا، كان ينظر إليه على أنه "منافس" و"مزاحم" فى محاولاته لامتلاك والدته.

ولتأكيد وجهات نظره، فإن فرويد قد أشار إلى مجموعة أخرى من الأعراض حدثت بما يبدو وكأنه **مصادفة**، وفى تلك المجموعة من الأعراض يعترف "هانز الصغير" بأنه تمنى لو أن والده كان ميتًا، وأن هذا حدث "مصادفة" عندما كان والده يتكلم عن رغبته فى التخلص من الحياة؛ ففى تلك اللحظة، كان "هانز" ممسكًا بدمية لحصان، وبحركة مفاجئة دفعها وأسقطها، وهنا يزعم فرويد أن "هانز" كان يرغب -

---

= أما "المركيز دى ساد" نفسه، فقد ولد لأسرة فرنسية أرستقراطية فى الثانى من يونيو عام ١٧٤٠، وكانت أمه الوصيفة الأولى لزوجة ولى العهد ومربية لطفلها الصغير (الأمير "دى كوندو")، وكان المركيز عنيفًا وهمجيًا منذ صغره، فعندما كان فى الرابعة من عمره، اشتبك فى شجار عنيف مع الأمير الصغير الذى حاول أن يستعيد دميته من بين براثن المركيز الشرس، وكنتيجة مباشرة لهذه المشاجرة، تم عزل دى ساد الصغير عن أمه، وقامت جدته لأبيه وعماته الخمس بتربيته، وإن كنَّ قد عرضنه - فى هذا الجو النسائى الصرف - إلى كثير من التدليل الزائد، الذى زاده فسادًا على فساد، وعندما رأى والده هذه التربية، نزعه من بين أيديهن. ووضعه فى رعاية عمه الأديب المعروف "چاكوا فرانسوا دى ساد"، الذى كان على علاقة قوية بأديب فرنسا الشهير "ڤولتير". ولكن - للأسف - فإنه كان لدى هذا العم مكتبة جنسية كبيرة، توصل "دى ساد" الصغير إلى كثير من كتبها، وكان يقرؤها فى غفلة من عمه، وفى أكتوبر من عام ١٧٦٣ تعرض المركيز الشاب إلى السجن بعد أن أساء معاملة إحدى فتيات الليل بطريقة وحشية كادت تودى بحياتها، وبعد أن حصل على الإفراج، تكررت هذه الجريمة منه عدة مرات، ولم تقتصر ضحاياه على فتيات الليل، وهو ما جعل شرطة باريس تصدر أوامرها بالقبض عليه. عندها، هرب "دى ساد" إلى إيطاليا. وعند عودته لفرنسا، تم إلقاء القبض عليه والزج به فى سجن الباستيل. ولم يتم الإفراج عنه، إلا مع بدايات الثورة الفرنسية، بعد أن تم اقتحام سجن الباستيل، وإطلاق سراح كل من فيه. (المترجم)

فى الحقيقة – فى إزاحة والده بعيداً عن طريقه ليصبح قادراً على الانفراد بأمه، وفى هذا الصدد، من المفترض أن "عقدة أوديب" هى التى شكلت الأسس الأولى التى حوّلت عواطفه الجياشة المشتاقة إلى أمه إلى "قلق مرضى (حصر)".

ولكن ما العلاقة بين كل هذا، وبين الخيول ؟

خلال تلك المقابلة اليتيمة مع "هانز"، فإن فرويد أخبر الطفل بأنه خائف من والده؛ لأنه يشعر بالغيرة، وتملؤه أمانى عدوانية ضد والده، وفى هذا يقول فرويد:

"عندما أخبرته بهذه المعلومات، فإننى فسرت له – جزئيًا – طبيعة مخاوفه من سقوط الحصان؛ فالحصان الذى يسقط هو والده، و"هانز" لديه أسباب داخلية قوية ليخاف منه".

لقد ادعى فرويد أن خوف "هانز" من لجام الحصان، كان بالأساس خوفًا من الشوارب والنظارات. وقد تم تحويل ونقل هذه المشاعر من الأب إلى الحصان؛ فطبقًا لآراء فرويد فإن الحصان كان يمثل والد "هانز"، ولقد فسر فرويد عنصر الخوف من الأماكن المفتوحة فى الخوف المرضى الذى يعانى منه "هانز" على النحو التالى:

"إن مكونات "خوفه المرضى" His Phobia كانت تشكل قيوداً قوية جداً على حريته فى الحركة، وكان هذا هو غايته الحقيقية؛ فإن خوف "هانز" المرضى من الأحصنة كان عقبة فى وجه خروجه للشارع، وبهذا فهو الأداة التى استخدمها ليبقى داخل المنزل بجانب والدته المحبوبة، وبهذه الطريقة، فإن مشاعر حبه لوالدته قد تمكنت من تحقيق هدفها".

وفى النقد الذى قدمه "ولب" و"راكمان" تم تقرير ما يلى:

"إننا مقتنعان بأنه لا يوجد ما يؤيد وجهة نظر فرويد بخصوص هذه الحالة؛ فإن البيانات – جملة وتفصيلاً – لا تدعم وجهة نظره؛ فإن النقاط الأساسية التى يأخذها فى الاعتبار هى:

١- "هانز" يشتهى والدته جنسيا.

٢- هو يكره أباه ويخاف منه، ويتمنى أن يقتله.

٣- تلك الشهوة الجنسية والرغبة فى والدته تحولت إلى قلق شديد (حصر).

٤- خوفه من الأحصنة لم يكن إلا رمزًا لخوفه من والده.

٥- الغاية من هذا المرض، هى أن يظل بقرب والدته.

٦- أخيرًا، فإن خوفه المرضى اختفى؛ لأنه تمكن من حل "عقدة أوديب".

فدعنا نتفحص كل نقطة من هذه النقاط الست على حدة:

١- لقد كان "هانز" يحصل على إشباع من والدته ويستمتع بوجودها، وهو أمر لا يمكننا أن نجادل فيه، ولكن لا توجد أى أدلة تشير إلى رغبته فى ممارسة الجنس معها؛ فإن "هواجسه الغريزية" يتم الحديث عنها كما لو كانت حقائق، وبالرغم من أنه لا توجد أى أدلة تشير إلى وجودها.

٢- إن "هانز" لم يعبر عن خوفه، أو كراهيته لوالده مطلقًا بل إن الحقيقة هى أن فرويد هو الذى أخبره بأن لديه مثل هذه المشاعر. وخلال الأحداث التالية، فإن "هانز" أنكر وجود هذه المشاعر عندما سأله والده عنها. وفى النهاية، وافق "هانز" على العبارات التى قيلت له من قِبل والده، والتى كانت تحمل هذا المعنى، ولكن علينا تذكر أن هذه الموافقة تم الحصول عليها بعد ضغوط قوية من جانب الوالد وفرويد اللذين تقبلا هذه الموافقة على أنها حقيقة واقعة، وبعدها تم تجاهل عبارات الإنكار التى تفوه بها "هانز" تمامًا!!

أما بالنسبة لـ"الفعل الرمزى" Symptomatic Act(*)، عندما أسقط "هانز" الدمية التى على شكل حصان، فإنه اعتبر كأنه دليل إضافى على المشاعر العدوانية التى

(*) "الفعل الذى يعبر عن أعراض مرضية" Symptomatic Act، ولقد اخترت أن أترجمه على أنه "الفعل الرمزى" وليس "الفعل العَرَضى"؛ لأن الأعراض - هنا - "ترمز" إلى وجود مرض، أو اضطراب، أو زُمْلة نفسية من نوع معين، ومصطلح "الفعل الرمزى" هو أحد المصطلحين اللذين يتم التعبير من خلالهما عما يعرف باسم: "الزلة الفرويدية" The Freudian Slip، والمصطلح الآخر هو: "زلة" Parapraxis، كما سنرى فى الفصل التالى. (المترجم)

يحملها تجاه والده. إن هناك ثلاثة افتراضات، يمكن من خلالها تفسير هذا "الفعل الرمزى". **أولاً**: هو أن الحصان يمثل والد "هانز". **ثانياً**: إسقاط الحصان ليس حادثة عرضية، بل تم عن عمد. **ثالثاً**: هذا الفعل يشير إلى رغبة "هانز" فى إزالة ما يرمز إليه الحصان من الوجود.

وفى هذا الخصوص أنكر "هانز" باستمرار وجود أى صلة بين الحصان ووالده، لقد أخبرهم - مراراً وتكراراً - أنه يخاف من الخيول، وذلك الشىء الأسود الغامض الذى يحيط بفم الحصان، والأشياء التى تحيط بعينيه، والتى اكتشف الوالد - فيما بعد- أنها ليست إلا لجام الحصان وغمامتيه.

إن هذا الاكتشاف يتناقض مع الاقتراح الذى خرج به علينا فرويد بأنها ليست إلا طرحًا و"تحويلاً"، وأنهما يرمزان إلى شارب ونظارة والده، وعلينا تذكر أنه لا توجد أى أدلة أخرى على أن الحصان يمثل والد "هانز"، والافتراض الخاص بأن إسقاط الحصان الدمية له معنى خاص، وأنه نتيجة لدوافع كامنة فى اللاشعور هو مسألة موضع نقاش لم يبت فيه بعد؛ (أى مسألة فيها نظر).

وبما أنه لا يوجد ما يؤيد الافتراض الأول والثانى اللذين قدمهما فرويد فى تفسيره لهذا "الفعل الرمزى"، فإن الافتراض الثالث والخاص بأن هذا الفعل يشير إلى رغبته فى موت والده يتعذر الدفاع عنه أو تبريره، وعلينا أن نقر بأنه لا توجد أى أدلة مستقلة على أن الطفل يخاف والده أو يكرهه.

٣- الادعاء الثالث لفرويد هو أن "هانز" يشتهى والدته جنسيا ويرغب فيها، وإن هذه المشاعر هى التى تحولت إلى قلق شديد (حصر). هذا الادعاء مبنى على الفرض النظرى الذى مفاده أن أى شىء موضع خوف مرضى فى الحاضر لا بد أنه كان فى الماضى موضع متعة شديدة، لكن وقائع تلك الحالة الراهنة لا تؤيد حدوث مثل هذا الفرض، فكما سبق لنا أن قلنا فإنه لا توجد أى أدلة على أن "هانز" كان يشتهى والدته جنسياً، كما أنه لا توجد أى أدلة على أن موقفه منها قد تغير قبل بداية مشاعر الحصر التى عانى منها، وبالرغم من وجود بعض الأدلة على أن الحصان كان يمثل - بالنسبة

له – مصدراً من مصادر المتعة، فإن وجهة النظر القائلة بأن أى شىء موضع خوف مرضى فى الحاضر لا بد أنه كان موضع متعة شديدة فى الماضى لا يوجد ما يؤيدها من خلال التجارب العملية.

٤– لقد تم نقد التأكيد على أن خوف "هانز" المرضى من الحصان يرمز إلى خوفه من والده؛ لأنه لا يوجد ما يؤيد فرض وجود علاقة بين الأب والحصان. وفيما يبدو، فإن هذا حدث نتيجة لعدم تصديق الأب أن ما قصده "هانز" بـ الشىء الأسود حول فم الحصان هو لجام الحصان.

٥– الادعاء الخامس هو أن الغاية الخفية لقلق "هانز" هى أن يبقى بجوار والدته، وبصرف النظر عن مدى صحة الرأى القائل بأن الاضطرابات العُصابية تحدث لغرض معين، فإن هذا التفسير يفشل فى تبرير إصابة "هانز" بالقلق (الحصر) حتى عندما كان يخرج مع والدته فى نزهة خارج المنزل.

٦– وأخيراً، فإنهم يحاولون إقناعنا بأن هذا الخوف المرضى قد اختفى نتيجة لأن "هانز" تمكن من مواجهة "اضطرابه الأوديبى"، وحله، وكما رأينا من قبل، فإنه لا توجد أدلة تصلح لتبرير صحة القول بأن "هانز" قد عانى من "عقدة أوديب".

وبالإضافة إلى هذا، فإن الادعاء بأنه تمكن من مواجهة هذه العقدة وحلها مبنى على أساس تلك المناقشة الوحيدة التى تمت بين "هانز" ووالده، إن هذه المناقشة تعتبر دليلاً صارخًا على ما أشار إليه فرويد ذاته عندما قال:

"لقد كان علينا أن نخبر "هانز" بأشياء كثيرة لم يتمكن هو من التعبير عنها؛ أى أنهم كانوا يقدمون له أفكاراً لم يكن هناك ما يشير إلى وجودها أصلاً وكان يتم توجيه انتباهه إلى مواضع توقُّع والده الحصول على أشياء مهمة منها!

كما أنه لا توجد أدلة مقنعة على أن الأفكار المقدمة إلى "هانز" كان لها أى قيمة علاجية. ومراجعة الحقائق الخاصة بهذه الحالة لا تظهر لنا إلا بعض المصادفات المتفرقة بين تفسيرات فرويد والتغيرات التى حدثت لخوف الطفل المرضى وأرجاعه. وفى

الحقيقة، فإن فرويد قد بنى استنتاجاته بالكامل على نتائج خرج بها من نظريته، وأن تحسن "هانز" بدا وكأنه مستقر، وتدريجى، ولم يتأثر بالتفسيرات التى قدمت له. وعلى وجه العموم، فإن فرويد استنتج وجود علاقة بطرق غير مقبولة علميًا، فعندما كانت التفسيرات التى تقدم لـ"هانز" متبوعة بتحسن مباشر فى سلوكه، كان يتم قبولها بطريقة تلقائية، وعندما لم يتحسن سلوكه بعد تقديم التفسيرات الفرويدية، كان هذا يعزى لرفض "هانز" لقبول هذه التفسيرات، وليس لفشل الطريقة!

وخلال دفاعه عن فشل تفسيراته فى تحقيق أى تحسن فإن فرويد يدعى أن الهدف الأساسى لهذا النوع من التحليلات ليس إحراز النجاح، مناقضًا بذلك ما سبق له وأن قرره، من أن التحليل النفسى ليس إلا "طريقة علاجية"، وأنه ليس "بحثًا علميًا"، عندما قال:

'Psychoanalysis is a therapeutic measure .. not a scientific investigation'

وعلى الرغم من كل هذا، فإنه يستمر فى ادعاءاته بأن هناك تحسنًا قد حدث نتيجة للتفسيرات التى قدمها للطفل، حتى عندما كانت هذه التفسيرات خاطئة، مثلما حدث بخصوص تفسيره لمسألة الشوارب.

بعد كل هذا، كيف يمكن للمحلل النفسى الحديث أن يفسر الأصول التى نبعت منها مخاوف "هانز" المرضية؟

فى الفصل السابق، ذكرنا تجارب "واطسون" مع الطفل "ألبرت"، وقد أظهرت هذه التجارب أنه بالإمكان إظهار مخاوف مرضية مشابهة فى أطفال آخرين من خلال عملية بسيطة تسمى: "التشريط" Conditioning (التعلم الشرطى)، وأن هذه المخاوف المرضية سوف تبقى مع الطفل لفترة طويلة. من هذا يكون بإمكاننا اقتراح أن الحادثة التى أشار إليها فرويد على أنها " السبب الذى استثار" Exciting Cause مخاوف "هانز" المرضية وأظهرها - لم تكن فى الحقيقة إلا السبب فى هذا الاضطراب النفسى بأكمله، بمعنى أنه فى نفس اللحظة التى رأى فيها "هانز" حادثة انقلاب العربة والحصان أصيب بخوفه المرضى، فعندما سقط الحصان أخافه هذا المنظر.

ولقد أخبرنا والد "هانز" بأن تلك الحادثة قد وقعت بالفعل، وأن زوجته قد رأتها وهى فى صحبة "هانز"، وأن الخوف المرضى بدأ بعد تلك الحادثة مباشرة، بالإضافة لكل هذا، فإن الوالد يخبرنا بأن هناك حادثتين أخريين مر بهما "هانز" مع الأحصنة قبيل ظهور بوادر الخوف المرضى عليه، ومن المرجح أن مثل هذه الحوادث هى التى نجحت - جزئيًا - فى "تعليم" Conditioned الطفل الصغير الخوف، وجعلته يخاف من الأحصنة، ولقد قام كل من ولب وراكمان بتقديم النقاط التالية:

"إن الطفل الصغير "ألبرت" - فى تجربة واطسن التقليدية الشهيرة - أظهر استجابات تتسم بالقلق المرضى (الحصر) تجاه كل من "المنبه الأصلى" (فأر أبيض)، والمنبهات الأخرى المشابهة له (كل ما له فروة أو صوف قطنى وما شابهه). وبالمثل، فإن "هانز" كانت استجاباته تتسم بالقلق تجاه الأحصنة، والعربات التى تجرها الأحصنة، والعربات عمومًا، وكل ما له علاقة بالحصان من لجام وغمامة الحصان. وفى الحقيقة، فإنه أظهر قلقه تجاه كثير من "المنبهات" Stimuli، إن الحادثة التى مثلت "السبب الذى أثار" مخاوفه المرضية - لأول مرة - كانت تتضمن انقلاب عربة يجرها حصانان، ولقد أخبرنا "هانز" بأنه كان أكثر خوفًا من العربة الكبيرة المنقلبة، وأن خوفه هذا امتد ليشمل كل عربات النقل الكبيرة.

وكما هو متوقع، فإنه كلما قلت أوجه التشابه بين الشيء الذى يسبب الخوف والحادثة الأصلية، قلت مخاوف "هانز" الصغير، بالإضافة إلى هذا، فإن آخر المخاوف المرضية التى اختفت فى حالة "هانز" كانت خوفه من السيارات الكبيرة والحافلات، وهناك عدد كاف من الأدلة التجريبية (أدلة حصلنا عليها من خلال تجارب) يشير إلى أنه كلما مرت الاستجابات الناتجة عن "منبهات عامة" Generalized Stimuli بمرحلة "الانطفاء" Extinction(*) قل تضاؤل الاستجابات تجاه المنبهات الأخرى المشابهة لها، وأنه كلما زاد تشابهها مع المنبه الشرطى الأصلى، زادت احتمالات تكرار صدورها.

(*) أى عندما تتعرض "المثيرات العامة" لما هو معروف باسم: "الانطفاء". هذا وقد تم شرح معنى مصطلح الانطفاء فى الفصل الثالث من هذا الكتاب. (المترجم)

وفى الواقع، هناك عدة طرق يمكن من خلالها تفسير شفاء "هانز" من خوفه المرضى... عن طريق "التعلم الشرطى"، ولكن لا يمكن تحديد الآليات الفعلية؛ لأن والده كان غير مهتم بالمعلومات التى تهم المعالج النفسى، ومن المعروف عن المخاوف المرضية - خاصة التى تصيب الأطفال - أنها تتلاشى تدريجيًا حتى تختفى خلال فترة لا تتعدى عدة أسابيع أو شهور، والسبب فى هذا أنه خلال الحياة الطبيعية للفرد.. فإن المنبه العام الذى يثير الخوف المرضى قد يثير أرجاعًا ضعيفة بدرجة كافية حتى إنها تُحَجِّم وتُقَيِّد من خلال الأرجاع الانفعالية الأخرى التى توجد فى وجدان الفرد، وربما تكون هذه الإجراءات هى المصدر الحقيقى الذى أدى إلى شفاء "هانز" الصغير، والتفسيرات التى قدمت له قد تكون غير ذات جدوى، بل إنها من الممكن أن تكون السبب فى تأخر الشفاء، عندما أضافت ضغوطًا ومخاوف جديدة لما هو موجود أصلاً فى نفسية الطفل، لكن حيث إن "هانز" يبدو وكأنه لم يتأثر كثيرًا بهذه التفسيرات فإنه من المرجح أن العلاج كان مفيدًا فعليًا، هذا لأن الطفل قد واجه كل "ما يثير الخوف المرضى" Phobic Stimuli مرارًا وتكرارًا، ومن خلال مواقف انفعالية مختلفة، ربما كان لكل هذا دور فى تقييد وتحجيم حالة القلق التى كان يعانى منها، وتحطيم صفات العادة فى هذا القلق، والطريقة التدريجية التى تم بها شفاء "هانز" تتفق مع هذا المنطق فى التفسير".

قد يكون هناك نوع من الاندفاع والتهور فى محاولة إعادة تفسير الخوف المرضى الذى كان يعانى منه طفل تم علاجه من أكثر من ٧٥ عامًا، ولكن الحقائق التى قدمناها تقدم نظرية بديلة قد تبدو - للكثير من الناس - أكثر معقولية من القصة الأصلية التى حاول فرويد أن يقنعنا بها.

إن ما نحن فى حاجة إليه - حقيقة - هو طريقة للإثبات، يمكنها أن تحدد أى التفسيرات المطروحة أكثر منطقية. وأنا هنا لا أعنى حالة "هانز" الصغير فقط، ولكنى أتكلم عن كل الحالات التى قد نتعرض لها فى الوقت الحاضر، والتى قد يتم علاجها من خلال طرق مستمدة من نظرية فرويد أو نظرية "ولب" J. Wolpe.

وحيث إننا تعاملنا بالفعل مع هذه النقطة خلال الفصل الحالى، فإننا سنذكر النتائج التى توصل إليها "ولب" و"راكمان" على أساس فحصهما لحالة "هانز" الصغير، وفيما يختص بما تقدمه هذه الحالة من تأييد لنظريات فرويد:

"إن النتيجة الرئيسية التى يمكن الخروج بها من بحثنا لهذه الحالة الخاصة بـ"هانز" الصغير هى أنها لا تقدم أى دليل مباشر يؤيد وجهات نظر التحليل النفسى، لقد فحصنا بدقة التفاصيل التى قدمها فرويد كأدلة، خاصة تلك التى يمكن قبولها من الناحية العلمية، ووجدنا أنها جميعًا غير صالحة.

إن فرويد يؤمن بأنه قد تمكن من استخراج ما يثبت صحة نظرياته؛ لأنه يشير إلى "عقد الطفولة" التى كانت تختفى خلف الخوف الذى عانى منه "هانز"، ولكن سذاجة فرويد تشع علينا من خلال محاولاته لأن يبدو علميًا، خاصة فيما يتعلق بمتطلبات الأدلة العلمية، إن هذه الحالة لم تكشف عن أى "عقد طفولة"، وكل ما فعلته هو تقديم افتراضات".

إن ما يثير الدهشة هو ذلك العدد الكبير من المشتغلين بالتحليل النفسى الذين عظموا من طريقة معالجة فرويد لحالة "هانز" الصغير، رغم ما تعانيه من نقائص متعددة، وأنا هنا لن أحاول التعليق على موقفهم هذا، وسأكتفى بالإشارة إلى أحد التأثيرات الكبيرة المحتملة، أنا - هنا - أتكلم عن ذلك الاعتقاد الذى ساد بين كثير من المشتغلين بالتحليل النفسى، وهو أن فرويد كان يمتلك بصيرة نافذة لا تخطئ، وأن هذه البصيرة تحميه من الخضوع للقواعد التى يعيش فى ظلها الفرد العادى، وعلى سبيل المثال: فإن "جلوڤر" Glover يتكلم عن المحللين الذين يعطون أنفسهم الحقوق التى كان يتمتع بها فرويد فى تعامله مع مرضاه، عندما يقول:

"بالطبع عندما يظهر شخص بمستوى فرويد بيننا فإنه يُمنح مثل هذه الحقوق".

ويعود مرة أخرى ليقول:

"إن منح مثل هذه الحقوق لأى شخص آخر هو مخالفة لروح العلم".

لقد ناقشنا - حتى الآن - النظرية التى يتبناها فرويد فيما يختص بنمو الطفل وتطوره، والأدلة المتعلقة بها، والحالة الخاصة بـ"هانز" الصغير، والتى استخدمت فى

تقديم الأفكار الخاصة بـ"تحليل نفسية الطفل" Child Psychoanalysis، والنتيجة التى يمكن الخروج بها من كل هذا مثيرة للاكتئاب؛ فهى تظهر فرويد وهو يتبنى موقفًا غير علمى تمامًا، وتظهر اعتماده الساذج على تفسيرات مشكوك فى طبيعتها، وتظهر عدم احترامه لما هو ملحوظ وغيره من الحقائق، وفشله فى أن يأخذ النظريات البديلة فى الاعتبار، وإيمانه الأعمى بأنه على صواب دائمًا، واحتقاره الشديد لكل من ينتقده. إن الخليط السابق لا يمكن أن يخرج علينا بنتائج علمية، وبعد أكثر من ٧٥ عامًا على حالة "هانز" الصغير فإنه لا توجد أى أدلة مقبولة على استنتاجات فرويد الخاصة بـ"عقدة أوديب"، أو "الخوف من الخصاء"، أو "النشاطات الجنسية لدى الأطفال" Infantile Sexuality.

إن هذه التعبيرات أصبحت معروفة بين العامة وتم استخدامها لتلوين المناقشات التى تجرى بين المثقفين بدون أى خلفية علمية، أما بين المحللين النفسيين الذين يطالب الواحد منهم بدليل على صحة هذه المفاهيم والنظريات التى يقدمها فرويد، فإنه لا يوجد من يؤمن بها إيمانًا حقيقيًا، والسبب فى هذا قد أصبح واضحًا من خلال سطور هذا الفصل.

لكل هذا، فإنه مما يدعو إلى العجب أن تصبح مثل هذه الاستنتاجات المشكوك فى صحتها مقبولة بين القائمين على العلاج النفسى والمحللين النفسيين، وأن يتمكن فرويد من إقناع أناس أذكياء بصحة افتراضاته، وأن تصبح طرقه منتشرة حتى إنها تستخدم فى علاج العُصاب وغيره من الأمراض، وسيقع العبء على المؤرخين فى مجال العلم لشرح كيف تأتى لكل هذا أن يحدث!

أما أنا، فإنه ليس لدى ما أقدمه لشرح هذه التطورات الغريبة، التى تبدو لى وكأنها "تحول دينى" أكثر منها "إقناعًا علميًا"؛ لأنها مبنية أكثر على إيمان الفرد منها على الحقائق والتجارب، ولأنها تعتمد على الدعاية والمقترحات أكثر من اعتمادها على الإثباتات والبراهين.

فهل – حقيقة – توجد أى أدلة تجريبية تؤيد وجهات نظر فرويد؟

الإجابة عن هذا التساؤل سوف يعرضها الفصلان القادمان.

الفصل الخامس

تفسير الأحلام والأمراض النفسية في الحياة اليومية

إن التاريخ يحذرنا من أن المصير المعتاد للحقائق الجديدة هو أنها تبدأ هرطقات، وينتهى بها الأمر إلى أن تصبح مجرد مشاعر غير منطقية (تطير).

تى. هـ. هاكسلى

إن نظرية فرويد فى تفسير الأحلام، والأمراض النفسية فى الحياة اليومية - تحتل - فى عقلية رجل الشارع - المرتبة الثانية مباشرة لاستخدام التحليل النفسى كطريقة للعلاج، وقد اعتبر فرويد ذاته أن كتابه: "تفسير الأحلام" هو أهم أعماله، حتى إنه أكد أن هذا الكتاب هو "الطريق الملكى" Via Regia(*) الذى يصل بنا لفهم "العنصر غير الواعى" فى حياتنا النفسية. إن "الحلم" The Dream هو النموذج الذى بنى عليه فرويد نظريته فى العُصاب، باستخدام طريقة "التداعى الحر" Free Association، التى استعارها من سير "فرانسيز جالتون".

اعتمدت طريقة فرويد على أن يبدأ باستخدام بعض "مكونات الحلم"، أو "الأخطاء العفوية"، أو "النسيان"، أو "سوء الفهم"، التى تحدث فى حالة الوعى. وفيما بعد كتب

(*) Via Regia : هو تعبير لا يشير إلى طريق بعينه - وإن كانت هناك طرق حقيقية تحمل بالفعل هذا الاسم - وإنما يشير إلى "نمط" الطريق؛ فقد كان هذا النمط من الطرق تحت الحماية المباشرة للملك ذاته؛ لأنه ذو أهمية خاصة بالنسبة له. (المترجم)

عنها فى كتاب "الأمراض النفسية فى الحياة اليومية"، لقد كان فرويد يؤمن بأن هذه "التداعيات" Associations سوف تقوده إلى القوى المحركة الموجودة فى اللاشعور، التى تتسبب فى حدوث "الحلم"، أو ما يسمى بـ"الإنجاز المنقوص" أو "المعيب"، بمعنى التنفيذ الخاطئ لنشاطات طبيعية وعادية تمامًا، وفى اللغة الإنجليزية فإن التعبير المستخدم عادة هو: "زلات" Parapraxes(*).

إن فرويد يضع علامات فارقة وواضحة ما بين "الحلم"، و"المعنى" الكامن فيه، وعلى حد قول فرويد ذاته:

'إن محتويات "الحلم" يتم التعبير عنها كما لو كانت فى حوار معد للتصوير؛ فإن الشخصيات يجب تحوير كل منها على حدة، وتحويلها إلى لغة "أفكار الحلم"، أما إذا حاولنا فهم هذه الشخصيات طبقًا لقيمتهم المرئية، بدلاً من قيمتهم الرمزية، فإننا سنقع فى أخطاء، وعلى سبيل المثال: افترض أن لدينا أحجية على صورة رسوم، وأن هذه الأحجية عبارة عن صورة لمنزل وهناك قارب على سطحه وأحد الحروف الأبجدية وصورة لرجل ضخم يجرى بلا رأس.. إلخ.

قد يقودنى هذا إلى التسرع والاعتراض على هذه الصورة؛ لأنها غير منطقية؛ لأن القارب لا يجوز أن يوجد على سطح المنزل، والرجل عديم الرأس لا يستطيع أن يجرى، كما أن الرجل أكبر من المنزل فى الحجم، وإذا كانت الغاية من هذه الصورة هى عرض منظر طبيعى، فإن وجود أحد الحروف الأبجدية هو أمر غير منطقى، لكنه من الواضح أنه من غير الممكن الحكم على هذه الأحجية بدون التخلص من هذه الانتقادات، بدلاً من هذا، فإنه علينا أن نقوم باستبدال كل مكون بما يرمز إليه فى الحقيقة، وعندما نضع هذه الأشياء معًا، فإنها قد تشكل فقرة ذات جمال باهر وشاعرية. وبالمثل، فإن "الحلم"

(*) هو مصطلح يونانى، ومفرده هو: "زلة" Parapraxis، وتتكون الصيغة المفردة من مقطعين: الأول: (para)، والثانى: (praksis)، وتعنى "فعلاً آخر" أو "فعلاً مختلفًا"، وكما ذكرت فى الفصل السابق، فإنه أحد المصطلحين اللذين يتم التعبير من خلالهما - فى اللغة الإنجليزية - عما يسمى: "الزلة الفرويدية". (المترجم)

ليس إلا أحجية مصورة من هذا النوع، وكل من سبقونا فى مجال تفسير الأحلام قد وقعوا فى خطأ أخذ مكونات الصورة كل منها على حدة، وهو ما جعل "الحلم" يبدو غير منطقى وعديم القيمة".

إن "**الحلم" الفعلى** ينتج عن "العمل الحلمى" Dream-work الذى يغير من المعنى الكامن فى "الحلم" الظاهر. هذا هو ما ينتج التشوهات التى أصبحت أحد الخصائص المميزة لـ"الأحلام"، والتى كان يعتقد فرويد بأنها نتيجة لعمل "الرقيب" Censor الذى يحاول أن يحمى الشخص الحالم من مواجهة رغبات الطفولة المكبوتة فى اللاشعور التى تحاول أن تعبر عن نفسها من خلال "الحلم"، وهو ما يجعل هذه الرغبات المكبوتة - بعد ما حدث لها من تحولات- تظهر فى صور رمزية لا تتسم بالذكاء، لقد أشار "جبسون" H.B. Gibson فى كتابه "النوم والأحلام والصحة الذهنية" إلى أن نظرية فرويد عن الأحلام تتلخص فى أربعة مبادئ رئيسية:

١- إن الأحلام تهدف إلى حماية النوم، وأن النوم ذاته ليس إلا حالة من اللاشعور فى حاجة إلى حماية من المثيرات التى قد تؤدى إلى استيقاظ النائم.

هذه المثيرات قد تأتى من الخارج (فى صورة ضوضاء مزعجة، أو أضواء مبهرة، أو الشعور بالحر أو البرد .. إلخ)، أو من الداخل (فى صورة ذكريات، أو دوافع نفسية مخزونة فى العقل)، وفى هذا الخصوص لم يأت فرويد بجديد؛ فإن وجهات نظر مشابهة كانت شائعة خلال القرن التاسع عشر.. وحتى قبل أن يبدأ هو الكتابة.

وبالرغم من أن مثل هذه الافتراضات - التى اعتبرها فرويد من قبيل المسلمات - قد تبدو منطقية بالنسبة لرجل الشارع، فإنها فى الحقيقة مشكوك فيها وفى صحتها؛ فلا يوجد أى تأكيد بأن الأحلام تحدث فى حالة من اللاوعى. أيضًا بالنسبة للادعاء الخاص بأنها تحدث بغرض: "حماية" نوم الشخص الحالم.

٢- يشكل هذا المبدأ جزءًا أساسيا من نظرية فرويد العامة، ومن نظريات من سبقوه؛ فهم يؤمنون بأن الحضارة البشرية تفرض قيودًا عديدة على حرية الفرد فى التعبير عن دوافعه الجنسية والعدوانية.

ولقد اقترح فرويد أن التحكم فى هذه الرغبات المكبوتة يضعف خلال النوم، لكن هذا يحدث لأنها تخرج فى صورة مقنعة قد تصدم النائم وتدفعه للاستيقاظ.

ولهذا فإن هناك عدداً من الآليات الخاصة بالحماية، التى تقوم بتغيير الصورة الصادمة وتخفف منها وتبدلها بصورة يمكنها أن تتجاوز "الرقيب"، وبما يسمح للحالم من الاستمرار فى نومه، وهذا "الرقيب" ذاته هو المسئول عن حالة "الزلات" **Parapraxia** السابق ذكرها، وهو ما ينتج عنه "الأمراض النفسية فى الحياة اليومية"، التى سوف نفحصها فى جزء لاحق من هذا الفصل.

طبقًا لمعتقدات فرويد، فإن مهمة تشكيل "الحلم" تهدف إلى التغلب على القيود التى يفرضها "الرقيب"، وإن هذه المهمة يتم إنجازها عن طريق الإدخال الخاطئ للطاقة الجسدية بين "أفكار الحلم"؛ فإن كل حلم - طبقًا لرأى فرويد - وكل مكون فى كل حلم يمثل: **رغبة**؛ رغبة غير عادية فى اللاشعور؛ رغبة لا تشابه رغبات كل يوم؛ فإن فرويد يخبرنا بأن "الحلم" ليس إلا محاولة متنكرة لإشباع رغبة مكبوتة، وأن هذا الكبت يعود إلى المراحل المبكرة من طفولة هذا الفرد.

٢- إن المواد التى يتم نسج "الحلم" منها تتكون فى معظمها من أحداث يتذكرها الفرد من اليوم السابق؛ فهى - كما يقول فرويد - ليست إلا "بواقى اليوم". إن هذه "البواقى" تتصرف كعامل يزعج نوم الفرد وينتج الأحلام؛ فهى ليست إلا إجراءات فكرية من اليوم السابق تمكنت من البقاء حتى بعد أن انخفض مستوى الطاقة خلال النوم.

إن هذه البقايا قد تم اكتشافها من خلال تتبع الأثر الظاهر للحلم واكتشاف الفكرة الكامنة فيه، وهذه البقايا ليست "حلمًا" فى حد ذاتها، بل إنها تفتقد إلى أكثر المكونات الأساسية فى "الحلم". وعلى هذا، فإنها لا تستطيع أن تُشكل - وحدها - "حلمًا"؛ فإنها ليست إلا المادة الخام التى يستخدمها "العمل الحلمى" كـ"ناقل للأحاسيس **Sensory**" وكمثيرات جسدية، وإذا حاولنا أن ننسب لهم الفضل الأساسى فى تشكيل "الحلم"؛ فإننا نكون قد ارتكبنا الخطأ نفسه الذى كان يتم تفسير الأحلام على أساسه

فى الماضى؛ عندما كانوا يعتقدون أنها متاعب معوية أو ضغط على البشرة (سطح الجلد).

بالنسبة لفرويد، فإن "بواقى اليوم" هى المكونات الأساسية المستخدمة فى تكوين "الأحلام"، ويكون "الحلم" مهتمًا بأمور مختلفة، مثل: كل تلك الأحداث التافهة وغير المؤذية التى حدثت خلال اليوم، أو التى تم تذكرها من الماضى، وهى تخرج علينا فى الجزء الظاهر من محتويات "الحلم". إن هذا يحدث لأنها تشكل خلفية مناسبة للأشياء الحقيقية التى تشغلنا، وليس لأننا كنا مشغولين بها مؤخرًا.

وفرويد يفسر هذا على أنها مواد ورغبات جنسية؛ فهو يقول:

"إن "الأحلام" التى تبدو بريئة فى ظاهرها دائمًا ما تكون محتوية على رغبات جنسية وشهوانية فظة".

إنه يسلم بأن الرغبات المكبوتة ربما تكون متعلقة بالكراهية والحقد والعدوانية، لكنه يعتبر "الدوافع الجنسية" هى أهمها جميعًا.

٤- المبدأ الرابع هو أن "الحلم" كما يرويه الفرد الحالم يختلف - بدرجات متفاوتة - عما يتذكره هذا الفرد بعد فترة من الوقت؛ لأنه تكون قد حدثت له "تعديلات وتفسيرات ثانوية" Secondary Elaboration خلال تلك الفترة.

ومما لا شك فيه أن هذا يحدث كثيرًا؛ فهناك اختلافات واضحة بين "الحلم" الذى يتذكره الفرد بعد استيقاظه مباشرة، و"الحلم" نفسه الذى يتذكره الفرد فيما بعد (بعد يوم أو أسبوع)، والأبحاث الحديثة التى أجريت على التعلم والذاكرة قد أثبتت - بما لا يدع مجالاً للشك - أن عملية التذكر هى عملية نشطة، وأن الفرد يكون خلالها إيجابيًا. هذه العملية تحور المواد التى يتم تذكرها وتشكلها بالإضافة أو الحذف حتى تتناسب بدرجة أفضل مع المفاهيم السابقة لهذا الفرد. ولهذا، فإن الباحث الحديث - والباحث فى الفترة التى سبقت فرويد أيضًا - يصر على أن "الحلم" يجب أن يتم تسجيله فور استيقاظ الفرد منه؛ لأن هذه هى الطريقة الوحيدة التى تمكننا من التقليل من أهمية "التعديلات الثانوية".

وطبقًا لفرويد، فإن هذه "التعديلات الثانوية" غالبًا ما تحدث عندما يشعر "الرقيب" بأنه قد فوجئ بـ"الحلم" الذى تم بالفعل السماح به. بمعنى آخر: إنه إذا كان "الحلم" الذى تذكره الفرد لا يزال يتسبب فى صدمة للرقيب، فإنه يتم تعديله وتحويره - من خلال مجموعة من الإجراءات التى تقوم بها الذاكرة - حتى يتلاءم مع الـ"أنا-الأعلى" Super-ego، ويصبح صادمًا بدرجة أقل.

وفى هذا الخصوص، فإنه من الواجب ملاحظة أن فرويد لم يحاول أبدًا أن يدفع مرضاه لتذكر الحلم فورًا وبعد الاستيقاظ منه مباشرة، كما أنه لم يفعل هذا عندما قام بتسجيل أحلامه الشخصية؛ لهذا، فإن كل كتابات فرويد تتعامل مع "أحلام" قامت الذاكرة بإعادة تركيبها وتعديلها من مكونات فى الحلم مجهولة الأصل. وإحدى المتناقضات فى كتابه "تفسير الأحلام" هى أن فرويد ذاته يعترف بهذا. وبالرغم من هذا، فإنه لم يبال وتجاهل أهمية هذا العامل.

وهناك عامل آخر قد ذكرناه من قبل فى الفصل الأول، ألا وهو أن كل الأحلام التى ذكرها فرويد فى كتابه هذا على أنها إثبات يوضح صحة نظريته، فى الحقيقة تثبت العكس؛ فلا يوجد منها من هو مؤسس على رغبات وأمانى منبعثة من أشياء تم كبتها فى مرحلة الطفولة. ولهذا، فإن تلك الأمثلة المختارة تنفى نظريته!

إن "العمل الحلمى" Dream-work يستخدم أربع طرق رئيسية للتخفى، وهى: "التكثيف" Condensation، و"الإزاحة" Displacement، و"التجسيم" Dramatization، و"الترميز" Symbolization.

١- "التكثيف" Condensation: هو إجراء مبنى على اكتشاف أن "المحتوى الظاهر" من "الحلم" ليس إلا اختصارًا للمحتوى الضمنى فى الحلم، كما أنه ليس إلا شيئًا مقتضبًا ومختصرًا وموجزًا وقليل القيمة إذا ما قورن بالسيل الهائل من "الأفكار الحلمية" الوفيرة. وعلى سبيل المثال، دعنا نأخذ "حلمًا" نشره وشرحه المحلل النفسى الأمريكى "فرينك" Frink:

حلمت امرأة شابة أنها كانت تمشى مع إحدى صديقاتها فى "الطريق الخامس"(*) Fifth Avenue، وتوقفت أمام محل للقبعات، وأخذت تتفحص القبعات المعروضة فى واجهته، وتذكرت أنها – فى النهاية – دخلت المحل المذكور واشترت منه قبعة.

ويذكر المحلل المعلومات التالية: إن وجود صديقتها فى "الحلم" قد ذكرها بأنها كانت بالفعل تمشى معها فى "الطريق الخامس" فى اليوم السابق، وإن كانت لم تشتر أى قبعات، لقد كان زوجها مريضًا، وملازمًا للفراش. وبالرغم من أنها كانت تعرف أن مرضه ليس خطيرًا فإنها شعرت بعدم الراحة، وظلت فكرة وفاته تلاحقها. وفى وسط كل هذا، اتصلت بها صديقتها، واقترح زوجها أن نزهة قد تفيدها، كما أن المرأة الحالمة تذكرت أنها قد تحدثت مع رجل عرفته قبل زواجها، وكانت تظن أنها تحبه، وعندما سُئلت عن السبب فى عدم زواجها من هذا الرجل، فإنها ضحكت وقالت بأنه لم يكتب لهذا الزواج أن يتم، وأضافت أن وضعه الاجتماعى والمالى كان أعلى منها بكثير، وأنها ما كانت لتأمل فى الزواج منه.

وعندما تم سؤالها عما يمكن أن ترمز إليه عملية شراء القبعة، فإنها أجابت بأنها كانت معجبة بإحدى القبعات المعروضة بالمحل وكانت ترغب فى شرائها، وإن كانت تعلم أن هذا مستحيل بسبب فقر زوجها، من الواضح أن "الحلم" كان يهدف إلى إشباع رغبتها فى شراء القبعة، ولكنها تذكرت أيضًا أن هذه القبعة كانت سوداء من النوع الذى ترتديه الأرملة خلال الجنازة.

كان تفسير المحلل هو أن الزوجة كانت – فى اليوم السابق – قلقة على صحة زوجها ومن أنه قد يتوفى؛ ولهذا، فإنها حلمت بشراء القبعة الجنائزية، وبهذا تكون قد أشبعت حلمها الجامح الخاص بموت زوجها. فى عالم الواقع كان فقر زوجها عقبة أمام شراء القبعة، أما فى "الحلم" فإنها استطاعت شراء إحدى القبعات، وهو ما يعنى

(*) أحد أهم الشوارع التجارية فى مدينة نيويورك، الذى يتركز اهتمام المحال الموجودة به على أحدث الموضات والأزياء والإكسسوارات النسائية الباهظة الثمن. (المترجم)

- ضمنيًا - أن زوجها كان غنيًا، إن هذه الرموز تقودنا إلى الرجل الغنى الذى اعترفت بأنها كانت تحبه قبل الزواج، وإلى الافتراض بأنها كانت ستصبح قادرة على شراء كثير من القبعات إذا كانت متزوجة منه؛ لهذا، فإن المحلل النفسى استنتج أن الزوجة قد ملت حياتها مع زوجها، وأن خوفها من موته لم يكن إلا إجراءً تعويضيًا واستجابة دفاعية ضد رغباتها الحقيقية فى وفاته، وفى أن تتزوج من الرجل الذى كانت تهواه، وفى أن تصبح قادرة على أن تشترى كل ما تشتهيه، ولعله من المهم أن نلاحظ أنه عندما شرح المحلل هذه المعانى لمريضته فإنها اعترفت بمعقوليتها، وأخبرته عدة حقائق أكدت صحة تحليله هذا، وأهم هذه الحقائق هى أنها اكتشفت - بعد زواجها - أن ذلك الرجل الغنى كان هو الآخر يحبها، وكان هذا الاكتشاف سببًا فى شعورها بأنها تسرعت فى الزواج، واعتقادها بأنها إذا انتظرت مدة أطول لأمكنها الزواج من الرجل الغنى الذى كانت تبادله الحب.

إن هذا "الحلم" يوضح الكيفية التى تتم بها عملية "التكثيف" **Condensation**؛ لأن هناك عددًا كبيرًا من الأفكار المختلفة التى تم تكثيفها فى "حلم" قصير يبدو وكأنه بلا أهمية، وفى أدب التحليل النفسى تمت الإشارة إلى هذا "الحلم" عدة مرات على أنه يؤيد موقف فرويد ونظريته، ولكنه من الصعب فهم موقفهم هذا؛ فإن هذا "الحلم" لا يحتوى على أى رغبات مكبوتة منذ الطفولة؛ فمعظم الرغبات الموجودة به رغبات واعية، كانت هذه المرأة مدركة لها؛ فهى تعى تمام الوعى أنها لا تزال تشعر بالحب تجاه الرجل الذى عرفته قبل الزواج، وهى على وعى بندمها على الزواج من زوجها الحالى، كما أنها تعى "فقرها" ورغبتها فى أن تصبح غنية.

"التداعى اللغوى" **Word Association** يمكنه أن يساعدنا فى فهم مثل هذه الأحلام، ولكن معنى هذا "الحلم" سوف يكون مختلفًا تمامًا عن "المحتوى الضمنى" الذى افترضه فرويد فى نظريته، وعلى هذا، فإن الاستنتاج الوحيد الذى يمكننا الخروج به من تفسير التحليل النفسى لهذا "الحلم" هو أن نظرية فرويد خاطئة. وإنه لأمر يثير الاهتمام أن القائمين على التحليل النفسى لم يستطيعوا أن يروا هذا.

٢- "الإزاحة" **Displacement**: هى إجراء يتم من خلاله فصل الشحنة العاطفية عن العنصر "الأساسى" المتصل بها، وتوجيهها نحو مكون ثانوى. وبمعنى آخر، فإن المشاعر التى تنتمى إلى أحد عناصر "الحلم" لا تظهر مرتبطة به، ولكنها تظهر مرتبطة بعنصر آخر، وإليكم أحد الأحلام التى توضح معنى "الإزاحة":

حلمت الفتاة بأنها كانت موجودة مع فرد لا تستطيع أن تتبين شخصيته، ولكنها كانت - بصورة ما - مدينة له، وترغب فى تقديم امتنانها وشكرها إليه؛ لهذا قدمت له مشطها اعترافًا بفضله، كان هذا هو كل محتويات "الحلم".

لفهم هذا "الحلم" فإنه علينا التعرف على "الخلفية" الخاصة بهذه المريضة؛ فإنها كانت تدين باليهودية، وكان أحد الرجال قد تقدم لخطبتها فى العام السابق ولكنه كان يدين بالبروتستانتية، وبالرغم من أنها كانت تبادله المشاعر فإن اختلاف الديانة منعهما من الزواج، فى اليوم السابق على هذا "الحلم" اشتبكت - هذه الفتاة - فى مناقشة كلامية عنيفة مع والدتها قبل ذهابها للنوم، وذهبت إلى فراشها وهى تظن أنه من الأفضل لها ولأسرتها أن تهجرهم وتترك المنزل، ونامت وهى تفكر فى الطرق التى تمكنها من الاستقلال بحياتها بعيداً عنهم وبدون أى اعتماد على والديها.

وعندما سُئلت عما يمكن أن يرمز له هذا "المشط"؛ فإنها قالت: لقد كانوا دائمًا يخبروننى بأنه لا يجوز أن يستخدم أى شخص الفرشاة أو المشط الخاص بالآخرين؛ لأن هذا يتسبب "فى خلط الأجناس". إن هذا يشير إلى أن الشخص الموجود فى حلمها - الذى ظلت شخصيته غامضة - ليس إلا الرجل البروتستانتى الذى تقدم للزواج منها، وهى عندما قدمت له "مشطها" فإنها تكون قد أظهرت رغبتها "فى خلط الأجناس"، بمعنى أنها ترغب فى الزواج والإنجاب منه. فى حلمها؛ فإن المشط قد حل محل الخاطب السابق و"أزاحه". لقد حدث كل هذا بطريقة هادئة وغير معقدة، حتى إنه أصبح "المكون العاطفى الأساسى" خلال عملية "الإزاحة".

ومرة أخرى، يكون علينا التركيز على التفسيرات المقدمة لهذا "الحلم"؛ فبالرغم من أنها منطقية تمامًا، فإنها لا تؤيد فروض فرويد، بل إنها - فى الحقيقة - تتناقض

معها تمامًا، فلا توجد - هنا - أى رغبات مكبوتة، ومن ثم لا توجد رغبات من عهد الطفولة، إن المريضة على وعى تام بمشاعرها تجاه الشاب الذى تقدم للزواج منها وبأسباب هذه المشاعر؛ لهذا فإنه يكون من الصعب فهم السبب الذى يدفع "الرقيب" لأن يعترض على حلم مباشر يوضح هذه الحقائق الواعية. ومرة أخرى، فإننا نرى أن طريقة "جالتون" Galton فى التداعى الحر قد أثبتت قيمتها فى الوصول إلى فهم معنوى لما يبدو وكأنه "حلم" بلا معنى. أما نظرية فرويد، فإنها تتناقض بوضوح مع تفسير هذا "الحلم".

٣- "التجسيم" Dramatization: هو تعبير يستخدمه فرويد للإشارة إلى حقيقة أن الجزء "الأساسى" فى "الأحلام" هو "الصور الذهنية البصرية" Visual Images؛ ومن ثم فإن "المفاهيم الفكرية" يحل محلها هذه الصور الذهنية البصرية، التى هى أشبه بالفيلم السينمائى، وهذا الإجراء شديد الوضوح ومعروف للحالم، حتى إننا لا نضيع أى وقت فى ذكر "حلم" وتحليله، ولكننا سوف نعود إلى هذه النقطة - فيما بعد - عند مناقشتنا لنظرية الأحلام الخاصة بـ"هال" Hall؛ لأنها مكون حيوى من مكوناته. إن "التجسيم" يتشابه فى كثير من وجوهه مع "الترميز" Symbolization، وهى الآلية التى سوف نتعامل معها الآن.

٤- "الترميز" Symbolization: إن "الترميز" هو أكثر الآليات السابقة شهرة ووضوحًا، فهو معروف للجميع، ومرتبط - بالنسبة لعديد من القراء - باسم فرويد؛ فنحن كثيرًا ما نتحدث عن الرموز الفرويدية، وغالبًا ما يشار بهذا إلى استخدام الرموز للدلالة على عناصر ونشاطات جنسية. هذا هو أحد أشهر فروض فرويد، وإن كان من الصعب نسبته إليه؛ فإن "الترميز" قد استخدم منذ آلاف السنين بواسطة كل من قام بتفسير "الأحلام"، ولعلنا - جميعًا - لا نزال نذكر تفسير يوسف الصديق لحلم فرعون مصر، والخاص بالسبع البقرات السمينات، والسبع البقرات العجاف، وكيف أن البقرات كانت ترمز إلى سنين الرخاء، والمجاعة، وإن أكثر الأشياء سخفًا هو محاولة ربط اسم فرويد بما ادعوا من اكتشافات جديدة للتفسيرات الجنسية للرموز الموجودة فى الأحلام.

إن كثيرين قد تحدثوا عن الرموز الفرويدية، كما لو أن فرويد هو الذى اكتشف فكرة أن العناصر الحادة والمستقيمة ترمز إلى العضو الجنسى الذكرى، وأن العناصر المقوسة والمنحنية والأوعية ترمز إلى العضو الجنسى الأنثوى، ومعظم أتباع فرويد يحاولون إعطاء هذا الانطباع، ولكن هذا النوع من "الترميز" كان معروفًا - منذ آلاف السنين - للكتاب والفلاسفة والشعراء والمحللين النفسيين، وحتى رجل الشارع العادى. وعلى سبيل المثال: فإن اللغة اللاتينية كانت تعبر عن العضو الجنسى للرجل من خلال كلمات مثل: Mentula، أو Verpa(*). وإن كانت هذه التعبيرات تعتبر إباحية؛ ولهذا، فإنه تم استخدام كثير من الأمثلة المختلفة، وهو ما حدث فى اللغة اليونانية القديمة، وقد أشار "آدمز" J. N. Adams فى كتابه "قاموس التعبيرات الجنسية اللاتينية" إلى أن أكثر الأشياء التى تم ربطها بالقضيب هى الأشياء الحادة والمستقيمة، ومن المرجح أن هذا ينطبق على كل اللغات. وعلى سبيل المثال: نجد أن التعبيرات التى ترمز إلى عضو الذكر فى اللغة اللاتينية هى: "Virga" (وتعنى قضيبًا معدنيًا)، و"Vectis" (وتعنى العصا)، و"Hasta" (وتعنى الرمح)، و"Rutabulum" (وتعنى المنخاس)، و"Terminus" (و تعنى علامة الحدود)، و"Temo" (وتعنى سارية العلم)، و"Vomer" (وتعنى المحراث)، و"Clavus" (وتعنى ذراع الدفة)، وهناك عديد من الأمثلة الأخرى التي قدمها "آدمز"، كما أنه أشار إلى أن الثعبان كان يرمز - بين المتحدثين باللغة اللاتينية - بطريقة ما للعضو الجنسى الذكرى. وكل هذا يظهر أن فرويد لم يأت بجديد فى هذا المضمار.

أما بالنسبة لعضو المرأة الجنسى، فإن هناك تعبيرًا إباحيا مشابهًا وهو: "Cunnus"، الذى نادرًا ما كان يستخدم خارج الكتب والرسوم الإباحية. ومع هذا، نجد هناك عديدًا من النماذج التى ذكرها "آدمز". وعلى سبيل المثال: فإنه يذكر أن

(*) Verpa: هو الاسم اللاتينى لأحد أنواع فطر "عش الغراب" Mushroom الذى يتخذ شكلاً فريدًا يجعله مشابهًا للعضو الذكرى المنتصب، أما Mentula فهى الكلمة العامية ذات الطابع الإباحى التى تستخدم للإشارة إلى العضو الذكرى. (المترجم)

الحقول والحدائق والمروج... إلخ؛ كلها تشير إلى الأجزاء الخارجية من العضو الجنسى للمرأة وتصف مظهره الخارجى، كما أن خصوبة الحقول تشير - جزئيًا - إلى خصوبة المرأة، وبهذا، فإن المثال يوضح أن "البذر" و"الحرث"، مثلها فى هذا مثل "العملية الجنسية" بين الرجل والمرأة.

وكل من له معرفة بالآداب اليونانية القديمة، والأدب الرومانى، ومسرحيات القرون الوسطى وكتاباته على علم بوجود هذه الرموز الجنسية. وفى الحقيقة، فإن هذا الأمر كان معلومًا للجميع تقريبًا. أما محاولة الادعاء بأن هذه العمليات الرمزية هى من اكتشاف فرويد فهو من السخافة بمكان، مثله فى هذا مثل الادعاء بأنه هو الذى اكتشف استخدامها فى "الأحلام" وفى "العمليات الحلمية".

إن هناك تاريخًا طويلاً وقديمًا - قدم التاريخ المكتوب نفسه - لاستخدام "الترميز" فى "الأحلام"، ولكنهم يدعون أن "الجديد" الذى قدمه فرويد هو طريقة الاستخدام الخاصة التى يوظف بها فرويد تلك الرموز، والتفسيرات التى يعطيها للهدف من كل رمز. ومرة أخرى، فإن "**ما هو جديد فى هذه النظريات ليس صحيحًا، وما هو صحيح فى هذه النظريات ليس بجديد**".

فإن الرموز تستخدم - بالتأكيد - خلال "الأحلام"، ولكنها ليست رموزًا فرويدية بأى طريقة من الطرق.

وباختصار، فإن ما قدمه فرويد على أنه تفسير للأحلام، ونظريته فى التفسير ليست أصلية (أى إن كل أصولها لا تعود إليه وحده)؛ كما أن هناك تاريخًا مسجلاً لعدد كبير من الفلاسفة والمحللين النفسيين الذين سبقوه فى التعبير عن وجهات نظر مشابهة لما قام به، وكتابه "تفسير الأحلام" يحتوى - فى نهايته - على قائمة بها حوالى ٨٠ كتابًا ومرجعًا، ومع هذا، فإنه لا يشير إلى معظمها فى كتاباته، وفى تلك الحالات النادرة التى أشار فيها فرويد لكتاب بعينه، فإنه يذكره بإيجاز، ودون أى إشارة لما يستحقه من أهمية، وهناك حوالى ١٣٤ كتابًا ومقالاً عن "الأحلام" نشرت قبل نشر

فرويد لكتابه، وهو لم يذكرها فى أى من طبعات هذا الكتاب، ومع هذا، فقد تم وضع قوائم بها فى المراجع الخاصة بالطبعات المختلفة.

وهناك عديد من المفارقات والغرائب الأخرى فى كتابه هذا، ولقد أشرت إليها من قبل، عندما ذكرت النقد الذى وجهه "جبسون" فى كتابه عن النوم والمذكور خلال هذا الفصل، وأنا هنا سوف أعطى بعض الأمثلة عليه. المثال الأول - سبق لنا ذكره - يقوم بدراسة فشل فرويد فى تقدير أهمية "التعديلات والتفسيرات الثانوية" Secondary Elaborations، وفى أن يطلب من مرضاه كتابة أحلامهم بعد الاستيقاظ مباشرة، وبالرغم من أن بعض من سبقوه قد قاموا بمراعاة هذا، فإن فرويد لم ينظر إلى الأمر على أنه ذو أهمية ويتعلق بالأمانة العلمية، ولخص موقفه فيما يلى:

"بخصوص الإجراءات العلمية المتبعة مع مسألة "الحلم" - ورغم تبرُّؤ المحللين النفسيين الآخرين من تفسيرات الأحلام التى حظيت بمثير جديد عندما اهتممنا بها فى مدرسة التحليل النفسى - فإننا دائمًا ما نجد لديهم عناية زائدة عن الحد فى المحافظة على دقة نص "الحلم"، وهم يظنون أن هذا ضرورى، لحماية أحداث "الحلم" من التشويه الذى قد يحدث لها خلال الساعات التى تلى اليقظة، حتى إن كثيرًا من المحللين النفسيين يوجهون مرضاهم لكتابة "الحلم" بعد الاستيقاظ مباشرة؛ فهم لا يعتمدون بدرجة كافية على المعلومات المتوفرة عن الأحوال التى "شكلت الحلم". إن هذه التوجيهات زائدة عن الحد، والمريض يكون سعيدًا لقيامه بها؛ لأنها تمكنه من قطع نعاسه وإظهار طاعته، بينما هى فى الحقيقة لا تقوم بتأدية أى دور مفيد".

كل هذا يجعل من الواضح أن فرويد لم يهتم كثيرًا بالتعديلات التى تحدث لـ"الحلم"، بل إنه كان - فى الواقع - يفضل القيام بتفسيرها بعد حدوث هذه التعديلات، فقد كان المريض يأتى إلى عيادته بعد "الحلم" بساعات أو أيام، ويصف له "حلمًا" معينًا، تغيرت كثير من تفاصيله بسبب "التعديلات الثانوية" التى حدثت له خلال ساعات اليقظة، كما أن المريض يكون قد تعلم المبادئ الأساسية التى يلجأ إليها فرويد فى التفسير، وعن وعى - أو بلا وعى - نجد المريض يعيد تشكيل حلمه حتى يتلاءم مع

نظرية فرويد، حتى إن معظم المحللين النفسيين - حاليًا - يعترفون بأن "حلم" المريض يكون متأثرًا بنظريات المحلل النفسى. وهكذا أصبح مريض "فرويد" يحلم برموز فرويدية، ومريض "يونج" يحلم برموز يونجية... إلخ. إن المريض يصبح مدربًا؛ لأنه يتعلم نوعية "الأحلام" والرموز التى تُرضى المحلل النفسى، وبمساعدة "التعديلات الثانوية" يقدم له - عن وعى أو عن غير وعى - ما يرضيه.

ويعترف كثير من المحللين النفسيين بصحة الحقائق السابقة. وعلى سبيل المثال: دعونا نتذكر هذه الفقرة المقتطفة من المحلل النفسى الأمريكى الشهير "جود مارمور" Judd Marmor، ولقد سبق لى أن استخدمتها فى الفصل السابق من هذا الكتاب، ولكنى أشعر بأنه من الضرورى ذكرها مرة أخرى، لصلتها القوية بالموضوع الذى ندرسه الآن، وإليكم ما كتبه فى هذا الخصوص عام ١٩٦٢:

"طبقًا لوجهة نظر المحلل، فإن مرضى كل مدرسة نفسية يبدو وكأن الواحد منهم يظهر البيانات التى تؤكد نظريات وتفسيرات الأشخاص القائمين على تحليلهم! وهكذا، فإن كل نظرية تميل لأن تصبح "صادقة ذاتيًا" Self-Validating، فأتباع فرويد يقدمون بيانات تؤيد عقدة أوديب والقلق من الخصاء، وأتباع "يونج" Jung تكون بياناتهم عن الأسلاف، وأتباع "رانك" Rank عن قلق (حصر) الفراق، وأتباع "آدلر" Adler عن السعى الحثيث للذكور ومشاعر النقص، وأتباع "هورنيت" Horneyite عن تعظيم الصور وعبادتها، وأتباع "سوليڤان" Sullivan عن اضطرابات العلاقات الداخلية... إلخ".

ومن وجهة نظرى، فإن هذا يعتبر اعترافًا خطيرًا من محلل نفسى شهير مقتنع بوجهات نظر فرويد، وهو يشير إلى أن تلك التفسيرات تكون مشروطة، وأنه يمكنها أن تقع تحت تأثير الاقتراحات التى تقدم للشخص الحالم، والتداعيات الحرة الخاصة بكل مريض.

وكما أشار "جبسون"، فإن الباحثين قد اختبروا الفرض الذى يحدد مدى قدرة الفرد على تذكر "الأحلام" بعد الاستيقاظ مباشرة، والتغيرات المعنوية التى قد تحدث للأحلام خلال الفترة التى تمضى ما بين نهاية الحلم ومعرفة المحلل النفسى به.

ولقد تم إيقاظ الفرد خلال الليل عندما أظهرت القياسات حدوث "الحركة السريعة للعينين" والمعروفة اختصاراً باسم REM، التى تدل على أن الفرد يحلم، وطُلب منه أن يتذكر حلمه مباشرة، ولقد أظهرت التقارير التى قارنت بين هذا النص وبين ما نقل إلى المحلل النفسى فيما بعد أن أحلامًا معينة قد نقلت إلى الباحث ولكنها لم تنقل إلى المحلل النفسى، وأحلاماً أخرى تم تذكرها ونقل نصها إلى المحلل النفسى، ولكنها كانت قليلة الصلة بما تم تذكره فعلاً لحظة الاستيقاظ، ولقد لوحظ أن هذه الاختلافات لم تكن عشوائية لأن الأحلام التى كان يتوقع الفرد أن تثير مشاعر سلبية فى المحلل النفسى كان يتم كبتها.

من كل هذا نرى أن ما كان فرويد يقوم بتحليله لم يكن حلم المريض، بل كانت "التعديلات والتفسيرات الثانوية" لهؤلاء الأفراد؛ تعديلات تم بعضها عن وعى، وبعضها عن غير وعى، وأنها كلها ليست إلا "مكونات من الحلم" ظن المريض أنها سوف تلقى قبولاً واستحساناً من قبل المحلل النفسى.

لقد كانت وجهة نظر فرويد هى:

"إن عقولنا قد تقبلت أن الذاكرة تقوم بتشويه الأحلام. وهذا، لن يتسبب فى أى مشكلة؛ لأنها ليست إلا آخر مظاهر نشاطات التغيرات المعنوية التى تنشط مع البداية الأولى للحلم، وتستمر معه حتى نهايته."

إن هذه النقطة شديدة الأهمية؛ لأنها مرتبطة - مباشرة - بنظرية فرويد؛ فإن "الرقيب" - طبقًا لنظريات فرويد - من المفترض أن يعمل على إخفاء المعالم الحقيقية لـ"الحلم" حتى يحمى الفرد من الاستيقاظ، وحتى لا يخجله، ولكن نشاطات الذاكرة التى تقوم بإحداث التغيرات المعنوية غير خاضعة لنفس الرقابة؛ لأنها تحدث خلال ساعات اليقظة؛ لهذا، فإن أى معلومات يوفرها "الحلم" عن نشاطات "الرقيب" لا بد أن تكون قد تعرضت لكثير من التغيرات المعنوية من خلال "التعديلات والتفسيرات الثانوية". وبهذا، فإننا نكون على غير علم بالإمكانية التى تمكن بها فرويد من اختبار نظريته!

إن "التعديلات والتفسيرات الثانوية" قد تفسر إحدى الخصائص المهمة للأحلام التى حللها فرويد، وهى تفصلها عن الأحلام التى سجلها قبل وبعد كتابته لكتاب "تفسير الأحلام". وذات مرة ذكر الفيلسوف "ويتجنستين" Wittgenstein:

"إن فرويد يقدم - بطريقة عامة - ما يمكن تسميته "تفسيرات جنسية"، ولكن المثير فى الأمر هو أن كل الأحلام التى قدمها لنا - حتى الآن - لم يكن من بينها أى حلم له طبيعة جنسية مباشرة، ومع هذا تحافظ تفسيراته على طابعها الجنسى".

لقد ذكر "جبسون" عديداً من المؤلفين الذين قدموا شهادات تؤيد هذه الحقيقة، ومعظم القراء يمكنهم أن يتفقوا مع هذا.

"كالفين هول" Calvin Hall هو أحد أحسن الأشخاص المعاصرين الذين قاموا بتجميع الأحلام، وهو الذى كتب: "إنه لا يوجد أى نقص فى عدد الأحلام التى تحتوى على عناصر بغيضة ومخجلة؛ لأن كثيراً من الأحلام يتم فيها قتل الآباء والأمهات، أو يتم خلالها ممارسة الجنس مع أحد أعضاء الأسرة، وهناك أحلام مملوءة بالاغتصاب والتعذيب والتدمير، وفيها يرتكب الحالم كل أنواع الشذوذ والبذاءات، وهو غالبًا ما يفعل هذه الأشياء بحماس ودون أدنى إحساس بالندم".

إن هذا يتناقض بشدة مع الأحلام التى سجلها فرويد، فكما أشار "جبسون"، فإن هذه الأحلام قد تم انتقاؤها بعناية، وإن كان هذا لم يحدث بواسطة "الرقيب"، وفى الأغلب الأعم، فإن هذا يحدث نتيجة للرفض الواعى من جانب مرضاه - الذين كان معظمهم من أفراد الطبقة الوسطى فى ڤيينا - لأن يخوضوا فى مسائل بذيئة ذات طابع جنسى، ولكن إذا كنا نحلم مباشرة عن مثل هذه الأشياء، التى - طبقًا لفرويد - يتم الاعتراض عليها من قبل "الرقيب"، فما وظيفته الحقيقية إذن؟

وهل يوجد أى مبرر يجعلنا نفترض وجوده؟

طبقًا لما قاله "جبسون":

"إنه من الواضح أن فرويد كانت له علاقة وثيقة بمرضاه، وهو الذى كان يوحى لهم - بطريقة أو بأخرى - بضرورة أن تكون الأحلام التى ذكروها "مملة" و"عادية"، أما إذا كانت على غير هذه الصورة ("مملة" و"عادية")، فإنه يصبح من الواضح أن "الرقيب" لم يقم بدوره المزعوم فى تغييرها من خلال الأعمال الحلمية، وبهذا تسقط نظرية فرويد، ونحن هنا لا نحاول الادعاء بأن فرويد قد تواطأ مع مرضاه وقام بتوجيههم عن عمد إلى ما يجب قوله، وإنما ندعى أنه استخدم طريقة أكثر نعومة، فهو قد اقترح أن "الرقيب" ليس إلا جزءًا من اللاوعى، وأنه لا يعمل إلا عندما يكون المخ فى سبات عميق، ورغم أن كل هذا يتعارض مع كل الحقائق المعروفة عن هذه الإجراءات، فإنه من المهم تفهم الأسباب الكامنة وراء عدم رغبة مرضاه فى إخباره بالعناصر الحقيقية غير المنمقة الموجودة فى أحلامهم، ولماذا كانت معظم هذه الأحلام متأثرة إلى حد كبير بـ"التعديلات والتفسيرات الثانوية"!

لقد أشرنا من قبل إلى أن الأحلام التى تحتوى على مشاهد فاضحة ذات طابع جنسى، ومشاهد تظهر الكراهية والعنف والألفاظ البذيئة، تحتاج إلى بعض التنقيح والتنقية حتى تصبح أكثر ملاءمة، فإذا قام المريض برواية "الحلم" لفرويد فى هذه الصورة الأصلية البذيئة، فإنه يكون بهذا مناقضًا لشرعية نظريته فى الأحلام، ومشككًا فى قدرات فرويد الشخصية.

لكل هذا، فإنه يكون من الأسهل الحفاظ على العلاقة الطيبة مع المحلل النفسى عن طريق "تغليف" الحلم، ثم نسمح له بفك "الغلاف" بنفسه. وهكذا، فإذا حَلُمَ المريض بأنه يمارس الجنس - على سبيل المثال - يتحول إلى شىء بسيط مثل وخز كعكة بعصا، ويتم هذا، من خلال "التعديلات والتفسيرات الثانوية" التى تقوم بتغيير "الحلم" خلال ساعات اليقظة، وقبل أن يصل إلى أذنى المحلل النفسى. ومن الغريب أن فرويد وأتباعه لم يحاولوا مواجهة هذه المشكلة الخطيرة أبدًا، بل تركوها حتى أصبح المريض يتعلم

بسرعة قواعد اللعبة، ويتصرف وفقًا لها؛ فهو - عن وعى - يقوم بتعديل أحلامه حتى تتوافق مع ما يرغب المحلل النفسى فى سماعه".

هناك نقطة أخرى تستحق الذكر؛ فإن "فوولكس" Foulkes فى كتابه عن أحلام الأطفال ذكر عديدًا من الدراسات المتعلقة بهذا الأمر:

"إن الأحلام العيادية بها عيب آخر إضافى بخلاف طريقة أخذ العينة، وهذا العيب موجود بالنسبة لكل من البالغين والمراهقين؛ فكلما ازداد شر الفرد ازدادت بذاءة أحلامه وشرورها، ومن هذا، نرى أنه لا يمكن التعميم بخصوص الأحلام، أيًا كانت الطريقة التى يتم بها جمع هذه الأحلام".

وقد علق "جبسون" على هذا بقوله:

"إذا كان هناك "رقيب" يتحكم فى المكونات التى يُسمح لها بأن تَظهر فى الحلم - مثله فى هذا مثل الرقيب الذى يتحكم فى مكونات البرامج التلفزيونية التى يُسمح لنا بمشاهدتها - فلا بد أنه "رقيب" مجنون تمامًا؛ لأنه يسمح لمشاهد جنسية أن تكون مختلطة بمكونات صالحة للأطفال، وأخرى مملة، وأخرى غير ذات أهمية".

والأسوأ من هذا أن "الرقيب" يسمح للمشاهد الجنسية أن تظهر فى أحلام أفراد غير قادرين على تحمل مثل هذه النوعية من المشاهد، مثل العُصابيين Neurotics وغيرهم من المصابين بأمراض عقلية!

فهل توجد أى أدلة حقيقية على أننا فى حاجة إلى هذا "الرقيب" المزعوم لحمايتنا خلال النوم؟

إن الدراسات العديدة التى أجريت على الأحلام تدل على أن الفرد لا يستيقظ من نومه حتى إذا مر بحلم جنسى بذىء، أو ملىء بالعنف. فإذا كان الواحد منا يستطيع النوم خلال حلم يغتصب فيه أمه ويقتل أباه؛ فإن فائدة هذا "الرقيب" تكون موضع شك. وكما قال "چوكاستا" Jocasta لأوديب:

"إن هناك عديدًا من الشباب الذين يتعرضون لأحلام جنسية متعلقة بأمهاتهم".

فلماذا يتم إعداد كثير من الوسائل لإخفاء هذه الرغبة فى بعض الأحلام، بينما لا يحدث هذا مع غيرها من الأحلام؟

حتى الآن فإننا فحصنا بعض التناقضات الداخلية والأخطاء الواضحة فى نظرية فرويد، وقد يدفعنا هذا إلى تساؤل بسيط، كيف يمكن للفرد أن يثبت هذه النظرية؟

إحدى الطرق الواضحة للإجابة عن هذا التساؤل هى محاولة الربط بين نظرية فرويد، وبين العلاج باستخدام التحليل النفسى، وبحيث يكون تفسيرنا للحلم هو حل للمشكلة التى يعانى منها المريض العُصابى. إن التفسير الذى نقدمه للمريض يخفف من الأعراض العُصابية التى يعانى منها. وفى الحقيقة، فإن هذا هو ما حاول فرويد القيام به لإثبات نظريته؛ وإن كان قد فشل فى تقديم إثبات علمى يؤيد وجهة نظره. وللأسف، فإن هذا لم يتحقق؛ لأن فرويد وأتباعه اضطروا للاعتراف - مرات عديدة - بأن علاج المريض قد فشل حتى بعد أن تم تعريفه بتفسيرات أحلامه، بل إنهم اعترفوا بأنه حتى فى حالة حدوث تحسن فى حالة المريض، فإنه لم يكن هناك صلة بين فترة التحسن والتفسيرات المقدمة للمريض بخصوص أحلامه. وبهذا، فإن هذه النتائج تكون إثباتًا لعدم صحة نظرية فرويد.

فهل يمكن لنا أن ننظر إلى التفسيرات التى قدمها فرويد على أنها تدعم صلابة المريض وتقويه؟

إن الإجابة يجب أن تكون بالنفى.

أولاً: يكون المريض فى وضع سيئ لا يمكنه من مجادلة المحلل النفسى؛ فهو قد أنفق كثيرًا من الوقت، والمال، والجهد فى محاولة للحصول على "علاج"، وإذا رفض التفسيرات المقدمة له، فإنه يكون قد أظهر عدم رضاه عن الطرق المستخدمة، ويكون بهذا قد أضاع وقته وماله هباءً.

ثانيًا: فرويد لديه طريقة ماهرة للتعامل مع من يختلفون معه؛ فلو أن المريض تقبل تفسيراته، فإن فرويد يدعى أنه قد تقبلها بسبب صحتها، وإذا رفضها، فإن فرويد

يدعي أن هذا حدث؛ لأن المريض يقاوم التحليل النفسي ويرفضه بسبب صحته. وهكذا، فإن الرفض نفسه يشير إلى صحة النظرية من وجهة نظر فرويد!

إن كل هذا يوضح أنه لا توجد طريقة يمكننا بها إثبات عدم صحة النظرية، وفي الحقيقة، فإن العكس هو الصحيح؛ لأن أي نظرية لا توجد طريقة لإثبات عدم صحتها عن طريق الحقائق التي يمكن مشاهدتها تكون نظرية غير علمية على الإطلاق، وهو ما أشار إليه "كارل بوبر" Karl Popper مرات عديدة.

بالطبع، هناك طرق تجريبية لدراسة الأحلام، ومن المرجح أن أمثال هذه الطرق يمكن أن تقودنا إلى نظريات أكثر معقولية. وعلى سبيل المثال: فإن أعمال عالم النفس السوفيتي "ألكسندر لوريا" Alexander Luria خلال السنوات الأولى من حقبة العشرينيات من القرن العشرين كانت مركزة على طبيعة الصراعات البشرية طبقًا لعنوان كتابه: The Nature of Human Conflicts؛ فهو قد استخدم طريقة "التداعي بالكلمات" Word Association في تجاربه، كما أنه طبق هذه الطريقة في دراسته لـ"الأحلام". إن وجهة نظره، هي أن طريقة فرويد لتحليل الأحلام، تضع العربة قبل الحصان. في البداية، يكون علينا تقبل التفرقة ما بين "المحتوى الظاهر"، و"المحتوى الكامن" في الحلم. إن فرويد وأتباعه يبدءون بالمحتوى الظاهر من الحلم محاولين الوصول إلى المعنى الكامن وراء هذه المكونات الظاهرة. ولكن علينا تذكر أن هذا المعنى الكامن مجهول. ومن ثم، يكون من المستحيل علينا التحقق من مدى صحة التفسيرات التي يقدمها فرويد. إذا أردنا أن نقوم بإجراء تحليلات علمية سليمة فإنه علينا أن نبدأ بـ"حلم كامن" معروف. وبعدها، يكون علينا اكتشاف التحورات التي تحدث فيه، حتى يتحول إلى "الحلم الظاهر".

لقد تمكن "لوريا" Luria من تحقيق هذا عن طريق استخدامه للتنويم الإيحائي؛ فقد كان يقوم بتنويم مريضه بالإيحاء، ثم يجعله يتخيل أنه يمر بتجربة مأساوية، وبعدها يطلب منه أن يحلم بهذه التجربة، بعد أن يسأله أن ينسى عملية التنويم الإيحائي؛ فبالنسبة لعقل المريض الواعي، لا تكون هناك أي ذكريات خاصة بعملية

التنويم الإيحائى ذاتها، والأفراد المستعدون بطبيعتهم لتقبل التنويم الإيحائى يمكنهم اتباع هذه التعليمات بسهولة. وبهذا، تمكن "لوريا" من تجميع عديد من الأحلام فى صورتها الظاهرة ("الحلم الظاهرى")، بينما كان على علم - من خلال تعليماته التى أعطاها للمريض - بالمعنى الخفى (المعنى الحقيقى المقصود من الحلم)؛ أى: المحتوى الحقيقى قبل أن يتغير شكله ويتحور من خلال "العمل الحلمى" **Dream-work**.

عندما كنت طالبًا صغير السن كانت أعمال "لوريا" تبهرنى، ولكن لسوء الحظ فإنه لم يكتب لهذه الأعمال أن تستمر بسبب الرقابة العلمية التى فرضت خلال فترة حكم ستالين، والتى جعلت "لوريا" يعمل فى مجال علم نفس الأعصاب **Neuropsychology** ويقطع صلته بتجاربه النفسية العظيمة، ولقد حاولت - أنا نفسى - أن أجرى تجارب مشابهة، وقد توصلت إلى النتائج نفسها التى ذكرها فى كتابه، وسأكتفى بذكر مثال واحد فى هذا الخصوص. فى هذا المثال، كانت التعليمات التى تعطى للمريضة (وهى طالبة جامعية صغيرة السن فى هذه الحالة) كالآتى:

"إنكِ سوف تخوضين تجربة بشعة، وسأصف تفاصيل هذه التجربة الآن، وسوف تشعرين أنكِ تمرين بهذه التجربة فى الحقيقة، مع ما يتناسب مع هذا من العواطف والمشاعر. وعندما أقوم بإيقاظكِ بعد انتهاء جلسة التنويم الإيحائى، فإنكِ ستنسين كل شىء، ولكنكِ ستحلمين - بوضوح - بتفاصيل هذه التجربة البشعة: الوقت ليلاً، وأنتِ عائدة إلى منزلكِ مع بعض زملائكِ. وخلال مروركِ بالمقابر تشعرين بوقع أقدام خلفكِ. عندما تستديرين، تكتشفين أن هناك رجلاً يقتفى أثركِ. عندها، تبدئين فى الركض، ويقوم هو بمطاردتكِ ، ويلقى بكِ على الأرض، ويغتصبكِ. بعد أن ينتهى، يهرب ويتركك. تعودين إلى المنزل وأنتِ فى حالة سيئة جدًا، وتخبرى والديكِ بكل ما حدث ."

بعدها - عندما تنام المريضة - يحدث الحلم بطريقة قريبة جدًا من التعليمات التى تلقتها خلال جلسة التنويم الإيحائى، لكن "عملية الاغتصاب" غالبًا ما تتحول إلى شىء آخر من خلال استخدام الرموز. وعلى هذا، فإن الرجل الذى اغتصب الفتاة، يتحول فى الحلم إلى رجل يحمل سكينة ويهدد بها الفتاة، أو يقوم بطعنها بها، أو قد يكتفى - فى الحلم - بخطف حقيبتها اليدوية بعنف.

إن هذه الآلية الرمزية - التى استخدمت من قبل بواسطة كل من قدماء اليونان والرومان - تظهر بوضوح خلال الأحلام، ولكنها لا تمثل أى دليل على صحة أفكار فرويد بخصوص "الرغبات المكبوتة منذ عهد الطفولة"، أو "تحقيق الأماني"؛ لأنه من الجنون أن نتخيل أن المريضة كانت تتمنى أن يتم اغتصابها!

من سوء الحظ أن "لوريا" لم يتمكن من الاستمرار فى القيام بعمله فى هذا المجال، وأن القلائل من المحللين النفسيين اهتموا به؛ لأنه كان أمامنا كثير لنتعلمه عن طبيعة الأحلام إذا كتب للأبحاث أن تستمر فى هذا المجال.

لقد أظهرنا من قبل أن نظريات فرويد ليست صحيحة أو جديدة. ولكن، هل يوجد أى شيء أفضل يمكن أن يحل محلها؟

إن كثيراً من الأعمال الحديثة قد قامت بالتركيز على استخدام الدراسات التجريبية مثل التى تتضمن النوم الذى تتخلله الحركة السريعة للعينين **Rapid Eye - Movement** والمعروفة اختصاراً باسم **REM**، وتلك الدراسات التى تركز على ميل الأحلام لأن تحدث مع هذا النوع من أنواع النوم، وعلى الرغم من كل هذا، فإن هذه الدراسات لا توضح لنا كثيراً عن معنى هذه الأحلام.

وفى رأيى، فإن أحسن البدائل المتاحة لنظرية فرويد العقيمة هى أعمال "كالفن هول" **Calvin Hall**، الذى لخص كثيراً من أفكاره فى كتابه الشهير: "معنى الأحلام" **The Meaning of Dreams**؛ فلقد قام هذا العالم بتجميع عدد كبير من الأحلام، أكثر من أى عالِم آخر فى هذا المجال. ونظرياته - التى تعتمد على كتابه هذا - عملية ومقنعة، وإن كان لا يمكن لنا أن ندعى أنها صحيحة تماماً فى ظل غياب التطبيقات التجريبية المحكمة، التى يصعب - إن لم يكن يستحيل - إجراؤها فى هذا المجال. كل هذا يجعل من المستحيل علينا أن نقطع بصحة هذه النظريات. ونظرية "كالفن هول" تشرح معظم الخواص التى تتصف بها الأحلام، وهى تفعل هذا دون اللجوء لخوارق وشخصيات أسطورية مثل "الرقيب".

إن الفائدة الإضافية التى قدمها "هول" فى طرق فهم "الأحلام" وتفسيرها هى أنه اقترح أن يتم تفسير "سلسلة من أحلام" الفرد نفسه؛ بدلاً من تفسير حلم واحد فقط، وهذا نص كلماته فى هذا الخصوص:

"إننا نحاول القيام بتفسير توليفات مختلفة من الأحلام معًا عن طريق مقارنة حلم بحلم آخر، حتى تتواصل جميع أحلام هذا الفرد، وتظهر صورة واضحة ذات معنى ومغزى خاص لأحلامه. فى هذه الطريقة - التى نسميها الطريقة المتسلسلة - يكون تفسير أى حلم ليس إلا عملية "صيد" تقديرية، ويحدث هذا، حتى يمكننا التحقق من معناه الحقيقى، من خلال التفسيرات التى نحصل عليها من الأحلام الأخرى".

وقد أعطانا "هول" عديداً من الأمثلة التى توضح طريقته فى التفسير؛ فهو يأخذ فى الاعتبار عدداً من أحلام هذا الفرد فى نفس الوقت. لكنى لن أخوض فى هذا المجال؛ لأنه يبتعد بنا عن محور هذا الكتاب.

إن الابتكار الرئيسى فى نظرية "هول" هو رؤيته الجديدة لـ"الرموز"؛ فهو يؤمن بأن هناك رموزًا فى الحلم، وأن هذه الرموز لها وظيفة ضرورية، لكن هذه الوظيفة ليست إخفاء الحقيقة ووضع قناع عليها كما يدعى فرويد فى نظريته. إن "الرموز" الموجودة فى داخل كل حلم تهدف للتعبير عن شىء ما، ولا يهدف وجودها لإخفائه ووضع قناع يخفى حقيقته؛ فعندما يحلم الفرد - طبقًا لنظرية "هول" - فإنه يقوم بالتفكير بطريقة تختلف عن طريقة تفكيره خلال اليقظة. وعلى هذا، فإن الحلم ليس إلا: "طريقة من طرق التفكير"، وبهذا يمكن النظر إلى "التفكير" على أنه تكوين وتشكيل لمفاهيم وأفكار محددة، وخلال "الحلم" Dreaming تتحول هذه المفاهيم إلى "صور مرئية"، وتصبح "تجسيداً مادياً" Concrete embodiment لأفكار الشخص الحالم. إن هذا التجسيد المادى يعبر بوضوح عما لا يمكن رؤيته، خاصة "المفاهيم" و"المثل" و"الأفكار".

وحجته فى هذا هى أن المحدد الحقيقى لمعنى الرمز الموجود فى "الحلم" ليس شيئًا "مادياً" Object، أو "نشاطًا" Activity، ولكنه دائمًا ما يكون "فكرة" فى عقل

الشخص الحالم، ثم يقوم "هـول" بإعطـاء مثال يوضـح الطـرق الممكنة، التى يمكن من خلالها الرمز لعضو الرجل الجنسى. وعلى سبيل المثال: يمكن الرمز له بـ"بندقية"، أو "سكينة". وبهذا، يكون قد رمز لأفكار جنسية عدوانية. ومن ناحية أخرى، فإن الرمز قد يكون "مفك"، أو صنبور مضخة البترول الذى يتم إدخاله فى خزان الوقود الخاص بالسيارة. وبهذا، يرمز إلى الآلية التى تتم بها العملية الجنسية. ومن جانب ثالث، قد يكون الرمز هو زهرة لها ساق ذابلة، أو قضيبًا حديديًا مكسورًا. وبهذا، يرمز إلى العجز الجنسى.

أيضًا، فإن "هول" قد أعطى مثالاً يوضح الطرق العديدة التى يمكن بها للفرد أن يحلم بأمه؛ فإذا أراد الفرد أن يعبر فى حلمه عن أن والدته قد وفرت له ما احتاج إليه من تغذية ورعاية، فإنه قد يحلم ببقرة. أما إذا كان يرى أمه على أنها جافية ومتسلطة، فإنه قد يحلم بملكة. وبتعبير آخر، فإن الفرد لا يرمز فى أحلامه لشىء مادى Object (شخص محدد)، أو نشاط Activity فقط، ولكنه يضيف وصفًا مرئيًا؛ أى أن "الحلم" لا يتكلم عن "الاسم" فى الجملة فقط، وإنما يتكلم أيضًا عن "الصفة".

(Not the noun in the sentence only ... but the adjective also) "صفة" مثل: "العدوانية"، و"التسلط"، و"الرعاية"... إلخ. إن "عملية الرمز" تنقل إلينا - بطريقة مصقولة وجامعة وفى لغة محددة - مفاهيم "عويصة" و"مبهمة".

وعلى سبيل المثال: دعنا نأخذ أحد الأمثلة المذكورة فى كتاب "هول"؛ فهو يخبرنا عن هذه السيدة الشابة التى حلمت بأن موعد عيد زواجها الأول قد حان. إنهما سيحتفلان به عن طريق إعادة إجراء المراسم مرة أخرى. لكنها - فى البداية - لم تستطع أن تجد ثوب زفافها رغم كل الجهود التى بذلتها فى هذا السبيل. أخيرًا، عندما تمكنت من العثور عليه، فإنه كان قذرًا ومتسخًا. وبالرغم من كل هذا، فإنها أخذت الثوب معها وذهبت إلى الكنيسة، ودموع خيبة الأمل تملأ عينيها. هناك، سألها زوجها لماذا أحضرت هذا الثوب؟ أما هى، فكان الارتباك والحيرة يملأانها، وشعرت بأنها غريبة ووحيدة.

ولقد اقترح "هول" علينا أن حالة ثوب الزفاف ترمز إلى زواجهما، وعديد من الأحلام الأخرى التى ذكرتها هذه السيدة الشابة أيدت هذا التفسير؛ فهى قد حَلُمَت بفتاة تزوجت حديثًا.. وتتخذ الآن إجراءات الطلاق من زوجها. إن هذا يشير إلى أن "فكرة الطلاق" كانت تشغل عقل السيدة الشابة. وفى حلم آخر، عانت من صعوبة كبيرة خلال محاولاتها العودة إلى منزل الزوجية، وضلت طريقها مرات عديدة، وسقطت على الرصيف، ثم عطلها مرور قطار، ولم تصل إلى هدفها أبدًا. إن هذا الحلم الأخير يشير إلى أنها تحاول أن تجد أعذارًا حتى لا تعود إلى منزل الزوجية. وفى حلم آخر، فقدت الماسة التى كانت تزين خاتم الخطوبة، وهو ما قد يشير إلى أملها فى أن يصبح هذا الزواج التعيس لاغيًا. أخيرًا، فإنها حَلُمَت بأن إحدى صديقاتها - التى كانت تستعد للزواج - قد تسلمت عديدًا من الهدايا العديمة الفائدة. إن هذا الحلم يشير إلى أن الزواج - فى عقلها - ليس إلا شيئًا عديم الفائدة ولا جدوى منه، وعلى حد قول "هول" نفسه:

"إن هذه الأحلام تشير - حقيقة - إلى أن صاحبتها تنظر إلى زواجها على أنه زواج تعس، وهو ما يؤيد الفرض القائل بأن ثوب الزفاف القذر والمتسخ ما هو إلا "تجسيد مادى" **Concrete embodiment** لأفكارها".

يدعى "هول" أن وظيفة "الحلم" هى الكشف عما فى عقل الفرد وتفكيره، على عكس ما ادعى فرويد؛ فكما يقول "هول":

"إن الأحلام قد تبدو لنا محيرة، لأنها تحتوى على كثير من الرموز. لكن، هذه الرموز ليست إلا مثالاً مرئيًا ("تجسيدًا ماديًا"). ووظيفتها توضيح الأفكار الكامنة وليس إخفاءها".

إن العقل البشرى فى حالة نشاط دائم، وكل فرد منا يفكر فى مشاكله، محاولاً أن يجد لها الحلول المناسبة، وقد سيطر عليه القلق لسبب أو لآخر. وعلى وجه العموم، فإن العقل البشرى يكون مهتمًا بالماضى، والحاضر، والمستقبل، و"الحلم" ليس إلا طريقة أخرى فى التفكير من خلال التجسيد المرئى والرموز. إن أفكارنا وكل ما يقلقنا

ليس إلا محاولات لحل المشاكل التى تواجهنا، محاولات تم ترجمتها إلى لغة مرئية، وبهذا يستمر النشاط الواعى فى التفكير خلال فترات محددة من النوم.

إن الحلم قد يمثل محاولة لتحقيق رغبة لم تتحقق فى عالم اليقظة، وهى عادة ما تكون رغبات موجودة فى الوعى، وليست رغبات مكبوتة منذ عهد الطفولة كما ادعى فرويد، ومن ناحية أخرى، فإن الحلم قد يمثل مخاوف الفرد، أو مشاكله، أو حلولاً لهذه المشاكل، أو أى شىء آخر حدث خلال اليقظة. وفى رأيى، فإن هذه النظرية - نظرية "هول" - تفسر الحقائق بطريقة أفضل من نظرية فرويد، وبدون أن تضطر إلى مواجهة كل تلك الصعوبات التى أحدقت به، وحاليًا، فإنه لا يوجد أى نظرية أفضل، وأنا أظن أنه من الواجب قبولها واستخدامها - مؤقتًا - كأساس للمزيد من التجارب. إن هناك صلة قوية بين تفسير الأحلام - موضوع فصلنا هذا - وبين تفسير الأخطاء والسقطات اللغوية التى تصدر عن الفرد خلال سلوكه اليومى؛ لأن هذه الأخيرة قد قام فرويد بتفسيرها من خلال أسلوب "جالتون" المعروف باسم "التداعى الحر"؛ حيث يتم إرجاعها - افتراضيًا - إلى رغبة مكبوتة، والشىء نفسه ينطبق على السقطات السلوكية واللغوية، كما أن النسيان المؤقت لأسماء الأشخاص يقع ضمن هذه الفئة العامة؛ مثلهم فى هذا مثل الذكريات الزائفة (بمعنى إحلال اسم آخر بدلاً من الاسم المقصود ذكره).

يؤكد فرويد - بثقة - على أن الأخطاء والسقطات اللغوية التى تحدث خلال الكلام (الزلات الفرويدية) دائمًا ما تكون نتيجة لـ"كبت" Repression، وهو يعطينا عديداً من الأمثلة التى يحاول - من خلالها - أن يقنعنا بصحة ادعاءاته؛ فهو يحاول أن يقنع قارئه بأن العناصر المكبوتة فى داخل الفرد يمكن أن يكون لها "تأثيرات دافعة" Motiva-tional Effects من النوع المذكور.

هناك مثالان قد يوضحان طريقة فرويد:

المثال الأول: يشير إلى أستاذ جامعى ارتكب سقطة لغوية أمام تلامذته عندما قال:

"أما بالنسبة للأعضاء الجنسية الأنثوية فإنه بالرغم من كثير من Versuchungen (التى تعنى بالألمانية إغراءات)، عفواً لقد كنت أقصد أن أقول Versuche (التى تعنى بالألمانية تجارب)".

المثال الثانى: متعلق برئيس البرلمان، الذى افتتح الجلسة بقوله:

"أيها السادة، أعلن أمامكم أن النصاب القانونى من الأعضاء متوافر. ولهذا، فإننى أعلن إغلاق هذه الجلسة".

فى المثال الأول، فإن السقطة اللغوية واضحة، وتفسير نوايا المتكلم فى غير حاجة إلى دليل. أما بالنسبة للمثال الثانى، فإن فرويد يقول:

"إنه من الواضح أن رئيس البرلمان أراد أن يفتتح الجلسة (بمعنى أن نواياه الواعية كانت تهدف لافتتاح الجلسة)، ولكن من الواضح - أيضًا - أنه أراد إنهاءها (بمعنى أن نواياه غير الواعية كانت تهدف لإنهاء الجلسة). وكل هذا شديد الوضوح، حتى إنه لا يترك لنا ما يمكن تفسيره".

حقيقةً، إنه لا يترك لنا أى شىء، لا يترك لنا أى شىء عدا إثبات أن ما قاله رئيس البرلمان كان حقيقة نيته الفعلية. إن فرويد يفترض - دون أى أساس منطقى - أن خطأ رئيس البرلمان يمثل نواياه الفعلية، ولا يأخذ فى الاعتبار أنها قد تكون - ببساطة - زلة لسان ليس لها أى دافع!

عندما كنت طالبًا صغير السن كنت مهتمًا بكتاب فرويد المعنون "الأمراض النفسية فى الحياة اليومية"، وتركزت اهتماماتى - فى هذا الكتاب - على تفسيرات فرويد للسقطات التى يرتكبها الفرد خلال سلوكه اليومى. فى هذا الكتاب، فإن فرويد يعطينا مثالاً لرجل اختار "مفتاحًا غلطًا" - من سلسلة مفاتيحه - ليفتح به باب منزل الزوجية، ويفسر فرويد هذا الاختيار الخاطئ بأنه يظهر الرغبة الحقيقية لهذا الرجل فى أن يكون بالمنزل الذى يصلح ذلك "المفتاح الغلط" لفتح بابه (منزل إحدى عشيقاته)، يبدو لى أنه من الممكن أن نقدم تفسيرًا نفسيًا دون الخوض فى نوايا ذلك الرجل، وما إذا كانت مكبوتة أم واعية.

فى هذا الخصوص، احتفظت أنا بمفاتيحى فى حافظة جلدية كانت المفاتيح معلقة بداخلها بطريقة متوازية جنبًا إلى جنب، علم النفس التجريبى يقترح سببين رئيسيين لاختيار "المفتاح الغلط" بين الحين والآخر:

السبب الأول: تشابه المفتاحان فى المظهر. وعلى سبيل المثال: قد يكون المفتاحان من النوعية نفسها (نوعية "ييل Yale" على سبيل المثال)، وهو ما يبرر حدوث الخلط بسهولة، أما إذا كان المفتاحان من نوعين مختلفين؛ فإن حدوث الخلط يصبح مستبعدًا تمامًا.

السبب الثانى: هو مدى قرب المفتاحين أحدهما من الآخر؛ فإن المفاتيح القريبة بعضها من بعض يكون من السهل خلطها، بعكس المفاتيح الموجودة فى مواقع متباعدة نسبيًا.

كنت دائمًا شارد الذهن، حتى قبل أن يتقدم بى السن، وكثيرًا ما وجدت نفسى أخلط بين المفاتيح الواجب استخدامها؛ لهذا، قمت بتسجيل كل مرة استخدمت فيها "المفتاح الغلط"؛ وفى كل مرة، قمت بتسجيل "شكل" و"موقع" كل من "المفتاح الغلط" والمفتاح الذى كان من الواجب استخدامه. بالنسبة لموقع المفتاحين فإنه كان من السهل تسجيل هذا من خلال إحصاء عدد المفاتيح التى تفصل بينهما (بمعنى إذا كان المفتاحان متجاورين فيكون عدد المفاتيح الفاصلة صفرًا، أو واحدًا، أو اثنين، أو ثلاثة... إلخ). أما بالنسبة لشكل المفتاحين، فإننى استعنت بأحد زملائى - الذى كان على غير علم بهدف هذه التجربة - فى تصنيف المفاتيح فى كل مرة.

استمرت هذه التجربة لسنين عديدة، وخلالها ارتكبت هذا "الخلط" آلاف المرات، لقد كان هناك علاقة خطية واضحة بين عدد الأخطاء التى ارتكبتها، وبين التشابه فى "شكل" المفتاحين؛ فكلما ازداد التشابه بين المفتاحين ازداد عدد مرات الخلط، وبالمثل، فإنه كان هناك علاقة خطية بين "موقع" المفتاحين، وعدد مرات الخلط. فكلما اقترب المفتاحان أحدهما من الآخر ازداد عدد مرات الخلط. وعندما أخذت كلا السببين فى الاعتبار، فإنه كان من الممكن تفسير كل عمليات الخلط التى حدثت. هذا، وقد كان التشابه فى "الشكل" مسئولاً عن عدد أكبر من مرات الخلط من أى سبب آخر.

أنا هنا لا أحاول تقديم هذه التجربة على أنها إثبات لعدم صحة نظرية فرويد، فمن الواضح أننا في حاجة إلى مزيد من البيانات، بجانب حاجتنا إلى "مجموعة ضابطة"، وطريقة إحصائية أكثر تعقيداً لمعالجة مثل هذه البيانات. بالإضافة - بالطبع - إلى أنني لم أكن في الموقف السعيد لمرضى فرويد الذي يبدو وكأن كل واحد منهم كانت له عدة عشيقات في جميع أرجاء ڤيينا حتى إن الواحد منهم كان يخلط بين مفاتيح أبواب عشيقاته وبين مفتاح باب منزله، وبما يعبر عن رغبته في أن يكون بمنزل إحدى العشيقات وليس بيت الزوجية!

إن ما أحاول أن أخرج به من هذه التجربة هو أن هناك "تفسيرات بديلة" واضحة لبعض أنماط "السهو"، وإلى أن أي محاولة علمية للتعامل مع هذه "السقطات" يجب أن تأخذ في الاعتبار هذه التفسيرات البديلة، أما بالنسبة لفرويد فإنه لم يفعل هذا مطلقاً، بالرغم من أن هذه المبادئ كانت معروفة جيداً في عصره.

إن المنطق نفسه ينطبق على الأخطاء اللغوية، وإن كانت الأخيرة قد حازت حظاً أوفر من التجارب المؤيدة. وفي كتاب قام بنشره "فرومكين" V. Fromkin تحت عنوان: "أخطاء في الأداء اللغوي: زلات اللسان، والأذن، والقلم، واليد.

Errors in Linguistic performance: Slips of the Tongue, Ear, Pen, and Hand.

وقد أظهر هذا الكتاب أن معظم الأخطاء اللغوية تنقسم قسمين رئيسيين:

القسم الأول: يتضمن الأخطاء التي يتم فيها إحلال كلمة معينة محل كلمة أخرى مشابهة لها في التركيب الصوتي. وعلى سبيل المثال: كلمة "Signal" (التي تعني بالعربية إشارة) بدلاً من كلمة "Single" (التي تعني بالعربية عزباً)، وكلمة "Confession" (التي تعني بالعربية اعترافاً) بدلاً من كلمة "Convention" (التي تعني بالعربية تقليدياً)، وكلمة "Suburbs" (التي تعني بالعربية: "الضواحي") بدلاً من كلمة "Subways" (التي تعني بالعربية: "مترو الأنفاق").

القسم الثانى: يتكون من الأخطاء التى يتم فيها تبديل الكلمة المعنية بكلمة أخرى مشابهة لها فى المعنى والمدلول، وكمثال قول الفرد: **Small Japanese Restaurant** (التى تعنى بالعربية "مطعمًا يابانيًا صغيرًا") بدلاً من: **Small Chinese Restaurant** (التى تعنى بالعربية "مطعمًا صينيًا صغيرًا") والتى كان يقصد أن يقولها فى الأصل.

وفى الواقع، فإن كل الأخطاء المعجمية البديلة التى ذكرها فرويد – عدا اثنين منها فقط – يمكن تصنيفها على أنها مشابهة للكلمة التى كان يقصد ذكرها، سواء كان هذا فى الشكل أو المعنى. وهناك كثير من التفاصيل المذكورة فى كتاب "فرومكين"، وإن كان المجال لا يتسع لها هنا. إن القسمين الرئيسيين السابقين يتشابهان مع التقسيم الذى قمت به أنا عندما كنت أحلل سقطاتى غير المقصودة فى اختيار "المفتاح الغلط". ومن وجهة نظرى، فإن هذا الأسلوب أكثر منطقية ويستخدم المصطلحات النفسية العادية دون اللجوء إلى تفسيرات تستخدم التحليل النفسى وتعود بكل شىء إلى الكبت.

عندما يتعلق الأمر بمحاولات الفرد للتذكر، فإن عادات الفرد يكون لها دور ظاهر وجلى، وهو دور مشابه لدور "الدافعية (الدوافع المؤثرة)" **Motivation**، بالإضافة إلى أنها (العادات) تلقت كثيرًا من التجارب التى تؤيدها، وخلال تجاربى الخاصة باختيار المفتاح المناسب لاحظت أننى قد ارتكبت عددًا من الأخطاء مع المفاتيح الجديدة أكبر من عدد الأخطاء التى ارتكبتها مع المفاتيح القديمة، إن هذه الأخيرة قد أصبحت محصنة – نوعًا ما – ضد الاختيار الخاطئ من خلال التكرار الذى شكل " عادة" تحميها من الاختيار الخاطئ؛ أما بالنسبة للمفتاح الجديد، فإن موقعه فى سلسلة مفاتيحى لم يكن قد تأسس بعد من خلال آليات " العادة". وبالمنطق نفسه ثبت أن الكلمات التى "عادة" ما تستخدم بواسطة فرد ما، يكون من السهل تذكرها واستعادتها، بعكس الكلمات الجديدة أو ذات الاستخدام النادر.

إنه من الواجب أن يتم استبعاد "العادة" – مع غيرها من العوامل المذكورة أعلاه – بطريقة حاسمة قبل أن يمكن لنا تَقَبل تلك التفسيرات التى تدعى وجود "سقطات" و"زلات" دافعية (أى لها دوافع).

ومن الأمور المنافية للحقيقة والتاريخ أن نظن أن فرويد هو أول من اهتم بالسقطات وزلات اللسان والقلم، أو أنه أول من كتب عن تلك الظواهر، وأحد أوائل المحاولات الرئيسية فى تحليل هذا النوع من الأخطاء بواسطة علماء نفسيين فى اللغات تمت على يد "ميرينجر" Meringer و"ماير" Mayer فى كتابهما الذى نشر فى ڤيينا، الذى تضمن مجموعة تزيد عن ٨٠٠٠ خطأ لغوى مشروح، وقد أطلق عليه اسم: "التكلم والقراءة" Versprechen and Verlesen. وسبق هذا الكتاب ظهور كتابات فرويد بست سنوات على الأقل. أيضًا، كان هناك آخرون سبقوا "ميرينجر" و"ماير" بما يزيد عن تسع سنوات، كل هذا يوضح أنه كان هناك كثير من المهتمين بالبحث فى هذا المجال ممن سبقوا عصر فرويد.

والجدل الذى نشب بين "ميرينجر" و"فرويد" كان به مواقف متطرفة من كلا الجانبين؛ فإن فرويد ادعى أن كل الأخطاء اللغوية - عدا بعض الأخطاء البسيطة الناتجة عن الحماسة والتوقع - يمكن تفسيرها من خلال نظريته عن الأشياء المكبوتة فى اللاشعور وآليات هذا الكبت، وموقف "ميرينجر" كان بدرجة التطرف نفسها؛ فهو رفض موقف فرويد تمامًا، وبالرغم من أن الأدلة لا تؤيد وجهة نظر فرويد، فإننا لا نستطيع أن نؤيد وجهة نظر "ميرينجر" أيضًا.

وفى أحد الفصول التى كتبها "إليس" و"موتلى" فى كتاب "فرومكين" السابق ذكره تم إحصاء ٥١ "خطأً تبديلاً معجميا" Lexical Substitution Errors من بين الـ٩٤ زلة لسان المذكورة فى كتاب فرويد "الأمراض النفسية فى الحياة اليومية" وتم تحليلها، ولقد أظهرت هذه التحليلات أن "أخطاء التبديل المعجمية" التى استخدمها فرويد لتأكيد نظريته فى وجود "نوايا متصارعة" Conflicting Intention لدى الفرد الذى ارتكب هذه الأخطاء لا تختلف فى عناصرها الأساسية عن الأخطاء التى يقوم علماء النفس اللغويون بتحليلها. وهكذا، فإنه لا يوجد ما يؤيد وجهة نظر فرويد بوجود نوايا خفية مكبوتة فى اللاوعى.

وبالفعل، تم إجراء بعض المحاولات المثيرة، للمقارنة ما بين تأثير العوامل الدافعية، والعوامل اللغوية، وركزت إحدى هذه التجارب على ما يعرف باسم "السبونريزم" Spoonerism نسبة إلى السقطات اللغوية الشهيرة التى اعتاد أن يقولها د. وليم أرشيبولد سبونر (١٨٤٤ - ١٩٣٠)، الذى كان عميد الكلية الجديدة فى أكسفورد فى الفترة من ١٩٠٣ إلى ١٩٢٤، إن "السبونريزم" هى النقل التبادلى - عن طريق الخطأ - للحروف الأولى من كلمتين أو أكثر فى جملة ما، وهو ما يغير بالطبع من المعنى الأصلى للجملة، وعلى سبيل المثال: "You have hissed the mystery lectures".. (التى تعنى بالعربية "أنت احتججت - بصوت يشبه الفحيح - على المحاضرات الغامضة")، بدلاً من العبارة المقصودة: "You have missed the history lectures" (التى تعنى باللغة العربية "لقد فاتك حضور محاضرات التاريخ")، ولقد كان هذا الرجل شهيراً بهذا النوع من الأخطاء فى حديثه وكتاباته، ولكن أشهر العبارات السبونريزمية التى تنسب إليه كانت من اختراع آخرين.(*)

هذا، وقد استغل "مايكل موتلى" Michael T. Motley العناصر اللغوية، والعناصر ذات التأثيرات الدافعة فى حث الطلبة - بطريقة جبرية - على الخروج بتعبيرات لها صفات سبونريزمية. وقدم للطلاب فى إحدى هذه التجارب محل البحث "كلمتين"، وطلب منهم النطق بها. هذا، وقد تم تقسيم الطلبة إلى ثلاث مجموعات، وعوملت كل مجموعة بطريقة مختلفة.

المجموعة الأولى: تعرضت لظرف تجريبى تم تصميمه بحيث يخلق "وجهة ذهنية معرفية موقفية" Situational Cognitive Set تجاه الصدمات الكهربائية؛ فقد تم توصيل كل طالب بأسلاك وأقطاب كهربائية متصلة بميقاتى كهربائى يحدد طول فترة الصدمة الكهربائية، وقيل لهم: إن هذا الميقاتى قادر على إرسال شحنات كهربائية متوسطة القوة

(*) وهى شبيهة بما يقوله الممثل الكوميدى المصرى "سمير غانم" فى إحدى عباراته المضحكة الشهيرة: "سمد الله على الحلامة"، بدلاً من أن يقول: "حمد الله على السلامة". (المترجم)

مؤلة، لكن غير ضارة، كما أنه تم إخبارهم بأنه من الممكن لهم أن يتعرضوا لهذه الصدمات خلال إجراء هذه التجربة، وفى الحقيقة لم يكن هناك أى شحنات كهربائية على وجه الإطلاق، وقد تم تطبيق هذه التجربة بواسطة باحث ذكر.

المجموعة الثانية: تعرضت لظرف تجريبى تم تصميمه بحيث يخلق "وجهة ذهنية معرفية" تجاه الجنس، ومن أجل تحقيق هذا الغرض تولت تطبيق هذه التجربة باحثة شديدة الجاذبية (جميلة جداً)، وترتدى ملابس مثيرة، وتتصرف بطريقة فيها إغراء. هذه المجموعة لم يتم توصيلها بأى أسلاك أو أقطاب كهربائية.

المجموعة الثالثة: هى المجموعة الأخيرة، وقد كانت مجموعة محايدة تم استخدامها كمجموعة ضابطة، وطبقت التجربة من خلال "باحث ذكر"، وفى غياب أسلاك وأقطاب كهربائية.

إن هذه الظروف الثلاثة كانت مصممة بهدف إحداث عناصر ذات تأثيرات دافعية متعلقة بـ"الصدمات الكهربائية"، أو "الجنس"، أو "لا شىء على الإطلاق" (بمعنى ألا تنتج أى تأثيرات دافعية على الإطلاق).

إن "الكلمات" التى قُدمت لهؤلاء الطلاب كانت عديمة المعنى، ولكنه من الممكن بعد أن تتعرض لعملية السبونريزم أن تتحول إلى "كلمات" ذات مغزى خاص متعلق بالمجموعة التجريبية التى تعرضت للصدمات الكهربية، أو تلك التى استثيرت جنسياً، وعلى سبيل المثال (بالنسبة للمجموعة الخاصة بالصدمات الكهربية) فإنه تم استخدام الكلمتين: "shad back"، وهما كلمتان ليسا لهما معنى، وتحولا بعد تعرضهما لعملية السبونريزم إلى "bad shock"، وهما كلمتان لهما معنى. أو مثل: "vany molts"، واللتان تحولتا بعد تعرضهما لعملية السبونريزم إلى: "many volts". أما بالنسبة للمجموعة الخاصة بالجنس فإن الكلمتين هما: "goxi furl"، اللتان تحولتا بعد تعرضهما لعملية السبونريزم إلى: "foxy girl"، أو مثل: "lood gegs"، اللتين تحولتا بعد تعرضهما لعملية السبونريزم إلى: "good legs".

وكما رأينا، فإن كل مجموعة تكونت من كلمتين، وكل مجموعة سُبقت بثلاث كلمات تم اختيارها بحيث تخلق نوعًا من التحيز الصوتى ضد الخطأ السبونريزى المتوقع ارتكابه، وعلى سبيل المثال، فإن المجموعة التى احتوت على "bine foddy"، والتى كان من المتوقع أن تتحول - بعد تعرضها لعملية السبونريزم - إلى "fine body" - تم ذكر الكلمات "fire bobby" و"five bogies" قبلها، وهو ما يوحى بأن الكلمة الأولى يجب أن تبدأ بالحرف "F"، وأن الكلمة الثانية يجب أن تبدأ بالحرف "B"، وكان من نتيجة هذا أن عملية السبونريزم قد بدأت تحدث بصورة أكثر سرعة بالنسبة للمجموعة التى كانت أخطاؤها متناسبة مع المجموعة التجريبية الأولى عن التى لم تكن أخطاؤها متناسبة مع مجموعة الاستثارة الجنسية. وبمعنى آخر، فإن مجموعة الجنس (التى تم استثارتها جنسيا) أحدثت أخطاء أكثر وذات طابع جنسى من أخطاء المجموعة التى تلقت صدمات كهربية. ومجموعة الصدمات الكهربية أحدثت أخطاء أكثر من أخطاء مجموعة الاستثارة الجنسية، أما المجموعة الضابطة، فقد أحدثت عددًا متساويًا من الأخطاء مع كلتا المجموعتين التجريبيتين.

كل هذا جعل "موتلى" يعتبر ما حدث دليلاً على صحة نظرية فرويد، وهو ما يتنافى مع الواقع؛ فإنه من المشكوك فيه أن هذه المجموعات يكون قد حدث لها تأثيرات دافعية على الإطلاق؛ لأنها قد تكون - ببساطة - نتيجة لاختلاف العادات الفردية. كما أن نظرية فرويد تشير إلى أن العوامل الدافعية تكون "رغبات مكبوتة فى اللاوعى منذ عهد الطفولة المبكرة"، ولكننا نعلم أن "موتلى" يتفق معنا عندما نقول: إن العواطف الناتجة عن إخبار الفرد بأنه سوف يتلقى صدمة كهربائية عشوائية، أو يرى فتاة جميلة مغرية هى عواطف لا يمكن أن تكون موجودة فى اللاوعى، ومع هذا، فإن التجربة مثيرة، ولكنها غير ذات صلة بنظريات فرويد.

يمكن قول الشىء ذاته بالنسبة للتجارب المشابهة التى ذُكرت فى أدب التحليل النفسى؛ فهى قد تكون تجارب مثيرة فى حد ذاتها لكنها لا علاقة لها باختبار صحة نظرية فرويد بطريقة أو بأخرى.

دعونا – الآن – نحاول التركيز على أحد أمثلة فرويد النمطية لـ"الزلات اللغوية"، إن المثال المذكور هنا كثيراً ما يتم مدحه والرفع من شأنه بواسطة فرويد وأتباعه، وحتى نقاده، على أنه نموذج عظيم لـ"الزلة الفرويدية" The Freudian Slip. كما أنه قد تم تحليل هذا المثال بالتفصيل بواسطة العالم الإيطالى الشهير وخبير اللغويات: "سباستيسنو تيمبانارو" Sebestisno Timpanaro فى كتابه الهام: "الزلة الفرويدية" The Freudian Slip. وعلى القارئ المهتم بهذا البحث أن يراجع كتاب "تيمبانارو" الرائع من أجل المزيد من التفاصيل. وفيما يلى سأشرح باختصار وجهة نظره:

دعنى أبدأ أولاً بقصة فرويد عن هذه الحادثة؛ فهو قد قابل شاباً نمساوياً يهودياً خلال رحلته فى القطار، وأخذ هذا الشاب يتحسر على وضع اليهود داخل إمبراطورية "النمسا والمجر"، وخلال هذه المناقشة العاطفية الحامية قام الشاب اليهودى باقتطاف إحدى عبارات "فيرچيل" Virgil(*) الشهيرة على لسان "ديدو" Dido التى كانت على وشك الانتحار بعد أن هجرها "إينيس" Aeneas وتسلل هارباً من قرطاجة، عندما قالت: "Exoriare aliquis nostris ex ossibus Ultor"، ومن الصعب ترجمة هذه العبارة بدقة، وإن كانت تعنى: "ليخرج أحدهم من عظامى كمنتقم"، أو "اخرج – الآن – من بين عظامى، أيها المنتقم، أياً كانت هويتك".

(*) فى الكتاب الرابع من الجزء الأول من الملحمة الأسطورية الطويلة: "إنيد" Aeneid – للشاعر الرومانى الأشهر فيرچيل – تقوم الملكة "ديدو" Dido (ملكة "قرطاجنة" Carthage الجميلة) بإلقاء "لعنة" Curse أبدية على بطل الملحمة: "إينيس" Aeneas. والسبب فى هذا، هو أن بطل الأسطورة – الذى كان قد هرب للتو بحياته من بلدته "طروادة" Troy بعد تدميرها (من خلال استخدام حيلة الحصان الخشبى الشهيرة) على يد الإغريق – تخلى عنها، وهجرها، على الرغم من وعوده بالزواج، بعد ما حدث بينهما (أغواها وطارحها الغرام ليلاً فى أحد الكهوف خلال رحلة للصيد والقنص)؛ وهو ما دفع بها للانتحار باستخدام نفس السيف الذى كانت قد أهدته لـ"إينيس"، ثم سقطت بجسدها الدامى فى "المحرقة" التى أشعلت بهدف التخلص من كل الأغراض التى تركها من خلفه خلال هروبه المتعجل من "قرطاجنة". وأحد عبارات هذه "اللعنة" الشهيرة، هى ما استشهد به الشاب النمساوى اليهودى. (المترجم)

لكن الشاب اليهودى أخطأ فى اقتباسه للعبارة السابقة، ونطقها كالتالى:

"Exoriare ex nostris ossibus Ultor". وهذا يعنى أنه قد قام بحذف كلمة: "aliquis"(*)، وعكس وضع الكلمتين: "nostris ex". وعلى الفور قام فرويد بتنبيه الشاب إلى الخطأ الظاهر فى اقتباسه.

هذا وقد كان الشاب على علم بفرويد، كما أنه كان قد سمع بطرق التحليل النفسى، ولهذا حاول فرويد أن يشرح له طبيعة هذا الخطأ فى نطاق مصطلحات التحليل النفسى، وهو قد استخدم فى هذا طريقة "جالتون" فى التداعى الحر، وقال فرويد:

"يجب علىَّ أن أطلب منكَ أن تخبرنى بصراحة - وبدون حساسية - أول ما يتبادر إلى ذهنكَ عندما أذكر لكَ الكلمة التى حذفتها من عبارة "ڤيرچيل": aliquis، بدون أى هدف محدد".

بعدها، يحصى فرويد سلسلة الكلمات التى ذكرها الشاب اليهودى، والمرتبطة بالكلمة المحذوفة aliquis، وهى كالتالى: "موسيقى جنائزية" Requiem، و"يتحول إلى سائل" Liquidation، و"سائل" Fluid، ثم "القديس سيمون من ترينت" St. Simon of Trent، وهو طفل استشهد فى القرن الخامس عشر، واتهم اليهود بقتله، وقد قام هذا الشاب اليهودى - منذ عهد قريب - بزيارة قبره، والآثار التى تركها فى مدينة "ترينت"، بعد هذا جاءت مجموعة من أسامى القديسين ومن بينهم اسم القديس "سانت چينارو" St. Gennaro الذى يحتفظ الإيطاليون بقطرات من دمائه المتجلطة فى زجاجة داخل الكاتدرائية الموجودة بمدينة "نابلس" Naples، وإن هذا الدم المتجلط يتحول إلى سائل عدة مرات فى السنة، مع ما يرافق هذا من تزايد حجم الإثارة بين أهل نابلس المتطيرين، عندما يتأخر تحول الدماء المتجلطة إلى سائل، الذى يتم التعبير عنه بصورة تقليدية فى صورة تهديدات تجاه هذا القديس. وأخيراً، فإننا نأتى إلى القلق الذى

(*) Aliquis: مصطلح لاتينى ينقسم إلى جزأين: "الآخر" Alius، وQuis التى تستخدم ضميراً للاستفهام، وقد تم دمجهما معاً فى شكل "Aliquis" لتعنى: "أحدهم" Someone أو "شخصاً ما". (المترجم)

يعانى منه هذا الشاب اليهودى، الذى تسبب - طبقًا لفرويد - فى الزلة اللغوية التى ارتكبها فى اقتباس "فيرچيل"، إن هذا الشاب قلق لأن هناك "سائلاً آخر" قد تأخر فى السيلان؛ فهو قد قابل فتاة إيطالية فى نابلس وطارحها الغرام، وهى قد أخبرته أنها متأخرة فى الطمث؛ مما يعنى أنها حامل فى الأغلب الأعم، وقلقه نتيجة لمخاوفه من وصول خبر أكيد بأنها حامل. بالإضافة إلى هذا، فإن أحد القديسين الذين أتت أسماؤهم بعد اسم سانت سيمون، وهو: "سانت أوغسطين" يتعلق اسمه - هو الآخر - باسم أحد شهور السنة (بما يعنيه هذا من أن مرور الوقت هو أمر مخيف بالنسبة لشاب لا يريد أن يصبح أبًا)[1]، إن فرويد يربط ما بين مقتل الطفل القديس، والقديس "سيمون"، والإغراء بقتل ذلك الذى لم يولد بعد؛ (لأن الإجهاض كان يعتبر مساويًا لقتل الأطفال فى ذلك الحين). ومن كل هذا يستنتج فرويد بثقة تامة ما يلى:

"سوف أترك لحكمك تقرير ما إذا كانت **كل هذه الصلات** يمكن تفسيرها عن طريق الافتراض بأنها محض صدفة، ومع هذا فإننى أخبرك بأنه فى كل الحالات المشابهة للحالة السابقة، عندما تقودك التحليلات إلى قرار بأنها "محض الصدفة"، فإن هذا سيصبح أمرًا غريبًا".

إن ما يقترحه فرويد علينا هو أنه هذا الشاب اليهودى "قلق" من أن يصبح أبًا، وأن هذا القلق المكبوت تمكن من الظهور فى صورة زلات لسان، عندما حاول اقتباس مقولة "فيرچيل"، وأن سلسلة الكلمات التى حصل عليها من خلال التداعى الحر كلها تتضمن أفكارًا متعلقة بالأطفال، والسوائل، وشهور السنة، وقتل الأطفال، وغيرها من الأفكار المتعلقة - فى رأى فرويد - بتأخر ظهور دماء الطمث لدى صديقته الإيطالية.

وقد يتعجب القارئ لماذا يَعتبر أى شخص أن مشاعر القلق التى يعانى منها هذا الشاب هى "مشاعر مكبوتة"، إن هذه المشاعر غير موجودة فى اللاوعى، فهى بالتأكيد

---

(١) وتجاهل فرويد تمامًا مسألة أن شهرى "أغسطس"، و"يناير" متباعدان بشدة أحدهما عن الآخر، وأن الفترة بينهما لا تتساوى مع فترة الحمل (التسعة الشهور). (المؤلف)

"مشاعر واعية" وظاهرة بوضوح فى تفكيره. ومع هذا، فإنه من الصعب رفض الفرض القائل بأن أسلوب التداعى الحر قد تمكن من التعبير عن القلق الكامن فى عقله. لكن هل يثبت هذا - أو حتى يؤيد - نظرية فرويد العامة؟

قبل أن نبدأ فى نقد تحليلات فرويد دعنا نأخذ فى الاعتبار كيف يشرح الخبير اللغوى "تيمبانارو" هذه الحالة، لو أنها عُرِضَت عليه! إن "تيمبانارو" سوف يتساءل أولاً عن سبب حدوث هذا الخطأ المزدوج فى الاقتباس؛ فإن التفسير يكمن فى الحقيقة الشهيرة المعروفة باسم "انعدام الأصولية" Banalization (بمعنى أن الكلمات والتعبيرات القديمة وغير المستخدمة تكون غريبة عما اعتاد المتكلم على استخدامه من الكلمات. وبهذا، فإنه يكون من السهل استبدال كلمات معتادة ومألوفة له بها). إن الشخص الذى يقتبس من أقوال القدماء يميل إلى الاستبدال بكلمات وعبارات من التراث الأدبى القديم الصور الشعبية الشائعة الاستخدام فى عصره.

أما بالنسبة للعبارة المقتبسة من "ڤيرچيل"، فإن تركيبها شاذ بطريقة درامية غير سوية، ويتركز شذوذ هذه العبارة فى أنها تحتوى ضمير المفرد المتكلم "Exoriare"، مع الضمير المطلق "aliquis": إن "ديدو" تستخدم الصور الدارجة فى المخاطبة، التى تقابل ضمير المتكلم فى الفرنسية "أنت" tu بالنسبة للمنتقم المتوقع، وكأنها رأته واقفاً أمامها. وفى الوقت نفسه، فإنها تعبر باستخدام "aliquis" عن شخصيته المترددة، وهكذا، فإن تعبير "ديدو" يعتبر بشيراً ونذيراً غامضاً مثل كل النبوءات التى تتحدث عن المستقبل (سيأتى - إن آجلاً أو عاجلاً - من سينتقم لى)، وهى نبوءة ضمنية تبشر بقدوم "هانيبال" Hannibal المنتقم الذى كان "ڤيرچيل" يفكر فيه، عندما كتب هذه الملحمة الشعرية.

إن اللغة الألمانية هى اللغة التى تحاور بها فرويد مع زميل رحلته الشاب، وهو ما يضع كثيراً من الصعوبات فى طريقنا للحصول على ترجمة حرفية ذات معنى، ولقد أشار "تيمبانارو" إلى هذه الصعوبة عندما قال:

"إننا مضطرون إلى أن نضحى بأحد اثنين: فإما أن نختار محاولة إظهار الشخصية الغامضة الموجودة فى النبوءة، وهذا يعنى تحويل كلمة "Exoriare"، التى تم الحديث عنها كشخص ثالث، إلى مجرد طرف ثان فى الحوار ("... ليخرج أحدهم من عظامى كمنتقم")، أو قد يفضل أحدهم أن يحتف، فى ترجمته بعنصر الزمن والحاجة إلى الحصول على **انتقام سريع**، فيتكلم عن "الخروج من بين عظامه" على أنه ضمير المتكلم كشخص ثان، وهو ما يعنى إحداث تعديل يصل إلى حد كبت المعنى الموجود فى كلمة "aliquis"، ولتصبح الترجمة فى الصورة الثانية السابق ذكرها:

("اخرج - الآن - من بين عظامى، أيها المنتقم، أيًا كانت هويتك")".

إن كل من قاموا على ترجمة "فيرچيل" إلى اللغة الألمانية - قد مالوا إلى اختيار إحدى الطريقتين السابقتين، ومن المرجح أن الشاب النمساوى اليهودى قد عَرفَ بعبارة "ديدو" منذ سنين طويلة عندما كان طفلاً فى المرحلة الابتدائية، مما قاده لأن يحولها إلى صورة أكثر شيوعًا ومألوفة بالنسبة له، وعندما قام اللاوعى بحذف كلمة "aliquis"، فإن هذا لا يشير إلا إلى الميل الطبيعى الموجود لدى الفرد العادى للقيام بهذا الإجراء (جعلها أكثر شيوعًا وقريبًا من اللغة الدارجة البسيطة المستخدمة فى عصر الفرد المتكلم)، أما بقية العبارة، فإنه من السهولة بمكان ترجمتها إلى الألمانية بدون تغيير ترتيب الكلمات. إن الميل إلى القيام بهذه الفعلة يعود فى جذوره إلى أن العبارة غير عادية حتى فى أصولها اللاتينية، وأن هذا قد يقود شابًا ذا تعليم متواضع إلى أن يرتكب الخطأ الذى تحدثنا عنه.

إن "تيمبانارو" يدخل فى عديد من التفاصيل التى لا يمكننا الخوض فيها هنا، ولكنه يقدم لنا قضية متماسكة شديدة الوضوح والقوة لظاهرة "انعدام الأصولية" كتفسير لهذه "الزلة الفرويدية" The Freudian Slip.

لكن ماذا عن "تسلسل التداعيات"؟

إن "تيمبانارو" يقدم لنا اقتراحًا عظيمًا، فهو يشير إلى أحد الافتراضات التى قدمها فرويد، والتى لا يوجد على الإطلاق أى أدلة تنهض لتأييدها، إن فرويد يفترض

أن قلق هذا الشاب على عشيقته التى تأخرت دورتها الشهرية (دماء الطمث) هى التى تسببت فى تلك "الزلة اللغوية"، وأن تسلسل التداعيات (تسلسل الأحداث) يؤيد هذا الافتراض، ومن ناحية أخرى، فإنه من الممكن لأى سلسلة من التداعيات - أيًا كانت - أن تبدأ من أى كلمة مختارة اعتباطيًا، ويمكن أن تقود فى النهاية إلى الأفكار التى تسيطر على عقل هذا الفرد. وهذا، لأن أفكاره دائمًا ما تعود إلى المشكلة التى تشغل باله بالأساس.

ويقوم "تيمبانارو" بإمدادنا بعديد من الأمثلة التى تظهر بوضوح أن هناك عديداً من سلاسل التداعيات التى يمكن أن تقود إلى مشاعر القلق التى كان يعانى منها هذا الشاب، وعن طريق البدء بأى كلمة فى عبارة "ڤيرچيل". وهو يشير إلى أن سلاسل التداعيات هذه لن تكون أفظع أو أكثر إيلامًا من الأدلة التى استخدمها فرويد، كما أنه يشير إلى أن فرويد لم يسمح لمريضه بالقيام بعملية "التداعى الحر"، بل إنه قام بتوجيه هذه التداعيات من خلال تعليقاته التى قادت إلى النتيجة التى تم التوصل إليها.

هذا يقودنا إلى أن ما ادعاه فرويد من حدوث "تداع حر" لم يكن فى الحقيقة إلا "تداعيًا موجهًا جزئيًا"، بواسطة اقتراحات وتعليقات المحلل النفسى ذاته (فرويد)، وبواسطة معلومات هذا الشاب اليهودى عن فرويد ونظرياته. وأخيراً، بواسطة ذلك الاهتمام غير العادى بالأمور التى لها طابع جنسى.

إن كل هذا قد أثر - بدرجات متفاوتة - على توجيه هذه التداعيات مهما كانت "نقطة البداية".

دعونا - الآن - نعاود البحث فى السؤال الهام الخاص باختيار أى كلمة اعتباطية كـ"نقطة بداية" للبحث، وهل يُمَكِّنُنَا هذا من الوصول إلى الاستنتاج نفسه الذى توصل إليه فرويد؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ستوضح لنا مدى صحة نظرية فرويد، والعجيب فى الأمر أن أيًا من فرويد أو أتباعه لم يحاولوا أبدًا اختبار هذا الفرض، وعندما كنت أعمل كاختصاصى نفسى فى غرفة الطوارئ بمستشفى "ميل هيل" Mill Hill خلال الحرب

حاولت إجراء بعض التجارب على المرضى الذين أتوا إلى المستشفى وهم يعانون من شكاوى عُصابية، أو شكاوى ذهانية بسيطة، وكنت أطلب إلى الواحد منهم أن يستعيد بعض أحلامه، وبعدها كنت أطلب من المريض أن يحاول الربط بين مختلف المكونات الموجودة فى "الحلم"، ولقد وجدت - مثلى فى هذا مثل جالتون وفرويد - أن اتباع هذه الطريقة يمكن أن يصل بالباحث إلى العوامل الحقيقية التى تتسبب فى حدوث القلق والحصر لمريضه، وإن كان هذا لا يشير - بالطبع - إلى وجود رغبات مكبوتة موجودة فى اللاوعى منذ عهود الطفولة المبكرة.

بعد هذا، بدأت فى استخدام "مجموعة ضابطة"؛ فكنت أسأل فردين ("چان" و"سميث")، كنت أسأل چان أن يحاول الربط بين العناصر المختلفة الموجودة فى حلم سميث، وكررت الشىء ذاته مع سميث، وكانت النتائج واضحة؛ فإن سلسلة التداعيات انتهت إلى النتيجة نفسها فى كلتا الحالتين، حتى عندما كان كل منهما يحاول الربط بين مختلف المكونات الموجودة فى حلم الآخر، إن كل هذا يعنى أن سلاسل التداعيات يتم تحديدها من خلال "العقدة"، وليس من خلال "نقطة البداية"، وهذا يشير بوضوح إلى عدم صحة نظرية فرويد، ويدفعنا إلى التعجب عن أسباب عدم قيام المحللين النفسيين بإجراء مثل هذه التجربة البسيطة للتأكد من صحة افتراضاتهم.

أنا هنا لا أحاول إثبات صحة الفروض البديلة، وإنما أريد أن أوضح أن هذه الفروض البديلة - مع فكرة "انعدام الأصولية" - يقدمان حلاً بديلاً قويًا لفروض فرويد التى ثبت عدم صحتها، وأن العلم يحتم علينا أن نقدم الفروض البديلة خلال اختبارات صحة النظرية الأصلية. إن القائمين على التحليل النفسى ليس لديهم الحق فى الادعاء بصحة وجهة نظرهم بدون اختبار شامل وتفصيلى للفروض البديلة؛ اختبار يقدم لنا نتائج مقنعة لصالح النظرية الأصلية أو ضدها، إن الأدلة المتاحة حاليًا غير كافية لإثبات صحة نظرية فرويد، بل إن عديداً منها يشير إلى العكس، ووجود "فرضيات بديلة" جيدة لها ما يؤيدها من التجارب ليس هو العيب الوحيد الذى يهدد صحة نظريته، وإنما كون معظم الحالات التى ذكرها فرويد نفسه تعبر عن "عقدة" غير مكبوتة

وغير موجودة فى اللاوعى، بعكس فروضه الأصلية، تمثل عيبًا خطيرًا فى هذه النظرية، فإن الشاب اليهودى - فى القصة السابقة - كان على علم تام بمصدر قلقه وخوفه، وكان دائمًا ما يفكر فيه، وهكذا، فإن "العوامل الدافعة" قد تكون نشطة - إذا أردنا أن نرفض "انعدام الأصولية" كتفسير بسيط لهذه "الزلة" - إلا أنها ليست من النوع الفرويدى، والقارئ الحريص على مراجعة كتابات فرويد سوف يلاحظ هذا فى معظم الحالات التى قام فرويد بعرضها؛ ولهذا، فإن الأمثلة التى قدمها تضعف نظريته ولا تؤيده فى أى جانب، مثلها فى هذا مثل النماذج التى قدمها خلال كتابه "تفسير الأحلام".

من كل هذا يمكننا استنتاج أن القبول الذى تلقاه أفكار فرويد عن الأحلام، وزلات اللسان، والقلم - غير مبنى على قراءة سليمة ومنطقية لأعمال هذا الرجل، بل إنه لا يعطينا أى أدلة حقيقية تؤيد صحة نظرياته، فهو يقدم لنا مقتطفات مثيرة لكنها عديمة الصلة، ثم يقوم بتفسيرها بطريقة لو تقبلناها لوجدنا أنها تتعارض مع أسس نظريته، إن أية نظرية يجب أن تكون قابلة للاختبار لتحديد مدى صحتها، ونحن نأمل أن تجرى اختبارات موسعة ومفصلة تقارن ما بين نظريات فرويد والنظريات البديلة، وحتى يتم هذا، فإنه يستحيل علينا تقبل نظريات فرويد، خصوصًا مع توافر الأدلة التجريبية التى تؤيد صحة بعض جوانب النظريات البديلة، والتى تدل على أنها أكثر اتفاقًا مع المنطق السليم والعقل، إنه من السخف أن نتحدث عن "الزلات الفرويدية"، و"الرموز الفرويدية"؛ لأن هذه الرموز - وتفسيرات هذه الزلات - كانت موجودة من قبل صياغة فرويد لنظريته بسنوات طويلة، وينطبق الشىء نفسه على طريقة "سلسلة التداعيات" التى استخدمها لتأييد وجهة نظره. وأيًا كانت طبيعة هذه الأشياء (زلات اللسان، والقلم، والرموز الموجودة فى الأحلام)، فإنها - كلها - ليست "الطريق الملكى" الممهد لاستكشاف "اللاوعى" كما يدعى، وفى أحسن الأحوال، فإن هذه الأشياء تكون مدفوعة من خلال "الوعى"، والأفكار الواعية - المشحونة أو غير المشحونة بعواطف قوية - التى تدور فى ذهن هذا الفرد، وعلينا أن نتذكر فى هذا الصدد أنه لا توجد إطلاقًا أى أدلة على رغبات مكبوتة فى اللاوعى، ولا حتى فى الأمثلة التى ذكرها فرويد ذاته.

خلال السنوات الأخيرة ظهرت وجهة نظر جديدة بخصوص "زلة اللسان" الخاصة بحذف كلمة "aliquis" فى الاقتباس السابق ذكره، وقد برزت وجهة النظر هذه بعد اكتشاف أن فرويد كان على علاقة سرية مع أخت زوجته ("مينًا" Minna)، فكما هو معلوم، فإن حياة فرويد الجنسية امتلأت بالعقبات والعراقيل، بدايةً من امتناعه عن الجنس خلال فترة السنوات الأربع التى استغرقتها خطبته لـ"مارثا بيرنايز" Martha Bernays، وحتى القيود التى فرضت عليه خلال السنوات التسع الأولى من زواجهما، والتى كانت "مارثا" خلالها حامل، أو مريضة، ومن ثم عاجزة عن ممارسة الجنس مع فرويد، وقد تلا هذه الفترة عدة سنوات من التعفف الإجبارى عن الجنس بعد مولد الطفل السادس والأخير؛ فبالرغم من أن العلاقة الزوجية لم تتوقف تمامًا بينهما بعد ميلاد الطفل السادس، فإنهما قررا أن "الامتناع عن ممارسة الجنس" هو الحل الوحيد لتجنب إنجاب المزيد من الأطفال.

وتتلخص وجهة النظر الجديدة فى أن فرويد قد ازداد اهتمامه بالبدائل الجنسية المتاحة، مثل "التنافس الأوديبى" Oedipal Rivalry، و"حسد القضيب"(*) Penis Envy بسبب مشاكله الجنسية، ولا شك أن أحلامه – خلال هذه الفترة – قد امتلأت بالغضب بسبب حرمانه من الجنس، وأن رغبة الزوجين فى عدم إنجاب المزيد من الأطفال قد منعته من الاتصال بزوجته، وخلال هذه الفترة نفسها بدأت العلاقة بين فرويد وأخت زوجته "مينًا"، طبقًا لما ذكره "كارل يونج" Carl Jung؛ وقد كان – فى البداية – أحد أصدقاء فرويد المقربين، وأصبح – فيما بعد – منافسه الذى اختلف معه بشأن نظرية التحليل النفسى.

(*) "حسد القضيب" – طبقًا لنظريات فرويد – هو مشاعر الحسد التى تشعر بها الفتاة الصغيرة، عندما تكتشف – غالبًا قبل سن الخامسة طبقًا لفرويد – أنها لا تمتلك قضيبًا، وتبدأ فى لوم أمها بسبب هذا النقص، وعندها – طبقًا لفرويد – تتكون لديها عقدة مكبوتة هى التى أطلق عليها فرويد اسم "حسد القضيب". (المترجم)

وقد قام تلميذ أمريكى لـ"يونج" بنشر هذه القصة، وهو يُدعى "چان بيلينسكى" John Billinsky، الذى قام بالكشف عن هذه القصة بعد المقابلة الأولى التى حدثت بين "يونج" و"فرويد" خلال زيارة الأول لڤيينا؛ فلقد صارحته "مينًا" بأنها تشعر بالذنب بسبب علاقتها مع فرويد، ولقد ذكر "بيلينسكى" هذه العبارة عن لسان "يونج": "لقد علمت منها أن فرويد كان يشعر بالحب نحوها، وأن العلاقة بينهما كانت وثيقة جدًا (علاقة جنسية)، ولقد أصابتنى هذه المعلومة بالصدمة. وحتى الآن، فإننى أتذكر الألم الذى شعرت به عندما علمت بهذا الخبر".

وفى هذا الصدد، من العجيب أن يشعر "يونج" بالصدمة والألم؛ حيث إنه كان من المعروف عنه علاقاته المتعددة بنساء غير زوجته.

إن مثل هذه القصة قد تكون عديمة الأهمية، وتكمن أهميتها فى أن الكاتبين ("أوليڤر جيلى" و"بيتر سوالز") ادعيا أن هذا الشاب اليهودى المذكور فى القصة السابقة على أنه "رفيق رحلة" فرويد لم يكن - فى الحقيقة - إلا فرويد نفسه.

لقد اقترحا أن فرويد كان مسافرًا مع "مينًا" (زوجة أخته) بالقطار إلى إيطاليا فى شهر أغسطس من عام ١٩٠٠، وأن "مينًا" قد استسلمت له وأصبحت حاملاً، وتكمن الأدلة على اقتراحهما هذا فى تفسير كلمة "aliquis"، وطبقًا لرواية هذين الكاتبين، فإن فرويد كان قلقًا من أن "مينًا" سوف تنبئه بخبر حملها، وأنه لم يكن هناك أى سيدة إيطالية كما ادعت القصة الأصلية!

لكن ما الأسباب الأخرى التى قدماها لتأييد وجهة النظر السابقة؟

أولاً: هناك وجوه التشابه الشخصية بين الشاب اليهودى الموجود فى القصة الأصلية وفرويد ذاته، فكلٌ منهما يهودى، وكل منهما يشعر بالضيق من وضع اليهود فى النمسا، والكراهية التى يواجهونها من العنصريين هناك، كما أن كلاً منهما طموح.

كما أن الشاب اليهودى كان على معرفة ببعض مطبوعات فرويد الخاصة بالتحليل النفسى، حتى قليلة الشيوع منها، والخاصة بـ"النسيان" الذى له دوافع تكمن فى

اللاوعى، كذلك، فإنه كان قادراً على اقتباس أقوال من "Aeneid"، مثله فى هذا مثل فرويد، وعلى معرفة بمؤلفين نعلم أن فرويد كان معجباً بهم.

ثانياً: قام الشاب الصغير بزيارة الكنيسة الموجودة فى مدينة "ترينت"؛ حيث يتم الاحتفاظ بالآثار الباقية للقديس "سيمون". وبالمثل، فإن فرويد قد زار هذه الآثار مع "مينّا". وفى أحد الحوارات، قام فرويد باستخدام الكناية المجازية التى تعبر عن "تناسخ الأرواح"، عندما قال: " نُسَخ جديدة (طبعات جديدة)" **New Editions**، كما أنه استخدم التعبير السابق عدة مرات فى كتاباته.

إذا صحت القصة السابقة، فإن تفسير "الزلة اللغوية" سوف يتخذ مجرى جديداً ومختلفاً تماماً، كما أن الاكتشاف المعجز للعقدة الخفية فى الشخص الآخر يصبح أكثر وضوحاً؛ لأنه يشير إلى مشاعر القلق الواعية التى كان يعانى منها فرويد ذاته، لكن هل من المرجح أن يكون هذا التفسير صحيحاً؟

قام "آلن إلمز" **Allan Elms** بفحص الأدلة بدقة، وكل هذه الأدلة تشير إلى أن قصة الكاتبين غير صحيحة؛ ففى النهاية يتحدى "سوالز" (أحد مؤلفى الكتاب الذى قدم وجهة النظر الجديدة) من يستطيع أن يجد هذا الشاب اليهودى المذكور فى قصة فرويد، ولقد قبل "إلمز" هذا التحدى، واقترح أن الشاب اليهودى كان موجوداً بالفعل وفى الوقت المناسب، والمكان الصحيح كما ادعى فرويد، بل إن "سوالز" ذاته ذكر اسمه دون أن يأخذ فى الاعتبار إمكانية أن يكون هو الشخص المقصود (الشاب اليهودى الذى أخطأ فى اقتباس أشعار "فيرچيل"). لقد كان اسمه: "ألكسندر فرويد" (الأخ الأصغر لسيجموند فرويد). ولقد قدم "إلمز" كثيراً من الأدلة التى تؤيد وجهة نظره، عن طريق ذكر الحقائق المعروفة عن "ألكسندر" (مرافقته للعديد من النساء، ومعرفته بمنشورات فرويد حتى قليل الشهرة منها، وكونه قد سافر للخارج مؤخراً؛ حيث تقابل مع فرويد خلال ترحالهما، وغيرها من الصفات التى جعلت صفاته تتطابق مع الشخصية التى وصفها فرويد).

من الواضح أن أى استنتاج يمكن أن نخرج به الآن - بعد مرور هذه الفترة الزمنية الطويلة - لن يكون إلا مجرد تخمين، كما أنه لا توجد أهمية لغراميات فرويد، عدا كونها تجعلنا نرى نظريته فى ضوء جديد. وعلى سبيل المثال: فإن "جيلى" و"سوالز" يقترحان أنه لا يمكن فهم الجزء الأعظم من نظريات فرويد الجنسية دون فحص وتحليل لغرامياته مع "مينًا"؛ كما أن "جيلى" ذكر أنه من الواضح أن رؤية فرويد لـ"نكاح المحارم" قد تلونت من خلال علاقته بأخت زوجته، وإن لم تكن هى الوحى الأساسى الذى استوحى منه هذه النظرية، كذلك، فإن "سوالز" يرجع نظرية فرويد الخاصة بـ"عقدة أوديب" إلى هذه العلاقة غير الشرعية.

وحتى إذا كان بطل القصة السابقة هو "ألكسندر فرويد"، وليس فرويد ذاته، فإنه لا يزال علينا النظر إلى القصة السابقة فى ضوء مختلف؛ فإن فرويد - فى هذه الحالة - سيكون على علم تام بظروف حياة "ألكسندر"، ولن تكون معرفته مجرد استنتاجات خرج بها من لقائه مع "عابر سبيل" قابله خلال رحلة القطار، ومن هذا فإن أفكار فرويد عنه سوف تبدأ من الحقائق التى يعرفها جيدًا عن علاقات "ألكسندر" المتعددة مع النساء، خاصة احتمال أن تكون حبيبته حاملاً بسبب تأخر دورتها الشهرية.

وسوف أنهى حديثى عن هذه القصة الغريبة باقتطاف فقرة من تعليق "إلمز" عليها؛ لأننى أعتقد أن تعليقه هذا يقدم - بطريقة منطقية أفضل - تلخيصًا شاملاً لتلك الزوبعة التى خلقها فرويد من لا شىء:

"لقد اقترح فرويد علينا أن هناك مشاعر عارمة مكبوتة فى اللاشعور بخصوص "نكاح المحارم"، وأن الذى يقوم على كبت هذه المشاعر العارمة هى: "محظورات Taboos لاشعورية، وهكذا فإن "المشاعر الأوديبية" لا يتم التعبير عنها بعلاقة محرمة مع أحد أفراد الأسرة، وإنما تخرج فى صورة "حلم جامح" Fantasy، و"عُصاب"، و"سلوك بديل".

ومع حلول عام ١٩٠٠م تزايد اهتمام فرويد بالأحلام الجامحة الخاصة بـ"نكاح

المحارم"، ولعل فرويد كانت له أحلامه الجامحة بخصوص "مينًا"، ولكن لا توجد أى أدلة موثوق بها تصلح لإثبات وجود تلك العلاقة، وعلى أية حال، فإنه كان فى غير حاجة إلى "مينًا"؛ ليهتم بالرغبات الشاذة مثل نكاح المحارم؛ فقد كانت لديه أمه(*) دائمًا".

لعل القارئ يشعر بأن الأحداث السابقة كان من الواجب وضعها فى الفصل الأول الذى يتحدث عن "فرويد الإنسان"، ولكن حيث إنها شديدة الصلة بقصة "aliquis"، فإنه يبدو من المناسب وضعها فى هذا الفصل. ومع هذا، فإنها تجعل وجهات النظر المذكورة فى الفصل الأول أكثر وضوحًا، وخاصة فيما يتعلق بنظرياته، والأحداث الموجودة فى حياة فرويد الشخصية، وما إذا كانت هذه النظريات نتيجة لعلاقته بـ"مينًا"، أو أحلامه الجامحة الخاصة بوالدته.

(*) إشارة خبيثة من "إلمز" للعلاقة القوية المريبة، التى كانت سائدة بين فرويد وأمه، وتفضيلها الدائم له. (المترجم)

الفصل السادس

الدراسة التجريبية لمفاهيم فرويد

إنه عليك أن تقف أمام الحقيقة كطفل صغير، بأن تكون على استعداد لأن تتخلى عن كل مفاهيمك السابقة، وأن تتبعها - بتواضع - حيثما تقودك، وإن لم تفعل هذا فإنك لن تتعلم شيئًا.

تى . هـ . هاكسلى

لقد رأينا فى الفصول السابقة أن فرويد قد رفض استخدام اثنتين من أكبر الطرق العلمية الراسخة لتأييد نظرياته وإثباتها؛ فهو - **أولاً** - قد اعترض على استخدام "التجارب العيادية" التى تشمل المجموعتين التجريبية والضابطة، بهدف تقييم مدى تأثير العلاج الذى بنى على أساسه ادعاءاته بوجود قيمة علمية لنظرياته. وهو - **ثانيًا** - رفض الاعتراف بقيمة الحقائق المفصلة التى يتم مشاهدتها على سلوك الأطفال بخصوص نظرياته النفسية عن النمو الجنسى للطفل. فما موقفه بالنسبة للطريقة الرئيسية **الثالثة**؛ تلك الطريقة التى يستخدمها العلماء فى إثبات نظرياتهم، والتى تسمى: "المنحى التجريبى" Experimental Approach؟

فى هذا النوع من التجارب يقوم الباحث بتغيير شرط واحد - الشرط الذى يكون من المعتقد أنه يؤثر على الظاهرة محل البحث - ثم يتم ملاحظة تأثير التغير الذى أحدثه على الظاهرة؛ بمعنى أنه يتحكم فى "المتغير المستقل" Independent Variable، ثم يتم دراسة التأثير الذى يحدثه على "المتغير التابع" Dependent Variable.

ويتـضح مـوقف فـرويد من هذا المنهج التـجـريبى - الذى يعـد مـن أكـثـر المناهج العلمـية حسـمًـا وإقناعًا - من الخطاب الذى أرسله لـ"روزنتسـڤـايج" Rosenzweig فى عـام ١٩٣٤م كـرد على خطاب الأخـيـر، الذى ذكـر فـيـه مـحـاولاته لدراسـة "الكبت" باستخدام الطريقة التجريبية؛ فلقد ذكر فرويد ما نصه:

'إنه ليس بإمكانى إضـفـاء كـثـير من القيمـة على هذا المنهج؛ لأن الكم الهـائل من المشـاهدات الثابتة والموثوق بها التى بُنيت عليها نظريتى يجعلها مـستقلة عن "الطريقة التجريبية". ومع هذا، فإنها لن تضر'.

ومن وجـهة نظرى، فإنه لا يوجد ما يفضـح طريقة فرويد غير العلمـية فى التفكير، أكثر من عبـاراته السابقة فى ذلك الخطاب؛ لأنه من وجهة نظره يرى أنه فـى غير حـاجة إلى التجارب ليثبت صـحة فروضـه. وفى هذا الصدد، لا يوجد أى علم فى الوجـود، فصل بين فـروضـه، وبين الفـحـوص التـجـريبـيـة لهـا؛ فـحـتى علم الفلك أو "التنجـيم" وعلم "تضـاريس الدمـاغ وفراسته"(*) Phrenology، تكون افتراضـاتهما قابلة للاختبار، بل إنه تم بالفعل اختبارهـا، وإن كانت النتيجة فى غير صـالح هذين العلمين.

ومن الواضـح أن هناك عديدًا من الصـعوبات التى تعترض طريق إجراء التجـارب على البـشـر؛ خـاصـة عندمـا تتصـل فـروض النظرية ببـعض الظواهر المعقدة، وشـديدة التداخل. أيضًـا، فإنه هناك كثـير من الاعتبـارات الأخـلاقية التى تؤدى دورًا مـؤثرًا فى هذا الخـصـوص؛ فعلى سبيل المثـال: لن يكون بإمكاننا إثارة "انفعـالات" قوية وفيـاضـة داخل نفسـية أفراد المجموعة التجريبية بالمختبر الذى تُجرى فيـه التـجربة، كذلك فـإن الاعتبـارات الأخـلاقية لن تسـمـح لنا بإثارة مثل هذه "الانفعالات"، حـتى إذا كـان هذا فى إمكاننا، وحـيث إن نظريات فرويد تتـعـامل - فى الأغلب الأعم - مـع "الانفعـالات"؛ فـإنه يكون من الصـعب إثارة مثل هذه "الانفعـالات" بطريقة تجريبية، كذلك فـإن وجود الفرد

(*) هو علم زائف اهتم بدراسة شكل جمجمة الفرد وتضـاريسها، بوصـفهمـا المحدد الذى يدل على شخصية ذلك الفرد، وملكاته العقلية، والكيفية التى سيصبح عليها فى المستقبل! (المترجم)

داخل معمل يجعله يشعر بعدم الراحة، وأنه ليس على سجيته؛ الأمر الذى يؤثر على النتائج التى يأمل المجرب فى الحصول عليها. وبالرغم من كل هذا، فإن إجراء تجارب على البشر ليس بالأمر المستحيل. كل ما هنالك أنها أكثر صعوبة، وتحتاج إلى مزيد من الابتكار والإصرار. بل إنه قد تم بالفعل، على الرغم من إنكار فرويد لها وتنصله منها، وهناك وصف مدهش لهذه الدراسات، قدمه "بول كلاين" Paul Kline فى كتابه: "الحقيقة والخيال فى نظرية فرويد" Fact and Fantasy in Freudian Theory. كما ورد الوصف نفسه فى كتابى "الدراسة التجريبية لنظريات فرويد" The Experimental Study of Freudian Theories؛ حيث تم التركيز فى هذين الكتابين على التجارب التى كان يفترض أن تؤيد نظريات فرويد؛ مع الإشارة إلى العيوب الإحصائية والمنهجية، وفشله فى أن يأخذ فى الاعتبار النظريات البديلة التى تفسر النتائج، وهى خاصية منتشرة فى معظم ما كتبه فرويد، وفى هذا الفصل سوف نراجع بسرعة بعض الأبحاث المثيرة التى لا تنسى، والتى أشارت إلى الطرق التى استخدمها أتباع مدرسة التحليل النفسى حتى يلتفوا حول الصعوبات التى تواجههم عند تطبيق "الطريقة التجريبية".

إن بعض الإجراءات التى اتبعها الاختصاصيون النفسيون، وأتباع مدرسة التحليل النفسى تثير العجب. وفى الحقيقة، فإنه لا يمكن النظر إليها على أنها تجارب بالمعنى العلمى للكلمة. وعلى سبيل المثال، "التجارب" التى أجراها "بلم" G. S. Blum باستخدام ما سماه "صور بلاكى" Blacky Pictures(*)، لقد كانت هذه الصور مكونة من مجموعة من ١٢ صورة تمثل أسرة من الكلاب فى أوضاع مختلفة مرتبطة - بطريقة فريدة - بنظرية التحليل النفسى، كانت هذه الأسرة من الكلاب مكونة من أربعة

(*) أسلوب شبيه ببقع رورشاخ Rorschach Spots؛ لأنها ليست إلا بقعًا من الحبر الأسود ذات أشكال مختلفة، يطلب من المريض أن يعلق عليها بأول ما يخطر على باله... وبهذا نكشف عن حقيقة ما يشغل باله. هذا، وقد كان هيرمان رورشاخ الطبيب النفسى السويسرى هو أول من أجرى عديدًا من البحوث حول هذه المسألة، وقد نشر نتائج بحثه بالألمانية تحت عنوان: "التشخيص النفسى" فى عام ١٩٢١م، والتحليل باستخدام البقع هو أسلوب إسقاطى يتبع الآلية التى ذكرها فرويد فى مقالته المعروفة باسم: "ملاحظات إضافية على العُصاب والذهان كآلية للدفاع"، والتى نشرها فى عام ١٨٩٦م. (المترجم)

أفراد: الأبوين "بلاكى" Blacky (هذا ويستخدم الذكر أو الأنثى طبقًا لنوع الفرد محل الاختبار، بمعنى أن يستخدم الأب إذا كان الفرد المختبر ذكرًا، وأن تستخدم الأم إذا كان الفرد المختبر أنثى). ثم تأتى شخصية "تيبى" Tippy، وهو أخ أو أخت لـ"بلاكى".

يُطلب من الفرد محل الاختبار أن يخبر الباحث بقصة قصيرة؛ بحيث تصور هذه القصة ما يجرى فى كل صورة من الصور؛ وما المشاعر التى تشعر بها كل شخصية من الشخصيات الموجودة فيها؟ ويقوم الباحث بتسجيل القصة القصيرة، ويعطيها "درجة" تقيمها، وفقًا لمدى احتوائها - أو عدم احتوائها - على الاضطرابات فى المناطق محل البحث، وبالإضافة إلى هذا، فإن الباحث كان يطلب من الفرد محل الاختبار أن يجيب عن عديد من الأسئلة المتعلقة بهذه الصور، ثم يطلب منه أن يقوم بترتيبها فى مجموعتين: مجموعة محببة إليه، ومجموعة مكروهة، وبعد هذا يطلب منه أن يختار صورة واحدة من كل مجموعة لأحب وأبغض الصور إلى قلبه.

إن هاتين الصورتين الأخيرتين يفترض فيهما أن تمثلا أعراض المشكلة محل البحث، وعلى سبيل المثال، فإن إحدى هذه الصور تمثل "ذكرًا" من أسرة بلاكى يشاهد والديه وهما يمارسان الجنس، ومن المفترض فى هذا المشهد أن يكشف عن مدى حدة المشاعر الأوديبية داخل الفرد محل الاختبار، وتظهر صورة أخرى: بلاكى وهو يلعق أعضاءه الجنسية، ومن المفترض فى هذا المشهد أن يكشف عن الشعور بالذنب الذى يرافق الاستمناء، وهناك صورة ثالثة تظهر بلاكى وهو يشاهد الأبوين يلاطفان "تيبى"، ويربتان عليه، ومن المفترض فى هذا المشهد أن يكشف عن مشاعر التنافس والغيرة التى تسود بين الإخوة، ثم صورة رابعة تظهر بلاكى وهو يراقب "تيبى"، بينما يتم إجراء عملية قطع ذيلها، ومن المفترض فى هذا المشهد أن يكشف عن مشاعر "القلق من الخصاء" فى الذكور، وعن "حسد القضيب" فى الإناث.

هذا وقد قام "كلاين" بفحص عدد كبير من الدراسات التى تمت باستخدام هذا النوع من الصور، وهو يخبرنا بأنه قد استنتج أن معظم هذه الدراسات قد وصلت إلى نتائج غير مرتبطة بنظريات فرويد، وأنه وجد دراستين فقط مرتبطتين بهذه النظريات.

إحدى هاتين الدراستين تؤيد نظرية (الشخصية الشرجية)، والدراسة الأخرى، فشلت فى تحقيق هذا (الشخصية الفموية)، فى هاتين الدراستين كان الفرض موضع الاختبار هو وجهة نظر فرويد القائلة بأن الأطفال يمر الواحد منهم خلال مراحل متعددة (مثل المرحلة الشرجية، والمرحلة الفمية، والمرحلة الجنسية)، وأنه قد يحدث للطفل أن يتثبت بإحدى هذه المراحل وتثبت شخصيته فيها، وأنه عندما يتثبت الطفل بإحدى هذه المراحل، فإنه يطور صفات مزاجية تتلاءم مع هذه المرحلة، وعلى سبيل المثال: فإن الشخصية الشرجية تكون لها خصائص مميزة مثل البخل الشديد، والتزمت فى الالتزام بالنظام والعناد؛ لأنها مشتقة من المشاعر الجنسية الشرجية. أما بالنسبة للشخصية الفمية: فإنها تتسم بالعجز عن الصبر، والعدوانية، وكثرة الكلام، والكرم. وفيما يبدو، فإن الفرد ذا "الشخصية الشرجية" يُظهر أرجاعًا مناسبة عندما تُعرض "صور بلاكى" عليه، أما بالنسبة للفرد ذى "الشخصية الفمية"، فإنه يفشل فى إظهار الاستجابة المناسبة لشخصيته عندما عرضت "صور بلاكى" عليه.

وعلى هذا، فإن النتيجة التى توصلوا إليها تكون - فى أحسن الأحوال - غير حاسمة، لكن هل يوجد تفسير بديل لما يبدو - من الناحية المظهرية - وكأنه نتائج إيجابية؟

كما ذكرت من قبل، فإن "صور بلاكى" الشرجية تحتوى على كلاب فى مواقف توحى بالتبرز، وقد يتوقع الواحد منا أن تكون استجابة "النمط المنطوى" من الأفراد - الذى يكون سلوكه مشابهًا لما سماه فرويد بالنمط الشرجى - مختلفًا كل الاختلاف عن استجابة "النمط المنفتح". وبهذا، يكون هناك خط واضح، يُظهر وجود تفسير بديل لم يأخذه القائمون على التجارب السابقة فى الاعتبار.

وعلى أى حال، فإن عدد النتائج الإيجابية التى حصلوا عليها - لا يكفى لتبرير الثقة فى قيمة هذا الأسلوب وصحته، وأنها قادرة على إثبات صحة فروض فرويد.

إن هناك عديدًا من "الأساليب الإسقاطية" Projective Techniques (أى الدراسات التى يتم خلالها استخدام صور بها بقع من الحبر، يتم عرضها على الفرد محل الاختبار،

ويطلب منه أن يسوق قصة قصيرة تعبر عن الصورة. وبهذا، يتمكن من "إسقاط" الأفكار التى تموج بداخله) التى استُخدمت فى دراسة عقدة أوديب وقلق الخصاء، وقد قام "كلايق" باستعراض كل هذه الأساليب، ووجد أنهم يتصفون - جميعًا - بعدم الحسم، فيما عدا حالة واحدة فقط تم فيها إجراء دراسة مقارنة بين الأطفال الذين تم تنشئتهم داخل وخارج "الكيبوتز" Kibbutz(*) باستخدام "صور بلاكى"، كان الفرض محل الاختبار هو أنه عندما نقارن ما بين الفئتين، فإننا سنجد أن من تم تنشئتهم داخل "الكيبوتز" يعانون من مشاعر أوديبية أكثر حدة، وأن من تم تنشئتهم بين أبويهم سوف يظهرون تعاطفًا أكثر مع الأب، وقد وجدت هذه الفروض ما يؤيدها من خلال اختيار عينات صغيرة.

لكن، هل تؤيد هذه النتائج - حقيقة - نظرية فرويد؟

داخل "الكيبوتز" كانت تتم رعاية الأطفال بواسطة ممرضات؛ حيث يعيش الأطفال بطريقة جماعية، ولا يرون والديهم إلا لفترة قصيرة، عادة ما تكون فى المساء. إن مثل هذه القيود والمحددات هى التى يمكن أن تنتج الخلافات الملحوظة بين الفئتين؛ فمن الطبيعى أن يقل ارتباطكَ العاطفى بوالديكَ، كلما قلت الفترة التى تختلط فيها بهما، ومن الواضح أن هذا لا شأن له بعقدة أوديب؛ لأن هناك تفسيرًا طبيعيًا تمامًا ومبنى على أساس من المنطق السليم لهذه الظاهرة. وعلى هذا، فإن التجارب التى تمت باستخدام "صور بلاكى" - التى تعد النموذج الرئيسى للدراسات التى تؤيد نظريات فرويد - ليس لها أى قيمة حقيقية أو علاقة بهذه النظريات.

إن الاستنتاجات التى خرجوا بها علينا مشكوك فى قيمتها، وكثير من تفسيراتهم لا يمكن الوثوق به، كما أن الأرجاع - التى حصلوا عليها - كانت تختلف ما بين

(*) "الكيبوتز" هو النظام الذى ابتكره اليهود فى تربية الأطفال فى حضانات عامة؛ بسبب حاجتهم الشديدة إلى كل يد عاملة داخل المجتمع الإسرائيلى الوليد، خلال العقود الأولى من نشأة إسرائيل، فبسبب الحاجة الملحة لأن تعمل المرأة إلى جانب الرجل طوال الوقت؛ كانت الدولة هى التى تقوم على تربية الأطفال تربية جماعية، لا يرى خلالها الطفل والديه إلا خلال سويعات قليلة فى المساء، أو مرة كل أسبوع. (المترجم)

مناسبة وأخرى، والأسوأ من كل هذا هو أن النتائج الإيجابية التى ادعوها يمكن تفسيرها - بطريقة أسهل - من خلال استخدام المنطق السليم، الذى لا يستعين بافتراضات فرويد على الإطلاق. إن "كلاين" قد خصص عشرات الصفحات لمناقشة النتائج التى خرج بها المؤلفون الذين استخدموا "صور بلاكى". وبصفة عامة، فإنه خرج بنفس الاستنتاج المتشائم.

إن نظرية فرويد "النفس - جنسية" تشكل المحور الأساسى لجميع أعماله، وهى مبنية ضمنيًا على ثلاثة فروض رئيسية:

الفرض الأول: هو وجود متلازمات محددة لشخصية الفرد البالغة، يمكن قياسها وإظهار خصائصها.

الفرض الثاني: هو أن هذه المتلازمات مرتبطة بالطريقة (الإجراءات) التى تم استخدامها فى تنشئة هذا الفرد خلال مرحلة طفولته.

الفرض الثالث: يختص بادعاءات فرويد بوجود نشاطات جنسية يمكن ملاحظتها فى تصرفات الطفل الرضيع.

يسلم فرويد بوجود ثلاث مراحل تؤدى إلى مرحلة رابعة وأخيرة؛ فعلى حد قوله: "إن الحياة الجنسية للفرد لا تبدأ مع مرحلة البلوغ الجنسى، بل إنها تظهر بوضوح من خلال بعض التصرفات التى تصدر عن الطفل الرضيع بعد مولده مباشرةً، إن الحياة الجنسية تشمل الأفعال التى تستهدف الحصول على اللذة من بعض مناطق الجسد البشرى، وهى الوظيفة التى سيتم استخدامها فيما بعد من أجل التكاثر".

إن هذه الدوافع الجنسية - طبقًا لآراء فرويد - يتم التعبير عنها من خلال الفم خلال العام الأول للطفل الوليد، وهو ما يطلق عليه: "المرحلة الفموية". بعد هذا، تأتى "المرحلة الشرجية"، عندما تصبح - حوالى السنة الثالثة للطفل الوليد - فتحة الشرج حساسة جنسيا، ومركزًا للإثارة والإشباع الجنسى. المرحلة الثالثة تحدث حوالى السنة الرابعة من عمر الطفل، ويطلق عليها اسم: "المرحلة القضيبية". وأخيرًا، تظهر

"المرحلة التناسلية" Genital Phase، التى تتأسس وترسخ بعد البلوغ، عندما تنتظم كل المراحل السابقة، وتخضع للهدف الجنسى للشخص البالغ فى الحصول على اللذة من خلال تأدية وظيفة التكاثر.

ويدعى فرويد أن النشاطات الجنسية للطفل الرضيع هى أمر بالغ الأهمية فى نمو وتطور شخصية الفرد، وأن الكبت الذى يحدث لهذه النشاطات ينتج سمات شخصية محددة فى الفرد البالغ مثل الثلاثى الشهير: "البخل الشديد"، و"التزمت فى الالتزام بالنظام"، و"العناد"؛ التى من المفترض أنها مشتقة من المشاعر الجنسية الشرجية المكبوتة، فكما يقول فرويد: "إن السمات الدائمة لشخصية الفرد، إما أن تكون تخليداً دائمًا وغير متغير للحافز الغريزى الأصلى، بأن تكون تساميًا مهذبًا ومصقولاً لهذه المميزات، أو استجابة تشكلت ضد هذه السمات".

وعلى هذا، يعتبر فرويد أن "التقبيل" ما هو إلا تخليد لمشاعر الإثارة الفمية. أما "المحافظة على النظام"؛ فيعتبره مجرد استجابة تشكلت ضد مشاعر الإثارة الشرجية. و"البخل الشديد" - فى رأى فرويد - ليس إلا تساميًا مهذبًا ومصقولاً عن مشاعر الإثارة الشرجية.

أما بالنسبة للفروق والاختلافات التى تحدث للطفل خلال فترة تنشئته، من مثل طول وطبيعة فترة التغذية، والإجراءات المتبعة خلال فترة الفطام، فإنها هى المسئولة عن إحداث التأثيرات الأخيرة التى نراها فى صورة سمات شخصية فى الفرد البالغ.

لكن ما الدليل على هذا؟

يمكن القول بأن هناك أدلة ملحوظة على أن هذه السمات التى اعتقد فرويد أنها مرتبطة بعضها ببعض، هى التى شكلت تلك المجموعات المختلفة؛ لأنها فى الحقيقة كانت مناسبة بعضها لبعض. وبالطبع هذا ضرورى، ولكنه ليس بالشرط الكافى لقبول هذه الافتراضات، وعلى سبيل المثال: دعنا نأخذ فى الاعتبار "التشاؤم الفموى"،

ونقارنه بـ"التفاؤل الفموى"، وقد تمت هذه الدراسة بواسطة "فريدة جولدمان-إسلير" Frieda Goldman-Eisler، لقد قامت باختيار ١٩ سمة من بين السمات التى ذكرها كُتّاب التحليل النفسى على أنها ذات دلالة فمية. وهى بالتحديد: "التفاؤل"، و"التشاؤم"، و"الانبساط"(*) Exocathexis، (بمعنى وجود روابط عاطفية بأشياء وأحداث خارجية)، و"الانطواء"(**) Endocathexis (بمعنى وجود الروابط العاطفية بأشياء وأحداث داخلية فقط)، و"عاداته الغذائية"، و"السلبية"، و"حب التجمعات"، و"حب الوحدة"، و"العدوانية الفموية"، و"التحكم فى الذات"، و"العدوانية"، و"الشعور بالذنب"، و"التبعية"، و"الطموح"، و"الاندفاعات الغريزية"، و"التعمد"، و"حب التغيير"، و"التحفظ"، و"صعوبة المنال" Unattainability، وقد تم تصنيف هذه السمات السابقة على ١١٥ شخصًا بالغًا، بعد أن تم تحديد طبيعة علاقاتهم المتبادلة.

وكانت النتائج التى تم الحصول عليها واضحة وحاسمة، وتفاوتت على وحدة قياس التفاؤل الفمى ("الانبساط"، و"التفاؤل"، و"العادات الغذائية"، و"الطموح"، و"حب التغيير") وبين وحدة قياس التشاؤم الفموى ("حب الوحدة"، و"الانغلاق"، و"التشاؤم"، و"التبعية"، و"السلبية"). وفيما يبدو، فإنهم قرروا - على هذا الأساس - أن افتراضات فرويد سليمة.

ومع هذا، فإن الفحص الدقيق للنتائج التفصيلية والعناصر الفعلية التى استخدمت للتصنيف - يجعل من الواضح أن ما انتهت إليه هذه الدراسة ما هو إلا بعد يمثل أحد طرفيه: "التفاؤل الفمى" ويمثل طرفه الآخر بـ"التشاؤم الفمى" ليس إلا نسخة طبق

(*) الانبساط: هو كون الشخص اجتماعيا ومنفتحًا على من حوله؛ بحيث يَغلب عليه وجود روابط عاطفية بينه وبين الأشياء والأحداث الخارجية تتغلب على الروابط العاطفية التى تربط بينه وبين الأشياء والأحداث الداخلية فى حياته الشخصية. (المترجم)

(**) الانطواء: هو أن يكون الشخص منغلقًا على ذاته؛ بحيث يغلب عليه وجود روابط عاطفية بينه وبين الأشياء والأحداث الداخلية تزيد على الروابط العاطفية التى تربط بينه وبين الأشياء والأحداث الخارجية فى حياته الشخصية. (المترجم)

الأصل من أحد الأبعاد المعروفة عن شخصية الإنسان التى تسمى "الانبساط - الانطواء"، والحقيقة أن الكلمتين: Exocathexis و Endocathexis ليستا إلا الترجمة اليونانية لكلمتى "الانبساط" Extraversion و"الانطواء" Introversion؛ فالفرد الانبساطى معروف بتفاؤله، والفرد الانطوائى معروف عنه أنه متشائم. كذلك، فإن الشخص الانبساطى معروف بحبه للتغيير، والفرد الانطوائى معروف عنه أنه سلبى ومحب للوحدة، وهكذا.

أما الحقيقة، فهى أن هذه الملاحظات تعود إلى أيام "هيبوقراط" Hippocrates وقدماء اليونانيين. وعلى هذا، فإنه ليس بالأمر الغريب أن يقوم فرويد بملاحظة الترابط الموجود بين هذه السمات الشخصية التى كثيراً ما تم الإشارة إليها من قبل الفلاسفة والاختصاصيين النفسيين منذ مئات السنين. ونتيجة لهذا، يمكننا القول بأن هذا الترابط غير ذى صلة بمحاولة تقدير مدى مصداقية نظرية فرويد.

إن الشيء المهم فى هذا الخصوص هو فروض فرويد السببية، التى ربطت بين هذه المجموعة من السمات والأبعاد الشخصية، وبين الأحداث المبكرة فى حياة الطفل من خلال التجارب السابقة؛ فإن هذا الفرض غير مرجح لعدة أسباب أهمها أن هناك أدلة مقبولة - الآن - على أن سمات شخصية الفرد الذى ينتمى إلى هذا النمط مبنية على أسس چينية (وراثية) قوية، وبمعنى آخر أنها - فى الأغلب الأعم - موروثة وليست مكتسبة، وهذا يخفض - إلى مدى بعيد - من أهمية التحكم فى البيئة.

إن ما هو أكثر أهمية هو التمييز الذى فرق به علماء الوراثة السلوكية الحديثة ما بين "المحددات البيئية" (بين الأسر Between-Families)، و"المحددات البيئية" (داخل نطاق الأسرة الواحدة Within-Family)، فإننا عندما نتكلم عن الأولى، فإننا نشير إلى أشياء مختلفة مثل: وضع الفرد الاجتماعى، والاقتصادى، والإمكانات التعليمية المختلفة، والمستويات العقلية المختلفة للمنازل، والقيم الأخلاقية للآباء والأمهات، والعادات والتقاليد التى استخدمت فى تنشئة الأبناء، إلى آخره. وبأسلوب آخر، فإن ما ننظر إليه هو الخصائص العقلية التى تميز أسرة عن أخرى.

أما بالنسبة للثانية، فإننا نشير بها إلى العوامل التى تؤثر على الأطفال بطرق مختلفة داخل نطاق الأسرة نفسها. وعلى سبيل المثال، فإن أحد أطفال الأسرة قد يصادف معلمًا جيدًا، بينما أخوه - أو أخته - يكون أسوأ حظًا، أو أن يتعرض أحدهم - دون الآخرين - لمرض خطير.

لقد أظهر كثير من الدراسات الشاملة التى أجريت داخل الولايات المتحدة الأمريكية، والمملكة المتحدة، والدول الإسكندنافية أن "المحددات البيئية" لشخصية الفرد - التى تتبقى بعد أن يتم استبعاد المحددات الوراثية - تكون لعوامل من ("داخل نطاق الأسرة نفسها" Within-Family)، وبأسلوب آخر، فإنه لا يوجد أى دليل على وجود ذلك النمط من "المحدد البيئى" الذى افترض فرويد وجوده!

لهذه الأسباب وحدها يكون من غير المتوقع أن نجد أى أدلة إيجابية على محدد لمجموعة الصفات الشخصية الملاحظة، من خلال دراسة التاريخ المبكر فى تغذية هذا الطفل، وفطامه، وتدريبه على استخدام الحمام... إلخ.

وبشكل عام، فإن الأدلة قد فشلت فى إثبات هذا الفرض، وبالرغم من أنه قد تم العثور على بعض العلاقات الارتباطية الضعيفة، فإنه يمكن تفسير هذه الارتباطات عادة - بطريقة أفضل - من خلال النظريات البديلة وبدون اللجوء لوجهات نظر فرويد، وعلى سبيل المثال: فإن "جولدمان وإسلير" قد وجدا علاقة ارتباطية ضعيفة بين "الفطام المبكر"، و"التشاؤم الفمى"، وتم تفسيرها من خلال بنود نظرية فرويد. ولكن، إذا أخذنا فى الاعتبار الأهمية الشديدة للعوامل الوراثية، فإنه من المرجح أن الأم المنطوية السلبية المتحفظة سوف تنجب أطفالاً منطويين سلبيين وميالين إلى التحفظ، كما أنه من المرجح أن مثل هذا النوع من الأمهات ستحاول الواحدة منهن أن تفطم ابنها قبل "الأم الانبساطية" Extraverted Mother.

وهكذا، فإننا نكون - مرة أخرى - فى مواجهة حالة تم فيها تفضيل "التفسير البيئى" لوجود ارتباط بين الأم وطفلها على "التفسير الوراثى"، بالرغم من عدم وجود أى أدلة تمكننا من تجاهل هذه التفسيرات الوراثية البديلة.

كما أن هناك عديداً من الخصائص التى تميزت بها دراسة "جولدمان وإسلير"، وهى خصائص تتعارض مع تنبؤات فرويد بصورة مباشرة، ومن أمثلة ذلك الملاحظة التى ذكرت فيها ما نصه: "إن المعطيات التى حصلنا عليها من خلال هذه الدراسة لا تؤكد الفرضية الجدلية التى يطرحها التحليل النفسى، بأن كل "الإحباط" و"عدم الصبر" و"العدوانية الفمية" هى خصائص لا تفصم ولا تنفصل؛ بل إنه لا يوجد ما يدل على وجود أى رابطة بينها وبين بعضها بعضاً".

وعندما قامت بالتحليل الإحصائى للأرقام، فإنها وجدت أنه من الضرورى أن تسلم بفرض وجود عاملين، حتى يمكنها شرح كل العلاقات الداخلية الموجودة بين السمات الشخصية، وليس عاملاً واحداً كما رأت نظرية فرويد.

فى الطبعة الأولى من كتاب "كلاين" قام بتلخيص نتائج مرتبطة بزملة الشخصية النفسية الجنسية Psychosexual Personality Syndrome، ومن ثم فقد وجد نفسه مجبراً على الوصول إلى النتيجة التالية: "إن هناك عديداً من الدراسات التى حاولت أن تربط بين "إجراءات تربية الأطفال وتنشئتهم"، و"نمو أو ارتقاء الشخصية"، ومن بين كل هذه الدراسات، فإننى لم أعثر إلا على دراستين فقط يؤيدان بصورة طفيفة نظرية فرويد".

وهو هنا يشير إلى دراسة "جولدمان وإسلير" التى انتهينا تواً من مناقشتها، وإلى الدراسة التى قام بها بنفسه، والتى استخدم خلالها "صور بلاكى"، وكلنا يعلم أن "كلاين" رجل محنك أكثر من كل المؤلفين فى مجاله، وأنه يبذل كل ما فى جهده ليثبت أن نظرية التحليل النفسى – فى حقل تخصصه – أكثر تعقيداً مما يتصوره الباحثون فى هذا المجال، وهو قد ذكر فى كتابه: " بالإضافة إلى المتغير البيئى ("التدريب على استخدام الحمَّام" Toilet-training)؛ فإن هناك متغيراً جسميا (النمط الشرجى)، وأنه فقط فى حالة إذا ما تعرض الطفل – ذو النمط الشرجى – إلى تدريبات قاسية وشديدة الحدة – بخصوص ضرورة استخدامه للحمَّام – فإن الشخصية الشرجية سوف تبدأ فى النمو والتطور".

وبمعنى آخر، فإن "كلاين" قد وجد أن العوامل الوراثية تؤدى دوراً مهماً، وأنها تتفاعل مع المتغيرات البيئية (مثل التدريب على استخدام الحمَّام) لتنتج الشخصية الشرجية، إن ما اكتشفه "كلاين" هو أن هناك ارتباطات قوية ما بين الدرجات المرتفعة على مقياسه الخاص بالقابلية للوسوسة وغيره من الاستخبارات المشابهة، ودرجة الاضطراب التى أظهرها الفرد الذى عُرضت عليه صورة كلب أسود صغير يتبرز بين "وِجار" (*) أبويه (مقارنة باستجابة هذا الفرد بالنسبة لعدد من صور بلاكى التى تم عرضها عليه)، إن معامل الارتباط ظل ذا قيمة موجبة بالنسبة للقابلية للوسوسة، وبالنسبة للاستجابات الخاصة بمشاهدة "صور بلاكى". وبصرف النظر عما إذا كانت مصنفة على أنها "مطرودة شرجيا" Anal Expulsive) كانتقام من الوالدين، أو لإظهار العدوانية تجاههما، أو "محتجزة شرجيا Anal Retentive (إخفاؤها من الوالدين كتعبير عن الحاجة لأن يكون نظيفاً).

من الصعب علينا تفهم كيف أن هذه الارتباطات قد مكنته من ادعاء أن الدراسة تؤيد فروض فرويد فيما يتعلق بالمسببات التى يتسم بها "مرض الوسواس" وأعراضه؛ لأنه - خلال بحثه - يعترف: "حيث إن نظرية التحليل النفسى قد افترضت أن الشخصية الشرجية تنتج عن أن الفرد يَعْلَق فى "المرحلة الاحتجازية الشرجية" Anal Retentive Phase، فإنه من الواجب أن يكون هناك ارتباط سلبى مع الشخصية "المطرودة شرجيا" Anal Expulsive.

وفيما يبدو، فإن وجود رابطة موجبة لم يقلق هذا الباحث كثيراً؛ بالرغم من أنه علمياً(**) قد يشعر بعضهم بأن حصوله على نتائج عكسية عما تنبأ به لا يُمَكِّنه من الاستمرار فى الادعاء بأن النتائج تؤيد فروضه!

(*) وِجار الكلب هو المكان الذى يعيش فيه الكلب (بيت الكلب). (المترجم)

(**) هذه هى طريقة هانز ج. أيزنك فى السخرية من الاستنتاج الذى خرج به "كلاين" من الدراسة التى زعم أنها تؤيد فرضيات نظرية فرويد. (المترجم)

كما أن "كلاين" قد ادعى أن نتائجه تؤيد نظرية فرويد، وحجته في هذا، هي:

" إنه لا يوجد أى تعليل منطقى آخر يربط ما بين استجابة الفرد والصور المعروضة عليه لكلب يتبرز، وبين السمات الوسواسية"! لكن إذا فحصنا عن قرب لاستخبارات أو الاستفتاءات التى أجاب عليها الفرد، فإننا سنجد أنها تحتوى على بنود تتعلق بالنظافة، وعلى سبيل المثال، هذا البند الذى يتساءل:

"عندما تأكل خارج المنزل، هل تتعجب من مدى نظافة المطبخ الذى تم فيه إعداد طعامك"؟ "هل تعتبر أن وجود كلاب فى المنزل هو أمر غير صحى"؟

إنه من الواضح أن الإجابة عن أمثال هذه الأسئلة السابقة، والمتعلقة بالنظافة - والموجودة فى الاستفتاء الخاص بـ"كلاين" - مرتبطة بالاستجابة التى يمكن الحصول عليها من مشاهدة صورة خاصة بكلب يتبرز، وأن اهتمام الفرد بالأمور المتعلقة بالصحة والنظافة والنظام والتحكم فى الذات - لأن عرض صورة الكلب يمس مدى استعداد الفرد لهذه الأمور - هو المحور الذى تدور من حوله "زملة الشخصية الوسواسية" **Obsessional Personality Syndrome**، كما حددها "كلاين" فى الاستفتاء الخاص به، ولأنه لا يوجد فى نظرية فرويد ما يفسر الوصول إلى مثل هذه النتائج السابقة.

أخيرًا، وليس آخرًا، فإن "كلاين" قد افترض - فى دراسته - أن صورة بلاكى وهو يتبرز هى مقياس يعبر عن "الشبَق الشرجى" **Anal Eroticism**. ولكن، حتى إذا وافقنا على أنها مرتبطة - نوعًا ما - بالشرج، فإنه لا يوجد أى سبب منطقى للادعاء بأن الصورة تحتوى على أى "شبق" أو "إثارة جنسية"، إن كلمة "الشّبَق" - فى اللغة الإنجليزية - تشير إلى الحب، خاصة الجانب الجنسى منه، ودراسة "كلاين" لم توضح لنا معنى هذه الكلمة عند فرويد؛ فـ"كلاين" لا يشعر بأى مسئولية تجاه توضيح الكيفية التى أصبحت بها صورة بلاكى مقياسًا لـ"الشّبَق الشرجى". وبالمثل، فإن دراسات كل من "جولدمان وإسلير" و"كلاين" لا تعطينا أى سبب للاعتقاد بأن هناك علاقة سببية جوهرية (ذات مغزى حقيقى) بين العوامل التى افترضت نظرية فرويد أنها المحددات المسئولة عن تحديد نوع الشخصية.

إن هناك مصادر أخرى لبعض الأدلة التى تبدو وكأنها تؤيد وجهة النظر القائلة بوجود تأثير بيئى فى تاريخ الطفل ساعد - فيما بعد - على تحديد نمو وتطور شخصيته، وأحد أهم هذه المصادر سوف يتم دراسته لاحقًا، عندما يتم ذكر تأثير فرويد على العلم الذى يبحث فى أصل الجنس البشرى وتاريخه ("علم أصول الإنسان" Anthropology)، وعن الأدلة التى عثر عليها فى حضارات أخرى بخلاف حضارتنا، وهناك - أيضًا - سيكون بإمكاننا رؤية أن الأدلة ضعيفة وغير واضحة المعالم، وأنها فشلت فى تأييد وجهة نظر التحليل النفسى.

دعونا الآن نأخذ فى الاعتبار ما يسمى بالدراسات التجريبية الخاصة بدراسة مفهوم "الكبت"؛ فطبقًا لأقوال فرويد: "إن روح مفهوم "الكبت" تكمن - ببساطة - فى أن الفرد يرفض الاحتفاظ بشىء ما فى الوعى".

إن "الكبت" ليس إلا آلية للدفاع تستخدم بغرض حماية الفرد من تجارب عاطفية كريهة وغير محببة لنفسه، وهناك عديد من الدراسات التى تشرح الأسلوب التجريبى المستخدم لدراسة هذا المفهوم. إحدى هذه الدراسات تم خلالها استخدام نوعين مختلفين من الأحلام. النوع الأول: كان له طابع أوديبى، والنوع الثانى: كان مشابهًا له، وإن خلا من الطابع الأوديبى، وتم تقسيم الأفراد إلى مجموعتين، تم إخبار كل مجموعة بحلم من الحلمين السابقين. وفيما بعد، طُلب من أفراد المجموعتين أن يتذكروا تفاصيل الحلم، أوضحت نتائج هذه التجربة أن القدرة على تذكر الحلم ذى الطابع الأوديبى كانت أسوأ بكثير - وبطريقة جوهرية - من الحلم الآخر، وكما هو متوقع من أسس نظرية فرويد.

فى دراسة أخرى، تم استخدام طريقة "تداعى الكلمات" Word Association باستخدام ١٠٠ كلمة مختلفة، وكالعادة كان يطلب من الفرد أن يستجيب للكلمة المطروحة بأول كلمة تخطر على باله عند تطبيق هذا الاختبار، وتم قياس الاستجابات أو الأرجاع النفسية، وطول الفترة الزمنية التى استغرقها الفرد فى الاستجابة للكلمة التى طرحت عليه، بعد هذا تم انتقاء عشر كلمات اتسمت بأنها تثير الاضطراب

(كأن يستغرق الفرد مدة طويلة فى الاستجابة أو أن تظهر عليه انفعالات نفسية... إلخ) وعشر كلمات أخرى اتسمت بأنها لا تثير أى اضطراب، وبعدها تم تعليم الفرد كيفية الرد بكلمة واحدة كاستجابة لمشاهدة صورة ما، وبعد الانتهاء من هذه الإجراءات تم تقسيمهم إلى مجموعات وسؤال كل مجموعة عما تتذكره بعد فترات زمنية مختلفة (المجموعة الأولى تم سؤال أفرادها بعد ١٥ دقيقة، أما المجموعة الثانية فقد تم سؤال أفرادها بعد يومين، وتم سؤال المجموعة الثالثة بعد ٤ أيام، فى حين تم فحص أفراد المجموعة الرابعة بعد ٧ أيام)، وبعدها كان عليهم جميعًا أن يتعلموا - مرة أخرى - الكلمات التى يجب الرد بها على الصور المختلفة.

إن هذه الدراسة خرجت علينا بنتيجتين: النتيجة الأولى هى أن الكلمات العاطفية ذات الطابع الانفعالى استغرقت مدة أطول فى التعلم (تطلبت عددًا أكبر من المحاولات) من الكلمات المحايدة، النتيجة الثانية هى أنه لا توجد فروق بين قدرة عقل الفرد على الاحتفاظ بالكلمات المثيرة للاضطراب، وقدرته على الاحتفاظ بالكلمات المحايدة، إن القائمين على هذه الدراسة ظنوا أن النتيجة الأولى تؤيد نظرية فرويد، وإن كانت النتيجة الثانية قد فشلت فى القيام بهذا.

إن هناك كثيرًا من الارتباطات العديدة والمختلفة بين الكلمات التى تثير الاضطراب، وحيث إنه لم يتم التحكم فى هذا العامل الخاص بعدد الارتباطات المختلفة الموجودة ما بين الكلمات المحايدة والكلمات المثيرة للاضطراب، فإن تلك النتائج الإيجابية التى زعموا الحصول عليها لا يمكن استخدامها فى تأكيد مفهوم فرويد لـ"الكبت".

وهناك دراسات أخرى أظهرت - باستخدام أساليب تجريبية أفضل - أن النسيان الذى حدث للرابطة الموجودة بين الكلمة والصورة يعود إلى التأثير الانفعالى لـ"المنبه" Stimuli. وقد استنتج "كلاين" من هذا أنها تعتبر مثالاً واضحًا على مفهوم الكبت لدى فرويد.

لكن لسوء الحظ، هناك فروض بديلة يمكنها أن تفسر - بطريقة أفضل - حقيقة ما حدث؛ فإن التجارب قد أوضحت أن التعلم يمر بمرحلتين أساسيتين.

المرحلة الأولى: هى مرحلة "الذاكرة قصيرة المدى" **Memory term - Short**، وفيها تقوم الدوائر الموجودة بقشرة الدماغ بالاحتفاظ بالمعلومة لمدة قصيرة، ولكن حتى تتحول المعلومة إلى شيء يمكن استعادته بسهولة؛ فإنها يجب أن تنتقل إلى:

المرحلة الثانية: "الذاكرة طويلة المدى" **Memory term - Long**، وهى تتكون من خلايا بها كيماويات تتطبع بآثار الخبرات التى تمر بالفرد، إن عملية الانتقال هذه، تسمى "التثبيت" **Consolidation**، وتصبح ممكنة من خلال "استثارة القشرة الدماغية"، بمعنى الدرجة التى يشحن بها الدماغ، وتُظهِر الأدلة أن هذا الإجراء الخاص بعملية التثبيت يستغرق بعض الوقت. وخلال هذه الفترة الزمنية التى يتم فيها التثبيت تكون المعلومة غير متاحة (بمعنى أن الفرد لا يستطيع تذكرها). إن هذا هو ما يسمى بنظرية "اضمحلال الفعل" **Action Decrement**، وهى تتسبب فى صعوبات كبيرة فى تفسير نتائج من قبيل التى تم ذكرها فيما سبق، إن الكلمات المثيرة للاضطراب والانفعال معروف عنها أنها تتسبب فى زيادة "استثارة القشرة الدماغية"؛ ولهذا، فإنها تنتج هذا الاضمحلال خلال فترة التثبيت الذى تتحدث عنه نظرية "اضمحلال الفعل"، وهذا يعتبر وجهة نظر بديلة لنظرية فرويد، والمؤلفون الذين صمموا التجارب السابق ذكرها لم يأخذوا وجهة النظر البديلة هذه فى الاعتبار؛ بالرغم من وجود أساس علمى لها أقوى تجريبيًا، وأنه لا يمكن استبعادها إلا من خلال تجربة تثبت خطأها. وحيث إنهم لم يفعلوا هذا، يكون علينا أن نستنتج أن التجارب التى أجريت على "الكبت" لا تعطينا أى رد واضح على التساؤل محل البحث، وتظهر الحاجة إلى تجربة مصممة بطريقة أفضل وأكثر حرصًا حتى يمكن استبعاد التفسير الذى يلجأ إلى نظرية "اضمحلال الفعل".

وهكذا، يظهر لنا - مرة أخرى - أنه عند فحص التاريخ المسجل للتجارب التى تعتمد على المشاهدة والاختبار، فإن مؤلفى هذه التجارب دائمًا ما يفشلون فى النظر

إلى دراساتهم – والنتائج المترتبة عليها – من وجهة نظر "النظرية النفسية"، إنه عليهم أن يعرفوا ما إذا كانت هذه النتائج يمكن تفسيرها بطريقة مماثلة – أو أفضل – من خلال مبادئ شائعة بين علماء النفس الأكاديميين، بدلاً من مبادئ نظرية فرويد، ولقد شاهدنا بالفعل هذا الموقف الخاطئ، عندما درسنا حالة "هانز الصغير" Little Hans، فبالرغم من أن حقائق الحالة كان يمكن تفسيرها بسهولة من خلال مبادئ نظرية "التعلم الشرطي" Conditioning؛ فإن علماء التحليل النفسي لم يقوموا بأي محاولة للاستفادة من هذه المبادئ، أو تصميم تجارب مبنية على المشاهدة والاختبار، يمكنها التفريق بين مبادئ النظريتين، والحكم على صحة إحداهما.

إن تصميم مثل هذه التجارب هو أمر مفيد جداً، وهو وظيفة قيمة بالنسبة للعلماء. وبالرغم من أن هناك صعوبات كبيرة في الحصول على أمثال هذه التجارب، فإن تجاهل التفسيرات البديلة هو أسلوب غير علمي في البحث، ولا يؤدي إلى أي نتائج يمكن الركون إليها.

دعنا الآن نفحص بعض الدراسات[١] التي تعتبر ذات تصميم جيد وقدرة حاسمة على الوصول إلى نتائج إيجابية في هذا الخصوص (الأخذ في الاعتبار وجهات النظر البديلة).

الدراسة الأولى: متعلقة بمص الأصابع؛ في هذه الدراسة تم اختبار العلاقة بين الخبرات التي تعرض لها الرضيع خلال المراحل المبكرة من رضاعته، ومص الأصابع عندما يصل إلى مرحلة الطفولة، وتم اختبار عديد من فروض فرويد التي تربط بين مص الأصابع، و"الجنسية الفموية" Orality، وأول ما نلاحظه هو أن اثنين من فروض فرويد الأساسية لم تحصلا على ما يؤيدهما، إن هذه الدراسة قد أثبتت أنه لا توجد علاقة بين طول "فترة الرضاعة" Breast Feeding، وحدة حالة مص الأصابع عند الطفل

(١) لقد ذُكر كثير من التفاصيل في كتب كل من: "آيزينك"، و"ولسون"، و"كلاين". انظر إلى المراجع الموجودة في نهاية الكتاب. (المؤلف)

(لا من حيث استمرارية العادة أو عدد المرات)، كما أنها أثبتت عدم وجود أى رابطة معنوية ما بين عمر الطفل عند الفطام، وحِدَّة حالة مص الأصابع (مرة أخرى، لا من حيث الاستمرار أو التكرارية)، إن هذه النتائج حاسمة من حيث كونها تتعارض بشدة مع نظرية فرويد.

وهناك نتيجتان قد يمكن تفسيرهما فى ظل مبادئ نظرية فرويد. النتيجة الأولى: الأطفال الذين تم تأخير فطامهم أظهروا استجابات أكثر حدة عن الأطفال الذين تم تبكير فطامهم، والنتيجة الثانية: إن الأطفال الذين كانت فترات تغذية الواحد منهم قصيرة - سواء من البزازة أو الرضاعة الطبيعية - كانت حِدَّة حالة مص الأصابع أشد، واستمرت لمدة أطول أيضًا.

فهل من الممكن استخدام النتيجتين الأخيرتين فى تأييد نظرية فرويد؟

إنه علينا أن نلاحظ - أولاً - أن الأطفال لم يتم تقسيمهم بطريقة عشوائية إلى مجموعتين؛ مجموعة الفطام المبكر، ومجموعة الفطام المتأخر. ومن ثم فإنه لا يمكننا استبعاد إمكانية وجود روابط وراثية تربط ما بين سلوك الأمهات وسلوك أطفالهن، وعلى سبيل المثال: فإن التغذية غير الكافية - أو الزائدة عن الحد - من جانب الأم، قد تكون انعكاسًا لأحد سماتها الشخصية، التى تظهر فى الطفل فى صورة مص الأصابع (بمعنى الانفعالات العاطفية العامة والعُصابية).

كذلك، فإن هناك احتمالاً أو فرضًا آخر؛ فإن سلوك الرضيع قد يؤثر على الطريقة التى تعامله بها الأم، وعلى سبيل المثال، فإننا عندما اكتشفنا أن الرضيع الذى تم تأخير فطامه قد أظهر استجابة أكثر حدة تجاه محاولة فطامه، فإن السبب فى هذا قد يكون الاستجابة العنيفة التى أظهرها الرضيع تجاه محاولة فطامه. وبالمثل، فإنه يمكننا الشك فى النتيجة التى تقول: إن أوقات الرضاعة القصيرة تعنى بالضرورة "عدم استمتاع الطفل بها" Inadequate Gratification كما افترض المؤلف؛ لأنه لا يمكننا أن نفترض أن الأم التى قامت بالتغذية لفترات قصيرة قد خطفت البزازة من فم الطفل قبل أن ينتهى منها (يصل إلى حد كاف من الإشباع). إنه من المرجح أنها سحبت البزازة

بعد أن أظهر الرضيع عديداً من العلامات التى تدل على أنه قد انتهى منها (مثل التقيؤ). إن معظم الأمهات يدركن أن الأطفال الرضع يتفاوتون بشدة فيما بينهم، من حيث المعدل الذى يُستهلك به اللبن من البزازة أو من الصدر (سرعة الاستهلاك)، ومن حيث الكمية التى يستهلكها الرضيع قبل أن يكتفى، وعلى هذا، فإنه من المرجح أن طول فترة التغذية تتحدد من خلال عوامل يساهم فيها كل من الرضيع وأمه بصورة متساوية.

وفيما يتعلق بالرابطة التى تربط بين قصر فترة الرضاعة وحدة عادة مص الأصابع عند الطفل فيما بعد - التى هى فى الواقع النتيجة الوحيدة الإيجابية التى لها أى علاقة بنظرية فرويد الخاصة بـ"الشَّبَق الفموى" Oral Eroticism - فإنه يمكننا اللجوء مرة أخرى إلى الروابط الوراثية بين سلوك الأم والطفل، أو قد يكون بإمكاننا اقتراح أن الرضاعة لفترات قصيرة قد تحددت بواسطة الطفل وليس أمه.

وإذا كان لنا أن نفترض وجود "دافع عام" يدفع الطفل لأن يقوم بمثل هذه العادة (مص الأصابع)، وهو الدافع الذى يمكن أن يتفاوت بصورة كبيرة بين طفل وآخر بصرف النظر عن "كمية الرضعة" اللازمة لإشباعه، فإن الطفل الذى يمص رضعته بسرعة (أى خلال فترة قصيرة) يميل إلى أن يكون حالة حادة - من حيث طول الفترة وعدد المرات - من حالات مص الأصابع عندما يصل إلى مرحلة الطفولة. وهذه يمكن أن تكون "نظرية وراثية بديلة" تناسب النتائج الفعلية بطريقة أفضل.

وهناك تفسير آخر محتمل: فإن كل البيانات التى تعاملنا معها - فيما سبق - تم الحصول عليها من تقارير استرجاعية قدمتها الأمهات. وبالرغم من أنه تم وضع حد زمنى لا يتجاوز ستة أشهر بين الأحداث محل البحث، وبين المقابلة الشخصية التى تم خلالها تسجيل هذه الأحداث؛ فإنه يجب علينا أن نعترف بإمكانية حدوث "تحريف" أو تشويه نتيجة لتأثيرات الدوافع على الذاكرة. وإذا كان لنا أن نفترض وجود "رغبة اجتماعية" Social Desirability لدى الأم بأن تترك انطباعًا جيداً لدى الطبيب، وعلى سبيل المثال: فإن الأم التى تخبرنا بأن طفلها نادراً ما يمص إصبعه يكون من المرجح

أنها تمضى كثيراً من الوقت فى محاولة إرضاع طفلها، وهكذا، فإنه يكون لدينا مجموعة من التفسيرات البديلة التى لم يأخذها مؤلف التقرير فى الاعتبار، وهى - جميعها - محتملة الحدوث أكثر من التفسيرات التى تقدمها نظرية فرويد.

إن واحدة من أهم المناطق التى اهتم بها المحلل النفسى هى "الاضطرابات النفس الجسمية" Psychosomatic Disorders (أى الاضطرابات الجسدية العائدة لعوامل نفسية)، ويفترض علماء التحليل النفسى أن هذه الأمراض الجسدية نتجت عن أحداث ذهنية متعلقة بـ"النشاطات الجنسية فى عهد الطفولة"، و"عقدة أوديب"، وغيرها من العقد، إن مرض "الربو" Asthma هو أحد هذه الاضطرابات النفس الجسمية. ومؤخراً، قيل كثير من الحديث الذى يؤكد أن هناك "جذوراً نفسية" لهذا المرض، وأن كثيراً من "الديناميات النفسية" psychodynamics الموجودة داخل الفرد الذى يعانى من "الربو" ليست إلا خوفه اللاواعى من فقدان الأم، وأن أزمة "الربو" ليست - فى الواقع - إلا صرخة مكبوتة، وهناك طريقة أخرى لدراسة العلاقة السببية، إذا أخذنا فى الاعتبار دور الروائح؛ فلقد حاول بعض المحللين أن يختبروا الفرض الذى يقول: "إن أزمة الربو ليست إلا الوسيلة التى يدافع بها الجسد عن نفسه ضد روائح تذكره بخلافات لم تحل منذ عهد الطفولة".

ولقد استخدم المؤلفون خطوتين فى التعامل معها: الخطوة الأولى: تم فيها جمع معلومات عن عديد من أنواع الروائح التى سبق لها أن تسببت فى حدوث أزمات الربو، وأمكنهم أن يصنفوا ٧٤٪ من هذه الروائح، على أنها "ذات أصول شرجية" Anal Derivative، والخطوة الثانية: تم خلالها تسجيل "استجابة التداعى الحر"(*) لمجموعة من الأشخاص المصابين بالربو، ومجموعة من الأشخاص الأصحاء، تجاه عدد من الروائح، وخرجوا من هذا الاختبار بنتيجة مؤداها أن الفرد المصاب بالربو قد أظهر مقاومة أكثر لهذا النوع من التداعى. (بمعنى أن التداعى كان مقيداً أو موقوفاً) ولهذا،

(*) هى الكلمة التى يخرج بها الفرد محل الاختبار - من تلقاء نفسه - عندما يشم رائحة معينة. (المترجم)

افترضوا أن النتيجة تؤيد "النظرية الدينامية النفسية" Psychodynamic Theory، التى تسلم بوجود نوع من "الأسباب الشرجية" لمرض الربو، وبالرغم من أن الحقائق لا تؤيد هذا الاستنتاج؛ فإن الروائح التى أشار الفرد المريض بالربو إليها على أنها السبب فى حدوث الأزمة الصحية – قد تم تصنيفها لثلاثة أنواع:

النوع الأول: الروائح المرتبطة بالطعام من مثل رائحة اللحم المدخن والبصل والثوم.

النوع الثانى: هى روائح متصلة بالحب والشاعرية من مثل العطور والربيع والأزهار.

النوع الثالث: هى الروائح المتعلقة بـ"النظافة – والقذارة"، مثل: الروائح الكريهة، والمعقمات، والكبريت، والدخان، ومواد الطلاء، والأحصنة... إلخ.

بعد هذا، يقوم المؤلفون بما يدعون أنه **قفزة منطقية** – وإن كانت فى الواقع لا تهدف إلا إلى تأكيد "وجهات نظر التحليل النفسى" وتأييدها – فهم يصنفون هذه الأنواع الثلاثة على أنها مراحل: "فمية Oral"، و"تناسلية" Genital، و"شرجية" Anal على الترتيب. وحيث إن ٧٤٪ من هذه الروائح تقع فى "المرحلة الشرجية " كما سبق وذكرنا؛ فإن فرض فرويد الخاص بالأهمية الجوهرية الشديدة للخبرة "التى يمر بها الطفل خلال تدريبه على استخدام الحمام Toilet-training" تكون – من وجهة نظرهم – قد ثبت صحتها!

وفيما يبدو، فإنه لم يخطر لهؤلاء المؤلفين أنه قد تم توسيع "المرحلة الشرجية" عن عمد، حتى إنها أصبحت أكبر بكثير من مجموع المجموعتين الأولى والثانية مجتمعتين؛ وأن ٧٤٪ من كل الروائح أصبح لها "علاقات قذرة" وأصبحت غير محببة وكريهة، إذا ما قورنت بروائح الطعام والعطور بالنسبة لمعظم الأفراد غير المصابين بمرض الربو، وفى الواقع، فإنه لم يكن هناك إلا رائحتان من الـ٤٥ رائحة المصنفة فى المرحلة الشرجية لهما علاقة حقيقية بالشرج (بمعنى أن لهما علاقة برائحة البراز)؛ فإنه من الصعب الربط بين روائح الدخان والمعَقمات ومواد الطلاء والشرج.

إن ما سبق مفروغ منه. وفى الحقيقة، فإن الروائح التى يمكن أن تتسبب فى حدوث "أزمة ربو" هى التى يراها معظم الأفراد الأصحاء على أنها روائح كريهة!

طبقًا لنظرية النشوء والارتقاء وحدها، فإنه قد يكون من المتوقع أن أمثال هذه الروائح لها استجابة حيوية (أى إن لها تأثيرًا جسمانيًا)، وحيث إن أعراض مرض الربو هى انغلاق ممرات التنفس؛ فإنه من المعقول أن نفسر هذا الانغلاق على أنه يمثل الاستجابة المنعكسة من الجسد لرفض استنشاق هذه الروائح غير المحببة إليه، ولكنه يكون من الصعب أن نرى علاقة بينها وبين "الشرج"، أو "صراعات الطفولة التى لم يتم حلها"، إن هذه "الاستجابة المنعكسة" تتناسب أكثر مع النظرية الفسيولوچية الخاصة بالحساسية الشديدة التى يتسم بها مرض الربو، ولكنه غير مرتبط على الإطلاق بنظرية فرويد.

إن وجود هذا العدد الكبير من "التداعيات المقيدة أو الموقوفة" طبقًا لنظرية فرويد - كان يجب أن يحدث مع الروائح الشرجية فقط، أما الواقع، فهو أن الفروق بين أفراد المجموعة المصابة بالربو، وأفراد المجموعة الضابطة، كان موجودًا فى كل الأنواع الثلاثة من الروائح، وحتى إذا تقبلنا أن وجود "تداعيات مقيدة أو موقوفة" يمكن أن يعتبر مقياسًا مقبولاً لـ"الانفعالات Emotionality"؛ فإن الروائح لا يمكن أن تدل وحدها على أنها السبب فى حدوث أزمة الربو؛ لأنها تمثل تهديدًا أكبر لأفراد المجموعة المصابة بالربو عن أفراد المجموعة الضابطة. ولهذا، فإنه من الطبيعى أن تتسبب فى انفعالات أكبر، إن الأعراض التى يعانى منها المريض، عندما يمر بأزمة الربو - أعراض كريهة، وعلى هذا، فإنه ليس من العجيب أن ينفعل المريض المصاب بالربو عندما يتعرض لمؤثر (الرائحة) من المرجح أن يعجل بحدوث هذه الأزمة الكريهة.

وفى دراسة أخرى كانت الفروض محل الاختبار هى أن "الرغبات الفموية السلبية" Oral Passive Wishes، تؤدى دورًا مهمًا فى إحداث تقرحات المعدة الناشئة عن عمل العصارات الهضمية (Peptic Ulcers). إننا نحاول - هنا - التفرقة بين خواص الأغذية التى تقدم فرصًا تفاضلية للمقارنة بين الإشباع الناتج عن: الفموية السلبية (بمعنى المص)، مقارنة بالعدوانية الفموية (بمعنى العض). فطبقًا للنظرية، فإنه يمكننا توقع أن الفرد ذا الفموية السلبية سيفضل النوعية المذكورة أولاً من الأغذية التالية،

وأن الفرد ذا الفموية العدوانية سيفضل النوعية المذكورة ثانيًا من الأغذية التالية: الطرية مقابل الناشفة أو السائلة مقابل الصلبة أو الحلوة مقابل المرة أو اللاذعة مقابل المالحة أو الرطبة مقابل الجافة أو غير المتبل مقابل المتبل أو السميكة مقابل الرفيعة أو الدسمة مقابل غير الدسمة، وطبقًا لنظرية التحليل النفسى، فإن الإحباط الذى يشعر به الفرد من عدم حصوله على ما يشتهيه من إشباع - بالنسبة للفرد ذى الرغبة الفمية السلبية - يؤدى "دورًا معنويًا" ذا "طابع سببى" (أى أنه يتسبب فى تقرحات المعدة).

إن المؤلفين فى هذه الدراسة قاموا بمقارنة ٣٨ مريضًا بالقرحة المعدية، فى مقابل ٦٢ فردًا غير مصابين بالقرحة، من ناحية "تفضيلهم الغذائى" Food Preferences، ووجدوا أن المجموعة الأولى كانت درجات الفمية السلبية لديها أعلى جوهريًا (بمعنى أن أفراد هذه المجموعة اختاروا الأغذية الطرية، والسائلة، والحلوة، واللاذعة، والرطبة، وغير المتبلة، والسميكة، والدسمة).

فهل تؤيد هذه النتائج افتراضات نظرية التحليل النفسى؟

إن الاحتمال الأكبر هو أن المرضى المصابين بقرحة المعدة قد فضلوا "الأغذية السلبية"؛ لأنها أسهل فى الهضم وأقل إثارة للمتاعب من "الأغذية العدوانية"، وهو عامل لا يؤدى أى دور بالنسبة للمجموعة الأخرى (أفراد المجموعة الضابطة غير المصابين بالقرحة)؛ حيث تضمن التشخيص فرضًا مؤداه أن الاضطراب الذى يعانى منه كثير من أفراد المجموعة الأولى يمكن تصنيفه على أنه حاد مقارنة بالقرحات التى تتميز بأنها دائمة الحدوث (مزمنة) وجسمانية ("Constitutional")، وأن إصابات مثل "الفتق" Hernia والسرطان والجروح الناتجة عن حوادث السيارات، كلها من غير المرجح أن تتسبب فى متاعب للمريض على المدى الطويل، أو أن تدفعه لأن يعدل من "تفضيلاته الغذائية". أما فى حالة "القرحة المعدية" فإنها تحدث ببطء، وخلال مدة زمنية طويلة نسبيًا قبل أن تتطلب تدخلاً جراحيًا، وهذه الفترة الزمنية، من الطول بحيث تسمح بحدوث تغييرات ذاتية، أو بناء على نصيحة طبيب فى نوعية الأطعمة التى يتم تناولها.

إن ما نجحت – هذه الدراسة – فى إثباته هو أن هناك علاقة بين الإصابة بالقرحات المعدية، وبين "التفضيلات الغذائية" للفرد، وهو أمر قليل الصلة فى إيضاح العلاقة بين التأثيرات والأسباب (Cause and Effect)؛ فإنه من المحتمل أن تكون "التفضيلات الغذائية" هى السبب الأساسى فى حدوث قرحات وأن بناءنا الجسمانى – من الناحية البيوكيميائية – يتأثر جزئيًا بالكيمائيات التى تستهلكها أجسادنا فى صورة غذاء.

وهناك عديد من الفروض البديلة، مثل أن تكون كل من "القرح" و"التفضيلات الغذائية" ليسوا إلا انعكاسًا لمتغير ثالث، مثل عدم الاستقرار العاطفى، أو القلق المرضى (الحصر)، إن هذه الدراسة تترك الباب مفتوحًا على مصراعيه، بالنسبة لكثير من التفسيرات البديلة.

سوف أعرض مثالاً أخيرًا للدراسات التجريبية (المبنية على المشاهدة والاختبار فقط) للأمراض الجسدية التى تعود لعوامل نفسية، من ذات النوعية النفسية الدينامية(*) "psychodynamic". فى هذا المثال، فإن فرويد – فى عام ١٩٠٥م – قام بوصف حالة المريضة "دورا "Dora، وخلال وصفه لهذه الحالة ربط بين التهاب الزائدة الدودية، والأحلام الجامحة الخاصة بالحصول على طفل (Birth Fantasies)، وعندما كانت "دورا" فى السابعة عشر من عمرها، بدأت – فجأة – تشكو من التهاب الزائدة الدودية، وقد قام فرويد بتحليل حالتها، بعد مرور عام كامل من هذه الشكوى المفاجئة. وقد اكتشف أن الالتهاب حدث بعد تسعة شهور من تلقيها لـ"عروض وقحة" Improper Proposals من رجل متزوج كانت تقوم على رعاية أطفاله من زوجته الحقيقية، وكان لديها آمال خفية فى أن هذا الرجل سوف يتزوج بها؛ استنتج فرويد أن التهاب الزائدة الدودية هو الذى مكنها من أن تحقق حلمها الجامح الخاص بالحصول على طفل. هذا، وقد قام بعض المشتغلين بالتحليل النفسى بتعميم هذه الفكرة، من أمثال "شتودارت" Stoddart، و"جروديك" Groddeck، كما تبناها عديد من المحققين

(*) راجع الشرح الوارد فيما سبق لمعنى مصطلح "النفسية الدينامية". (المترجم)

الآخرين. وعلى سبيل المثال: فإن "إيتسهار إيلون" Yizhar Eylon قام بإجراء فحوص مفصلة، لاختبار الفرض القائل:"إن هناك بعض الأحداث فى الحياة التى يمكن أن يتولد عنها أحلام جامحة خاصة بالحصول على طفل (Birth Fantasies)، وإن مثل هذه الأحداث يتولد عنها ألم حاد فى الجزء العلوى من عظام الحرقفة اليمنى، وهو ما يقود الطبيب لتشخيص هذه الآلام على أنها التهاب فى الزائدة الدودية، يتطلب جراحة لاستئصالها".

قام هذا الباحث بمقارنة مجموعة من المريضات اللائى تم استئصال الزائدة الدودية لديهن، بمجموعة مماثلة من الحالات الجراحية الأخرى، ووجد أنه فى التاريخ الحديث للمجموعة التجريبية الأولى، كان هناك عدد كبير جداً جوهرى من الحالات "المتعلقة بالولادة"، تضمنت هذه الحالات: "ولادة فعلية"، و"حالات حمل" لقريباتها، و"حفلات زواج" حضرتها المريضة، فهل يمكن لهذا أن يعد دليلاً على صحة فروض نظرية فرويد؟

إن الإجابة يجب أن تكون بالنفى.

إن فروض نظرية فرويد تلمح لأنه علينا أن نتوقع عدداً أكبر من عمليات التهاب الزائدة الدودية فى النساء بعد حدوث حالات "متعلقة بالولادة" لهن (بمعنى أن الفحص الطبى للمريضات اللائى تم استئصال الزائدة الدودية لهن سوف يكشف عن وجود رابطة بين حدوث حالات متعلقة بالولادة والحالات التى تم خلالها استئصال الزائدة الدودية بدون داع). لكن النتائج التى حصل عليها "إيتسهار إيلون" لا تدعم هذا الفرض الأخير.

هناك فرض آخر، وقد قام "إيتسهار إيلون" باختباره، وهو فرض يمكن اعتباره فرضاً ضرورياً بالنسبة لنظرية فرويد، إن هذا الفرض يتصل بوجوب أن تكون العلاقة بين الحالات "المتعلقة بالولادة"، والتهاب الزائدة الدودية شديدة الوثوق بالنسبة للإناث صغيرات السن؛ حيث إنهن أكثر تعرضاً للأحلام الجامحة الخاصة بالحصول على طفل (Birth Fantasies) من الإناث الأكبر سناً، ولكنه اكتشف أن النتائج كانت تشير إلى

العكس تمامًا، وكل ما تبقى له هو نتائج إيجابية خارجية (بمعنى أنها لا تتعلق بصلب الموضوع)، وهى على وجه التحديد ليست إلا رابطة بسيطة بين استئصال الزائدة الدودية، والحالات "المتعلقة بالولادة". وحتى فى هذا، فإنه علينا ملاحظة أن المقاييس والمعايير التى وضعها فى تعريفه للحالات "المتعلقة بالولادة" - لم يكتشف أى دلالة جوهرية لاستئصال الزائدة الدودية. وهو خرج علينا بوجود هذه الرابطة البسيطة عن طريق الاقتصار على خمسة من الأشخاص المقربين من الناحية النفسية للمريضة، ومد فترة البحث إلى ستة شهور - سابقة أو تالية - لاستئصال الزائدة الدودية منها، وعندها فقط تمكن من الحصول على فروق جوهرية فى صالح الفروض الخاصة به، وعلينا تذكر أن مثل هذا "التلاعب بالبيانات" مرفوض من جانب العلماء؛ لأنه يكشف عن علاقات حدثت عن طريق الصدفة ولا يوجد لها أى دلالة إحصائية. أيضًا، فإنه يكون من غير الممكن التحقق منها عن طريق إعادتها. إن أمثال هذه الأسباب تجعل من المستحيل علينا تقبل النتائج التى توصل إليها "إيتسهار إيلون" على أنها تؤيد الفروض النفسية الدينامية.

ومن الواضح لأى عالم نفس يؤمن بفائدة التجارب - بل أى عالم - أن تلك الاستنتاجات غير الواقعية التى توصلت إليها معظم الدراسات، والوسائل الغريبة التى اعتمدوا عليها فى القياس (مثل صور بلاكى)؛ وفشلهم فى أن يأخذوا فى الاعتبار الفروض البديلة... تجعل دراساتهم غير مؤهلة للحكم على مدى صحة فروضهم، وعلى سبيل المثال، فإنه من الصعب العثور على دراسة واحدة اهتمت أدنى اهتمام بتأثير "العوامل الوراثية" Genetic Factors؛ بالرغم من اعتراف الجميع بأهمية هذه العوامل عند دراسة "الشخصية"، و"الشذوذ الذهنى"، و"العُصاب". إن مثل هذا الإهمال المتعمد لكل ما يتوافق مع الأسلوب العلمى، فى كل من مرحلتى الإعداد للتجربة وتفسير النتائج - يوحى بأنهم لم يقوموا بمجهود جاد، بما فيه الكفاية، للبحث عن الحقيقة، وفى كل مرة - تقريبًا - ادعوا فيها وجود علاقة إيجابية، فإن الفروض الوراثية - أو النفسية الدينامية - كانت أكثر صلاحية لتفسير المشاهدات. وحيث إننا نعرف كثيرًا

عن أثر العوامل الوراثية فى الشخصية وتطورها، فإن مثل هذا الإهمال لا يمكن تفسيره أو التغاضى عنه؛ خاصة فى ظل جهلنا النسبى بتأثير العوامل الأخرى.

إن العوامل الوراثية لم تكن هى وحدها التى لقت التجاهل والإهمال، خلال محاولة تفسير نتائج هذه الدراسات والتجارب. وهو ما سبق أن أوضحناه من التجارب التى ذُكرت فى كتابىْ كل من "كلاين"، و"أيزينك" و"ولسون". وعلى سبيل المثال: فإن هناك كثيراً من المعلومات المتوفرة لدينا عن العلاقة بين "الذاكرة" و"عملية التعلم" من ناحية، و"الانفعالات" و"استثارة القشرة الدماغية" من ناحية أخرى.

والحقائق السابقة مثبتة بما لا يدع مجالاً للشك من خلال الآلاف من الدراسات المعملية، وهى تمدنا بتفسيرات كافية وأكثر صلاحية للمشاهدات من التى فسرها مؤلفى هذه الدراسات على أنها تؤيد أفكار فرويد وتدعمها، ومع كل هذا، فإنه من النادر أن نجد أيًا من هؤلاء المؤلفين يذكرها - ولو حتى تلميحًا - باعتبار أنها من الممكن أن تكون تفسيراً بديلاً، فإنك ستجد أن الواحد منهم يفسر النتائج من خلال بنود نظرية فرويد، ويتجاهل - تمامًا - تفسيرات تعتمد على مبادئ أفضل وأكثر صلاحية لشرح النتائج، ومرة أخرى، فإنه لا يمكننا تقبل هذا الأسلوب غير العلمى؛ لأنه يجعل من الصعب علينا تقبل جهودهم وأخذها بجدية.

وقد يعترض بعض النقاد على الحديث السابق، الذى يصف هذه الدراسات بأنها "تجريبية" Experimental، بينما كل من حاول التحقق من نظريات فرويد لا يمكن وصفه - فى أحسن الأحوال - إلا على أنه "دراسة واقعية" Empirical؛ لأنه لم يحاول "التحكم فى المتغيرات المستقلة"، إن مثل هذا الاعتراض سليم بالنسبة لمعظم الحالات، لكنه ذو دلالة خاصة، إن علماء الفلك يتحدثون عن "تجربة" Experiment عندما يراقبون أشعة

(*) يحاول المؤلف هنا التفرقة بين مصطلحين: المصطلح الذى يصف الدراسة بأنها "تجريبية" Experimental بالمعنى التقليدى الذى يأخذ فى الاعتبار النظريات العلمية والمعلومات المتوفرة عن الموضوع محل البحث، ومصطلح "دراسة واقعية" Empirical أو تحقق واقعى، وهو الذى يركز على تفسير النتائج من خلال المشاهدة فقط. (المترجم)

الضوء المنبعثة من نجم بعيد وهى تتعرض للانحناء بسبب مجالات الجاذبية الشمسية خلال الكسوف الشمسى، ومن الواضح أن هؤلاء الفلكيين لم يقوموا بـ"التحكم فى المتغيرات المستقلة" عن طريق وضع القمر أمام الشمس!

ومن وجهة نظر الغالبية العظمى، فإن هذا النوع من الدراسات أقرب إلى "التجارب الحقيقية" True Experiments من المشاهدات الساذجة جداً التى سجلها فرويد وأتباعه خلال عديد من الجلسات التى كانت تتم على الأريكة(*)، ولعله كان من الأفضل استخدام تعبير "دراسة واقعية" أكثر من تعبير "تجربة"، لكننى استخدمت التعبير الأخير لأنه مريح فقط لا غير.

أما تفسيرى للأدلة التى قاموا بتقديمها فى كتاب "كلاين" على سبيل المثال، فهى أنها لا تؤيد أياً من فروض فرويد، وقد يبدو أن هذا يتعارض مع الاستنتاجات التى خرج بها "كلاين" من حيث إن الرفض الشامل لنظرية فرويد ككل يتعارض مع الأدلة المقدمة، وهناك نقطتان يجب ذكرهما فى هذا الخصوص:

النقطة الأولى: هى أن "كلاين" قد فشل فى أن يأخذ فى الاعتبار التفسيرات البديلة للنتائج التى بحثها، ولقد شرحت هذه النقطة بما فيه الكفاية فيما سبق.

النقطة الثانية: قد تحتاج منا إلى الدخول فى كثير من التفاصيل، فكما سبق أن ذكرنا مراراً من قبل: " إن ما هو جديد فى هذه النظريات ليس صحيحاً، وما هو صحيح فى هذه النظريات ليس بجديد"؛ لأن هناك كثيراً من الأشياء الصحيحة فيما قاله فرويد، ولكنها ليست بجديدة، وليس هو مكتشفها. ولهذا، فإنه لا يمكننا اعتبار هذه الاكتشافات فرويدية (أى تنتمى لفرويد)، وكما رأينا فى الفصل السابق، فإن الأحلام مرتبطة باهتمامات وهموم الشخص الحالم خلال فترة اليقظة، وأنه يتم التعبير عنها فى صورة رمزية.

(*) إشارة ساخرة من المؤلف للأسلوب الذى انتهجه فرويد وأتباعه فى التحليل النفسى من خلال الجلوس خلف المريض الممدد أمامهم على الأريكة. (المترجم)

لكن من غير الصحيح أن ننسب هذه الأفكار إليه؛ فإن عامة الناس آمنوا بهذه الأفكار منذ أكثر من ٢٠٠٠ عام قبل فرويد. وبالمثل، فإن فكرة وجود "اللاشعور" آمن بها عديد من الفلاسفة وعلماء النفس منذ قرون عديدة، ومحاولة أن ننسب اكتشاف "اللاشعور" إليه محاولة سخيفة لا يوجد ما يؤيدها. ومع كل هذا، فإنه من الواجب علينا أن نتوخى الحذر عندما ننسب أي فكرة لفرويد آخذين في الاعتبار النمو والتطور التاريخي لهذه الفكرة، وعلينا تذكر أن كثيراً من الأفكار المشابهة قد يكون قد تم التعبير عنها – من قبل – من جانب آخرين قبل عهد فرويد، وأنه لا يجوز أن ننسب إليه إلا الأفكار الجديدة فقط.

وكمثال لهذا الخلط: مفهوم فرويد لـ "هو" Id والـ "أنا" Ego والـ "أنا – الأعلى" Super-ego، وهي الأجزاء الثلاثة التي ينقسم إليها – طبقًا لفرويد – ذهن الفرد؛ فطبقًا لأقوال فرويد:

"إن أكثر هذه الأجزاء الثلاثة قدمًا: هو الذي سوف أعطيه اسم: الـ"هو Id"، ويكمن في هذا الجزء كل ما تم وراثته من الآباء والأجداد؛ لأنه يمثل كل ما هو موجود في بنياننا وقت الولادة، وأهم هذه الموجودات هي "الغرائز"". وطبقًا لآراء فرويد فإن الـ"هو Id" يتبع ما أسماه "مبدأ اللذة" Pleasure Principle؛ وأن إجراءاته الذهنية لا تتبع أي قانون من قوانين المنطق والتفكير السليم، وأنه كامن في "اللاشعور".

أما بالنسبة لـ"الأنا" Ego، فإنه نمي وتطور من "الطبقة القشرية" Cortical Layer الخاصة بالـ"هو" Id، و"الأنا" Ego قد تكيف ليستقبل ويرفض مختلف المثيرات، كما أنه على اتصال مباشر بالعالم الخارجي. طبقًا لآراء فرويد، فإن وظيفته أن يحسب النتائج المترتبة على أي سلوك، وأن يقرر ما إذا كان أحد الأفعال التي توفر الإشباع لـ"هو Id" يجب تنفيذه أم تأجيله، وما إذا كانت متطلبات "مبدأ اللذة" يجب كبتها أم لا، إن الـ"أنا" Ego هي التي تمثل "مبدأ الواقع" Reality Principle، وبعض نشاطاته موجودة في "الشعور"، وبعضها الآخر موجود في "ما قبل الشعور" Preconscious، وبعضها الأخير موجود في "اللاشعور".

أما الـ"أنا-الأعلى" Super-ego، فإن فرويد يعتبره الوريث الشرعى لعقدة أوديب؛ ففى داخله تموج تعاليم وعقوبات الوالدين والمجتمع، وهو يستمر فى تأدية دور الآباء والأمهات ووظيفتهم، وطبقًا لفرويد، فإنه هو الذى يراقب الـ"أنا" ويعطيها الأوامر ويصوبها، ويهددها بالعقاب عندما يقتضى الأمر هذا. تمامًا مثلما كان الوالدان يفعلان، إن فكرة الـ"أنا الأعلى"، شبيهة جدًا بفكرة "الضمير" فى أفكار الديانة المسيحية، وعلى حد قول فرويد نفسه:

"إن طول فترة الطفولة عند الفرد من البشر تترك من خلفها رواسب كثيرة. هذه الرواسب، تتشكل فى جزء خاص داخل الـ"أنا". وداخل هذا الجزء الخاص يعيش نفوذ وتأثيرات الوالدين، ولهذا أسميته الـ"أنا الأعلى"".

من الواضح أن الـ"أنا" يؤدى دورًا صعبًا، فمن ناحية، عليه أن يشبع المتطلبات الغريزية للـ"هو"، ومن ناحية أخرى، عليه أن يخضع للمبادئ الأخلاقية التى تمليها عليه الـ"أنا الأعلى"، إن هذه النظرية العامة قد تلقت كثيرًا من الشهرة، وهى - جزئيا - تتفق مع المعانى الشائعة عند العوام من الناس، وأفكار علم النفس منذ أيام أفلاطون. وفى الواقع، فإن هناك تشابهًا كبيرًا بين الأسطورة الشهيرة التى رواها أفلاطون عن حصانين يجران عربة، بينما يحاول سائق العربة أن يتحكم فيهما، إن السائق هو الـ"أنا"، والحصان الشرس العنيد المندفع هو الـ"هو". والحصان الطيب، هو الـ"أنا الأعلى"، ويكون من الواضح أن كلاً من أفلاطون وفرويد يستخدمان الآلية التى توفرها الأسطورة، لتوضيح إحدى الخصائص المعقولة والمعروفة عن السلوك البشرى، إن البشر حيوانات "حيوية اجتماعية" Biosocial(*)، بمعنى أن هناك عوامل حيوية (بيولوچية) تملى علينا أن نستجيب لبعض الحاجات الغريزية مثل الطعام، والشراب، والجنس... إلخ. لكن أفعالنا يتحكم فيها - أيضًا - بعض المتطلبات الاجتماعية، التى تأتى إلينا من خلال القواعد والقوانين الوضعية، وما نرثه من تقاليد عن الآباء والمعلمين وغيرهم. ويجد الفرد نفسه موجهًا من خلال هاتين المجموعتين من الدوافع؛ وعليه أن يوفق بينهما.

(*) راجع تعريف المصطلح السابق فى الفصل الثانى من هذا الكتاب. (المترجم)

إن كل هذا صحيح، وكونه حقيقيًا قد يجعل القارئ يظن أن نظرية فرويد صحيحة، لكن علينا ملاحظة أنه لا جديد فيما اقترحه علينا فرويد، وأن ما هو جديد ليس بصحيح؛ خاصة أفكار فرويد فيما يتعلق بكون الـ"أنا الأعلى" Super-Ego هو الوريث الشرعي لعقدة أوديب؛ فإن هذه الفكرة غير سليمة ولا يوجد ما يثبتها، ومن المرجح أن **التشريط** – على طريقة "باڤلوف" – هو الذي يوفق ما بين متطلبات العالم الخارجي (تعليمات وأوامر الآباء والمعلمين والزملاء والقضاة والكهنة) من خلال المكافأة والعقاب (بمعنى تعلم تكوين عادات جديدة تسمى "الاستجابات الشرطية")، وبين متطلبات الـ"هو" Id.

ومرة أخرى، فإنه لا يوجد أى ذكر فى كتابات المحللين النفسيين لهذه الأفكار على أنها من الممكن أن تكون "التفسير البديل"، ولكنى حاولت أن أظهرها – فى كتابى: "الجريمة وشخصية الفرد" Crime and Personality؛ لأنها قد تطورت من خلال الدراسات المعملية، ووجدت كثيرًا من التأييد العلمى.

لقد كان فرويد متمكنًا لغويًا، والمصطلحات التى استخدمها (مثل "مبدأ اللذة" و"مبدأ الواقع") جعل "قصة أفلاطون القديمة" التى رواها لنا تبدو وكأنها جديدة ومثيرة، لكن عند دراسة مدى أصولية تعاليمه، فإن الشك سوف يداخلنا، إن وجهة النظر العامة قد تكون صحيحة؛ لكنه لا يوجد فيها – حقيقة – ما ينتمى إلى فرويد.

وهناك كثير من الأعمال الواقعية التى راجعت وفحصت فروض فرويد، التى لم ندرسها فى هذا الفصل، ومن أمثلة هذه الأعمال تلك التى تناولت "تكوين الأحلام وتَشَكلها" Formation of Dreams، وتفسير الأحلام، وعلم النفس الفسيولوچى فى حياتنا اليومية... إلخ. ولقد تعاملت مع بعضها فى فصول متفرقة. وفى كل مرة، فإننى وصلت إلى الاستنتاج نفسه الذى وصلنا إليه هنا، وربما يكون من الأفضل أن أختم هذا الفصل باقتباس بعض السطور التى كتبها "تى. هـ. هاكسلى":

"إن أعظم مآسى العلم هو أن يتم ذبح نظرية جميلة بإحدى الحقائق القبيحة".

وبصرف النظر عن مدى جمال نظرية فرويد، فإنه بالتأكيد قد حاول حمايتها من أن تذبح بواسطة الحقائق القبيحة؛ فهو قد قام بصياغتها بطريقة جعلت من تنفيذ التجارب الناقدة لها أمرًا شديد الصعوبة. وبالرغم من هذا، فإنه بعد مرور أكثر من ٨٠ عامًا على نشر نظرية فرويد، فإنه لا يوجد أى أدلة تؤيد صحتها. ويمكن قول الشىء نفسه بالنسبة للدراسات الإكلينيكية التحليلية والإحصائية والطرق التى تعتمد على المشاهدة فإنها كلها فشلت فى توفير ما يؤيد صحة نظرية فرويد، وهذا لا يثبت أن نظرياته خاطئة - لأنه من الصعوبة بمكان إثبات أن النظرية مغلوطة مثلما هو أمر بالغ الصعوبة أن نثبت صحتها - ولكنه يجب أن يجعلنا - على الأقل - نشك فى مدى قيمة هذه النظريات، كنظريات علمية. إن أحد العلماء العظام - "مايكل فاراداى" - قال لنا:

"إنهم يناقشون فروضهم نظريًا، بدون تقديم أى عرض تجريبى لها للدلالة على صحتها. وفى النهاية، تكون الأخطاء هى النتيجة".

إن هذه الكلمات من الممكن أن تُحفر على شاهد قبر "التحليل النفسى"؛ لتعلن فشله كتعاليم علمية Scientific Doctrine.

الفصل السابع

ثرثرة نفسية جوفاء وتاريخ زائف

إننا فى حاجة إلى كثير من التاريخ، حتى
نتمكن من إنتاج قليل من الأعمال الأدبية.

هنرى چيمس

لقد قام فرويد بتطبيق ما أسماه الاستبصارات أو"المبادئ العميقة لنظريته"(*) على كثير من المشكلات والقضايا، التى لم يخطر ببال أحد - من قبل - أن يطبق طرق "الطب النفسى" عليها، ومن أمثلة هذا محاولة تفسير أشياء من مثل: الذكاء، والمزاج الشخصى، وأسباب الحرب، و"أصل الإنسان" Anthropology(**)، وعلى وجه الخصوص فحص ومراجعة تفاصيل حياة عديد من الشخصيات والأحداث التاريخية، فيما يتعلق بالدوافع التى كانت تحرك هذه الشخصيات أو الأحداث التاريخية.

(*) المؤلف استخدم تعبير "ما يتم التوصل إليه من خلال البصيرة النافذة Insights" فى نظريات فرويد، ولكنى تخيرت ترجمتها "المبادئ العميقة لنظريته"؛ لأن هذا يتوافق مع أهداف المعنى الذى يرمى إليه المؤلف فى هذه الفقرة.

(**) الأنثروبولجيا: هى العلم الذى يدرس أصول الإنسان، ويبحث كيفية تطوره عبر الحقب الزمنية المختلفة، كما أنه يهتم بدراسة عادات الإنسان عبر الزمان والمكان. (المترجم)

وهذا مجال شديد الاتساع بالنسبة لنطاق هذا الكتاب، ولا يمكن لنا مناقشة كل هذه الأنماط المختلفة من التحليل النفسى، التى تم تطبيقها على كل حالة. ولهذا، فإننى سأقوم بتركيز الجهد على المسألة التى أصبحت معروفة باسم "التأريخ-النفسانى" Psycho-history. بمعنى أنه من الممكن لنا - الآن - التوصل لاكتشاف حقائق كانت غير معروفة عن الشخصيات أو الأحداث التاريخية، وأن هذا يتم من خلال استخدام طرق وتعاليم "التحليل النفسى" التى وضعها فرويد؛ وعن طريق تطبيق طرق التحليل النفسى على علم أصول الإنسان (الأنثروبولچيا). هذا، وقد قام "داڤيد ستانّارد" David Stannard بمناقشة مسألة "التأريخ النفسانى" ودراستها بطريقة جيدة فى كتابه المعنون "التاريخ المتقلص: فرويد وفشل التأريخ النفسانى" Shrinking History: On Freud And The Failure Of Psycho-History. وهو كتاب مهم للشخص المعنى بدراسة هذا الموضوع، وفيما يختص بالعلاقة التى تربط ما بين "التحليل النفسى" من ناحية، و"علم أصول الإنسان" من ناحية أخرى، فلدينا "إدوين والاس" Edwin Wallace.. فى كتابه "فرويد وعلم أصول الإنسان: تأريخ وإعادة تقييم" Freud And Anthropology: A History and Reappraisal. وفيما يلى، سأقدم وصفاً مختصراً لهذه المجالات الواسعة.

ما الفارق بين "التأريخ" و"علم أصول الإنسان"؟

فى عام ١٩٥٨م علق "كلود ليڤى شتراوس" Claude Levi-Strauss على هذا الفارق قائلاً: "إن الفارق الأساسى بين الاثنين يكمن فى اختيار كل منهما لما يبرز ويوضح المفاهيم الخاصة به وعلى سبيل المثال: فإن "التأريخ" ينظم بياناته طبقاً للطريقة الشعورية التى يتم التعبير بها عن الحياة الاجتماعية؛ بينما يقوم "علم أصول الإنسان" بفحص ومراجعة الأشياء اللاشعورية الموجودة فى "أصوله" Foundations.

وفى العام نفسه (١٩٥٨م) قام "ويليام لانجر" William Langer - رئيس الجمعية التاريخية الأمريكية - باقتفاء خطوات فرويد، عن طريق محاولة القضاء على هذا الفارق المميز، وقام بدعوة أعضاء هذه الجمعية لدراسة الأسس اللاشعورية للحياة

الاجتماعية فى الماضى وتحليلها. هذا، وقد قام عديد من المؤرخين بالاستجابة لهذا النداء؛ بل إن بعضهم أصبح يدعو للقيام بتحليل نفسى لكل فرد، كجزء من التدريبات المهنية للمبتدئين والمستجدين من المؤرخين الأكاديميين، وفى الوقت الحالى أصبح هناك جريدتان خاصتان تصدران باسم "التأريخ النفسانى" واكتسبت هذه الحركة الجديدة المزيد من الأنصار والمؤيدين مع مرور الوقت.

أما السؤال الحقيقى الذى يحتاج - فعلاً - لإجابة، فهو: هل هناك أى **جوهر حقيقى** لهذه الحركة الجديدة؟

إن الغريب فى الأمر هو أن "داڤيد ستانّارد" اقتبس فى مقدمة كتابه: "حوار" من مسرحية "هنرى الرابع" لشكسبير. وفى هذا الحوار تم ذكر الادعاءات التى تباهى بها جليندوور عندما قال:

جليندوور: "إنه بإمكانى استدعاء الأرواح من الأعماق الرهيبة"

هوتسبر: "وفى مقدورى - أنا كذلك - فعل هذا، بل إنه فى مقدور أى إنسان، لكن هل سوف تستجيب لكَ عندما تستدعيها"؟

وفى الواقع، فإن هذا هو السؤال الجوهرى الذى يجب علينا التركيز عليه.

إن هناك طريقتين متاحتين أمام العالم الذى يبغى دراسة هذه المسألة؛ فبإمكانه النظر - نظرة عامة - إلى عديد من الأمثلة الكثيرة المتاحة أمامه، أو أن يقوم بمراجعة أحد هذه الأمثلة بدقة عن طريق دراسة كل أجزائه وتفاصيله، ولقد تخيرت دراسة أحد هذه الأمثلة بالتفصيل، بسبب ضيق المساحة المتاحة أمامنا. إنه المثال الخاص بكتاب "ليوناردو داڤينشى" الذى نشره فرويد فى عام ١٩١٠م، والذى ينظر إليه كثيرون على أنه: النموذج الأول الحقيقى لما يسمى بـ"التحليل التأريخى- النفسانى" Psycho-historical Analysis.

وفى هذا الصدد علق "داڤيد ستانّارد" قائلاً:

"احتوى هذا العمل - خلال نطاقه الضيق(*) - على أفضل الأمثلة التى توضح السبب فى أن "التأريخ النفسانى" قد أصبح مثيرًا للاهتمام ومشوقًا؛ فهو يحتوى على: بصيرة نافذة، ومعلومات جديدة، ومشاعر حساسة، والأهم من كل هذا، فإنه يحتوى على خيال واسع، هناك أيضًا إيضاحات تُظهر بما لا يدع مجالاً للشك نقائص الأعمال المشابهة؛ فهى ترفض الأدلة القانونية الأساسية: مثل "المنطق" و"القيود الخيالية".

بدأ فرويد كتابه من خلال تقرير أن ليوناردو داڤينشى كان يتمتع بمجموعة من الخصائص والسمات المحددة، وأن هذه الخصائص والسمات قد تحتوى على مفتاح عبقريته وعظمته. أولى هذه الخصائص - طبقًا لفرويد - هى: الشعور الأنثوى الرقيق، ولقد خرج علينا فرويد بهذا الاستنتاج من خلال عادات داڤينشى الغذائية (كان داڤينشى نباتيًا)، واعتياده على شراء الطيور الحبيسة فى الأقفاص، حتى يتمكن من إطلاق سراحها عندما يصل إلى بيته. كما أنه كان قادرًا على ارتكاب الأعمال التى تدل على القسوة وانعدام الحساسية، وهو ما ظهر بوضوح من خلال الدراسات والرسوم التى قام بها لوجوه المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام، قبيل تنفيذ حكم الإعدام فيهم، ومن خلال تصميمه لأسلحة حربية هجومية بشعة، ولقد علق فرويد - أيضًا - على عادات الكسل واللامبالاة فى مواجهة المنافسين، واعتياده على ترك كثير من أعماله دون إتمام، وإنجازه لأعماله ببطء شديد، أما أكثر ما أثار اهتمام فرويد - كما هو متوقع - فهو تميز داڤينشى بما بدا وكأنه مزيج من "التصلب الشديد" Rigidity والابتعاد عن الأمور الجنسية وحياة جنسية قاصرة من ناحية، وعطش لا يروى ولا يشبع للنهل من كل ألوان المعرفة من ناحية أخرى.

(*) لا يزيد عدد صفحات هذا الكتاب عن ٩٧ صفحة من القطع الصغير، بما فيها مقدمة إرنست چونز، والمقدمة الأخرى التى قام بكتابتها "المحرر Editor" الذى نشر الكتاب. (المترجم)

لقد كان فرويد ينظر إلى هذا المزيج على أنه يتوافق مع "نظريته فى التطور الجنسى- النفسى" His Theory of Psycho-sexual Development، كما أنه كان ينسبه إلى إجراءات "التسامى" عن الذات، عندما قال: 'عندما يتم وضع نهاية حاسمة وقاطعة لفترة "الأبحاث الجنسية الطفولية" Infantile Sexual Researches بواسطة موجة عارمة من الكبت الجنسى، فإنه يصبح أمام "غريزة البحث" Researche Instinct ثلاثة منافذ ممكنة تتغير إليها: التغير الأول يتم فيه تقييد الفضول وتحجيمه، وفى الثانى يعود الفضول فى شكل "قهر التأمل والاكتئاب" Compulsive Brooding، والتغير الثالث هو التغير الذى زعم فرويد ظهوره بوضوح فى حياة داڤينشى'.

وعلى حد قول فرويد ذاته: 'بفضل ما تمتع به داڤينشى من ميول خاصة، فإنه أصبح من الممكن لغريزته أن تعمل بحرية فى خدمة أهدافه العقلانية السامية، بينما تجنبت "غريزته" أى اهتمامات ذات طابع جنسى'.

وهكذا - وبفضل التسامى- أصبح من الممكن للرغبات الجنسية المكبوتة - فى رأى فرويد - أن تتحول إلى دوافع تحفز الفرد للانغماس فى البحث وإشباع الفضول.

عند هذا الحد، فإن فرويد اصطدم - على ما يبدو - بحاجز لا يمكن اختراقه؛ فقد كان عليه - الآن - أن يبدأ فى دراسة نمو وتطور "الدافع الجنسى" خلال مرحلة الطفولة. من أجل تحقيق هذا يكون علينا استخدام أحلام المريض ومعلومات شخصية أخرى؛ معلومات يمكن له أن يربط بينها بحرية، ويستطيع استغلالها فى التعرف على هذه المراحل المبكرة من نمو وتطور داڤينشى، وبالطبع، فإنه لا يمكن الوصول لداڤينشى، حتى نحصل منه على هذه المعلومات؛ كما أن مثل هذه المعلومات غير متاحة لنا من خلال ما نعرفه عن تاريخه.

إن كل ما نعرفه عن داڤينشى هو أنه ولد فى عام ١٤٥٢م، وأنه كان طفلاً غير شرعى لرجل يعمل موثقًا عامًا ويدعى "بيرو داڤينشى"، وفتاة ريفية صغيرة تدعى "كاترينا".

فكيف تمكن فرويد من الشروع فى صناعة قوالب القرميد(*) بدون أن يستخدم أيًا من أعواد القش؟ (Making Bricks Without Any Straw?).

لقد تمكن فرويد من تحقيق هذا من خلال استخدام طرقه الملتوية المعتادة، فخلال إحدى الفقرات اللافتة للنظر كتب داڤينشى فى مذكراته عن الطيور: "عندما أنظر إلى ذكريات الماضى يبدو لىّ أننى كنت دائم الاهتمام بـ"النسور" وما شابهها من الطيور الجارحة؛ فإحدى الذكريات الأولى التى لا تزال عالقة بذهنى تتعلق بى وأنا نائم فى المهد، عندما يهبط أحد النسور نحوى ويقوم بفتح فمى عن طريق استخدام ذيله؛ فهو يقوم بضربات متكررة بالذيل على شفتى، حتى ينفتح فمى".

وهكذا قام فرويد باستخدام هذه الفقرة - عن طريق إخضاعها لأساليب "التحليل النفسى" - لملء الفجوات الموجودة فى "تاريخ حياة" داڤينشى، وهو قد فعل هذا - على حد قول فرويد - عن طريق تحليل "خيالات الطفولة الجامحة" Childhood Fantasies التى مر بها داڤينشى!

وطبقًا لتحليلات فرويد، فإن "ذيل النسر" ما هو إلا تعبير بديل عن العضو الذكرى (القضيب)، والمشهد كله يعبر عن "الجنس الفموى" Fellatio؛ بمعنى الرغبة فى ممارسة "الجنسية المثلية" Homosexuality بطريقة سلبية (رغبة داڤينشى فى لعق "القضيب" الذى ظهر فى خيالاته فى صورة "ذيل النسر")، كما أن فرويد قد اقترح علينا جانبًا آخر لهذا المشهد، فهو يدعى أن الرغبة فى لعق القضيب يمكن أن تعود فى جذورها إلى أكثر الأفعال براءة على الإطلاق، وهى "عملية الرضاعة"؛ ففى رأى فرويد هناك ارتباط بين مص القضيب، ورغبة الطفل فى الرضاعة من ثدى أمه!

(*) القرميد: هو الطوب الطينى الذى يصنع من تربة الأرض الزراعية، ولا يكتب له أن يتماسك بطريقة مقبولة إلا إذا تم خلطه بأعواد من القش. وهكذا، فإن مؤلف الكتاب يستخدم المثل الإنجليزى الذى يعيب على الفرد صناعة القرميد بدون خلطه أولاً بالتبن الذى يسمح له بالتماسك . (المترجم)

بعدها يقوم فرويد بتحليل الأسباب التى دفعت داڤينشى لاختيار "نسر"؛ ليلعب دور البطولة في هذا المشهد. فى هذا الصدد يشير فرويد إلى أشياء عديدة من ضمنها أن الكتابات الهيروغليفية القديمة... كانت تمثل اسم الأم بصورة نسر (ومن ناحية النطق، فإن كلمة "أم" تتشابه كثيرًا مع كلمة "نسر"، وهو التشابه نفسه الموجود مع كلمة Mutter التى تعنى "أم" بالألمانية). ومرة أخرى، يذكر فرويد أن إحدى آلهة المصريين القدماء، وهى الإلهة المعروفة باسم "موت" Maut(*)، كان يتم تصويرها فى صورة "نسر"؛ ثم يقوم فرويد بذكر قائمة تحوى عديدًا من الاحتمالات الأخرى، مثل الاعتقاد القديم بأنه لا يوجد ذكور بين النسور، وأن كل النسور إناث، وأنها تصبح حاملاً من خلال مجرد تعرضها للرياح؛ وكيف أن أحد رجال الكنيسة قد استخدم - فى شروحه اللاهوتية - هذا الاعتقاد القديم لتفسير ميلاد يسوع من العذراء، وفى النهاية، يخبرنا فرويد بأن أهمية "مشهد النسر"، تكمن فى أن داڤينشى يكون بهذا قد اعترف بأنه "طفل من أطفال النسور"، وأنه مثل النسور كان له أم، ولم يكن له أب. كذلك، فإنه يكون بهذا قد تشبه بالطفل يسوع؛ يسوع الذى كان يعتبر المخلص والمنقذ لكل من آمن به. كذلك، فإن هذه النظرية - فى رأى فرويد - تعوض عدم توافر قدر كاف من المعلومات عن طفولة داڤينشى؛ لأن داڤينشى يكون قد اعترف بهذا أنه كان على وعى بأنه عديم الأب، وأنه وحيد مع أمه المنبوذة فى مواجهة هذا العالم.

إن "مشهد النسر" - فى رأى فرويد - ربما يكون البديل لعدم توافر معلومات عن طفولة داڤينشى؛ لأنه يخبرنا بأن داڤينشى قد أمضى السنوات الأولى الحاسمة فى حياته مع أمه المهجورة التى نبذها أبوه، وأن العلاقة بينه وبين أبيه وزوجة أبيه كانت مقطوعة تمامًا؛ مما مكنه من الشعور بتأثير غياب أبيه على حياته!

(*) Maut أو Mut فى الديانة المصرية القديمة هى: الإلهة الأم، وأحد الآلهة الرئيسية التى كان يتم عبادتها فى جميع أنحاء مصر، وكان يتم تصويرها فى هيئة امرأة مجنحة أو نسر، وبسبب أن إيمان الفراعنة كان يربط ما بين "النسر" و"الأمومة"، فإن اسمها (Mut) هو الذى استخدم فى التعبير عن كلمة أم Mother = mwt. فهى لم تكن مجرد الإلهة الأم التى تلد الحياة، بل إنها كانت - بالنسبة لقدماء المصريين - الحياة نفسها. (المترجم)

والعجيب فى الأمر هو أن فرويد كان يؤمن بصحة استنتاجاته هذه، وكان ينظر إليها على أنها حقائق يمكن البناء عليها، فلقد كان يعتبر أن غياب الأب كان له تأثير حاسم على تشكيل "الحياة الداخلية" Inner Life لداڤينشى. فحسب استنتاجات فرويد، فإن داڤينشى كان يفتقد والده، وأنه دخل فى حالة حادة من الاكتئاب المصحوب بالتأمل العميق لأحواله، ظلت تعذبه طوال حياته!

وطبقًا لفرويد، فإن داڤينشى كان معذبًا يبحث عن إجابة لأسئلة من مثل: من أين يأتى الأطفال؟ وما دور الوالد (الأب) فى حياة أطفاله؛ فلقد كان هذا يشرح – من وجهة نظر فرويد – السبب فى توجه داڤينشى نحو الانغماس الكلى فى البحث والتدقيق منذ نعومة أظافره، ودفعه فى النهاية لأن يصبح العَالِم العبقرى الذى نعرفه جميعًا!!

ويستمر فرويد فى هذا الاتجاه محاولاً – فى حدود نظريته الخاصة بالنمو والتطور الجنسى للطفل – تفسير ادعاءاته غير المؤسسة بأن داڤينشى كان يعانى من الجنسية المثلية. يبدأ فرويد بذكر الملاحظة الإكلينيكية (التحليلية) التى تزعم أن الشخص البالغ الذى يعانى من الجنسية المثلية، غالبًا ما تكون له ارتباطات "شبقية Erotic" وثيقة بإحدى الإناث (أمه فى هذه الحالة) خلال المراحل المبكرة من طفولته، وأن الذى يجعل هذه الرابطة وثيقة جدًا هو "إثارة" أو "تشجيع" وحنان وتدليل مبالغ فيه من جانب الأم، وأن هذه الرابطة تصبح أشد قوة من خلال غياب الأب أو ضعف دوره القيادى.

لقد كان فرويد يدعى أن وجود شخصية الأب القوية تُمَكِّن الطفل – عندما يحين الوقت – من أن يتخذ "القرار الصحيح" فيما يختص بالجنس (اختيار الطفل لشريك من الجنس الآخر)، وحيث إن فرويد كان يؤمن بأنه قد تم تنشئة داڤينشى فى حضانة أمه فقط، وأن والده لم يكن موجوداً على الإطلاق، فإن "الجنسية المثلية" بدت لداڤينشى وكأنها الاختيار الطبيعى!

فهل هناك أى أدلة تشير إلى أن داڤينشى كان ذا ميول جنسية مثلية؟

الواقع والتاريخ قد أثبت لنا – بما لا يدع مجالاً للشك – أنها أدلة قليلة وضعيفة؛ فعندما كان داڤينشي في الرابعة والعشرين من عمره اتهِمَ – هو وثلاثة من أصدقائه – بممارسة الجنسية المثلية(*). كانت هذه التهمة مقدمة من مجهول. وعندما تم التحقيق فيها تم تبرئتهم جميعًا. ولهذا، لا يمكن اتخاذ تلك الحادثة كدليل ضد داڤينشي في مثل هذا الموضوع الخطير؛ بعكس القرار الذي اتخذه فرويد، عندما زعم أن اختيار داڤينشي لعديد من الشباب الذين يتميزون بالوسامة كتلاميذ له؛ وكيف أنه كان يعاملهم بلطف، أكثر مما هو مُتَطلب! وهو يتخذ من مذكرات داڤينشي دليلاً على هذا؛ لأنها احتوت على ذكر مبالغ مالية صغيرة تم صرفها على تلاميذه. ويتمادى فرويد عندما يزعم أن داڤينشي قد فعل هذا، كتعبير غير واعٍ منه، أراد به أن يفصح عن ميوله الجنسية المثلية الخفية.

أيضًا، فإنه تم العثور – بين أوراق داڤينشي – على ذكر لمبلغ من المال تم صرفه على جنازة امرأة تدعى كاترينا، ومن خلال هذه المعلومة فقط، اقترح فرويد علينا أن هذه المرأة هي أمه!

وفي هذا الصدد قام "داڤيد ستانّارد" بالرد على استنتاجات فرويد الملتوية باختصار قائلاً:

"عندما يقوم الواحد منا بوضع الحقائق المعروفة تاريخيًا عن داڤينشي – فيما يختص بنفقاته على تلاميذه وعلى المرأة المجهولة – جنبًا إلى جنب، فإنه لن يخرج إلا بقصة درامية ممتلئة بالغوامض والأشياء المجهولة، ومع هذا خرج علينا فرويد بكل هذه الاستنتاجات؛ وكان يؤمن بأن: داڤينشي كان منجذبًا نحو أمه وتلاميذه، وكانت لديه مشاعر شبقية مكبوتة نحوهم! وأن هذه المشاعر اتخذت صورة "عُصاب وسواسي" Obsessional Neurosis. والدليل على هذا هو شعوره بأنه كان مجبراً على بذل كل

(*) خلال القرون الوسطى كانت "الجنسية المثلية" تهمة خطيرة جداً، حتى إن القوانين – في جميع أنحاء أوربا – كانت تقضي بالإعدام على كل من يثبت في حقه ممارسة الجنسية المثلية؛ أي على الفاعل والمفعول به. (المترجم)

ذلك الجهد فى ذكر تفاصيل كل تلك النفقات التى تم صرفها عليهم!! وهكذا أصبحت حياة داڤينشى - فى رأى فرويد - كتابًا مفتوحًا أمامنا، بعد أن كشف لنا عقله الباطن كل تلك الأشياء التى حاول عقله الواعى إخفاءها، وكأن داڤينشى قد اعترف لنا بالفعل بأن هذه الارتباطات الشبقية مع أمه هى التى دفعت به نحو تبنى أسلوب "الجنسية المثلية" كخيار فى الحياة".

وأخيرًا، فإن فرويد يحاول الإيحاء لنا بأهمية استنتاجاته التحليلية، إذا كنا نريد - حقا - فهم عبقرية داڤينشى الفنية؛ فطبقًا لادعاءات فرويد:

"إن المفتاح الذى سوف يمكننا من فهم حقيقة كل إنجازات داڤينشى، والمآسى التى مرت فى حياته - يكمن فى طفولته. ومن خلال "مشهد النسر" الذى رواه لنا فى أوراقه، وهذا المشهد ليس إلا تجميعًا لذكرياته أثناء عملية الرضاعة، وللقبلات والتدليل الذى كان يناله من أمه. وفى الواقع، فإنه يمكن ترجمة هذا على أن داڤينشى يقول لنا: "لقد تلقيت كثيرًا من قبلات أمى الحنونة على شفتى" ".

وهكذا، وباستخدام هذا الاستنتاج وحده يحاول فرويد تفسير إحدى الخصائص المميزة والواضحة لأشهر رسومات هذا العبقرى ("الموناليزا" وما تميزت به من ابتسامة غامضة)، فيزعم لنا فرويد أن تلك الابتسامة الساحرة والمحيرة التى استنزلها داڤينشى على شفتى كل الشخصيات النسائية فى لوحاته، لم تكن إلا "استحضارًا" استدعى به داڤينشى ذكريات ابتسامة أمه الحبيبة حسب زعم فرويد الذى قال:

"هذه الابتسامة التى تشع بالبركة والسرور والنشوة أيقظت شيئًا ما ظل كامنًا لسنين طويلة فى عقل داڤينشى؛ ذكرى تلك الابتسامة الساحرة التى كانت تراقبه بها وهو طفل رضيع، إن هذه الذكرى كانت خاضعة لسيطرة الكبت وقيوده، ومنعت داڤينشى من أن يطالب بهذه اللمسات الحانية من شفتى أى امرأة أخرى، ولكنه لم يكن هناك أى إعاقة باطنية تمنعه من أن يرسم هذه الابتسامة على وجوه جميع النساء فى لوحاته".

وهكذا يمضى فرويد فى استنتاجاته غير المقبولة، التى يمكن لنا - من النظرة الأولى - الشعور بأنه لا يوجد كثير من الواقع الذى يؤيدها من عقل أو منطق، وقد يبدو لبعضنا - أحياناً - أنه توصل إلى بعض الحقائق، ولكن هذا الشعور سرعان ما يزول عندما نتفحص الأدلة والحقائق المتاحة بدقة، فإن كل تحليلاته تعتمد - بصفة أساسية - على "مشهد النسر"، وعلى قدرة فرويد غير العادية على نسج تفاصيل قصة درامية حول عنصر وحيد ("ذكرى هذا الطائر الذى يهبط عليه وهو راقد فى مهده").

أما الحقائق، فإنها تختلف كثيراً عما ذكره فرويد، وفى الواقع، فإن داڤينشى لم يذكر أبداً "النسر" إلا مرة واحدة فى كتاباته، وقد كان هذا تحت عنوان "الشراهة" Gluttony، وهذا نص ما قاله داڤينشى فى هذا الصدد:

"إن "النسر" قد اعتاد أن يأكل بشراهة شديدة، حتى إنه على استعداد لأن يطير ألف ميل حتى يصل إلى الجيف التى يشتهيها، وهو قد تعود على هذا، حتى إنه أصبح يقتفى أثر الجيوش الذاهبة للقاء الأعداء".

ولقد علق "داڤيد ستانَارد" على هذه العبارة قائلاً:

"من العدل القول بأن كلمات داڤينشى لا تؤيد - فى كثير أو قليل - الفروض التى خرج بها فرويد، والتى زعم فيها أن داڤينشى كان يربط - عن غير وعى منه - بين صورة "النسر" من ناحية، و"أمه" الحبيبة من ناحية أخرى؛ ناهيك عن زعمه بأن داڤينشى كان يرى نفسه على أنه "طفل من أطفال النسور"؛ وهو ما جعله - فى رأى فرويد - يقارن بين نفسه وبين الطفل يسوع.

وعلى العكس من كل هذا، فإن ما كتبه داڤينشى يدل على أنه يرى "النسر" فى صورة مختلفة تماماً عن صورة "الأم العذراء" الموجودة فى كتابات الكنيسة".

إن هذا لا يعنى أننا ننكر "مشهد النسر" إنكاراً تاماً. وفى الواقع، فإن "الذكرى" المكتوبة فى أوراق داڤينشى موجودة بالفعل، وهى مكتوبة على ظهر ورقة تحتوى على عديد من الملاحظات الأخرى الخاصة بتحليق الطيور، ولكنها تشير إلى "حدأة" Kite،

وليس إلى "نسر". و"الحدأة"، هى طائر صغير(*) شبيه بـ"الصقر"؛ ويتضح لنا فى النهاية أن المترجم قد أخطأ، وقام بترجمة كلمة "Kite" على أنها تعنى "نسر" Vulture. وهكذا، فإن كل استنتاجات فرويد مبنية على فهمه الخاطئ لحقيقة ما كان مكتوبًا على ظهر هذه الورقة نتيجة لخطأ فى الترجمة.

وهكذا، يتضح لنا فى النهاية أن كل ما أشار إليه فرويد عن معنى "النسر" فى الكتابات الهيروغليفية القديمة، وفى الشروح اللاهوتية لأحد رجال الكنيسة – هو أمر مقطوع الصلة تمامًا بـ"المشهد" الذى تذكره داڤينشى، والذى يجب تسميته – الآن – بـ"مشهد الحدأة".

فما مشاعر داڤينشى الحقيقية بخصوص "الحدأة"؟

لقد كان داڤينشى يرى "الحدأة" على أنها طائر حاقد وحسود، وفى أوراقه وتحت عنوان "الحسد" Envy كتب داڤينشى:

"لقد قرأت أن الحدأة عندما ترى صغارها فى العش وقد زادت سمنتهم وازداد وزنهم، فإنها – عن حسد – تقوم بنقر جوانب أجسادهم، وتمتنع عن إطعامهم".

وبالطبع، لا يمكن اتخاذ هذه النوعية من المشاعر على أنها دليل كاف لتأييد فروض فرويد.

هذا وقد كان أتباع فرويد على علم بهذا "الخطأ الحاسم"، ولكنهم حاولوا الدفاع عنه عن طريق الدخول فى مجادلات عقيمة. وعلى سبيل المثال، فإن "چيمس ستراشى" James Strachey – الذى قام بنشر "الأعمال النفسية الكاملة لسيجموند فرويد" – أطلق على هذا الخطأ اسم "الحقيقة المربكة وغير الملائمة" فى أحد خطاباته التى

(*) معظم فصائل "الحدأة" فى أوربا تكون – بالفعل – صغيرة، وفى حجم "اليمام" أو أكبر قليلاً، ولا تقتصر فى ألوانها على الأسود؛ بخلاف الأحجام الكبيرة الحالكة السواد التى اعتدنا عليها فى مصر، والتى لا تقل فيها "الحدأة" عن حجم النسور كثيراً. (المترجم)

أرسلها لـ"إرنست چونز"، ولكنه أنكر وجود هذا الخطأ فى كتاباته الأخرى معتبراً إياه مجرد جزء واحد صغير من عشرات الأجزاء التى استخدمها فرويد فى بناء تحليلاته النفسية لهذا "المشهد"، مدعيًا أن الهيكل الأساسى لوجهة نظر فرويد لم يتأثر بهذا الخطأ الجزئى!

هذا وقد اقتفى "إرنست چونز" خطوات رفيقه فى الدفاع عن فرويد، عندما سمى هذا الخطأ جزءًا غير جوهرى من الآراء التى قام فرويد بتقديمها لنا، أما "كيرت إسلر" Kurt Eissler، فإنه ادعى أن المشكلة الناجمة عن استعانة فرويد بمعلومات مترجمة بطريقة خاطئة لم يكن لها أى تأثير على الاستنتاجات الأساسية لفرويد، وإنما انحصر تأثيرها على المقدمة المنطقية التى استند عليها هذا الاستنتاج فقط!

وأنا أعتقد أن "داڤيد ستانّارد" قد تحفظ فى سخريته منهم، عندما قال: إنها كلمات تستحق أن نعيد قراءتها بتأن؛ ثم يكتب ما نصه:

"إن كل هذه الجهود تتسم بالشجاعة، ولكنها فى النهاية قد ضلت هدفها. ولتبسيط الأمر، فإنه بإمكانى القول: إن فرويد قد قام ببناء الغالبية العظمى من تحليلاته فى شكل "هرم مقلوب"؛ ولهذا أصبح البناء بأكمله يرتكز على "حجر زاوية" واحد، وعندما يكون هذا "الحجر المحورى" عبارة عن حقيقة واحدة مشكوك فيها، فإن كل الاستنتاجات تنهار عندما يثبت خطأ هذه الحقيقة؛ مثلما ينهار الهرم المقلوب، عندما نزيل حجر الزاوية منه، ولن يكون فى استطاعة أى قدر من البلاغة أو المراوغة أو التلاعب بالألفاظ إخفاء حقيقة انهيار الهرم".

وبعد هذا، يبدأ "داڤيد ستانّارد" فى تفكيك هذا الصرح الهائل من المغالطات؛ فعندما يتم استبعاد "مشهد النسر" يعنى هذا أنه لم يعد لدينا أى سبب لتصديق أن داڤينشى كان متأثراً بسبب "الغياب المزعوم" لوالده خلال مرحلة طفولته، وقد حدث هذا؛ لأن الفكرة كانت مبنية - بأكملها - على **ما يرمز إليه النسر** فى هذا "المشهد"، كما أن فرويد قد اعتمد بصورة كلية على تحليلاته المتعلقة بـ"مشهد النسر" فى إعادة بناء تاريخ حياة داڤينشى خلال الطفولة، وعندما يتم استبعاد هذا المشهد فإن هذا

يعنى أنه لم يعد لدينا أى أسباب للاعتقاد بأن داڤينشى أمضى سنوات طفولته فى أحضان أمه فقط وبدون أى تواصل مع أبيه، وفى الواقع فإن هناك أدلة اكتشفت مؤخرًا تشير إلى أن داڤينشى أقام فى منزل أبيه منذ مولده.

بعدها، يبدأ "داڤيد ستانّارد" فى دراسة المسألة المتعلقة بـ"الجنسية المثلية"، ويظهر لنا – بتفصيل شديد – أن كل الأدلة المزعومة التى قدمها فرويد عديمة القيمة ولا علاقة لها بالموضوع، عندما يقول:

"والآن، وبعد أن استبعدنا كل ما ثبت خطؤه، وكل ما لا ينهض لدعمه أى دليل قوى، وكل ما لا علاقة له بالموضوع، فإن كل ما يصبح لدينا هو: إن داڤينشى لم يترك أى قدر من المعلومات عن حياته الجنسية يمكننا منها استنتاج "حقيقة ميوله الجنسية"، فإن كل ما لدينا هو سجل ببعض نفقاته الصغيرة، التى أنفق بعضها على تلاميذه، وأن كل ما يظهره هذا السجل لنا هو أنه كان دقيقًا بصورة لافتة للنظر، ويهتم بتسجيل ملاحظاته عن الأشياء المحيطة به فقط لا غير".

ماذا عن الملحق الذى كتبه فرويد لتحليلاته الخاصة بالأعمال الفنية العبقرية التى رسمها داڤينشى؟ فى هذا الصدد، من المهم توضيح أن فروض فرويد المتعلقة بالابتسامة الشهيرة المرسومة على وجه "الموناليزا" لا تكون صحيحة، إلا إذا كانت هذه "الابتسامة الساحرة" قد ظهرت لأول مرة على وجه الموناليزا ثم اللوحات التالية لها، وقد حدث هذا – حسب زعم فرويد – لأن ابتسامة السيدة التى جلست أمامه (الموديل) أيقظت ذكرياته القديمة عن ابتسامة أمه، التى ظلت كامنة فى عقله الباطن طوال تلك السنوات. لكن الحقيقة شىء مختلف تمامًا؛ فيخبرنا "داڤيد ستانّارد" من خلال عرضه الرائع لكل الأدلة المتاحة تاريخيًا بأن هناك دليلاً واحدًا حقيقيًا يثبت خطأ الفروض التى قدمها فرويد فى هذا الصدد، ويجعل قضيته قضية خاسرة بصورة أكيدة. هذا الدليل هو وجود "تصميمات مبدئية" (إسكتشات) للوحات عديدة، مثل لوحة "أنَّا مِترزا" Anna Metterza، والتى تم رسمها قبل "الموناليزا" بسنوات عديدة، وكانت تحمل صورة وجه "أنَّا" و"العذراء مريم"، وكانت كل منهن تحمل الابتسامة الساحرة نفسها التى

ظهرت فيما بعد على رسوماته النهائية؛ تلك الرسومات التى ادعى فرويد - ظلمًا وعدوانًا - أنها كانت وحيًا ناجمًا عن الذكريات التى أيقظتها موديل "الموناليزا".

وباختصار، فإن مجرد تحديد التاريخ الذى تم فيه إنجاز كل رسم من الرسومات السابقة يكون كافيًا لإثبات خطأ النظرية التى خرج بها علينا فرويد.

إن كتاب فرويد عن ليوناردو داڤينشى يوضح - بطريقة لافتة للنظر - حجم المشكلات الأربع الرئيسية التى يعانى منها "التأريخ النفسانى"؛ وهى حسب ترتيب "داڤيد ستانَّارد" لها: "مشكلات الحقائق" و"مشكلات المنطق" و"مشكلات النظرية" و"مشكلات الحضارة"، وهو قد قام بتوضيح وجهة نظره لنا خلال مناقشته لهذه المشاكل، عن طريق ذكر المراجع والكتابات المنشورة بواسطة أتباع فرويد؛ التى سوف نذكر بعضًا منها فيما يلى.

١- مشكلات مع الحقائق Problems of Facts

إن هذه النوعية من المشكلات تمثل مجموعة واضحة لما قد يعتبره كثيرون "المهمة الأساسية للمؤرخ": نحن نتكلم هنا عن "محاولة العثور على الحقائق، حتى يمكننا معرفة حقيقة ما حدث فى الماضى، أما المحلل النفسى الذى يعمل فى مجال "التأريخ النفسى"، فإنه غالبًا ما تكون لديه ميول لاختراع الأحداث عن طريق تفسيراته وتفهماته التى يقترحها علينا لما يمكن أن يكون قد حدث فى الماضى، وبعدها يقوم بالبناء على هذه التفسيرات وكأن ما اقترحه علينا حقيقة واقعة حدثت بالفعل، ولقد رأينا هذا فيما سبق، عندما قام فرويد بإعادة بناء طفولة داڤينشى؛ فقد كان بناؤه لأحداث الطفولة مؤسسًا على خطأ فى تفهمه لإحدى الوقائع التى ذكرها داڤينشى، وعلى أساس هذا الخطأ اقترح فرويد علينا نظريته الجوفاء التى تقول بغياب الأب خلال طفولة داڤينشى، ولقد ذكرت بالفعل أن الأبحاث الحديثة قد أثبتت عدم صحة هذا.

وهناك مثال آخر يتمثل فى كتاب "إريك إريكسون" Erik Erikson، الذى عادة ما ينظر إليه على أنه من أكثر المتفتحين الذين اشتغلوا بـ"التأريخ النفسى" من جماعة

فرويد؛ ففى كتابه المعنون "لوثر الشاب" Young Man Luther ارتكب "إريكسون" نفس الفعلة التى قام بها فرويد، عندما ركز على حادثة واحدة فى حياة مارتن لوثر(*)، فكما ركز فرويد على ذكرى "مشهد النسر" فى طفولة دافينشى، فإن إريكسون قام بالتركيز على القصة التالية فى حياة مارتن لوثر: طبقًا لما رواه إريكسون فى كتابه، فإن لوثر كان يجلس بين أفراد فرقة الكورال داخل ديره فى "إرفورت" Erfurt(**)، وأنهم كانوا يستمعون لجزء من الإنجيل يصف حادثة إخراج الشياطين من الرجل الأخرس الأصم، عندما سقط لوثر على الأرض وبدأ يخور بصوت مرتفع يشبه خوار الثور قائلاً: "لست مثله! لست مثله!".

وقد قام إريكسون بتفسير هذا فى ظل ما يعتقده عن المكونات البنائية لحياة مارتن لوثر، مدعيًا أنها تشبه احتجاجات الطفل الذى تم نعته بألفاظ بذيئة.

ويعلق إريكسون قائلاً: "إنه من المثير أن نتمكن من معرفة ما إذا كان مارتن لوثر قد نطق بهذه الكلمات باللغة اللاتينية أو الألمانية".

أما "ستانّارد" فإنه يعلق بجفاء قائلاً: "إن ما يمكن أن يكون مثيرًا - حقيقة - هو معرفة ما إذا كان مارتن لوثر قد صدر عنه مثل هذا الصوت الذى يشبه خوار الثور أم لا، أم أن القصة بأكملها مختلقة وملفقة، وعندما نأخذ فى الاعتبار نوعية الأدلة المتوافرة وقيمتها، فإن الاحتمال الأكبر هو أن هذه الأفعال لم تصدر عنه، إن الأدلة التى تشير إلى حادثة "نوبة الكورال" Fit in the Choir تجعلها تبدو وكأنها إشاعة انتقلت من

(*) "مارتن لوثر" Martin Luther (١٤٨٣-١٥٤٦م) هو القس الألمانى الذى انشق عن الكنيسة الكاثوليكية وثار على باباوات روما وما يقومون به، خاصة بيع "صكوك الغفران"، وابتدع "المذهب البروتستانتى"، وهو ما دفع الإمبراطور لإهدار دمه، وبابا روما لتوقيع عقوبة "الحرم" عليه، ويقدر أتباع المذهب اللوثرى - الآن - بما يزيد عن ٥٤ مليون نسمة؛ أما الطائفة البروتستانتية ككل (بكل مذاهبها بما فيها اللوثرية) فهى حوالى ٨٠٠ مليون فى جميع أنحاء العالم. (المترجم)

(**) "إرفورت" Erfurt هى عاصمة الإقليم الألمانى المعروف باسم "تورينجيا" Thuringia الذى يقع - الآن - بالقرب من الحدود التشيكية. (المترجم)

مستوى إلى آخر، وتغيرت وتبدلت من خلال الأشخاص الذين تناقلوها، والذين كانوا - جميعًا - يجاهرون بعدائهم لمارتن لوثر، وعندما يسمح إريكسون لنفسه بتكرار إشاعة صدرت عن أعداء مارتن لوثر، ويستخدمها كحجر الأساس فى الفصل الأول من كتابه، فإنه يكون مثله مثل من يحاول دراسة حياة فرويد من خلال مصدر وحيد لا ثانى له؛ مصدر لا يحتوى إلا على "الأقوال المنشورة" لسلسلة من الأشخاص النازيين الذين يكنون العداء والكراهية للسامية؛ وهى التى لم يتم نشرها إلا بعد أن انتقلت رواياتها من شخص لآخر أكثر من أربع مرات".

أما بالنسبة لـ"**التأريخ النفسى**" الذى كتبه إريكسون عن نمو طفولة مارتن لوثر وارتقائها، فإنه يتطلب منا تَقَبل أن "والد مارتن" لم يكن إلا طاغية فظيعًا ذا نوايا سيئة؛ وذلك حتى نستطيع تصديق أن الصورة المشوهة والقاسية لأبيه قد تم إسقاطها على صورة المسيحية لـ"الأب الذى فى السموات" **Father in Heavens**، وفى هذا الصدد، فإنه لا يوجد - عمليًا - أى حقائق متعلقة بطفولة مارتن لوثر، وهذا يعنى أن الصورة التى خرج بها إريكسون علينا ليست إلا صورة تم خلقها بصورة صناعية - بأكملها - من لا شىء، وأنه استخدم فى هذا تفسيرات مغلوطة لواقعتين تم تناقلهما من شخص لآخر عن طريق السمع، الواقعتان متعلقتان بأنه قد تعرض للضرب مرتين؛ مرة بواسطة والدته، ومرة بواسطة والده!

فى الواقعة الأولى، هناك ما يشير إلى أن الأم كانت ذات نية طيبة، ولم تكن تبغى - حقيقة - إيذاءه، وفى الواقعة الثانية قام والده ببذل كثير من الجهد حتى يسترضى الفتى، ويكتسب حبه مرة أخرى. ومع هذا، فإن هناك كثيرًا ما يدعونا إلى التشكك فى صحة هاتين الواقعتين؛ لأنه تم تسجيلهما - بواسطة تلاميذه - عندما كان مارتن لوثر فى الخمسين من عمره بصور مختلفة ومتباينة بعضها عن بعض؛ ولأن مارتن لوثر لم يكتب له أن يرى هذه السجلات قط.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن "ستانًارد" يخبرنا: "إن الأدلة الفولكلورية الضعيفة تتناقض تناقضًا مباشرًا مع كثير من المعلومات التى تشير إلى أن مارتن لوثر عاش

طفولته فى منزل يظله الحب والاحترام، ولعل مثل هذه "المبالغات" فى مواجهة أدلة واضحة وصريحة تشير إلى النقيض، هو الذى جعل أكثر الخبراء تسامحًا يصفون استنتاجات إريكسون على أنها "تحريفات عنيفة"، و"جبل هائل من المبالغات والاستنتاجات التى لا أساس لها"، وفى كلتا الحالتين، فإن من قاموا بنقد إريكسون كانوا ودودين نحوه ومن أنصار فكرة "التأريخ النفسى". إن ما كانوا يعترضون عليه - ببساطة - هو إنشاء هرم ضخم من الاستنتاجات والتخمينات بلا أى أساس صلب ولا يوجد ما يؤيدها، وكما قال أحدهم، فإنه علينا أن نتأكد من الحقائق أولاً وقبل كل شىء".

وبالطبع، فإن هذه هى **المشكلة الرئيسية** فى كل ما كتبه فرويد فى مختلف المجالات؛ فإن الحقائق لا تذكر على ما هى عليه، بل يتم التغطية عليها - دائمًا - بـ"استنتاجات"، و"تفسيرات"، و"اقتراحات"، وغيرها من الأنماط التى تتصف بكونها بعيدة عن "الحقائق المادية" التى يمكن - للجميع - الاتفاق عليها.

٢- مشكلات المنطق Problems of Logic

أما الإجراءات التى قام بها فرويد وأتباعه، وصنفها "ستانّارد" على أنها مشكلات فى المنطق، فهى متعلقة بما يسمى: "بفرض الدائرة المفرغة" Post Hoc Ergo Propter Hoc؛ بمعنى الاعتقاد بأنه إذا وقع "الحدث ب" بعد "الحدث أ"، فإن هذا يعنى أن "الحدث أ" هو الذى تسبب فى وقوع "الحدث ب". وبالطبع، فإن هذا اعتقاد خاطئ. وفى هذا الصدد، علينا تذكر أن المشكلة المنطقية نفسها قد ظهرت خلال دراستنا لجهود فرويد العلاجية، وعلى وجه العموم، فإن الكتابات التاريخية لا تخلو من هذا الافتراض الخاطئ، وإن كان فرويد قد تمادى فى هذه النوعية من الأخطاء، حتى إنه جعل منه فنًا مستقلاً بذاته.

ولم يعد من الضرورى - فى كتابات التحليل النفسى - الاعتقاد بأن "الحدث أ" قد وقع بالفعل إذا ثبت وجود "الحدث ب"، فمن وجهة نظرهم، من الممكن افتراض أن "الحدث أ" لا بد أن يكون قد وقع؛ حيث إن "التحليل النفسى" يؤكد على أن "الحدث ب" ما هو إلا نتيجة لـ"الحدث أ"!

وبكلمات أخرى، فإنهم يعتبرون "نظرية فرويد" من الأشياء المطلقة التى لا تناقش، وأنه من الممكن اعتبارها "الخط الإرشادى" الآمن حتى بالنسبة للحجج الاسترجاعية Retroactive Arguments، التى تحاول البدء بالاستنتاج و"ترجع" به إلى ما يسبقه؛ وحيث يكون هذا الشىء الذى سبقه هو أمرًا مجهولاً تمامًا ولا نعرف عنه أى شىء، وهكذا، فإن الكتابات التى قدموها عن داڤينشى ومارتن لوثر تظهر مشكلتهم مع المنطق بوضوح، وهذه المشكلة المنطقية تقود مباشرة إلى حدوث:

٢- "مشكلات مع النظرية"؛ وعلى حد قول ستانّارد:

"إن هذه المشكلة تتضمن "المنهج المستخدم" The Method؛ فإن القائمين بالتحليل النفسى يستخدمون "منهجًا" يسمح لهم باختراع الحقائق المتعلقة بطفولة الفرد، قبل إثبات أن هذه الحقائق هى السبب فى سلوكياته بعد وصوله إلى مرحلة البلوغ! وبإمكان أى فرد منا قراءة أكوام هائلة من كتاباتهم فى "التأريخ النفسى"، بدون أن يكتب له العثور على ما يشير إلى أن المؤلف قد تشكك - ولو للحظة - فى "نظرية التحليل النفسى"، بل إنها - دائمًا - ما تؤخذ وكأنها من "البيانات المطلقة" التى لا يجوز مناقشتها، وطبقًا لفرويد، فإنها تعتبر "المفتاح" The Key الذى سيمكننا من فهم أفعال هذا الشخص الذى يتم التأريخ له من الناحية النفسية!

فلو أن نظرية التحليل النفسى كانت - حقيقة - لها هذه القدرة على أن تكون "المفتاح" الذى سيمكننا من الفهم، لكانت قادرة على تبديد بعض نقاط الضعف التى توارثتها من "مشكلتها مع الحقائق"، ولكننا نعلم أن نظريته عجزت بالفعل عن القيام بهذا".

(*) فى الفصل الثانى من هذا الكتاب: عندما قمنا بدراسة مدى الفائدة العلاجية، وحجم التأثيرات التى يمكن الحصول عليها من تطبيق أى نظرية، وكيف أن عدم استفادة المريض، وضعف فاعلية العلاج - يحرم "التحليل النفسى" من آخر الإمكانات التى تسمح بإثبات فاعليته كنظرية من النظريات الصالحة للاستخدام فى العلاج النفسى للمرضى؟ (المترجم)

وفى الواقع، فإنه لا حاجة بنا لمزيد من التوثيق بالنسبة للنقطة السابقة؛ فإن كتابى هذا ليس إلا محاولة لإظهار أن معظم مكونات نظرية التحليل النفسى - وربما كلها - ليست إلا مكونات خاطئة؛ ولهذا السبب، فإنه لا يمكن استخدامها كمفتاح يمكننا من فهم أفعال الفرد، وبالمثل، فإن "التأريخ النفسى" يعكس الإجراءات العلمية التى اعتدنا اتباعها فى كل بحث من البحوث، ويتفهم الحقائق فى ظل نظرية لم تثبت صحتها، وقبل أن يُظهر لنا أنه من الممكن تطبيقها ومدى القيمة الحقيقية لها، وهم فى هذا (المشتغلين بالتحليل النفسى) - يتجاهلون الأكوام الهائلة من الأدلة التى تشير إلى أن نظريتهم تفتقر تماماً إلى "قيمة الحقيقة" Truth-value. وهم يحاولون إقناعنا بأن حدثًا ما (أ) لا بد أن يكون قد وقع لمجرد أن التحليل النفسى يزعم هذا، وبدون أن يظهروا لنا أى إثباتات أو أدلة تشير إلى أنه قد حدث بالفعل إن مثل هذا الاعتماد الكامل على النظرية - هو أمر من الأمور المرفوضة تمامًا، ليس فى "العلوم الطبيعية" Natur<u>wissenschaft</u> فقط، وإنما فى "الدراسات الأدبية والتاريخية" Geistes<u>wissenschaft</u> أيضًا.

أما بالنسبة للمجموعة الأخيرة من المشكلات التى تواجه "التأريخ النفسى" فهى:

٤- مشكلات الحضارة: فى هذا الصدد، فإن فرويد - وأتباعه - ينظرون إلى الأشياء والأفعال التى حدثت فى الماضى من وجهة نظرهم الخاصة، مفسرين إياها من خلال ما تعنيه فى العصر الحاضر، أما الحقيقة، فإن هذه الأشياء أو الأفعال من الممكن أن يكون لها معنى مختلف تمامًا فى الأزمنة التى حدثت فيها أو فى الحضارة التى كانت سائدة وقتها. لقد ذكرنا بالفعل كيف أن فرويد كان ينظر إلى عادة دافينشى فى شراء طيور وإطلاق سراحها على أنها تعتبر دليلاً على حساسيته ورقة مشاعره، وفيما يبدو، فإن هذا يدل على جهل فرويد بعادة إطلاق سراح الطيور، التى كانت سائدة فى القرون الوسطى... وكان الجميع يفعلونها من أجل جلب حسن الحظ، وبالفعل، فإن دافينشى كان حساسًا ورقيق المشاعر، ولكن عادة إطلاق سراح الطيور لم يكن لها أى دخل فى هذا، والتفسير الأكثر بساطة هو أنه كان يقوم بها - مثله فى هذا مثل كل من كان يعيش فى عصره فى إيطاليا - من أجل جلب "حسن الحظ".

وهناك مثال آخر مثير يوضح لنا ميلهم لارتكاب هذه النوعية من الأخطاء، وقد ذكره "ستانّارد" الذى اقتبسه من كتاب "فاون برودى" Fawn Brodie المعنون:

"التاريخ الحميم لتوماس جيفرسون" Thomas Jefferson: An Intimate History، لقد كانت "فان برودى" منبهرة بتورط جيفرسون فى علاقة مع سالى هيمنجز "العبدة المهجنة" Mulatto Slave(*) التى كانت تعمل لديه، وهى قد خرجت علينا بعديد من الأسباب المحددة – التى تتفق مع نظرية التحليل النفسى بالطبع – التى تفسر تورط رجل فى مقام جيفرسون، مع سالى. لقد كانت "فان برودى" تعتقد أن جيفرسون مهووس بمحاولة تَمَلك "المرأة المحرمة عليه" Forbidden Woman، ومدى أهميتها لإشباع "احتياجاته الداخلية" His Inner Needs!

وهى تحاول أن تثبت صحة نظريتها من خلال اقتباس بعض الفقرات التى كتبها جيفرسون فى وصفه لمنظر طبيعى رآه خلال إحدى رحلاته لهولندا، خلال هذه الكتابات، ذكر جيفرسون كلمة المهجنة ("Mulatto") ثمانى مرات فى وصفه للون الأراضى الهولندية، وفيما يبدو، فإن "فان برودى" تجهل أن هذه الكلمة كانت تستخدم – خلال القرن الثامن عشر فى أمريكا – فى وصف لون كثير من أنواع التربة، أما فى عصرنا الحاضر، فإن الكلمة السابقة من الممكن أن تبدو غريبة جداً فى وصف لون التربة؛ وحيث إن "فان برودى" تجهل الاستخدام القديم للكلمة فإنها فسرت تعلق جيفرسون باستخدام هذه الكلمة على أنه تصرف لا شعورى، عبر به عن اهتمامه بسالى هيمنجز. من المفترض فى "المؤرخ" المتمكن من صناعته أن يكون على علم بأمثال هذه الحقائق البسيطة، ولكن جهل القائمين على "التأريخ النفسى" بطبيعة "العصر" و"الحضارة" التى يكتبون عنها – جعل الواحد منهم يسىء فهم الحقائق المكتشفة.

(*) كلمة "مهجن" Mulatto، فى السياق السابق تعنى كون الفرد من الجيل الأول الناتج من تزاوج شخصين أحدهما "أسود" والآخر "أبيض"، وإن كان لها استخدامات أخرى فى ذلك العصر كما سيتضح لنا من شرح مؤلف كتابنا هذا. (المترجم)

وقد أنهى "ستانّارد" كتاباته فى هذا الصدد قائلاً:

"إن النقد التقليدى للألفاظ السوقية والمبتذلة، والألفاظ التى تحط من قيمة الأشياء والأفراد، وما شابهها - لا زال يعتبر نقداً مقبولاً لهذه المهنة الجديدة فى "التأريخ النفسى"، لكن السبب الأساسى الذى يدفع بنا لرفض هذه المهنة الجديدة قد أصبح واضحًا، فإن "التأريخ النفسى" غير مُجد، ولا يمكن له أن يصبح نافعًا أو مجديًا فى يوم من الأيام، ولقد حان الوقت لمواجهة الحقيقة القائلة بأن كل هذه الفروض، ومحاولة تفهم التاريخ عن طريق التحليل النفسى - ليست إلا محاولات عبثية لا طائل منها؛ لأنها مصابة بنقائص تستعصى على الحل؛ أشياء من مثل: "المنطق المعكوس"، و"الأدلة غير العلمية"، و"الجهل" بطبيعة العصر والحضارة التى يتم بحثها وتحليلها، وباختصار، فإن الوقت قد حان لتخطى هذه الكبوة، والاستمرار فى البحث بالطرق العلمية المعهودة".

أما بالنسبة للقارئ الذى لم يقتنع بعد بالاستنتاج الذى وصل إليه ستانّارد، فإنه بإمكانه دراسة الكتاب بأكمله؛ لأنه يحتوى على كثير من التفاصيل التى كان من المحتم علىَّ حذفها. إن كل ما قلناه - فى السابق - عن طريقة فرويد فى "التأريخ النفسى" - يمكن قوله مرة أخرى - وأكثر - عن المساهمات التى قدمها خلال محاولاته الفاشلة لدراسة "علم أصل الإنسان" Anthropology. فى هذا الصدد، فإن نظرية فرويد مذكورة فى كتابه "الطوطم والمحرم" Totem and Taboo، ومعلومة للجميع، ولا تحتاج إلى أى مقدمات طويلة.

طبقًا لما ذكره فرويد فى ذلك الكتاب، فإن الإنسان بدأ مسيرته نحو الحضارة، عندما قام - لأول مرة - بتشكيل "منظمات اجتماعية" تحت حكم رجل واحد، كانت الأسرة بأكملها تخضع له، وهذا الرجل الديكتاتور كانت لديه السلطات الكاملة التى تمكنه من احتكار كل النساء فى الأسرة لنفسه ولغيره (تحديد من يتزوج من)، ومع مرور الوقت كان من المحتم على هذا الديكتاتور أن يضعف، وأن يزداد أبناؤه قوة؛ وعندها خطط أولئك الأبناء - المحرومين جنسيًا - للتخلص من أبيهم الديكتاتور وقاموا بقتله وأكله، وعندما فكروا فيما فعلوه، شعروا بالذنب وتملكتهم مشاعر الندم.

وهو ما دفعهم لأن يكبتوا رغبتهم فى إقامة علاقات جنسية مع الأم أو الأخوات البنات. وفى الوقت نفسه حاولوا التكفير عن جريمة القتل، من خلال خلق "أسطورة الطوطم". لقد كان هذا الطوطم هو الرمز الحيوانى الذى يمثل والدهم، ومن ثم، كان من المحرم أكل الحيوان الذى يرمز إليه الطوطم؛ إلا فى مناسبات عقائدية خاصة.

وبطريقة مشابهة لما سبق، بدأت قصص مماثلة لعقدة أوديب فى الظهور؛ قصص تحتوى على أسرة مكونة من رجل واحد قوى ومسيطر، رجل له زوجة أو أكثر وعديد من البنات والأولاد، ويتحكم فيهم جميعًا بأسلوب ديكتاتورى، قصص تحتوى على الخوف من "زنا المحارم"، وضرورة "الزواج من الأباعد" Exogamy(*)، والطوطمية، وغيرها من الخصائص المميزة للخطوات الأولى التى اتخذت على سلم الحضارة!

فى هذا الصدد، فإن فرويد قد استخدم أحداثًا مرتبة تاريخيًا بطريقة خاطئة، كإطار لمحاولاته تفسير الاختلافات الموجودة بين الحضارات؛ مثل الخطأ الذى ارتكبه فى نظريته الخاصة بالنمو والتطور الجنسى للطفل، التى كانت مليئة بالمراحل المتتالية؛ فهو قد ساوى ما بين "الشخصية الوحشية" و"شخصية الطفل الرضيع"، وفى رأى فرويد، فإن كل فرد منا يقوم بتكرار المراحل الأساسية التى حدثت خلال "تطور" Evolution البشرية، عندما ينتقل من مرحلة إلى أخرى، حتى يصل إلى مرحلة "النضوج" Maturity؛ وأنه يكون من الممكن للحضارات - مثلها فى هذا مثل الأفراد - أن تعانى من "النمو الموقوف" Arrested Development، خلال نقاط مختلفة من نموها تمنعها من الوصول إلى "التحضر" Civilization، (الذى يمثل "النضوج" Maturity" بالنسبة للفرد).

إن كل هذه الأوصاف العجيبة تشكل صورة مبهرة تحبس الأنفاس، ولكنها تفتقر - تمامًا - إلى أى أدلة تؤيد صحتها، كما أنها تخالف ما هو معروف عن حقائق التاريخ والمنطق والطرق العلمية الممكن استخدامها، وفى هذا الخصوص،

(*) "زواج الأباعد" Exogamy هو عكس "زواج الأقارب"؛ حيث لا يسمح للذكر بالزواج إلا من الإناث خارج مجموعة بعينها، وتصل - فى بعض الأحيان - إلى وجوب كونهن لا ينتمين له بصلة قرابة ... حتى ولو كن بنات العم أو بنات الخال. (المترجم)

فإن "بواز" Boas – أشهر العاملين فى مجال "علم أصل الإنسان" خلال عصره – كتب ما يلى عن استنتاجات فرويد المتعلقة بأصل الإنسان: "قد يكون علينا الترحيب بأى تطبيقات عملية جديدة تؤدى إلى تقدم الدراسات النفسية، ولكنه من غير المقبول أن نحاول تحقيق تقدم فى طرق دراسة "علم الأعراق" Ethnology، عن طريق تقبل منهج جديد "أحادى الجانب" لدراسة نفسية الفرد باستخدام ظاهرة اجتماعية يتحدد أصلها التاريخى من خلال تأثيرات لا تتوافق، أو تتماشى، مع التأثيرات التى تتحكم فى نفسية الفرد".

بعد هذا النقد، أتى العمل التجريبى المهم الذى قدمه "مالينوسكى" Malinowski الذى بدا وكأنه يتعارض مع ادعاءات فرويد فيما يختص بـ"عالمية عقدة أوديب"(*) Oedipus Complex Universality of the. لقد أظهر لنا هذا الكاتب أن سكان جزر "تروبرياند" Trobriand(**) يعيشون فى حضارة يقوم فيها أخُ الأم (الخال) بالدور القيادى الرئيسى، بدلاً من الأب، وهذا يعنى أن مشاعر الكبت – فى نفسية الشاب الناشئ – لا تكون موجهة نحو الشخص الذى يتحكم جنسيًا فى الأم. وهكذا فإن علاقة الابن بأبيه – فى هذه الجزر – تكون خالية من تلك المشاعر التى يمتزج فيها الحب بالكراهية لشخص الأب فى نفس الوقت؛ تلك المشاعر التى ادعى فرويد أنه قد لاحظ وجودها على مرضاه الأوربيين.

(*) عالمية أى فكرة أو مبدأ تعنى أنه ينطبق على جميع الأفراد فى كل زمان ومكان ومهما اختلفت الحضارات، وعلى سبيل المثال: ادعاء فرويد بـ"عالمية الجنس" Universality of Sex التى حاول فيها فرويد أن يقنعنا بأن "الجنس" – والرغبات الجنسية المكبوتة – هو السبب الأساسى فى كل الاضطرابات والأمراض النفسية التى قد تلحق بالفرد، وأنه هو المحرك والدافع الأساسى والعالمى المشترك بين جميع البشر، وهذا يختلف بشدة مع آراء ألفريد أدلر المنطقية، التى تؤمن بأن المحرك والدافع الأساسى – هو "رغبة الفرد فى إحراز التفوق" نتيجة لشعوره بالنقص؛ أى أنها مبدأ "عالمية الشعور بالنقص" Universality of the Inferiority Feeling، والمنطق ذاته ينطبق على الفكرة الخاطئة المتعلقة بعالمية "عقدة أوديب". (المترجم)

(**) مجموعة جزر صغيرة تقع فى الجنوب الغربى من المحيط الهادئ، فى الجزء المعروف باسم "بحر سليمان" Solomon Sea، وهى متصلة بـ"بابوا-غينيا الجديدة" Papua-New Guinea. (المترجم)

ولقد كان من المفترض أن تكون أعمال "مارجريت ميد" Margaret Mead هى مسمارًا إضافيًا تم وضعه فى نعش نظريات فرويد المتعلقة بـ"علم أصول الإنسان"؛ فلقد قامت هذه السيدة بإجراء دراستها العملية فى "ساموا" Samoa(*)، وقد أسند إليها "بواز" مهمة نفى صحة الفكرة القائلة بوجود طبيعة بشرية متوارثة تتصف بأنها ثابتة وضيقة بالنسبة لكل عرق من أعراق الجنس البشرى.

وحتى تتمكن مارجريت من تحقيق هذا، فإنها ركزت فى كتاباتها على أن فترة المراهقة بين سكان جزر "ساموا" من الجنسين، هى فترة خالية من الضغوط العصبية والمشاكل، وأن الطفل لا يكون بالضرورة أكثر قدرة على التخيل من الشخص البالغ، وأن المرأة لا تكون بالضرورة أكثر سلبية من الرجل... إلخ.

لكن للأسف، فإن هذه الدراسة العملية كانت سيئة جدا، ومليئة بالتناقضات التى تخالف ما هو معلوم من حقائق عن سكان هذه الجزر، حتى إن "ديرك فريمان" Derek Freeman فى كتابه "مارجريت ميد والساموا" Margaret Mead and Samoa تمكن - حديثًا - من إظهار أن معظم التفاصيل التى ذكرتها تتنافى مع الدراسات التى أجريت على سكان هذه الجزر، وقام بها عدد كبير من أهم علماء أصول الإنسان.

والغريب فى الأمر أن كثيرين من قراء كتاباتها تعاطفوا مع الصورة المثالية التى رسمتها مارجريت لأهالى هذه الجزر الاستوائية؛ حيث ينشأ الأطفال - صبيان وبنات - فى جو خال من أى ضغوط أو توتر، ولا توجد أى مشاكل جنسية، ولا يبالى أى شخص بالعلاقات الغرامية البسيطة والممتعة التى تحدث بين الجميع دون أن يترتب عليها أى نتائج خطيرة، لقد كان وصف مارجريت يوحى بأن مجتمع هذه الجزر ترفرف عليه السعادة والرضا، ويعرف فائدة التعاون المثمر، ولكنه يجهل التنافس البغيض

(*) هى الجزر التى كانت تعرف فيما سبق باسم "جزر نافيجاتورز" Navigators Islands، وهى تقع فى الجنوب الغربى من مركز المحيط الهادئ؛ وإلى الشمال من جزر "تانجا" Tanga. وهذه الجزر مقسمة بطريقة طولية إلى جزء أمريكى تابع للولايات المتحدة الأمريكية يسمى: ساموا الشرقية، أما الجزء الآخر فهو عبارة عن دولة مستقلة تحمل الاسم نفسه. (المترجم)

والجريمة، لقد كان وصف مارجريت لسكان هذه الجزر قريبًا - بطريقة ما - من العالم المثالى الذى تخيله فرويد؛ ذلك العالم الذى يخلو من الإعاقات الباطنية، والعقد العُصابية. وبالفعل، فإن هناك كثيرًا من الأشخاص الذين كان الواحد منهم ينظر إلى ذلك العالم الذى وصفته مارجريت على أنه المدينة الفاضلة التى تخلو من الفواحش الجنسية "يوتوبيا جنسية" Sexual Utopia من الواجب السعى نحو تحقيقها - أو شىء مشابه لها - فى الجزء الغربى من العالم.

أما الحقيقة، فقد كانت تختلف عن هذا تمامًا، ولقد ظهر هذا بوضوح فى كتاب فريمان السابق ذكره، الذى أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن العكس هو الصحيح؛ فإن سكان هذه الجزر لديهم أسوأ معدلات بالنسبة لجريمة الاغتصاب، والرجل هناك يتميز بالعدوانية والرغبة الدائمة فى القتال والشجار، والواحد منهم يراقب نساءه بغيرة جنسية شديدة، ويتنافسون بعضهم مع بعض بعنف وعدوانية شديدة.

وهكذا، فإن النقد الموجه لأسلوب فرويد فى التعامل مع "علم أصول الإنسان"؛ الذى حاول أن يستند إلى كتابات "مارجريت ميد"، لا بد أن يتم رفضه - فى هذه المرة - بسبب سوء الأبحاث والدراسات التى قامت بها هذه السيدة.

وبالطبع، فإنه من الواجب النظر إلى الاعتراضات على نظرية فرويد، التى تقدم بها "بواز" ورفاقه، بالقدر اللازم من الجدية. ومن ناحية أخرى، لا يوجد أى أساس للأدلة التى تقدم بها فرويد لإثبات نظريته المتعلقة بعلم أصول الإنسان، وفى هذا الصدد، فإن أتباع فرويد لم يستسلموا بهدوء؛ وهم - كعادتهم - لم يدافعوا عن فرويد بأى طريقة علمية أو منطقية، وإنما استخدموا فى دفاعهم أسلوب: "الحجة ضد الشخص" Argumentum ad Hominem(*)، وأحد أحسن الأمثلة التى توضح هذا: هو ما كتبه "جيزا روهيم" Geza Roheim عن النقد الموجه من "بواز"، وخلال هذه الكتابات،

(*) "الحجة ضد الشخص": هو المصطلح اللاتينى الذى تم شرحه بالتفصيل خلال هوامش "مقدمة المؤلف"، ويعنى استخدامه هنا أنهم رفضوا نظرية فرويد لأنه "يهودى". (المترجم)

فإن "جيزا روهيم" قد أصر على أهمية الفروق المختلفة بين الأعراق البشرية، وإليكم نص ما قاله فى هذا السياق:

"إن النقطة التى أحاول توضيحها متعلقة بانطباع مؤداه وجود اختلافات أساسية بين الأعراق المختلفة من البشر، إن الذى خلق هذا الانطباع - فى معظمه - هو "عقدة أوديب"، وهذا يعنى أن "عقدة أوديب" الخاصة بالرجل المشتغل بعلم أصول الإنسان، أو عقدة أوديب التى لدى الطبيب النفسى، أو عقدة أوديب التى لدى الاختصاصى النفسى، إن الواحد منهم يجهل كيفية التصرف مع عقدة أوديب الموجودة لديه؛ ولهذا، يلقى بها فى منطقة لا يستطيع أن يراها؛ حتى وإن كانت خبرته وتعليمه النفسى من الجودة بحيث يسمحان له بالتعامل معها. إن هذا الكبت يتشابه فى طبيعته مع أمر آخر موجود فى الميل "قبل الشعورى" Preconscious؛ إننى هنا أتكلم عن "القومية" Nationalism؛ فالفكرة الأساسية هى أن كل الأعراق تختلف بعضها عن بعض اختلافًا تامًا؛ وحيث إن الهدف من علم أصول الإنسان هو اكتشاف ودراسة حجم وطبيعة هذه الاختلافات ... فهو ليس إلا دعوة مستترة نحو تمجيد "القومية"؛ مثلها فى هذا مثل: تعاليم "النازية"، و"الشيوعية"، حتى وإن كانت هذه الدعوة تتم بطريقة ديمقراطية. وبالطبع، فأنا مدرك تمامًا أن كل من يدعو إلى دراسة الاختلافات والفروق بين الأعراق البشرية هو إنسان حسن النية؛ وأنه من المؤمنين بأن البشر - جميعًا - إخوة. وفى الواقع، فإن هذا هو المقصود من الشعار القائل: "النسبية الثقافية" Cultural Relativity. أما أنا، فإننى مجرد عالم نفس، وأنا على علم بأن كل موقف فردى ما هو إلا نتيجة للتنازلات التى يقدمها كل طرف من الأطراف. أيضًا، فإننى على علم تام بالمقصود من "تشكيل الاستجابات" Reaction Formation، فإن هذا يعنى أنكَ مختلف اختلافًا تامًا عنى ولكنى أغفر لكَ هذا.

إن علم أصول الإنسان يتعرض لخطر الانقياد فى نفق مظلم، عندما يتم إخضاعه لأحد أقدم الأساليب البشرية، وأنا هنا أتكلم عن أسلوب "الجماعة المفضلة" in-group فى مواجهة "الجماعة المنبوذة" out-group الذى اعتادوا استخدامه".

إن ما يقصده "جيزا روهيم" مما سبق هو: "عندما يحدث خلاف بينى وبينكَ، فإنكَ تكون على خطأ لأن كل ما تقوله ليس إلا نتيجة كبتكَ للمشاعر المتولدة عن "عقدة أوديب" التى تعانى منها، ومن ثم، فإننى أكون فى حِل من الرد على اعتراضاتك المستندة إلى الحقائق".

ومن الواضح أن هذا الأسلوب فى النقاش لا يمثل ما يجب أن يكون سائدًا بين العلماء من إعلاء لروح التوافق العلمى.

إن التحليل النفسى لعلم أصول الإنسان الذى قدمه لنا فرويد - يستخدم نفس الطرق التى تم استخدامها عندما قام بـ"التأريخ النفسى"، وهو ما يجعله يخضع للنقد نفسه الذى تم توجيهه فى المرة السابقة، وفى هذا الخصوص، فإننى سأعرض لمثالين يوضحان ميل فرويد لتفسير حقائق مشكوك فيها على أساس أسباب افتراضية قد تكون فى حقيقتها غير مرتبطة بعضها مع بعض. المثال الأول يتعلق بما يعرف باسم: "حالة العضلة اليابانية المُصرة"(*) The Case of the Japanese Sphinceter.

لقد كانت هناك "فكرة فرويدية" - تم استخدامها خلال الحرب العالمية - فى محاولة لإثبات وجود العلاقة بين الأسلوب الذى يتم استخدامه فى تدريب الطفل اليابانى على التبرز Toilet-training، وما زعموه من أن شخصية الفرد - هناك - تتميز بأنها "شخصية قهرية" Compulsive Personality، كما تظهر من خلال شخصيته القومية ومعاهده الحضارية. فى هذا الصدد خرج علينا عالم النفس الإنجليزى "چيفرى جورير" Geoffrey Gorer بفروضه المتعلقة بتدريب الطفل اليابانى على التبرز. طبقًا لهذه الافتراضات، فإن هناك تباينًا واضحًا بين الرقة واللطف المنتشرين فى جميع مناحى الحياة اليابانية، وبين الوحشية المخيفة والسادية التى يظهرها اليابانى خلال الحرب. لهذا، قام چيفرى بالربط ما بين هذه الوحشية المخيفة، وبين ما ادعى أنه تدريبات عنيفة ومبكرة يلقاها الطفل اليابانى حتى يحافظ على نظافته الشخصية.

(*) "العضلة المُصِرة": هى العضلة الدائرية التى تقوم بإغلاق أى فتحة من فتحات الجسم؛ وفى هذه الحالة، فإننا نتكلم عن فتحة الشرج. (المترجم)

وطبقًا لهذه الادعاءات، فإن الطفل الياباني يكون ممتلئًا بالغيظ والغضب العنيف، بسبب إجباره على التحكم فى البراز قبل أن يصل إلى سن مناسبة تمكنه من هذا.

هذا، وقد قامت "روث بينديكت" Ruth Benedict فى كتابها "الأُقحوان والسيف"، بتقديم اقتراحات مماثلة، أكدت خلالها وجود تدريبات طويلة ومتزمتة تُلزم الطفل اليابانى بالاستخدام المبكر لعضلاته التى تتحكم فى البراز. وطبقًا لـ"روث"، فإنه يُنظر إلى هذا على أنه أحد جوانب الحضارة اليابانية التى تدل على اهتمامهم بالحفاظ على "النظافة"، و"النظام"، و"الترتيب"، وهى الصفات نفسها التى تشكل أحد الجوانب المهمة المميزة للشخصية الشرجية Anal Character طبقًا لفرويد.

كل هذه الاستنتاجات قد تبدو - للبعض - فى صورة جذابة، ولكنهم خرجوا بها علينا بدون إجراء أى بحوث ميدانية، وبدون أن تكون لهم معرفة تفصيلية بنظم التدريب التى تستخدمها الأم اليابانية فى تدريب طفلها على التبرز، وعندما تم إجراء بحوث فى هذا الخصوص، بعد انتهاء الحرب، أصبح من الواضح حجم الأخطاء الخطيرة فيما يتعلق بطبيعة التدريبات التى يتلقاها الطفل اليابانى، فى هذا الصدد ثبت أن الطفل اليابانى لا يتعرض لأى تهديدات أو عقوبات حادة، بل إنه كان يُعَامل بطريقة مشابهة جدًا للطريقة المستخدمة مع الأطفال فى كل من أوربا وأمريكا. وبالإضافة إلى ما سبق، فإن السرعة التى تكيف بها الشعب اليابانى مع الهزيمة، وتقبلهم للنفوذ الأمريكى، وريادتهم لحركات السلام فى الشرق - لا تتوافق مع الصورة التى أشيعت عنهم خلال الحرب التى كثيرًا ما كانت تؤكد سماتهم الوحشية العنيفة.

أما المثال الثانى.. فإنه يتعلق بحالة الطفل الروسى المُقَمط(*) The Case of the Swaddled Russian Child، وقد قام كل من "جيفرى جورير" و"ريكمان" Rickman بعرض هذه الفروض فى دراستهما المتعلقة بالشخصية القومية الروسية. فى هذه الدراسة زعم المؤلفان أنه من الممكن تفهم الشخصية الروسية بطريقة أفضل،

(*) "التقميط": هو اللفة التى تحيط بالطفل، والمقصود به - هنا - هو لف الطفل جيدًا، بحيث تكون ذراعاه داخل اللفة؛ وهو ما يحرمه من القدرة على تحريك أى من أطرافه. (المترجم)

عندما نتفهم كيف أن الطفل الروسى يتعرض إلى التقميط العنيف، الذى يحد من حركته. هذا، وقد زعم "چيفرى" أن هذا التقميط العنيف مرتبط بـ"الهوس الاكتئابى" Manic-depressive؛ فطبقًا لهذا الفرض، فإن الطفل الروسى يصاب بالهوس الاكتئابى نتيجة لشعوره بقيود التقميط، وما يليه من حرية مؤقتة عندما يتم إزالة هذه القيود؛ وأن هذا التناوب بين "القيود" و"الحرية" - هو الذى يصيبه بالاكتئاب!

إن هذا يحدث - حسب زعمهم - بسبب مشاعر الغيظ والغضب المكبوتة، وما يليها من راحة، عندما يتم تحرير الطفل من قماطه، بين الحين والآخر. لقد كان من المفترض أن يتم توجيه هذا الغضب نحو "ما يمكن أن يصب عليه جام غضبه" Diffuse Object، ولكن، حيث إنه يتم التعامل مع الطفل بطريقة آلية خالية من المشاعر، فإن هذا يجعله عاجزًا عن ربط هذه النوعية من المعاملة بشىء أو شخص معين. وعندها، فإن هذا الغيظ والغضب يسمح ببزوغ "مشاعر الذنب" لدى الطفل الروسى. ومرة أخرى، فإن هذا الشعور يتشتت ولا يتم توجيهه نحو أى شخص معين.

ومن خلال كل هذه الفروض الغريبة، وغير المعقولة، حاول "چيفرى جورير" أن يقنعنا بأن هناك رابطة بين عديد من الأحداث الرئيسية مثل: "الثورة البولشيفية" Bolshevik Revolution، و"محاكمات التطهير" التى عقدها ستالين، والاعترافات بالذنب التى تم الحصول عليها خلال هذه المحاكمات من ناحية، وبين هذا الغضب والشعور بالذنب الشائع فى أثناء الشخصية الروسية، والناتج عن التقميط من ناحية أخرى!

أحد أهم هذه الاستطرادات المنحرفة - التى تثير عجب واستغراب كل من قرأها - عندما اقترح علينا أن اهتمام الشخصية الروسية بقدرة العين البشرية على التعبير، ينبع من حقيقة كونهم ظلوا مقمطين كأطفال - مع ما يتبع هذا من عجز التعبير عن الذات باستخدام الأطراف - وهو الأمر الذى دفع الواحد منهم للاعتماد على عينيه فى التواصل مع العالم الخارجى! هذا، وقد قام "مارڤين هاريس" Marvin Harris فى كتابه "بزوغ نظرية علم أصول الإنسان" The Rise of Anthropological Theory بتقديم تعليق رائع على هذه الفروض، ذكر فيه:

"من سوء الحظ أن "چيفرى جورير" لم تكن لديه أى أدلة متماسكة على حدوث تقميط مترمت يقيد حركة الطفل الروسى. وفى الواقع، فإن المفكرين الذين قدموا اعترافات خلال محاكمات التطهير التى عقدها ستالين، لم يتعرضوا لأى تقميط خلال الطفولة. أما الحقيقة، فهى أن الجو العام السائد، خلال فترة حكم ستالين، كان يتميز بالكبت ومشاعر الخوف التى سيطرت على الجميع، وهو أمر يرتبط مع وجود الحكم الديكتاتورى فى كل مكان فى العالم من غانا إلى جواتيمالا، أما ما زعم چيفرى بأنه توافق ما بين الشخصية الروسية، وفترة الحكم الاستبدادى المطلق لستالين... فإنه يتناقض مع حقيقة الثورة الروسية كثورة عبرت عن رفض عامة الشعب للوضع القائم، وكل من يحاول أن ينسب مشاعر الثورة ضد القيصر وحكمه الاستبدادى إلى الغضب المكبوت الناتج عن التقميط... لا يتفهم الدروس المستقاة من أحداث التاريخ الأوربى الحديث. إن طغيان ستالين كان مبنيًا على جثث أعدائه، كما أن ستالين لم يتمكن من فرض إرادته على أبناء شعبه، إلا من خلال ملء معسكرات سيبيريا بالملايين من الأفراد الذين رفضوا الخضوع، وتقديم فروض الولاء له، والتعبير - بلا تردد - عن طاعتهم العمياء، وهو قد تمكن من الاستمرار فى فرض سيطرته، عن طريق القضاء التام على أى معارضة سياسية قبل أن تبدأ فى التشكل وتهدد سلطاته، أما محاولة إعطاء الانطباع بأن جماهير الشعب الروسى كانت تحصل على نوع من "الإشباع النفسى" Psychological Fulfillment، من خلال فترة الإرهاب التى فرضها عليهم ستالين، فهو استنتاج خال تمامًا من الصحة، ولا يعتمد على أى حقائق يمكن التأكد منها".

إن نظرية چيفرى جورير موضوعة فى شكل يوحى بوجود "علاقة سببية مباشرة" بين التقميط، والشخصية الروسية. ومع هذا، فإنه يحاول أن يخلى مسئوليته من أى التزامات فى هذا الصدد، وهى "طريقة نمطية" يتبعها كثير من المفكرين الذين يتبعون مدرسة التحليل النفسى، خاصة عندما يكون الأمر متعلقًا بعلم أصول الإنسان، ولعل هذا هو السبب فى أنه يقول لنا:

"إن ما تهدف إليه هذه الدراسة، هو القول بأن الوضع الذى تم وصفه فى الفقرات السابقة (التقميط) هو أحد المحددات الأساسية التى أثرت على نمو وتطور شخصية الفرد البالغ فى روسيا، ولكن هذا لا يعنى أن دراستنا تدعى بأن الشخصية الروسية ما هى إلا نتاج للأسلوب الذى تتبعه الأم الروسية فى تقميط أطفالها، كما أننا لا نحاول الإيحاء بأن الشخصية الروسية ستتغير وتأخذ شكلاً مختلفًا، لو أنهم اتبعوا أسلوبًا مختلفًا مع أطفالهم".

ولهذا، كان رد "مارفين هاريس" حاسمًا ومحددًا:

"إن أى قراءة مدققة للسطور السابقة تظهر لنا أن محاولاته التنصل من فروضه لا تتسم بكثير من الذكاء؛ ففى بداية الفقرة يقول لنا: إن التقميط هو أحد المحددات الأساسية التى أثرت على نمو وتطور شخصية الفرد البالغ فى روسيا. وفى العبارة التالية مباشرة يتراجع عن هذا الادعاء... ويخبرنا بأن شخصية الفرد البالغ فى روسيا ليست نتاجًا لهذا التقميط"!

كما أن چيفرى جورير ادعى بوجود "قيمة استكشافية كبيرة" فى فروضه الخاصة بالتقميط؛ حتى إنه شبه هذا الفرض بـ"الخيط" الذى يمكن أن يرشدنا إلى الطريق السليم خلال المتاهات المعقدة والمتناقضة، التى تمثل سلوك الفرد الروسى البالغ، أما الحقيقة، فهى أنه لا يوجد طريقة لتفهم الطبيعة العلمية لهذا "الخيط"، إذا لم تكن هناك علاقة سببية. بل إن عدم وجود علاقة سببية ينفى وجود "الخيط" من أساسه، وكلنا يعلم أن أى فرض من الفروض يجب أن يتوفَّر فيه وجود علاقة سببية تربط بين الكم والكيف بدرجات مختلفة. بمعنى ضرورة وجود ارتباط معنوى يمكن قياسه، وإذا لم يكن هذا متوافرًا، فإنه لا يكون لدينا إلا العدم.

لقد دافعت "مارجريت ميد" عن "چيفرى جورير"، وتفهمت ما قاله على أنه تأكيد لما يلى: "عندما نحلل الطريقة التى يتم بها تقميط الطفل الروسى، فإنه يكون بإمكاننا بناء نموذج للشكل الذى سوف تتخذه الشخصية الروسية، وهذا النموذج سوف يمكننا من أن نربط بين ما نعرفه عن السلوك البشرى، وما نعرفه عن الحضارة الروسية،

بطريقة تمكننا من تفهم السلوك الروسى بأسلوب أفضل"، لكنها لم تشرح لنا كيفية تحقيق هذا؛ فإذا لم يكن هناك علاقة سببية، فإن فرض "جيفرى جورير" لا يعطينا ما نبنى عليه أى استنتاجات سليمة. وتعاود مارجريت ذكر فروضه قائلة:

"إن تضافر مجموعة غير عادية من الممارسات الشائعة، مثل عمر الطفل الذى يتم تقميطه بهذه الطريقة المقيدة، وإصرار الشخص البالغ على أهمية تقميط الطفل لحمايته من نفسه، وطول الفترة التى يتم خلالها ممارسة هذه العادة الشائعة - هو الذى يفترض حدوث تأثيرات مميزة تغير من شكل الشخصية الروسية".

ويعلق هاريس قائلاً:

"إن مثل هذه العبارة تعود بنا إلى نقطة الصفر مرة أخرى، فإن نقص الأدلة التى تؤيد وجود تأثير يربط ما بين العادة المشكوك فى وقوعها أصلاً، وبين الصفات المزعومة - يجعلنا ننتهى إلى اللا شىء مرة أخرى".

إن ذلك الخليط العجيب الذى يمزج بين الادعاء بوجود "علاقة سببية"، والتنصل من وجودها فى الوقت نفسه - هو "موقف نمطى" كثيراً ما لجأ فرويد لاستخدام، وفى هذا الصدد كتب لنا "سيوفى" Cioffi:

"إن "الأعراض" و"الأخطاء" لا تقع أو تحدث اعتباطًا؛ بل إنها تُعلن - من خلال ظهورها - عن وجود ما هو مكبوت من "الدوافع"، و"الأفكار"، و"الذكريات"، وغيرها".

ويتابع "سيوفى" حديثه:

"والتأثير التراكمى لهذا هو أننا لا نتمسك - خلال الأحوال التى يكون فيها من الطبيعى أن نطالب بوجود تفسير سلوكى أو "أدلة استقرائية"(*) Inductive Evidence -

(*) الأدلة الاستقرائية: هى الأدلة التى تنبع من الجزئيات بغرض الوصول منها إلى حكم كلى. وهى - بهذا - أدلة غير حاسمة، ولا يمكن لها أن "تنفى" أو "تؤكد" - بصفة مطلقة - صحة الفرض موضوع البحث، ويحدث هذا، لما هو معروف عنها من افتقادها للمعلومات المكتسبة عن طريق المشاهدة المباشرة (عن طريق الرؤية). (المترجم)

بحقنا فى المطالبة بضرورة توافر الأدلة، ويحدث هذا؛ لاقتناعنا بأن النشاطات والأفعال التى يتم تفسيرها ليست إلا نشاطات "عمدية" تم القيام بها عن قصد، أو نشاطات "تعبيرية" يمكن فهمها، أما فى الأحوال الأخرى التى عادة ما نتوقع خلالها أن يكون الرفض الصريح لـ"العامل" Agent كافيًا لنفى أو تأكيد مدى مساهمة "النشاط العمدى" أو "التعبيرى"، يتبدد هذا التوقع من خلال اللغو الذى خرج به فرويد عن "العمليات" Processes، و"الآليات" Mechanisms، و"القوانين التى تحكم اللاشعور" Laws of the Unconscious.

وكما أوضح لنا "سيوفى"، فإن كل هذا قد حدث لأن فرويد وأتباعه يشعر الواحد منهم بأنه تحت ضغط ليقدم تفسيرات سببية توضح فروضه؛ ولأن الواحد منهم يكون خائفًا من ذكر أى عبارات محددة، يمكن أن تحسب عليه إذا ما ثبت خطؤها، وقد تم توثيق هذا التضارب مرات عديدة خلال صفحات هذا الكتاب؛ لأن هذه الفعلة منتشرة ومستشرية فى كل أعمال فرويد وأتباعه. وفى هذا الخصوص، فإنه من الواجب على القارئ معاودة دراسة الفصل الذى يتكلم عن "سيوفى"؛ لأنه يعتبر أفضل وصف لتلك الأقوال المتضاربة التى تجعل من التحليل النفسى "علمًا زائفًا". وبالنسبة لجيفرى جورير، ومارجريت ميد، وغيرهما ممن ذُكِروا فى هذا الفصل، فإنهم قد اتبعوا فرويد واتخذوا منه قدوة فيما فعلوه.

لقد ناقشنا – حتى الآن – تطبيقات نظريات فرويد على التاريخ، وعلم أصول الإنسان، والأصول التى يعود إليها "الطوطم"، وما يتعلق به من "محرمات". ولكنه يكون من المستحيل علينا تجاهل تأثير فرويد ذاته وشخصيته على كل هذا، ولقد أشرت – فيما سبق – إلى أنه من المستحيل فهم نظريات فرويد إلا على أنها عمل أدبى عبر من خلاله المؤلف عن مشاعره وعقده النفسية، وفى الواقع هناك كثير من مشاهير التحليل النفسى ذاته، الذين يتفقون معى فى وجهة النظر السابقة، ومن أمثلة هؤلاء "روبين أُوستو" Robin Ostow، الذى ذكر أنه من الممكن قراءة كتاب فرويد: "الطوطم والمحرم"، على أنه: "قصة رمزية" عن فرويد وأتباعه، وعن حركة التحليل النفسى ككل، وهذا هو نص ما قاله أُوستو فى هذا الصدد:

"إن الصفات الشخصية التى تميز "الأب" الموجود فى كتاب فرويد - تنطبق على عديد من صفات فرويد ذاته، كما أن بعض الأحداث الدرامية الأساسية يمكن ملاحظة وجودها فى كل من تطور حركة التحليل النفسى، وفى مخاوف فرويد وأحلامه الجامحة المتعلقة بمستقبله الشخصى، ونظريته، والجماعة التى أنشأها، أما بالنسبة لـ"آدلر" Adler و"ستيكل" Steikel، فإنهما يمثلان اثنين من "أبناء"[*] فرويد اللذين تم نفيهما، وطردهما بعيداً عن القبيلة، وبالنسبة للخيال الجامح الخاص بأنه سيتم ذبحه وتمزيق أوصاله وأكله من قبل أولئك الشباب الصغار، فإنه يبدو وكأنه يعبر عن بعض مخاوف فرويد الدفينة، ويدل على وجود قدر محدد من المتعة المازوخية[**] لديه، وهو يرى مصيره النهائى... على أنه سيكون له التحكم الكلى غير المسبوق على مجموعة من الأفراد الذين يتميزون برغبتهم فى التعاون معه، والذين يشعرون نحوه بالحب والتعاطف، وبالإضافة لهذا، فإن كل واحد منهم سيكون خالياً من روح الفردية، لقد تخيل فرويد نفسه، على أنه "الطوطم" Totem الذى ستقدسه الأجيال التالية من المحللين النفسيين... الذين سيشيرون إلى أنفسهم على أنهم: "فرويديين"؛ وسيتعاونون فيما بينهم داخل حدود مؤسسة منظمة".

(*) وقائع التاريخ وما يعلمه الجميع، تختلف - كثيراً - عن الإيحاءات التى يلمح لها النص السابق؛ فإن آدلر وستيكل - ويونج وغيرهم - لم يكونوا أبداً فى موقف "الأبناء" من فرويد، كما أنهم لم يطردوا أو ينفوا من جماعة التحليل النفسى، بل تركوها - جميعاً - بإرادتهم، ورغم محاولات فرويد المستميتة للتشبث بهم، التى وصلت - فى حالة آدلر - إلى حد أنه زكاه وجعل منه رئيساً لجماعة التحليل النفسى عام ١٩١١م، والتى كانت تعقد اجتماعاتها فى منزل فرويد. وبالرغم من كل هذا، استقال أدلر - فى العام نفسه- عندما تقرر أن يقوم أفراد هذا التجمع بحلف اليمين على تأييد نظرية فرويد فى "التحليل النفسى"، والالتزام بالولاء غير المشروط لها.(المترجم)

(**) "المازوخية" Masochism هى انحراف جنسى يجعل الفرد يستمتع بما يلحق به من التعذيب والإهانة والإيذاء والألم النفسى أو الجسدى أو كليهما؛ خاصة إذا أتى من جانب المحبوب، وأول من استخدم التعبير السابق، كمصطلح طبى، هو العالم الألمانى "كرافت إبنج" Krafft-Ebing، فى كتابه الذى صدر فى عام ١٨٩٠ تحت عنوان: "بحث جديد فى الأمراض النفسية ذات الطابع الجنسى" New research in the area of psychopathy of sex. (المترجم)

لقد كتب "والس" E. Wallace كثيراً – وبالتفصيل – عن الاعتماد الكبير لنظريات فرويد على التاريخ الشخصى لفرويد ذاته، وفى هذا الصدد، فإنه أضاف عدة نقاط مهمة؛ فهو يصر على أن بعض "العوامل السببية" التى دعت فرويد لكتابة "الطوطم والمحرم" هى صراع فرويد مع أبيه، والمشاكل التى عاناها فى نزاعه مع "كارل جوستاف يونج"، الذى كان قد بدأ فى ثورة فكرية ضد مكانة فرويد البارزة!

وقد اعترف فرويد ذاته أن حياته النفسية الداخلية كانت تتصف بكثير من المشاعر المتضاربة تجاه والده، وهو صراع ظهرت أعراضه فى كثير من جوانب حياة فرويد، وهذا نص بعض ما قاله "والس":

"إن هناك عدة طرق يمكن من خلالها النظر إلى العلاقة الموجودة بين صراع فرويد مع والده من ناحية، والفرض الخاص بـ"قتل الآباء" Parricide، فمن الممكن النظر إليه على أن فرويد قد أسقط "صراعاته الشخصية" Personal Dynamics (صراعه مع أبيه) وعمه حتى وصل به إلى مستوى العالمية(*). وبهذه الطريقة، يكون فرويد قد باعد بين نفسه وبين هذا الغضب الذى أدى به لاشتهاء موت والده (تلك المشاعر البغيضة التى عاودته عندما بدأ "يونج" فى التمرد عليه). كذلك يكون من الممكن توصيفها على أنها: "إحدى الحقائق الأولية والأساسية فى تاريخ العالم"؛ فلقد كان فرويد يعبر عن أهميتها فى الحياة النفسية الخاصة به، وهو عندما قام بتوصيف "شهوة قتل الوالد" الأساسية، على أنها "ميراث لا يمكن التخلص منه" Irravocable Inheritance، يكون بهذا قد اعترف بأنه على علم جزئى بصراعاته الخاصة، وما يجول فى داخله من تفاعلات؛ بمعنى أنه كان هناك قَدر محتم ومصير مكتوب أجبره على إعادة القيام بالدور الذى أداه فى صراعه مع والده، وما تبع هذا من شعور بالذنب، بالإضافة إلى ما سبق، فإن هذه الفروض من الممكن أن تكون طريقته فى طلب الغفران لما تم ارتكابه

(*) كما ذكرنا من قبل – فى هوامش الفصل الحالى – فإن عالمية أى مبدأ أو فكرة هى أن تنطبق على الجميع فى كل زمان ومكان، ومهما اختلفت الحضارات. (المترجم)

فى حق الأب، بمعنى التأكيد على أن الأبناء - وليس الآباء - هم الذين ارتكبوا الجريمة التى جلبت الشعور بالذنب، ومع هذا فإننا نجد الرغبة فى العثور على حل وسط واضحة؛ لأنه يصر على أن ذلك "الأب الأساسى" كان يتصف بالطغيان والوحشية؛ مما يعطى نوعًا من التبرير لرغبة الأبناء فى قتل والدهم".

من المثير أن نرى "التاريخ النفسى" - فى الفقرة السابقة - وقد تم استخدامه ضد الشخص الذى ابتدعه، وكيف أن طرق التحليل النفسى قد استخدمت فى تشريح العمل الذى قام بكتابته فرويد (الطوطم والمحرم). والحقيقة القائلة بأن من قاموا بفعل هذا هم من أتباع فرويد المخلصين توضح ما سبق ذكره من أن "أعمال فرويد" و"شخصيته" و"تاريخه النفسى" هى من الأشياء المرتبطة ارتباطًا لا يفصم بنظريته، كما أن ما ادعاه فرويد من أنه يقوم بـ"تحليلات علمية" للنفس البشرية - لا يزيد كثيرًا عن كونه "مذكرات شخصية" تصف فرويد ذاته، والشىء العجيب - حقًا - هو أن كثيرين نظروا إلى أعمال فرويد على أنها مساهمات علمية حقيقية، فهل يمكن لنا الوثوق فى تطبيق تحليلات نشأت من خلال اتباع طرق مغلوطة؟

سيكون على القارئ نفسه اتخاذ القرار الخاص به فى هذا الشأن، ومن الأفضل أن يتم هذا بعد قراءة الأعمال المكثفة التى كتبها "والس" فى هذا الخصوص؛ لأنه تعمق كثيرًا فى هذا المجال، كما أنه قدم لنا انطباعًا سليمًا عن القضية ككل، ومن وجهة النظر العلمية، فلا يجوز لنا الاهتمام بما تسبب فى أن فرويد قد تقدم بهذه النوعية من النظريات؛ فإنه من الواجب الحكم على النظرية من خلال مدى انطباق المنطق عليها، واتساق عناصرها، والحقائق التى تؤيدها. وكما رأينا، فإنه لا يوجد ما يؤيد نظرياته فى مجال التاريخ، أو علم أصول الإنسان، أو أى من المجالات الأخرى التى قمنا بفحصها، ولعل هذا هو جوهر التهمة الموجهة لفرويد ومنبع الشكوى من نظرياته؛ فنحن - هنا - لا نشكو من أنه كان مدفوعًا لتعميم تاريخ نموه وتطوره النفسى والأحداث التى وقعت فى المراحل التالية من حياته.

وسوف أقوم بختام هذا الفصل عن طريق اقتباس الفقرة التى كتبها "مارڤين هاريس"، وهى مرتبطة بالعلاقة بين التحليل النفسى وعلم أصول الإنسان:

"إن التقاء كل من التحليل النفسى وعلم أصول الإنسان قد أخرج لنا حصاداً وفيراً من الفروض الذكية، يمكن لنا من خلالها رؤية الآليات التى تتفاعل بها النفس على أنها مجرد وسيط فى الرابطة التى تصل بين أجزاء متباينة وشديدة الاختلاف، ومع هذا، فإن التحليل النفسى ذاته لم يقدم كثيراً أو قليلاً لعلم أصول الإنسان أو الطرق العلمية الواجب اتباعها لتطويره، وفى هذا الخصوص، فإن اللقاء بينهما زاد من حجم السلبيات الموجودة فى كل منهما؛ سلبيات مثل: الميل الموروث للخروج باستنتاجات غير محكومة، ونظرية (ليست عملية) وتتسم بالتعميمات التاريخية التى لا يوجد ما يؤيدها من منطق أو اتساق، وفى هذا الصدد، فإن "العالِم المشتغل بدراسة أصول الإنسان" Anthropologist، عندما يحاول دراسة وتحليل تاريخ الحضارة من الناحية النفسية، يبدو – فى هذا – مثله مثل المحلل النفسى الذى يحاول التعرف على السمات البنائية الأساسية فى شخصية مريضه، وفى كلتا الحالتين ظلت محاولات كل منهما: "تفسيرية"، و"محصنة ضد الإجراءات العادية المصممة للتحقق من صحتها"، وبكلمات أخرى، فإن الشخصيات العظيمة الأساسية التى كانت موجودة فى المراحل التشكيلية من الحضارة تطلب منا أن "نثق" بهم كما "نثق" بالمحلل، ليس من أجل إظهار وإثبات الحقيقة، ولكن من أجل جمع الأدلة المترابطة فى نمط يمكن تصديقه، وبالرغم من أن مثل هذه "الثقة" من الممكن أن تكون ضرورية فى العلاج بالتحليل النفسى، الذى – فى نفس الوقت – لا يعطى أهمية كبيرة لما إذا كان أحد أحداث الطفولة قد وقع بالفعل أم لا؛ ما دام كل منهما – "المحلل" و"المريض" – يكون مقتنعًا بأن هذا الحدث قد وقع بالفعل!

إن الفصل بين "الخرافة" و"الحدث الحقيقى" الذى لا يوجد أى شك فيه – هو الهدف الأسمى لأى علم من العلوم ... خاصة إذا كان هذا العلم يدرس تاريخ البشر".

إذا كان ما كتبه "مارفين هاريس" حقيقيًا، فلماذا اندفع كثير من المؤرخين والمشتغلين بعلم أصول الإنسان لتفسير علومهم طبقًا لوجهة نظر فرويد؟

من المحتمل أن تكون الإجابة عن السؤال السابق كامنة في تلك الرغبة البشرية القديمة التي تدفع الواحد منا لأن يحاول الحصول على شيء بدون مقابل (دون أن يدفع الثمن).، وهكذا يبدأ الواحد منهم دراسته وهو لا يعلم أي شيء عن طفولة "ليوناردو دافينشي"، أو ما العوامل التي دفعت "مارتن لوثر" لأن يتصرف بتلك الطريقة، ومن خلال استخدام طريقة فرويد في تفسير "الأحلام" أو "الخيالات الجامحة" أو "السلوكيات" المتنوعة - يخرج علينا بإمكانية الارتفاع فوق مستوى الحقائق المتوافرة، والخروج عن حدودها، للوصول إلى استنتاج مبهر في عموميته ولا يستند إلى ما هو معروف من حقائق التاريخ.

في علم البيولوجي (الأحياء) يتمكن العلماء من بناء "هيكل عظمي كامل" لديناصور منقرض من خلال القليل من العظام والأسنان التي تم العثور عليها مبعثرة وناقصة، وهذا هو ما يأمل المحلل النفسي في القيام به بالنسبة لكل من "علم التاريخ" و"علم أصول الإنسان"؛ فكأن الواحد منهم يقول: "أعطني أجزاء مبعثرة من أحلام الفرد وسلوكياته وأخطائه في الأداء اللغوي، وسوف أتمكن أنا من خلال هذه المؤشرات من استنتاج طبيعة الحضارة بأكملها أو طبيعة نمو وتطور طفولة الفرد أو العوامل المؤثرة التي دفعت إحدى الشخصيات الوطنية أو التاريخية للقيام بما قامت به من أفعال".

وحتى إذا لم يكن ما سبق متوافرًا (أحلام الفرد، وسلوكياته، وأخطاؤه في الأداء اللغوي)، فإنه يكون بإمكان الواحد منهم (المحلل النفسي) استنتاج ما وقع وتفسيره! وهم في هذا يدعون وجود ما يسمى بـ"القوانين العلمية" Scientific Laws للتحليل النفسي، التي يمكن من خلالها استنتاج الحقائق كما كان يجب أن تكون!!

طبقًا لنظرياتهم، فنحن في غير حاجة لمعرفة أي شيء عن تفاصيل التدريبات التي يتلقاها الطفل الياباني على التبرز" Toilet-training، إذا كانت تعاليم فرويد تقول لنا: إنه

يتلقى تدريبات متزمتة، بدليل أنها أنتجت تلك التصرفات التى صدرت عن الشخص الياباني خلال الحرب العالمية الثانية!

إن "الحقائق" **كما كان يجب أن تكون** – وحسب تعاليم فرويد – هى أن الطفل الياباني اعتاد على تلقى تدريبات متزمتة ومبكرة جداً!

فى هذا الصدد، فإن الحقائق المكتشفة – التى تم التأكد منها – لا تهم كثيراً؛ وحتى بعد أن تم إخبارهم بأن توقعاتهم فى هذا الخصوص غير سليمة، فإن هذا لم يؤثر كثيراً على التفسيرات الحماسية التى أصروا عليها، وولائهم التام لتعاليم فرويد فى هذا الخصوص!!

لقد سبق لى أن اقتبست فقرة من "تى. هـ. هاكسلى **T.H.Huxley**" قال فيها:

"إن أعظم مأسى العلم هو أن يتم ذبح "نظرية جميلة" بإحدى الحقائق القبيحة".

وفى هذا الصدد يكون من الواجب ذكر أن نظريات فرويد قد لا تكون جميلة، ولكن كونها محصنة ضد أى كمية من الأدلة والبراهين التى لا تدحض – يدل على مدى سخافتها ومنافاتها للعقل، ولسوء الحظ، فإنه من غير المحتمل أن يتفهم المحلل النفسى أهمية إصرارنا على وجود براهين لا تدحض، وهو الإصرار الذى يحول أى نظرية إلى "مبدأ علمى مقبول"، أما "المحلل النفسى" الملتزم بنظريات فرويد وأساليبه، فإنه يفضل التحليق فوق سحب من التفسيرات المبنية – بطريقة غامضة – على أحلام جامحة متخيلة مما يجعله عاجزاً كل العجز عن تشكيل نظرية ذات طابع علمى.

الفصل الثامن

أرقد فى سلام: تقييم

إن الحقيقة تنبع من الأخطاء أكثر
مما تنبع من الارتبـــاك والبلبلة.

فرانسيس بيكون

سوف أحاول الآن تقييم مكانة فرويد كعالم من العلماء، فى هذا الصدد، فإنه كان شديد الغموض فيما يتعلق بوصفه لنفسه؛ فمن ناحية، كان يصنف نفسه فى نفس مكانة "كوبرنيق" Copernicus و"داروين" Darwin، بالرغم من اكتشافاتهم العظيمة التى وضعت الأرض فى مكانها السماوى الطبيعى، والإنسان فى حجمه الحقيقى بين غيره من الكائنات، فلقد ادعى فرويد أنه هو الذى كشف عن مدى القوة الهائلة التى يتحكم بها "اللاشعور" فى نشاطاتنا اليومية، ومن ناحية أخرى، فإن ما توصل إليه من خلال "البصيرة" Insights أو الاستبصار - دفع بفرويد للقول بأنه "الفاتح" The Conquistador، وبهذا نزع عن نفسه الحق فى حمل لقب: "عالم"، وهو عندما ادعى بأنه "فاتح" لم يحدد لنا طبيعة "الفتح" الذى قام به، وفى أى مجال من المجالات؟

ولقد ظهر هذا التناقض فى كثير من كتاباته، فكان يُظهر الرغبة فى أن يكون عَالمًا بالمعنى المتعارف عليه فى جميع العلوم الطبيعية، وفى الوقت نفسه كان لديه شىء من الإدراك إلى أن ما يقوم به يختلف فى طبيعته عما يقوم به العلماء، وبالطبع فإن هذا التضارب فى الرغبات لم يكن غريبًا عن شخصية فرويد، كما أنه لم يكن مقتصرًا على

التحليل النفسى فحسب، إنه فى هذا يشبه الفارق بين "علم النفس" باعتباره: "علمًا من العلوم Naturwissenschaft"، و"علم النفس" باعتباره: "فنًا أو أدبًا من الآداب التفسيرية Geisteswissenschaft".

إن "علوم التفسير" تهتم بتوضيح المعنى وتفسيره؛ فهى تقوم بمقارنة تحليل **الأفعال والخبرات** من خلال الدراسة التفسيرية لأى "نص" من النصوص، وفى هذا الصدد، فإن "فن التفسير" يعتمد على استخلاص المعنى الموجود فى "نص" معين، عن طريق معرفة المعنى الكامن فى الرموز المستخدمة، وعلاقة الرموز بعضها ببعض فى السياق الذى ظهرت فيه، وبالنسبة للشخص الخبير، فإنه ينظر إلى **الأفعال والخبرات** على أنها معان خفية مشفرة، وليست حقائق هادفة، ويقوم الخبير باستخراج فحواها - كما يراه - من المعانى التى يستقرئها، إن مثل هذه الطريقة فى المعالجة تؤكد أهمية المعنى الكامن، وهى بهذا تكون مخالفة تمامًا للطريقة العلمية التى تؤكد أهمية دراسة السلوك الظاهر، ولعل هذا هو السبب فى الصراع الدائم بين القائمين على علم النفس، الذين يؤكد بعضهم على أهمية دراسة السلوك، و"معارضيهم"[1] - ومن بينهم القائمون على التحليل النفسى - الذين يقومون بالتركيز على المعانى الخفية، إن الجدل الفلسفى القائم بين هاتين المجموعتين هو جدل شديد الأهمية لتحديد الأسس السليمة التى يجب أن نبنى عليها علم النفس، وفى هذا الصدد، فإن عديدًا من الكُتاب عانوا مشقة كبيرة فى محاولة اختيار الجانب السليم، وانتهى الأمر ببعضهم فى محاولة عقيمة فى التوفيق بين المجموعتين، من خلال تبنى آراء كل منهما بلا تمييز!.

لقد كان فرويد أحد هؤلاء الذين سعوا بشدة نحو إجراء أبحاث سلوكية ذات طابع علمي، ولكنه كان من الواضح أن أحسن مساهماته لا يمكن أن توصف بأكثر من أنها كتابات ذات طابع تفسيرى فقط لا غير، وقد أعطانا "هوارد كندلر" Howard Kendler

---

(١) من بين هؤلاء المعارضين: المشتغلون بعلم النفس المعرفى، الذين يؤمنون بالاستبطان، والذين يركزون على أهمية دراسة الفرد ذاته، وغيرهم. (المؤلف)

فى كتـابه المعنون "علم النفس: علم يعانى من الصراعات Psychology: A Science in Conflict" اختصاراً ممتازاً لوجهات نظر كلا الجانبين فى هذه المسألة، وما هو مدى احتمال التوفيق بينهما، لكنه أمر شديد التعقيد، وغامض، وعويص، بشكل لا يسمح بالخوض فيه خلال صفحات هذا الكتاب.

أما "ريتشارد ستيفنز Richard Stevens" فى كتابه: "فرويد والتحليل النفسى Freud and Psychoanalysis"؛ فإنه أكد بحزم على أنه لا يمكن تفهم كتابات فرويد إلا على أنها كتابات تفسيرية فقط لا غير:

"ما الشىء الموجود فى الحياة العقلية، الذى يجعل منها أمراً صعب التطرق إليه ومعالجته؟ أود أن أقترح عليكم أن الإجابة على السؤال السابق تكمن فى أن روح ولب الحياة العقلية هو المعنى، فعندما أشير إلى أفعال الحياة العقلية على أنها معنى، فإننى بهذا أكون قد أوضحت الحقيقة القائلة بأن سلوكياتنا فى الحياة وعلاقاتنا تكون محكومة من خلال المفاهيم والتعاريف (أى من خلال المعنى الذى ننسبه للأشياء)، إن الطريقة التى يستخدمها كل واحد منا فى وضع المفاهيم والتعاريف الخاصة بالذات أو الآخرين أو المواقف - هى الأساس الذى يحكم سلوكياتنا والطريقة التى نتصرف بها".

وبالطبع، فإن ما ذكره سليم، ولكن هذا لا يعنى - بالضرورة - أنه من الواجب علينا تجاهل التفسيرات العلمية البحتة للسلوك البشرى وتبنى "حكم الآراء الشائعة أو المعنى العام Common Sense"(*)، وعلى سبيل المثال فإن القبائل البدائية كثيراً ما تفسر الحقائق المادية عن طريق **المعنى والنية**؛ فإذا أصيب أحد الأفراد بمرض، فإن هذا يكون نتيجة لنية أعدائه السيئة، أو لتعويذة شريرة، أو لوقوعه تحت تأثير السحر، ومن الواضح أن الطريقة السابقة لا تصلح كأساس سليم لبناء علم طبى راسخ.

(*) فى أى سياق آخر يكون من الواجب ترجمة "Common Sense" على أنها "المعنى العام"؛ لأنها تكون تعبيراً عن منطق المجتمع ككل وطريقته فى التفكير وما يحقق صالحه العام، أما فى هذا الخصوص، فإنه من الأصح ترجمتها على أنها "حكم البديهة" وما يشعر المحلل النفسى بأنه صواب. (المترجم)

ويستمر "ستيفنز" فى مناقشة طبيعة العلاج النفسى ومستقبله:

"فى كل لحظة من اللحظات، فإننا نختبر ونعدل التفسيرات التى خرجنا بها، ونحن نفعل هذا بطريقة مباشرة عن طريق تبادل وجهات النظر مع الآخرين، أو بطريقة غير مباشرة عن طريق اتباع القدوة بأن نتبع طريقتهم وأسلوبهم فى تفسير الأحداث، وأحد الطرق التى يمكن النظر بها إلى "جلسة العلاج النفسى" هى أنها نوع من أنواع "**التفاوض**" الذى يحاول الوصول إلى رأى **وسط**. فى هذا التفاوض قد لا يتعرض المريض لإقناع مباشر من جانب طبيبه، ولكنه يتم تشجيعه على إعادة تقييم الطريقة التى **ينظر بها** إلى نفسه وعلاقته بالآخرين، وهكذا يكون العلاج النفسى مختلفًا تمامًا عن الطب المادى (الذى يعنى بعلاج الجسد)، ويحدث هذا؛ لأن بؤرة اهتمام العلاج النفسى ليست إصلاح وظائف الأعضاء المختلة، وإنما السيطرة والتحكم فى المعنى، عندما يتم النظر إلى التحليل النفسى على أنه "مجرد طريقة تفسيرية" تعتمد على المعنى، فإن نقاط ضعفه كعلم تجريبى بحت تتحول إلى نقاط قوة، وعلى سبيل المثال دعنا نأخذ الفكرة القائلة بالحتمية الزائدة Over-determination؛ فعندما ناقشنا "التكثيف" Condensation الذى يحدث فى الأحلام، تمت الإشارة إلى وجود معان مختلفة - ومتباينة - للحدث الواحد الذى تم تذكره فى الحلم، ويهدف التحليل النفسى إلى تقديم تفسيرات تكشف المعنى الكامن وراء هذا الحدث، كما أن المفاهيم والتعريفات الخاصة بنظرية فرويد تساعده على رؤية المعنى من منظور مختلف، وبالرغم من أن هذا يجعل من المستحيل إخضاع التفسيرات لأى اختبارات دقيقة فإنها تعرض صورة مفصلة للمعانى المختلفة التى قد توجد فيه".

إن ما يقترحه علينا "ستيفنز" هو شىء كثيرًا ما تفاخر به أتباع مدرسة التحليل النفسى، ألا وهو أن "التحليل النفسى" يمدنا بمعلومات عن "مكنون الحدث"، وما قد يتخفى وراءه من مشاعر وأرجاع، وأن الدراسات السلوكية وغيرها من العلوم الطبيعية البحتة تعجز عن فعل هذا! إن الفكرة السابقة تمثل صعوبة حتمية. فما "مكنون الحدث"؟ وما الذى يمكن أن يختفى وراءه من مشاعر وأرجاع؟

إن كل هذا اللغو ما هو إلا استنتاجات عقيمة تختلف عن الحقيقة، ولا تنطبق على المواقف التى يتم دراستها، ومن ناحية أخرى، ما الذى يمكن أن يحدث إذا كانت كل هذه التفسيرات التى يقدمونها لنا عن الأحلام وزلات اللسان وغيرها مغلوطة؟ عندها ستقودنا فى اتجاه خاطئ.

إن النقطة الأساسية – هنا – هى كيف يمكن لنا التحقق مما إذا كان فرويد على صواب أم لا؟ فمن الممكن أن تكون الدراسات السلوكية مخالفة للصواب هى الأخرى، وأن أحد المفسرين الآخرين هو الذى أصاب كبد الحقيقة، فكيف يمكن لنا أن نقرر من الذى أصاب؟ ومن الذى أخطأ؟ هل آراء فرويد هى الصحيحة أو آراء يونج، أو آراء آدلر أو آراء ستيكل؟ ولماذا؟

ومما لا شك فيه أن كل واحد من الذين تم ذكرهم فى الفقرة السابقة سيفسر أى حلم من الأحلام بطريقة تختلف تمامًا عن تفسيرات زملائه، فما المعيار الذى يمكن استخدامه فى الحكم على صحة هذه التفسيرات؟ ومن منهم أقرب إلى الصواب؟

إن كل ما سبق يظهر بوضوح أننا حتى لو تقبلنا هذا الأسلوب التفسيرى، فإننا سنكون فى حاجة إلى معيار يميز ما بين الصواب والخطأ الموجود فى أى مجموعة من التفسيرات، وبالطبع، فإن فرويد لم يقدم لنا مثل هذا المعيار.

فى كتاب "بى. ريف" **P. Rieff** المعنون، "فرويد: داخل عقل مُشَرع أخلاقى" **Freud: The Mind of the Moralist**، ذكر المؤلف فقرة مثيرة للاهتمام متعلقة بالطريقة التى يستخدم بها أتباع مدرسة التحليل النفسى كلمة "علم" **Science**، وكيف أنهم يضمنونها صفات ليست فيها، صفات تختلف تمامًا عن طريقة استخدام العالِم الحقيقى لها، كما أنه يذكر كيف أن المحلل النفسى لا يلتزم بالمعايير الثابتة للبحث العلمى، ويعبر "ريف" عن قلقه قائلاً:

"إن أخشى ما أخشاه هو أن تُستخدم كلمة "غير علمى" فى إدانة فرويد، ولكن ما هو أسوأ من هذا هو استخدامها فى تمجيده، فعندما نُمجد صفات نادرة غير مرغوب

فيها مثل: التعميم الشديد الذى يتسم بالحذق والمهارة، وألمعيته غير المسبوقة فى تفسير مشاعر الألم والمعاناة التى يعانى منها الجميع، واستعداده لإصدار أحكام لا تستند إلا على أدلة قام هو نفسه باستخراجها من حياته الشخصية ومن معطيات إكلينيكية. وفى هذا الصدد، فإن دوافعه العلمية ليست إلا جزءًا لا يتجزأ من التلميحات الأخلاقية التى توحى بها أفكاره، تلك التلميحات والأفكار، التى وضعت فى صياغة لغوية مثيرة، حتى إنها أصبحت لا تقتصر على حوارات طبقة المتعلمين فحسب، بل إنها تغلغلت فى الوعى العام لكل الطبقات على اختلاف مستوياتها التعليمية، ويكون من غير المناسب الحكم على أحد الوجوه التى تميز فرويد دون الآخر؛ فإنه من الواجب علينا النظر إليه كأديب تدخل فى العلم، وكعالم تدخل فى الأدب والدراسات الإنسانية، ومن الواجب اعتبار فرويد نموذجًا مثيرًا للاهتمام للفرد المتميز إنسانيًا، الذى يحمل بين جوانبه دوافع علمية حقيقية".

ويقوم "ستيفنز" بتلخيص نتيجة كل هذا الجدل، بقوله:

"إذا كان المنظور الذى يحدد فهمك لكلمة "علم" هو توليد فروض يمكن نقدها والتشكيك فيها بغرض تقبلها أو رفضها، فمن الواضح أن التحليل النفسى لا يمكن أن يوصف بأنه "علم". ولكن، إذا كانت طريقتك فى تفهم هذه الكلمة هو تكوين مفاهيم وتعريفات بطريقة منظمة تعتمد على المشاهدات الشخصية الدقيقة، فإن الإجابة يجب أن تكون نعم، أما بالنسبة لمسألة وجود طرق أخرى تقدم حلولاً أفضل يمكنها التنبؤ بأفعال الفرد، فإنها مسألة محل جدل، وقد ألقى فرويد على عاتقه بمهمة صعبة ولكنها شديدة الأهمية ... ألا وهى مواجهة البدايات البدائية الموجودة داخل كل فرد منا من الناحية البيولوچية ومن الناحية الوجودية".

إن الحديث السابق يعود بنا لمشكلة "فرويد الإنسان"، ذلك الشخص الذى خلق "النظرية"، وكيف أنه طبق متاعبه العُصابية، ومعاناته الخاصة على السلوك البشرى ككل. وفى هذا الصدد، فإنه لا يوجد ما يدعونا لافتراض أن تفسيرات فرويد لمشاعره ومعاناته الشخصية مرتبطة - بأى وجه من الوجوه - بسلوكيات باقى أفراد الجنس

البشرى. وبالمثل، فإنه لا يوجد أى سبب يدعونا لافتراض أن هذه التفسيرات هى بالضرورة تفسيرات صحيحة، وفى كل حالة من الحالات يكون علينا الحصول على قدر كاف من الأدلة التى تثبت هذا، ونحن على علم جيد بأن فرويد لم يقدم هذا القدر من الأدلة، وكما رأينا من قبل - خلال الفصول السابقة - فإنه قد ثبت خطأ فرويد فى عديد من المسائل المحددة التى أمكن دراستها بالتفصيل، وهذا يجعل من الصعب علينا القول بأنه على صواب فيما يتعلق بالتفسيرات التى قدمها لأحداث حياته الشخصية، وعلى أى حال، فإن عديداً من هذه التفسيرات تم استعارته من الآخرين؛ استعارات من شخصيات تاريخية مثل: "أفلاطون" Plato، و"شوبنهر" Schopenhauer، و"كيركجارد" Kierkegarad، و"نيتشه" Nietzsche. ومن الخطأ أن ننسب هذه التفسيرات لفرويد، مثلما هو خطأ أن نفترض صحة أى تفسير بدون الحصول على القدر الكافى من الأدلة، وفى هذا الصدد يكون من المطلوب الوصول إلى طريقتين؛ طريقة تاريخية مقبولة تسمح بتحديد الأولويات، وطريقة علمية مقبولة تسمح باكتشاف مدى دلالة الحقائق التى تم اكتشافها وجوهريتها، وهى النقطة الأساسية محل الجدل فى هذا الكتاب، وخلال الجدل المستعر بين المؤمنين بدراسة "السلوك"، والمؤمنين بـ"التحليل النفسى"، فإن الفريق الأول تلقى كثيراً من العنت والمعاملة غير العادلة من جانب الإعلام، وقد حدث هذا لسببين:

السبب الأول: هو أن "باڤلوڤ" Pavlov - وليس فرويد - هو الذى ينتمى إلى طبقة العلماء مع "كوبرنيق" و"داروين". أولئك العلماء الذين أنزلوا الإنسان من عليائه ووضعوه فى مكانه الحقيقى؛ فلقد كان "باڤلوڤ" هو الذى أثبت أن كثيراً من أفعالنا ليست أفعالاً خاصة بـ"الإنسان البشرى الحديث" Homo Sapiens، وإنما هى أفعال نتجت عن التشريط البدائى عبر مئات الآلاف من السنين، وهو تشريط تم بواسطة "الجهاز العصبى الطرفى (الهامشى)" Limbic System وغيره من الأجزاء "تحت القشرية" Subcortica الموجودة فى الدماغ، وهكذا فإن باڤلوڤ وجد نفسه يواجه العداء والكراهية التى ادعى فرويد - زوراً وبهتاناً - أنه عانى منها، وعندما نقوم بتفسير

الحالات العُصابية فى ظل مبادئ التعلم التى وضعها باڤلوف، فإنها تبدو للكثيرين وكأنها مبادئ تحط من قدر المريض وتتسم بالآلية واللا إنسانية، وسوف نجد أنهم يفضلون تفسيرات فرويد التى تبدو أكثر إنسانية ومليئة بالمعانى الحساسة.

السبب الثانى: بعد قراءة أى شخص لبعض كتابات فرويد ونظرياته يكون من الممكن أن يدخل فى اعتقاده نوعًا من الفهم لهذه النظريات، ويبدأ الواحد منهم فى الاعتقاد بأنه قادر على تفسير الأحلام والحكم على الأسباب الكامنة وراء تصرفات الآخرين فى ظل هذه النظريات، أما بالنسبة لـ"باڤلوف" فإن الأمر مختلف تمامًا، فإن محاولة فهم باڤلوف، والبقاء على اتصال بأحدث ما تم إنجازه من تجارب عملية لإثبات نظريته يتطلب سنين طويلة من الدراسة وقراءة للعديد من الكتب والمقالات وتحديث دائم للمعلومات التى تم الحصول عليها، كل هذه الأشياء تكون أكثر من طاقة الفرد العادى على الدراسة والتحصيل، ولا يتمكن إلا القليل منهم من تجميع وفهم القدر اللازم من المعلومات بخصوص "التشريط" و"نظرية التعلم"، وعلى سبيل المثال: فإننا نجد كثيرًا من المدرسين، والاختصاصيين الاجتماعيين، و"ضباط المراقبة" Probation Officers(*)، وغيرهم ممن يضطرون للتعامل مع الفرد البشرى يكررون - كالببغاوات - بعض مصطلحات فرويد، وقد يتخيل الواحد منهم أنه قادر على أن يحلل نفسية من وضعوا تحت وصايته، ومن ناحية أخرى، ستجدهم - عادة - لا يعرفون أى شىء عن مبادئ نظرية باڤلوف فى "التشريط" أو فى "نظرية التعلم" أو تلك الثروة الهائلة من المعلومات المتوافرة للقائمين بدراسة السلوكيات.

من واقع خبراتى، فإننى وجدت - دائمًا - أن إعطاء الأمثلة يجعل القارئ أكثر قدرة على الاقتناع، ويزيل الشكوك الكثيرة من صدره، فى هذا الصدد دعونا نأخذ

(*) ضابط المراقبة: هو الشخص المخصص من قبل المحكمة للإشراف على الفرد الذى تم الإفراج عنه إفراجًا مشروطًا، وفى النظام الغربى، من حقه التدخل فى الحياة الشخصية والعائلية لهذا الفرد حتى نهاية مدة المراقبة، وتتلخص مهامه فى التأكد من أن هذا الفرد يستمر فى السلوك القويم - خلال مدة المراقبة - وفى الاحتفاظ بوظيفة شريفة مناسبة. (المترجم)

بعض الأمثلة البسيطة التى توضح الفروق الموجودة بين طريقة فرويد، والطريقة السلوكية فى العلاج.

المثال الأول: هو المتعلق بالطفل الذى يقوم بـ"خبط رأسه" Head-Banging فى الحائط – أو غيره من الأشياء الصلبة – بدون أى أسباب منطقية أو غير منطقية، إن مثل هذا الطفل قد يعرض نفسه للعمى (إذا حدث انفصال فى الشبكية نتيجة هذه الصدمات) أو ما هو أسوأ إذا ما أدت هذه الصدمات المتكررة إلى موته، فما اقتراحات القائمين على التحليل النفسى من أجل علاج هذا الاضطراب شديد الخطورة؟ فى رأيهم أن تصرف الطفل بهذه الطريقة هو محاولة منه لجذب انتباه والدته وإجبارها على منحه المزيد من الحنان، ومن أجل علاج هذه الحالة، فإنهم ينصحون الأم بحمل الطفل وتقبيله واحتضانه، وعلى وجه العموم يكون عليها إظهار مشاعر الحب نحوه، وبالطبع فإنه لا يسعنى إلا القول بأنها طريقة إنسانية جداً، ولكن السؤال المهم هو: هل هى طريقة صحيحة للتخلص من هذا الاضطراب الخطير؟

لقد أثبتت التجارب العملية أن الطريقة التى اقترحتها مدرسة التحليل النفسى تأتى بنتائج عكسية تماماً؛ فإن ما يحدث – فى الواقع – هو أن هذه التصرفات غير الطبيعية يتم تثبيتها من خلال المكافأة التى يحصل عليها الطفل (اهتمام أمه به أكثر)، وتكون النتيجة النهائية هى أن الطفل يتمادى أكثر وأكثر فى خبط رأسه حتى يحصل على المزيد من اهتمام الأم.

أما المدرسة السلوكية، فإنها لا تهتم بـ"**المعنى**" الكامن وراء تصرفات الطفل، إن كل ما يفعلوه – ببساطة – هو أن يطبقوا القاعدة العالمية التى تؤكد أهمية التشريط، وتتلخص إرشادات المعالج – الذى يؤمن بنظرية باڤلوف فى التشريط – فى توجيه الأم؛ لأن تلتقط الطفل وتضعه فى غرفة خالية وتغلق الباب، وبعد مرور عشر دقائق تقوم بفتح الباب، وتسمح للطفل بالعودة إلى مكانه الأول مرة أخرى، ومن دون أن تظهر أى نوع من العواطف أو التوبيخ، وعلى أن يتم الأمر كله بهدوء وأعصاب باردة على قدر الإمكان، وهكذا فإن "قانون الأثر" Law of Effect و(قانون المنع والاستجابة) سرعان

ما يؤثر على قرارات الطفل، ويتوقف عن هذا السلوك غير العادى (خبط رأسه)؛ بسبب تعرضه لتأثير سلبى (جلوسه وحيداً لمدة عشر دقائق)، وفى مدرسة العلاج السلوكى يسمى هذا الأسلوب بـ"أسلوب الوقت المستقطع".

قد يبدو لبعضنا أن الأسلوب الذى اتبعته "مدرسة التحليل النفسى" أكثر إنسانية، ولكن علينا تذكر أنه يدفع بالطفل نحو التمادى فى هذا السلوك البغيض، وقد تبدو "المدرسة السلوكية"، وكأنها استخدمت طريقة آلية خالية من المشاعر، ولكنها فعالة وتفى بالغرض، وفى هذا الصدد، علىَّ أن أذكِّر القارئ بأنه إذا كان لديه طفل فى الخامسة من عمره يمارس هذه العادة البغيضة ويتعرض لأخطارها البغيضة: من عمى أو موت، فأيهما يفضل؟

إن الإجابة واضحة للجميع.

فى هذه المرة، دعونا نتعرض لمشكلة أكثر تعقيداً، وهى مشكلة تتعلق بالتبول اللاإرادى. المثال الثانى: من المعروف للجميع أن هناك عديداً من الأطفال الذين يبلل الواحد منهم فراشه فى أثناء الليل حتى بعد تجاوزه للعمر الذى يتوقف عنده باقى أقرانه، فما السبب فى حدوث هذه المشكلة؟ وما الذى يمكن فعله للتخلص منها؟

فى مدرسة التحليل النفسى ينظر المعالج إلى مشكلة التبول اللا إرادى على أنها مجرد عرض من الأعراض التى تدل على وجود مشكلة أكثر عمقًا، وعلى حد قول أحدهم: "إن التبول اللا إرادى دائمًا ما ينظر إليه على أنه أحد الأعراض التى تدل على وجود اضطراب نفسى كامن".

طبقًا لوجهة النظر السابقة، فإن الباحث يعتقد بوجود علاقة سببية مهمة وأساسية بين التبول اللا إرادى و"المشاعر الدفينة" الموجودة بين الطفل ووالديه، وفى هذا الصدد، فإنه يعتقد بأنها قد اتخذت نمطًا ثابتًا (شكلاً معينًا) من خلال التفاعلات التى تحدث بين القوى غير الشعورية الموجودة لدى كلا الجانبين، وهناك نظريات أكثر تحديداً تفسر التبول اللا إرادى؛ وإن كانت - كلها - "نظريات تفسيرية" مبنية على

استنتاجات لا يوجد ما يؤكد صحتها (استنتاجات تعتمد على الرموز الشائعة فى التحليل النفسى)، ومن أمثلة هذه النظريات: القول بأن التبول اللا إرادى هو عملية تبريد للقضيب تتخلص من خلاله الـ"أنا-الأعلى" Super-ego من ذلك الالتهاب الذى لا ترضى عنه! **نظرية أخرى** ترى فى التبول اللا إرادى محاولة للهرب من موقف مازوخى يقوم خلاله الطفل بطرد الميول المدمرة؛ حيث إنهم ينظرون إلى البول على أنه سائل مزعج يتسبب فى الشعور بالأكلان، وينظرون إلى القضيب على أنه سلاح خطر، وتقترح **نظرية ثالثة** علينا أن التبول اللاإرادى ليس إلا مطالبة بالحب والحنان، وأنها طريقة يبكى خلالها الطفل من خلال مثانته بدلاً من عينيه!

فى هذا الخصوص، فإنه يوجد كثير من التفسيرات المختلفة والمتعددة، ولكن يمكن تجميعها تحت ثلاثة عناوين رئيسية، **الأول**: هو الاعتقاد بأن التبول اللا إرادى ليس إلا شكلاً من أشكال إرضاء الذات، وتنفيساً عن شهوة جنسية مكبوتة. **والثانى**: ينظر إليه على أنه تعبير مباشر عن مخاوف دفينة وحصر عميق يعانى منه الطفل. **والثالث**: يراه على أنه تعبير مقنع يخفى به الطفل "مشاعر العداء" ضد والديه (أحدهما أو كليهما)؛ مشاعر لا يجرؤ الطفل على التعبير عنها بأى طريقة أخرى، كل هذه النظريات تصر على وجود عقدة نفسية دفينة، وتصر على أنها هى السبب الرئيسى، وأن التبول اللا إرادى ليس إلا عرضاً ثانوياً حدث نتيجة للعقدة النفسية الأصلية، ومن ثم - من وجهة نظرهم - يكون العلاج عن طريق التفتيش فى الجزء غير الواعى من نفسية الطفل بحثاً عن السبب فى حدوث هذه العقدة، ويتم هذا البحث من خلال طرقهم التقليدية التى تتضمن تفسير الأحلام، والتداعى الحر، وغيرها من الوسائل المعقدة، التى تتضمن أخذ جوانب عديدة من شخصية الطفل فى الاعتبار!

ولا حاجة بى للقول بأن فعلة بسيطة مثل تبليل الفراش لا علاقة لها - إطلاقاً - بشخصية الطفل وما بها من جوانب، وبصرف النظر عن هذا، فإنه لا توجد أى أدلة تثبت فاعلية الطرق التى يستخدمونها، وأنها أفضل من عدم الحصول على أى علاج (فى هذا الخصوص فإن معظم "حالات تبليل الفراش" تتحسن بطريقة تلقائية خلال

شـهـور أو سنوات قليلة) أو استـخـدام "العـلاج الزائف treatment Placebo"، ومـرة أخرى، فـإنه من الواجب التـأكيـد على فشـل التـحليل النفسى فى تقديم أى أدلة تثبت صحة الفروض العديدة التى طرحوها علينا.

فما الذى يقدمه أصحاب المدرسة السلوكية من تشخيص وعلاج؟ إنهم يقترحون علينا أن السبب فى تبليل الطفل لفراشه - بالنسبة للغالبية العظمى من الحالات - هو فشل الوالدين فى غرس العادة فى طفلهما؛ بسبب استخدامهما لأحد الأساليب الخاطئة فى التدريب، إن الأسلوب السليم والعادى فى ضبط النفس هو تدريب الطفل على الاستيقاظ عند شعوره بامتلاء المثانة، وعدم قدرته على ضبط النفس، يعنى أن الطفل قد تعود من خلال التعليم الخاطئ على استبدال الذهاب للحمام - أو استخدام قصريته - بتبليل فراشه، ولقد كشفت لنا الدراسات عن أن الغالبية العظمى (٩٠٪) من حالات تبليل الفراش لا تكون نتيجة لوجود أى عيب مرضى بالجهاز البولى، وأنها ليست أكثر من "عجز عن التشريط أو التعلم" وفشل فى "تبنى العادة السليمة"، فإذا كانوا على صواب فى هذا، فإن طريقة العلاج تكون بسيطة جداً؛ فكل ما علينا فعله هو أن نغرس فى الطفل عادة الاستيقاظ عند شعوره بامتلاء المثانة، ويتم هذا من خلال "**التشريط**" (أى تعلم عادة جديدة)، والطريقة المتبعة هى استخدام بطانية تفصل ما بين طبقتين من الألواح المعدنية المسامية، هاتان الطبقتان متصلتان ببطارية كهربائية وجرس، عندما تكون البطانية جافة، فإنها تمثل عازلاً كهربائياً يفصل ما بين الطبقتين، وبمجرد أن يبدأ الطفل فى تبليل البطانية، فإن البلل يغلق الدائرة الكهربائية، ويدق الجرس موقظاً الطفل، عندما يستيقظ الطفل، فإنه يتوقف عن التبول بطريقة تلقائية ويذهب للمكان المخصص للتبول، ولقد أصبح استخدام هذه الطريقة - الآن - منتشراً جداً فى كل عيادات الأطفال فى جميع أنحاء العالم، وهى طريقة آمنة تماماً، وفعالة، وسريعة، ولقد أثبتت الإحصاءات أن كلاً من أولياء الأمور والأطفال يتقبلونها بترحاب. وبالإضافة إلى ما سبق، فإنه يكون من الممكن لنا الخروج بكثير من الاستنتاجات النابعة من "النظرية العامة فى التعلم"، وقد أثبتت التجارب أنه من الممكن إثبات صحة هذه

الاستنتاجات عمليا، إن طريقة "الجرس والبطانية" قد تفوقت على طريقة فرويد فى العلاج فى كل بقعة من بقاع العالم، ولقد حدث هذا؛ لأنها أكثر بساطة وفاعلية، بالإضافة إلى أن النتائج تكون سريعة أيضًا، فما الأسباب التى تدعو - إذن - إلى التمسك بالطرق التفسيرية التى لا يوجد ما يؤيدها، ولا تؤدى إلى الشفاء؟ خاصة أنه قد أصبح لدينا - الآن - طريقة تم اختبارها معمليًا، وتصل بنا إلى الشفاء بطريقة أسرع، وبنسب أكبر.

لكن فرويد - بالطبع - لم يستسلم؛ فلقد ادعى أن طريقة "التشريط" لا تعالج إلا الأعراض، ولم تواجه المشكلة الأساسية الخاصة بمشاعر الخوف والحصر، وأن هذه المشكلة الأخيرة هى ما يجب التركيز عليه وليس مسألة تبليل الفراش!

إن ادعاءات فرويد السابقة مخالفة للواقع تمامًا، فإن الحقائق تشير إلى أن العكس هو الصحيح. والحقيقة هى أن "التبول اللا إرادى" ما هو إلا نتيجة لوجود "الحصر" وليس العكس؛ فعندما يتبول الطفل بطريقة لا إرادية يكون موضع سخرية أقرانه، ويتعرض للوم - أو حتى الضرب - من قبل والديه، وبعد توقفه عن تبليل نفسه - نتيجة لاستخدام طريقة "الجرس والبطانية" - فإن أعراض الحصر غالبًا ما تبدأ فى التلاشى سريعًا، ويستعيد الطفل توازنه ورباطة جأشه.

وهناك كثير من الأمثلة التى يمكن تقديمها فى هذا الخصوص، مثل: ما يتعلق بـ"وسواس غسل اليدين القهرى" Obsessive-compulsive hand-washing الذى تم وصفه فى أحد الفصول السابقة (الفصل الثالث: الفقرة التى تحمل عنوان "النمذجة" Modeling)، وبالرغم من أن بعضنا قد لا يرضى عن حقيقة أننا قد انحدرنا من كائنات حيوانية، وأننا - مثلهم - مقيدون فى سلوكياتنا بالآليات الجسدية نفسها التى قد تبدو لنا بدائية وغير جديرة بالبشر، لكن شئنا أم أبينا، فإن الحقائق تبقى كما هى ولا تتغير طبقًا لما نحبه أو لا نحبه، وظيفة العَالِم هى التركيز على الحقائق وليس على ما يحبه الناس، والطريقة السليمة للحكم على أى نظرية من النظريات - بصرف النظر عما إذا كانت "سلوكية" أم "تفسيرية" - هى أن نقوم بالتركيز على النتائج؛ لأنها تعتبر

مؤشراً جيداً لمدى صحة النظرية، وهو الشيء الذى دلنا على مدى صحة "النظريات السلوكية"، وحجم الأخطاء الموجودة فى "النظريات التفسيرية"، خاصة نظرية فرويد.

إن الخطأ الأساسى فى "النظريات التفسيرية" عموماً، وفى نظرية فرويد فى التحليل النفسى على وجه الخصوص – هو أنه قام بإحلال مبادئ وقواعد زائفة محل المبادئ الحقيقية للعلم، وفى هذا الصدد أشار "سيوفى" إلى ما يلى:

"من الخصائص المميزة لأى علم زائف أن تكون الفروض التى يطرحها فى حالة عدم اتساق مع النتائج المتوقعة من تطبيق هذه الفروض، والعلم الزائف يسمح لفروضه بتوجيه النتائج، ويعتبر النتائج الإيجابية إثباتاً كافياً لصحة فروضه، والنتائج السلبية غير مؤثرة ولا تنتقص من أهمية فروضه، وأحد الطرق التى يستخدمها العلم الزائف فى تحقيق ما سبق هو أنه يحتال من أجل العثور على وسيلة تسمح بفهم فروضه فى نطاق ضيق ومحدد **قبل وقوع** "الحدث"، أما **بعد وقوعه**، فإنه يستنبط الوسيلة التى تجبرنا على النظر إليه من منظور واسع وغير محدد، خاصة فى تلك الأحوال التى تتعارض فيها النتائج مع الفروض التى تم تقديمها.

وهكذا، فإن فروض العلم الزائف تعيش حياة مزدوجة، فهى فى جانب منها تكون محكومة ومحددة (جانب "المشاهدات المضادة" **Counter-observations**)، وفى الجانب الآخر تكون أكثر حرية ومليئة بالحياة والحيوية (الجانب الذى تتحرر فيه من تأثير المشاهدات المضادة)، إن هذه الخاصية لا تظهر من خلال النظرة العابرة، ولكنها تصبح أكثر وضوحاً عندما نخضعها للفحص الدقيق؛ فعندما نحاول تقرير ما إذا كانت هذه الفروض لها دور حقيقى وأساسى يمكن اختباره، فإننا نكتشف استعداد أنصارها لاستخدام ما يسمى بـ"الأدلة الداحضة" **Disconfirmatory Evidence**(*)، وهو الأمر الذى لا يمكن قبوله".

(*) المقصود من الأدلة الداحضة هو ادعاءات أنصار مدرسة فرويد بأن المشاهدات المضادة لا تتسق مع الطريقة العامة الواجب استخدامها – حسب ادعاءاتهم – بعد وقوع الحدث. (المترجم)

وحتى إذا تفحصنا الأمور من وجهة نظر "المدرسة التفسيرية"، فإنه يظل من الواجب علينا اعتبار طريقة فرويد فى التحليل النفسى فاشلة؛ فإن كل ما يتبقى لدينا من تحليلاتهم هو مجموعة من التفسيرات المتخيلة لأحداث زائفة يؤكدون ضرورة وقوعها بدون أى أدلة منطقية، وفشل علاجى، ونظريات تتصف بعدم المنطقية أو الاتساق، وانتحال لأفكار من سبقوه، وتأملات عميقة خاطئة، وخالية من أى قيمة حقيقية، ومجموعة من الأنصار والأتباع الذين يتصفون بالديكتاتورية ورفض تَقُبل الرأى الآخر، والتشبث بالدعاية الغوغائية التى تنكر الحقائق مهما بلغ وضوحها، إن مثل هذا الميراث كان له تأثيرات سيئة جداً على كل من العلاج النفسى وعلم النفس، ومن بين هذه التأثيرات يمكننا ذكر:

التأثير الأول هو أكثر التأثيرات وضوحاً، ويتمثل فى: الآثار السيئة التى خلفها التحليل النفسى على المريض؛ فإن كل من خضع للتحليل النفسى متوقعاً أن يحصل على الشفاء تعرض - المرة بعد الأخرى - لخيبة أمل شديدة، وفى بعض الحالات ازدادت حالة المريض سوءاً. كل هذا، بالإضافة إلى ما خسره المريض من وقت وطاقة وموارد مالية أهدرت بلا جدوى، كذلك فإنه علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن خيبة الأمل التى تعرض لها المريض كثيراً ما مثلت ضربة قاضية لثقته بقدراته واحترامه لذاته، وعند دراستنا للتحليل النفسى، فإنه من الواجب علينا - دائماً - تذكر مصير المريض، وأن المزاعم العلمية للتحليل النفسى شىء، لكن كفاءته العلاجية هى شىء آخر تماماً، وأن الشىء الأكثر أهمية هو مصير المريض وسعادته، التى يمكن أن تتأثر كثيراً إذا ما تعرض للتحليل النفسى، وفى هذا الصدد، من الواجب علينا تذكر أن التحليل النفسى يُفترض فيه أن يكون طريقة تستهدف علاج المريض وشفاءه، وعندما يفشل فى تحقيق هذا، ويراوغ فى إنكار هذا الفشل، يكون من الواجب علينا أن نسجل ضده هذا الموقف الشائن وأن لا ننساه أبداً.

التأثير الثانى لتعاليم فرويد هو: عرقلة خطوات علم النفس ومسيرة العلاج النفسى فى النمو والتطور بغرض الوصول إلى مرتبة العلم المكتمل الجوانب الذى يستطيع

دراسة السلوكيات العادية وغير العادية للفرد فى المجتمع البشرى، وفى هذا الصدد، فإنه من الممكن القول بأن فرويد قد عرقل تقدم هذه العلوم لفترة تقدر بحوالى ٥٠ سنة أو أكثر، لقد تمكن فرويد بنظرياته من أن يُخرج البحث العلمى عن المسار السليم وينحرف به نحو طرق ثبت عدم نجاحها، بل إنها أدت – فى بعض الأحيان – إلى العودة بنا إلى الوراء لمسافات بعيدة؛ فهو الذى أرسى القاعدة الخاصة بعدم ضرورة تقديم إثباتات، وقلل من أهمية النتائج، وحول التحليل النفسى إلى ما يشبه "الدين" الذى آمن به كثير من الأطباء النفسيين وعلماء النفس العياديين؛ الأمر الذى أدى إلى تدهور خطير فى تطور علم النفس. إن الدراسة العلمية لسلوكيات الفرد البشرى محفوفة بصعوبات عظيمة، وتسببت نظريات فرويد فى مضاعفة هذه الصعوبات عندما لعبت دور "الزعيم الخائن" Pied Piper(*) الذى قاد أتباعه إلى التهلكة، ولكل من أظهر عدم استعداده لتلقى التدريبات الطويلة والشاقة التى من المفترض أنهم فى حاجة إليها حتى يتمكنوا من ممارسة علم النفس الحديث؛ فقد ادعى فرويد ضرورة هذا بالنسبة لأى باحث يرغب فى تقديم مساهمات حقيقية لعلم النفس!

والمسألة السابقة من الصعب التسامح فيها أيضًا، وسيكون على الأجيال القادمة إصلاح ما أفسده فرويد وأتباعه، وما لحق بهذا العلم من أضرار بليغة.

التأثير الثالث: ناجم عن الأضرار التى لحقت بالمجتمع نتيجة لنظريات فرويد، وفى هذا الصدد، فإن كتاب "ريتشارد لا بيير" Richard La Piere المعنون: "أخلاقيات فرويد" The Freudian Ethic أوضح لنا كيف أن تعاليم فرويد قد قللت من قيمة المبادئ والأخلاق التى بنيت على أساسها الحضارة الغربية، وبالرغم من أن بعض هذا التقليل يعود إلى عدم فهم تعاليم فرويد، فإن تأثيره السيئ ككل كان بالغ الضرر، ولعل

(*) الزعيم الخائن: أسطورة ألمانية عن شخص تمكن من أن يسحر الفئران – من خلال عزفه الجميل على الناى – وجعل حشودًا هائلة منهم تقوم باتباعه والمشى وراءه، وقادهم فى النهاية إلى النهر؛ حيث غرقوا جميعًا ولقوا حتفهم. (المترجم)

الأبيات الشعرية التى كتبها "دبليو .إتش. أودن W. H. Auden" فى ذكرى فرويد تعتبر أصدق تعبير عن هذا:

"إذا كان فى الأغلب الأعم على خطأ،	If often he was wrong and,
وأحيانًا، مناف للعقل وسخيف	at times, absurd,
إلا أنه بالنسبة لنا لم يعد مجرد شخص	to us he is no more a person
وإنما منطقة لها مناخها الخاص الملىء بالآراء". ...	now but a whole climate of opinion ...

إن ما كتبه هذا الشاعر يعتبر ملاحظة حادة تتسم بكثير من الذكاء، وتتفق مع ما هو متوقع من الموهبة الشعرية، وفى هذا الصدد من الواجب علينا أن نؤكد تساؤل الشاعر الخاص بـ"منطقة لها مناخها الملىء بالآراء" Climate of opinion، إن ما يعنيه الشاعر هو أن كتابات فرويد لم تكن إلا منطقة لها مناخها الخاص الذى اتسم بالتساهل وإباحة الخروج على القواعد، والتعددية الجنسية، والدعوة إلى التخلى عن العادات والتقاليد القديمة، وغيرها، وحتى "د. سبوك" Dr. Spock صاحب الكتابات الفاضحة الفظيعة ومؤلف الكتاب الشهير عن الأطفال، تراجع عن تأييده الحماسى لتعاليم فرويد، واعترف بمدى الضرر الذى يمكن أن تتسبب فيه، وكل هذا يوضح لنا أن الوقت قد حان لأن ننظر إلى تعاليم فرويد على أنها ليست فقط عديمة القيمة، بل إنها ضارة ولا أخلاقية أيضًا، وإنها - إن آجلاً أو عاجلاً - ستتسبب فى الإضرار بالمجتمع.

ومما لا شك فيه أن تعاليم فرويد كان لها تأثيرات واسعة النطاق على حياتنا على وجه العموم، وأن هذه التأثيرات الضارة معروفة للغالبية العظمى من الأفراد؛ تأثيرات ضارة على العادات الجنسية المتعارف عليها، وعلى تنشئة الطفل، ومدى موضوعية القواعد الأخلاقية، وغيرها من المبادئ الفرويدية التى انتشرت فى كل مكان حتى وصلت إلى رجل الشارع العادى الذى لم يقرأ لفرويد قط، وقد حدث هذا، بسبب تأثيره العظيم على المؤسسات الأدبية والعلمية والإعلامية فى الصحافة والتليفزيون وغيرها من

الوسائل التى شكلت همزة الوصل بين عامة الناس من ناحية، والأوساط العلمية المثقفة من ناحية أخرى، وفى الحقيقة، فإن تأثيرات فرويد امتدت وتشعبت حتى وصلت إلى النقد الأدبى ذاته، وهو ما فعلته مع علوم أخرى مثل النقد التاريخى أو علم أصول الإنسان، وقد أضرت هذه التأثيرات كثيراً بالمجتمع ككل.

فى كل المجالات السابقة - وبدون أى تفكير أو تردد - تم النظر إلى أفكار فرويد على أنها حقائق ولم يتشكك كثيرون فى حقيقة قيمتها، وهو ما شكل قاعدة هائلة الحجم جعلت من الصعب على أى شخص توجيه النقد لفرويد ونظرياته.

وهناك كثير من الأشخاص المهتمين - بطريقة أو بأخرى - بطبيعة السلوك البشرى وأسبابه؛ أشخاص مثل الناقد الأدبى، والمعلم، والاختصاصى الاجتماعى، وغيرهم، ولا يمكن لنا أن نتوقع من كل هؤلاء أن نفرض عليهم قراءة المناقشات المعقدة والدراسات التجريبية النفسية، خاصة إذا كانت طبيعة هذه الأشياء سوف تحط من مكانة الفرد وتزعزع إيمانه بـ"علم النفس الدينامى"(*) Dynamic Psychology.

وهناك أسباب أخرى سمحت للمشتغلين بالتحليل النفسى بأن ينجحوا فى الوصول للطبقات المتعلمة - وغير المتعلمة - ومكنتهم من اكتساب ثقتهم جميعاً؛ ففى المقام الأول كان المشتغلون بعلم النفس التجريبى - مثلهم فى هذا مثل كل العلماء الحقيقيين - يستخدمون لغة ومصطلحات خاصة بهم وحدهم؛ لغة ومصطلحات خاصة نابعة من طبيعة عملهم التجريبية، والمعالجات الرياضية والإحصائية الواجب تطبيقها على كل تجربة من التجارب، وبالطبع، كان كثير من هذه المصطلحات غير مفهوم للشخص العادى الذى لم يتلق تدريباً خاصاً فى مجال التجارب، أما مصطلحات فرويد فبدت وكأنها مفهومة للجميع ولأى شخص أياً كانت لغته أو حضارته الأصلية؛ فإن

(*) "علم النفس الدينامى" هو علم النفس الذى يحاول تفسير تصرفات المريض من خلال دراسة أهدافه ودوافعه الحقيقية وحاجاته وغرائزه الكامنة فى اللا شعور؛ بدلاً من التركيز على "المدخلات الحسية" Sensory Inputs (ما يراه وما يتذكره وما يؤمن به المريض) مثلما هو الحال مع "علم النفس المعرفى" Cognitive Psychology، هذا وتصنف طريقة فرويد وأتباعه على أنها: "علم نفس دينامى". (المترجم)

مصطلحًا مثل "الكبت" هو مصطلح سهل الفهم، أو من الممكن أن يبدو لكثيرين وكأنه من السهل استيعابه، ومن ناحية أخرى، فإن مصطلحات علم النفس التجريبى لا تتوافر فيها هذه الصفة، مصطلحات مثل: "الكف الشرطى" Conditioned Inhibition و"قانون هيك" Hick's Law، و"مخ ثالوثى" Triune Brain، التى لا يمكن فهمها بدون شروح طويلة ومفصلة.

وحتى بصرف النظر عن كل ما سبق، فإنه من الواضح أن التحليل النفسى يتعامل مع أمور مهمة، وحميمة، وقريبة من قلب كل فرد فينا. أمور مثل: "الدوافع" و"المشاعر"، و"الحب"، و"الكراهية"، و"الأمراض العقلية"، و"الخلافات الحضارية"، وهى كلها أمور متعلقة بـ"معنى الحياة"، والأسباب الكامنة وراء سلوكيات الفرد اليومية، وهكذا نجد أن التحليل النفسى يقدم لنا شروحًا وتفسيرات تساعدنا على فهم حياتنا وأسباب الفشل والنجاح والنصر والهزيمة والمرض والصحة، وبصرف النظر عن مدى صحة تلك الشروح وهذه التفسيرات!

أما علم النفس التجريبى، فإنه بدا للجميع وكأنه يتعامل مع أمور حصرية وغير مرتبطة بمشاكل الحياة اليومية، ولا تهم إلا فئة معينة من الأفراد، إن هذا التصور الأخير هو الذى أقنع كثيراً من أفراد الطبقة المتعلمة - بما فيهم علماء النفس - بأن هناك خيارين فقط لا ثالث لهما فيما يتعلق بفهم النفس. **الخيار الأول**: تعاليم تهتم بالأمور الإنسانية، بالرغم من عدم اتباعها لأسلوب علمى سليم. **والخيار الثانى**: هو تعاليم مركزة على أشياء بعيدة عن مشاكل الحياة اليومية وتتبع أسلوبًا علميًا صارمًا شديد الالتزام بكل الطرق الواجب اتباعها.

وفى الواقع، فإن عديداً من المشتغلين بعلم النفس التجريبى يتقبلون وجهة النظر السابقة ويتفاخرون بها، ومن أمثلة هؤلاء؛ الرياضى الإنجليزى الشهير "هاردى" G. H. Hardy، وهم يعلنون على الملأ أنهم يستمتعون بإجراء كل هذه التجارب؛ لأنه ليس لها تطبيقات عملية! إن الواحد منهم يؤمن بأن علم النفس التجريبى له مشاكله الخاصة النابعة منه، التى تبتعد كل البعد عن نطاق اهتمامات الفرد العادى، وفى هذا الصدد،

فإنه من الصعب عليَّ تفهم موقفهم هذا، الذى لا يوجد أى شك فى كونه موقفًا خاطئًا، فحتى الرياضيات التى وضعها "هاردى" قد أثبتت فائدتها فى كثير من التطبيقات العملية الهامة مثل عملية بناء القنبلة الذرية.

وبالمثل، يمكن النظر إلى التجارب الحصرية المتخصصة التى حاول من خلالها "باڤلوف" الحصول على استجابات شرطية متعلمة من الكلاب - على أنها أساسية وهامة فى تعليمنا الكيفية التى ينشأ بها العُصاب لدى الفرد العادى، وكيفية معالجته، وبالتأكيد، فإن باڤلوف لم يكن لديه أى شك فى وجود تطبيقات عملية للقوانين التى استنتجها من تجاربه على الكلاب، ولقد أثبت الزمن صحة آرائه، وبالرغم من كل ما سبق، فإن "الانطباع السائد" لدى الكثيرين هو أن "علم النفس التجريبى" يهتم بأشياء غير مرتبطة بمشاكل الفرد اليومية، ومن سوء الحظ، فإن هناك كثيرًا من الحقيقة فى هذا الانطباع؛ لأن كثيرين من العاملين بعلم النفس التجريبى يركز الواحد منهم على مشاكل صغيرة لا تحمل أى قدر من الدلالة أو الجوهرية، مفضلاً الالتزام بالطرق البراقة الأنيقة على ما هو مرتبط بمشاكل الفرد، وبالرغم من شيوع الموقف السابق، فإنه لا يمثل موقفًا عالميًا بين جميع المشتغلين بعلم النفس التجريبى فى جميع أنحاء العالم. وفى الواقع، فإنه يوجد لدينا - بالفعل - قدر كافٍ من الأدلة التى تشير إلى زيادة حجم التجارب المتعلقة بهموم الفرد اليومية والمشاكل التى يعانى منها المجتمع، وأنا عندما كتبت كتابى هذا، فإنما كنت أهدف - فى الحقيقة - إلى التأكيد على هذه النقطة بالذات؛ فإنه من الممكن لنا أن نركز على هموم الفرد ومشاكله، وفى الوقت نفسه نلتزم بالأصول والقواعد السليمة التى يجب اتباعها خلال أى بحث علمى، ومن رأيى، الاستمرار فى السعى نحو هذا الهدف، حتى نتمكن من إقناع العالم كله بهذا، إن الغالبية العظمى من مشاكلنا ذات طبيعة نفسية؛ مشاكل مثل "الحروب"، و"النزاعات السياسية" ووصولاً إلى "الاضطرابات العقلية" و"عدم التوافق الزوجى"، ومن "الإضرابات" إلى "التفرقة العنصرية"، وبالتأكيد، فإن الوقت قد حان للاستعانة بالمساعدات التى يمكن للعلم أن يقدمها فى محاولة لحل هذه المشكلات.

وفى هذا الصدد، فإنه من الممكن لنا القول بأن تأثير "ماركس" Marx كان مشابهًا لتأثير فرويد، وهذا التشابه لم يكن مقصورًا على أن كلاً منهما قام ببناء آرائه - ونظريته ككل - على "تأويلات" Interpretations يتجاهل من خلالها الأدلة المباشرة الموجودة، بل إن هذا التشابه امتد ليشمل الطريقة التى تعامل بها عامة الناس مع النظرية التى قدمها كل منهما؛ ففى كلتا الحالتين تشككت أعداد قليلة جدًا فى صحتها، وتقبلتها الغالبية العظمى من الأفراد بدون قراءة أعماله الأصلية أو الاستماع للنقد الذى وجه إلى ما كتبه مهما كانت درجة إقناعه ومنطقيته، والغالبية العظمى من المؤمنين بالماركسية - حاليًا(*) - يتبنون وجهات نظر معارضة تمامًا لماركس ولينين، مثلما هو الحال فيما يتعلق بمسألة توارث الذكاء، لقد كان موقف كل من ماركس ولينين واضحًا فيما يتعلق بإيمانه بـ"المساواة" باعتبارها أحد الأسس الضرورية لبناء اشتراكية سليمة، لكن الحديث - هنا - كان عن "المساواة الاجتماعية" وليست "المساواة البيولوجية"، ولقد قاما بتوضيح هذا بالتفصيل، وأنه من المستحيل تحقيق المساواة البيولوجية، لقد كانت كتاباتهما تؤكد تأييدهما لوجهة النظر القائلة بأن "الذكاء"، وغيره من القدرات، لها أصول جينية (وراثية) تنبثق منها، لكن بعضًا من أتباعهما يؤيدون - حاليًا - وجهة النظر العكسية.

ويمكن قول الشىء ذاته عن فرويد؛ فإن أتباعه قاموا بخلق "منطقة لها مناخها الخاص الملىء بالآراء"، التى تختلف بشدة عن الآراء التى يؤمن بها فرويد، وبالرغم من هذا، فإنه من السهل رؤية وتتبع الخيط الذى يربط بينهم وبين فرويد، وأنهم ليسوا إلا سلفيين ما زالوا يرون الأشياء من خلال تأويلاته المغلوطة، وهو ما يجبرنا على أن نستمر فى إلقاء الذنب عليه فى قيادتهم نحو هذا الطريق الخاطئ.

ولعله قد حان أوان التساؤل الذى يدور فى ذهن الجميع، فإذا كان التحليل النفسى ضئيل القيمة بهذا الشكل، وله أرجاعه ونتائجه بالغة السوء، فلماذا - إذن - كان له كل هذا التأثير على أجيال متعاقبة؟

(*) قام المؤلف بنشر كتابه هذا - لأول مرة - فى عام ١٩٨٥، قبيل انهيار الأفكار الماركسية فى الاتحاد السوفيتى وتفككه فى عام ١٩٨٩م. (المترجم)

إن هذا التساؤل فى محله، وهو فى الواقع بالغ الأهمية، ونحن نأمل أن الأجيال المستقبلية من الباحثين فى علم الاجتماع وعلم النفس - سوف تتمكن من اكتشاف الكيفية التى تمكن بها رجل واحد من فرض متاعبه الشخصية العُصابية على عدة أجيال! وكيف تمكن من إقناع العالم كله بأهمية نظرياته؟ تلك النظرية التى لم تكن - فقط - مُفتقرِة إلى الإثباتات والأدلة، ولكنها كانت - فى بعض الحالات - تتناقض مع الأمثلة التى يكون من المفترض فيها تأييد نظريته! فى هذا الصدد، فإنه من الواجب الإشارة إلى أن العلماء والأكاديميين لم يتقبلوا نظرية فرويد عالميًا (فى كل مكان). أما ما حدث - حقيقةً - فهى أنها قبلت بحرارة وشعبية بين مجموعتين من الأفراد بخلاف أنصار التحليل النفسى.

المجموعة الأولى كانت تتكون من فئات مثل "المدرسين"، و"الاختصاصيين الاجتماعيين"، و"ضباط المراقبة"، وكل الذين كان عليهم التعامل مع المشاكل الإنسانية بطريقة أو بأخرى، إن كل فرد فى الفئات السابقة كان يواجه - خلال تأديته لوظيفته - مشاكل جمة، ولهذا فإن الواحد منهم كان يشعر بأنه فى حاجة لأى نوع من المساعدة خاصة فيما يتعلق بمجال النظريات النفسية. وهكذا، فإن نظرية التحليل النفسى بدت له وكأنها تمده بما يحتاج إليه من مساعدة، وهو ما جعل كل واحد منهم يتبناها بحرارة وحماسة، وكما ذكرنا فيما سبق، فإن نظرية التحليل النفسى أعطت الواحد منهم الإحساس الكاذب بأنه لديه ما يكفى من القوة - والخبرة - التى تمكنه من مواجهة مشاكل عملائه النفسية، ولقد كان من سوء الحظ أن هذه القوة والخبرة تتسم بالزيف، ولكن حيث إنها أعطته مظهر العالم الخبير، فإن أفراد هذه الفئات تمسكوا بنظريته وتشبثوا بفروضها الزائفة حتى الآن، وفى هذا الصدد، فإنه من الصعب تقدير حجم الأضرار التى تسببوا فيها بتطبيقهم لفروض فرويد، ومن المؤسف أن تعاليمه قد استبعدت الاستعانة بالنظريات النفسية الأخرى، وهو ما زاد من حجم الأضرار التى تسبب فيها.

المجموعة الثانية تختلف كثيراً عن المجموعة الأولى؛ لأنها تتكون من الأدباء والفنانين والرسامين الذين يؤيدون وجهات نظر فرويد، بالنسبة لأفراد هذه الفئة كانت نظريات فرويد وتعاليمه تمثل أفكاراً حبيبة إلى قلوبهم وقريبة من طرقهم الفنية التى اعتادوا استخدامها فى إنتاجهم من الآداب والفنون المختلفة مثل الأشعار والمسرحيات والقصص. فبدلاً من "زوس" ZEUS و"أثينا" Athene و"إكليس" Achilles ومن شابههم، فإنه أصبح لدينا - الآن - "الرقيب" The Censor، والـ"أنا-الأعلى" Super-ego، والـ"ثاناتوس" Thanatos(*) وغيرها من الأسماء الخرافية، وكل هذه الأشياء - بالنسبة لأدباء الدرجة الثانية - تعتبر معيناً لا ينضب ومنجماً غنيًا بالأفكار والإيحاءات التى يمكن أن تمده بعمل درامى شديد الثراء. وكنتيجة لهذا، فإن المؤسسات الأدبية والفنية أصبحت نصيراً قويًا يؤيد أفكاراً وفروضاً نظرية التحليل النفسى.

فما طبيعة الوضع الحالى؟

لقد وصلت نظريات فرويد إلى أوج مجدها وقمة شهرتها خلال عقود الأربعينيات والخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، لكن كل هذا تغير بالتدريج مع تزايد الانتقادات وتراكم الأدلة التى تثبت زيف هذا العلم، وهكذا فقد التحليل النفسى جاذبيته وسلطانه على كثيرين، ومما لا شك فيه أن المعاهد الأكاديمية وأقسام العلاج النفسى فى الولايات المتحدة وإنجلترا وغيرها تركز - الآن - على الجانب البيولوچى من الاضطرابات الذهنية، خاصة ذلك الجانب الذى يمكن علاجه بالطرق الدوائية، أو الذى تفلح معه الطرق السلوكية، وتكرر الأمر ذاته مع الأبحاث النفسية؛ فإن التحليل النفسى خسر المكانة التى كان يستمتع بها، وحل محله - بالتدريج - العلاج السلوكى

(*) راجع تعريفات المترجم لبعض هذه الأسماء فى الفصل الأول تحت العنوان الفرعى: "القاعدة الثالثة"، أما "زوس" ZEUS و"أثينا" Athene و"إكليس" Achilles فهم على الترتيب "كبير الآلهة" و"آلهة الحكمة" عند الإغريق، ويقابلهما "جوبيتر" JUPITER و"مينرڤا" Minerva عند الرومان. و"إكليس" هو البطل الذى لا يقهر إلا من خلال كعب قدميه. (المترجم)

خلال العقدين الأخيرين من الزمان (١٩٦٥ – ١٩٨٥م)، قد يستغرق الأمر فترة طويلة، لكنه من المحتم أن يتم استبدال المحللين النفسيين الذين يحتلون كل الوظائف العليا المهمة فى مؤسسات العلاج النفسى الأمريكية والإنجليزية، وأن يحل محلهم جيلاً جديداً يحمل أفكاراً مخالفة تماماً لأفكارهم، ولعل خير ما يمكن قوله فى هذا الصدد هو رأى الفيزيائى الشهير "ماكس بلانك" Max Planck الذى أشار ذات مرة إلى أن النظريات الجديدة فى مجال الفيزياء لا تنتصر ويؤمن بها كثيرون، إلا إذا ماتت الأجيال السابقة وأتى جيلٌ جديد من الشباب يحمل معه عادات وتقاليد جديدة، ولا يوجد أى شك لدىَّ فى أن هذا ينطبق أيضاً على علم النفس والعلاج النفسى، وأن الآثار الأخيرة لفرويد لن تزول إلا مع قدوم جيل جديد يحمل معه عادات وتقاليد مختلفة.

من وجهة نظرى، فإنه لا يوجد أى شك فى أن "التحليل النفسى" فى طريقه للانهيار والتفكك، وأنه قد فقد بالفعل أى مصداقية أكاديمية كانت متوافرة له، وأن استخدامه كطريقة فى العلاج النفسى يقل بالتدريج فى كل بقعة من أرجاء العالم. إن كل علم من العلوم لا بد أن يتعرض للمرور بمرحلة من مراحل الزيف والشعوذة. على سبيل المثال: فإن "علم الفلك" كان عليه أن يباعد بين نفسه وبين "التنجيم"، و"علم الكيمياء" كان عليه أن ينسلخ ويتحرر من قيود "الخيمياء" Alchemy(*)، و"العلوم الخاصة بالمخ" كان عليها أن تباعد بين نفسها وبين علم زائف مثل "فراسة الدماغ" Phrenology(**) الذى كان يعتقد بإمكانية التعرف على شخصية الفرد من خلال تضاريس رأسه، وبالمثل يصبح من الواجب على علم النفس – وطرق العلاج النفسى –

(*) علم زائف ذو فروع كيميائية كثيرة وغريبة أصبح شائعاً بين كثير من شعوب العالم خلال القرون الوسطى والعقود الأولى من عصر النهضة، تبحث فروع هذا العلم عن "حجر الفلاسفة" الذى يستطيع تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، أو تسعى إلى تحويل الرصاص إلى ذهب عن طريق تفاعلات كيميائية مباشرة (بدون الاستعانة بحجر الفلاسفة)، وكان بعضهم يعتبر أن الخيمياء ليست إلا رمزاً لتفاعلات وإجراءات الحياة نفسها، التى تمكن الخيميائى من الرقى بذاته من خلال إجراءات معملية معينة تسمى "الأسد الأخضر" The Green Lion... حتى يصل إلى "قمة المعرفة" Pinnacle of Knowledge! (المترجم)

(**) علم زائف آخر، وقد تم التعريف به فى بداية الفصل السادس. (المترجم)

أن يتحرر هو الآخر من الفروض الزائفة التى حاول "التحليل النفسى" أن يقنعنا بها، وعلى أتباع هذه الطريقة فى التفكير أن يتراجعوا عن تأييد فرويد وتعاليمه ويتقبلوا المهمة الشاقة التى سوف تعود بهم إلى الطريق القويم، ومن الواضح أنها لن تكون مهمة سهلة، ولكنها مهمة ضرورية لا سبيل للاستغناء عنها حتى يتحول "علم النفس" إلى "علم" حقيقى بكل ما فى الكلمة من معنى. والطرق السهلة أو القصيرة والمختصرة التى يقترحها بعضهم لن تؤدى إلى تحقيق هذا.

فما الذى يمكن أن نقوله كخلاصة لكل ما سبق؟ ما الذى يمكن قوله عن فرويد وعن مكانته فى التاريخ؟

مما لا شك فيه أن فرويد كان عبقريًا، ولكنه لم يكن عبقرى فى العلم، وإنما فى "الدعاية" و"الإعلان". لم تكن عبقريته فى توصله إلى إثباتات تعتمد على حقائق لا يمكن دحضها، وإنما فى "الإقناع" و"جذب الأتباع والحواريين"، لم تكن عبقريته فى تصميم التجارب، وإنما فى "الفن" و"الخيال الأدبى"، وبخلاف ما يدعيه فرويد، فإن مكانته لن تكون بجوار "كوبرنيق" و"داروين"، وإنما مع "هانز كريستيان أندروسون" والأخوين "جريم"(*) اللذين اعتادا على كتابة القصص الخيالية.

قد يبدو لبعضكم أن حكمى السابق شديد القسوة، لكن المستقبل وحده سوف يثبت صدق حكمى هذا، وفى هذا الصدد، فإننى أتفق مع آراء السيد "بيتر ميدور" Peter Medawar الحائز على جائزة نوبل فى الطب، الذى قال:

"إن التحليل النفسى يحتوى على بعض الحقيقة، مثله فى هذا مثل "التنويم الإيحائى والمسمرية" Mesmerism و"فراسة الدماغ" Phrenology (أشياء من مثل: "مفهوم موقع الوظيفة فى الدماغ" the Concept of Localization of Function in Brain)، ولكننا عندما ننظر إليه نظرة شاملة، سنجد أن "التحليل النفسى" لا يفى بالغرض،

(*) هما الأخوان "جاكوب" Jacob (١٧٨٥-١٨٦٣م)، و"فليهلم" Wilhelm (١٧٨٦-١٨٥٩م)، من كتاب الأساطير والفولكلور الشعبى المشاهير فى الأدب الألمانى.(المترجم)

مهما كانت بساطة هذا الغرض. فهو مثله مثل "منتج نهائى" لا يمكن تطويره أو وضع تحسينات عليه، وهو فى هذا يشبه "الديناصور" أو "منطاد زبلن"، فلا يمكن بناء أى نظرية علمية - مهما كانت - على أى من الأسس التى أرساها، وهذه الحقيقة الأخيرة، ستبقى كواحدة من أكثر العلامات الباعثة على الأسى والحزن والاستغراب فى تاريخ الفكر خلال القرن العشرين".

وفى هذا الصدد يمكن لنا ذكر التشبيه الشعرى الذى كتبه "فرانسيس بيكون"، بالرغم من أنه عاش قبل فرويد بسنوات طويلة:

"إن هذه السيدة تملك الوجه والسيماء التى تؤهلها لأن تكون: "زوجة"، لكنها من الداخل طوقت خاصرتها بذئاب تعوى، ولهذا فإنها قد تبدو - لأول وهلة - صاحبة وجه ساحر، ولكن كل من يتسرع فى سعيه للزواج منها - طمعًا فى إنجاب الأطفال - لن يحصد إلا الويل والثبور وعظائم الأمور".

فى أحسن الحالات يمكن وصف "التحليل النفسى" على أنه تَشَكل مبكر- تبلور قبل الأوان - لأفكار مستقيمة، ولكنها جوفاء، وفى أسوأ الحالات يكون من الواجب وصفه على أنه تعاليم علمية زائفة تسببت فى أضرار لا حصر لها لكل من علم النفس والعلاج النفسى، وأن "تعاليم التحليل النفسى" تسببت - أيضًا - فى أضرار لآمال وتطلعات عدد لا حصر له من المرضى الذين صدقوا - بنية خالصة - ادعاءات فرويد الكاذبة ووثقوا به، لقد حان الوقت لأن نتعامل مع "التحليل النفسى" على أنه ليس أكثر من حادثة تاريخية مثيرة للفضول، وأن نتحول بجهودنا نحو المهمة العظيمة التى تطالبنا ببناء "علم النفس" على أسس علمية حقيقية.

خاتمة المترجم

الفيلسوف الألمانى "فريدريك نيتشه" كثيرًا ما تساءل عن:

«الكيفية التى يتَحول بها الإنسان إلى ما هو عليه» ؟

ولكن لحسن حظنا، فإن المعلومات المتاحة عن "حياة فرويد" وفيرة، وذات مصادر متعددة، حتى إنها تمكننا من الإجابة عن هذا التساؤل بكثير من الوضوح، فمنذ البداية، بل منذ اللحظات الأولى فى حياته على كوكب الأرض تم إحاطة فرويد بهالة أسطورية من "التوقير" و"الغموض" و"التنبؤات" و"التوقعات" التى لا أساس لها، وعلى سبيل المثال: عند ولادته كان "برقع الجنين" Caul(*) لا يزال سليمًا حول رأس فرويد، وهو ما اعتبره والداه علامة مباشرة من السماء ("Omen Good") تبشرهما بأنه سيكون صاحب شأن عظيم فى هذه الدنيا، هذا - بالطبع - بالإضافة إلى "وضعه"(**) داخل أسرته، وتفضيل أمه له على كل أبنائها.

(*) الغشاء الرقيق الذى يحيط بالجنين عند ولادته، والذى غالبًا ما يتمزق خلال الولادة.

(**) المقصود هنا من "وضع الشخص" داخل أسرته: ليس مجرد ترتيبه من حيث الميلاد بين إخوته وأخواته، ومدى تفضيل أبويه له، خاصة الأم، وإنما تأثيرات هذا الترتيب **بما يطبع شخصية الفرد - خلال السنوات الحاسمة من طفولته - بسمات معينة تمكننا من تصنيفه**، أيضًا فإن مصطلح "وضع الشخص" يشير إلى عديد من الأوضاع الأخرى مثل كون الفرد، "الذكر الوحيد" ضمن مجموعة من الإناث فى أسرته، والعكس (كونها "الأنثى الوحيدة" ضمن مجموعة من الإخوة الذكور)، وغيرها من الأوضاع التى تتبع هذا النسق، وبالنسبة لـ"وضع فرويد"، فإنه كان أول أبناء أمه، والمفضل لديها، أما والده، فكان لديه ابنان فى عمر الشباب - من زوجته الأولى - عند مولد فرويد، وعادة ما يتم تصنيف فرويد على أنه يتصف بالسمات التى تميز وضع "الطفل الأصغر".

منذ بداياته المبكرة، قبل أن يبلغ الحلم، وقبل أن يبدأ فى إدراك كنه وحقيقة العالم المحيط به، كان فرويد يعلم أنه: "شخص له قيمته الخاصة"، وأنه "متميز" عن بقية إخوته وأخواته، بل عن كل المحيطين به، وهو لم يعلم هذا، بسبب رؤيته لأدلة مادية ملموسة أظهرت له وجود "اختلافات فيزيائية" Physical Differences موجبة، بينه وبين الآخرين، وإنما بسبب المعاملة الخاصة التى تمتع بها طوال السنوات الأولى من حياته، والتى استمرت حتى بعد بلوغه سن الرشد، بل إنه من الغريب معرفة أنه – فى الثمانين من عمره – كان فرويد هو الشخص الوحيد الذى عمل الجميع على إنقاذه من "ألمانيا النازية"، بينما هلك كل إخوته وأخواته تحت الأقدام الغليظة لهتلر وزبانيته.

وبالطبع، يكون من المستحيل علينا إنكار ذكاء فرويد وعبقريته؛ مثلما هو من المستحيل علينا إنكار ذكاء وعبقرية أولئك الفطاحل الذين تأثر بهم ونقل عنهم؛ عباقرة وفطاحل من أمثال الأدباء: "سوفكليس" Sophocles، و"شكسبير" Shakespeare، و"جوته" Goethe، و"دوستيفسكى" Dostoyevsky. وفلاسفة وعلماء من أمثال: "هيجل" Hegel، و"شوبنهر" Schopenhauer، و"كانط" Kant، و"داروين" Darwin، وغيرهم ممن شكلوا كثيرًا من أفكار فرويد.

وإذا أخذنا فى الاعتبار حجم غرامه بالقصص الموجود فى "الأساطير الشعبية" و"الديانات" و"معتقدات القدماء" التى ظل يحاول من خلال أحداثها تفسير سلوكيات الفرد الذى يعانى من العُصاب أو الذهان، وحجم إعجاب فرويد بـ"الأبطال ذوى الأصول السامية" Semitic Heroes، مثل: "هانيبال" Hannibal البطل القرطاجنى الشهير الذى تمكن من عبور جبال "الألب" Alps بجيوش جرارة تحتوى على أفيال، واحتلال كثير من أراضى الإمبراطورية الرومانية – فى أوج مجدها – لمدة ناهزت ١٥ عامًا متصلة لأمكننا استنتاج الأسباب الكامنة خلف رغبته الشديدة فى أن يتذكره الجميع على أنه: "الفاتح" The Conquistador، بالرغم من أنه لم يكتب لنا التعرف على – كما أخبرنا مؤلف هذا الكتاب فى بداية الفصل الثامن – طبيعة هذا "الفتح" الذى قام به، وفى أى مجال من المجالات؟

وعلى أية حال، فإنه عندما تخير اتباع أسلوب "الفاتح" في عرض نظريته وفرض آرائه علينا، نزع عن نفسه الحق في الاحتفاظ بلقب أكثر احترامًا وأعلى قيمةً وأكثر خلودًا، لقب "العَالِم" The Scientist النزيه الذي يسعى لخير المجتمع.

لكن هذا "الوضع الخاص" الذي تمتع به طوال سنوات حياته، جعل من المحتم على فرويد أن يفعل الأشياء التي انتهى إلى فعلها، وتبنى المواقف التي انتهى إلى تبنيها، واختيار الطرق التي انتهى إلى السير فيها، وأنا هنا لا أرفع وزر المسئولية عنه، ولكني أشير فقط إلى أن حياته - منذ البدء - لم تكن أكثر من "نبوءة ذاتية التحقيق" Self-fulfilling Prophecy، وأن السبب في تحول ذكاء فرويد وعبقريته إلى طاقة عظيمة مهدرة هو: "البيئة" التي نشأ فيها، و"التربية" التي تلقاها، و"أسلوب الحياة" الذي تبناه، والمعاملة الخاصة جدًا التي تلقاها من كل المحيطين به وحتى اليوم الأخير في حياته.

وهذه هي "الخبرة المستفادة" من حياة فرويد، وما حوتها من طاقات عظيمة مهدرة، فإنه من غير الممكن الحصول على نتائج إيجابية عن طريق اتباع أسلوب المحاباة والتحيز لأحد الأبناء دون الباقين، وأن الالتزام بالوسطية والابتعاد عن التطرف، حتى في الأشياء الإيجابية مثل: حبنا للطفل وحجم الرعاية والعناية والحماية التي نحيطه بها - أصبح من الأمور الضرورية التي من الواجب على الآباء والأمهات معرفتها والالتزام بمراعاتها، كذلك يكون من اللازم علينا التحكم في "توقعاتنا" الزائدة عن الحد، التي قد تدفع بالطفل إلى توجيه نشاطاته بعيدًا عن: "الجانب المفيد من الحياة" The useful side of life، مثلما فعل فرويد عندما خرج علينا بنظرية عقيمة أضرّت أكثر مما أفادت، وأضلت أكثر مما هدت، وأعاقت أكثر مما سهلت، بدلاً من أن يوجهها نحو مساهمات علمية وعملية يمكن البناء عليها، مهما كان صغر أو ضآلة هذه المساهمات، لقد فضل فرويد أن يضللنا بنظرية ضخمة، جميلة التكوين، جذابة العناصر - على أن تقتصر مساهمته على قليل من الحقائق التي يمكن التأكد من صحتها عن طريق التجارب العلمية المقننة.

وأسوأ ما فى الأمر هو أن فرويد كان – فى كثير من الأحيان – على علم بحجم الأكاذيب والمغالطات الموجودة فى فروض نظريته، ومع هذا استمر فى محاولاته لإقناع من حوله بهذه الفروض الغريبة، التى جعلتها تبدو وكأنها أسطورة من أساطير القرون الغابرة؛ أسطورة مملوءة بكائنات خرافية مثل: الـ"هو" Id، والـ"أنا" Ego، والـ"أنا-الأعلى" Super-ego، والـ"رقيب" Censor، والـ"إيروس" Eros، والـ "ثاناتوس" Thanatos، ولعله فى هذا كان يحاول الاقتداء ببطله المفضل، القائد القرطاجنى الشهير "هانيبال" الذى تمكن من أن يبقى أعداؤه فى حالة من الذهول لسنوات طويلة – بالرغم من تفوقهم العددى الساحق – بسبب استخدامه لكائنات وأساليب لم يسمعوا عنها من قبل، ولكن الفرد قد يستطيع خداع كل الناس بعض الوقت(*)، وقد يستطيع أن يخدع بعض الناس كل الوقت، ولكنه لن يستطيع النجاح – أبدًا – فى خداع كل الناس كل الوقت.

(*) العبارة مقتطفة – بتصرف – عن إحدى العبارات الشهيرة المعروفة عن الرئيس الأمريكى "إبراهام لنكولن" Abraham Lincoln: الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية، والملقب بأعظم رئيس فى التاريخ الأمريكى، وخلال فترة رئاسته (من ١٨٦١ إلى ١٨٦٥م) نشبت الحرب الأهلية الأمريكية، التى مكنته من الحفاظ على الوحدة بين الشمال والجنوب.

المراجــع

- "دراسـة لتـاريخ حيـاة " An Autobiographical Study، الذى تم طبعـه ونشـره من خلال: (London: Hogarth, 1946).،

- "تاريخ حـالـة سـكريبـر" Case History of Schreber، وتم نشـره مـن خـلال: (London: Hogarth, 1958)

- "ثلاث مـقـالات عن نظرية النشـاط الجنسى" Three Essays on the Theory of Sexuality، وتم نـشـــره مـن خـــلال: (London: Hogarth, 1949 ليـــوناردو داڤنشى" Leonardo Da Vinci، (Standard Edition of the Complete Psychological Works, Volume 11).

- "تفسير الأحلام" Interpretation of Dreams، ١٩٣٧. London: Allen & Unwin,

- "الطوطم والمحرم" Totem and Taboo، ونشرته: (London: Routledge, 1919.)

- "تحليل المخاوف المرضية لدى طفل ذكر فى الخامسة من عمره" The Analysis of a Phobia in a Five-year-old Boy (Collected Papers, Volume 3. London: Hogarth Press, 1950); in Muriel Gardiner, ed.,

- "رجل الذئاب: مع حالة رجل الذئاب" The Wolf-Man: With the Case of the Wolf-Man تأليف "سيجموند فرويد"، وتم نشره من خلال: (New York: Basic Books, 1971)

- "أسس التـحليل النفـسى" Foundations of Psychoanalysis، الذى تم طبـعـه ونشـره من خلال: (Berkeley: University of California Press, 1984).

- "أكاذيب التحليل النفسى" Les Illusions de la Psychoanalyse، الذى تم طبعه ونشره من خلال: (Brussels: Mardaga, 1980).

- "تحليل النفسية الأمريكية: أساطير قدرة التحليل النفسى على إحداث التغيير" The Shrinking of America: Myths of Psychological Change، ونشر من خلال Lit- tle, Brown & Co. 1983) (Boston:.

- "المغالطات والأفكار الخاطئة لفرويد والتحليل النفسى" The Fallacy of Freud and Psychoanalysis، وتم نشره من خلال: (Englewood Cliffs: Prentice-Hall,1965)

- "أخطاء فرويد والتحليل النفسى" The Fallacy of Freud and Psychoanalysis وتم نشره من خلال: (Englewood Cliffs: Prentice-Hall, 1965).

- "حياة سيجموند فرويد وأعماله" The Life and Work of Sigmund Freud، ونشره (London: Hogarth Press, (Vol. I) 1953, (Vol. II) 1955, (Vol. III) 1957.

- "فرويد: الحياة والموت" Freud: Living and Dying، وتم نشره من خلال: (London: Hogarth Press, 1972) M. Krull's Freud und Sein Vater (Munich: L. H. Beck, 1979)

- "فرويد والكوكايين: المغالطات والأفكار الفرويدية الخاطئة" Freud and Cocaine: The Freudian Fallacy.

- "اكتشاف اللاشعور: تاريخ الطب النفسى الدينامى وتطوره" The Discovery of The Unconscious: The History and Evolution of Dynamic Psychiatry، الذى تم نشره من خلال: (London: Allen Lane, 1970)).

- كتاب "هوايت" Whyte المعنون: "اللاشعور قبل فرويد" Unconscious Before Freud، الذى قامت بنشره (London: Tavistock Publications, 1962).

المؤلف فى سطور :

هانز ج. أيزينك Hans J. Eysenck

ولد فى برلين عام ١٩١٦م، وتوفى فى لندن عام ١٩٩٧م.

بعد أن أصيب بورم خبيث فى المخ.

انتقل إلى العاصمة الإنجليزية فى شبابه، بعد أن اختلف مع الحزب النازى الحاكم، وقرر أن يهجر بلاده بصفة نهائية.

فى لندن حصل على شهادة الدكتوراه من قسم علم النفس فى "كلية لندن الجامعية" University College London، وتولى التدريس فى "معهد الطب النفسى" Institute of Psychiatry من ١٩٨٣ إلى ١٩٩٥م، وهو مؤلف غزير الإنتاج ألف ٧٨ كتاباً؛ منها كتابنا هذا الذى أصدره لأول مرة فى عام ١٩٨٥م.

ورغم مواقفه المشرفة العديدة: من هجره لبلاده، وتمسكه الشديد بتطبيق "الأسلوب العلمى" The Scientific Method، وتعاطفه مع المضطهدين والمظلومين، فإنه كان يقبل تمويلاً من "الرائد فى التمويل" Pioneer Fund، وهى منظمة عنصرية تمول الأبحاث التى تصنف البشر على أساس وراثى عرقى، كما أنه - قرب نهاية حياته - أظهر اهتماماً بعلوم زائفة لا أساس لها مثل: "علم نفس الخوارق" Parapsycholoy(*)، و"التنجيم" Astroloy؛ معتقداً أن هناك أدلة تجريبية تؤيد وجود قدرات غير عادية لدى بعض الأفراد.

(*) علم غير مؤسس على كثير من البراهين أو التجارب العلمية، وهدفه البحث فى الظواهر النفسية الغامضة التى يتميز بها بعض أنواع البشر، مثل: "التخاطر عن بعد" Telepathy، وباسطة العقل على المادة" Psychokinsis، و"تجربة الخروج من الجسد" Out of Body Experience. (المترجم)

ورغم إيمان "أيزينك" بقدرة "العلاج السلوكي" Behavior Therapy على علاج الأمراض العُصابية، فإنه بنى نظريته - فى الأساس - على أسس فسيولوچية وراثية، فقد أهمل - عن عمد - تلك الجوانب التى تُظهر أنه من الممكن لـ"البيئة المحيطة" Environment، وإرادة الإنسان" Power of Choice أن تحدث تغيرات معنوية حاسمة فى سمات "شخصية الفرد".

وهذه أمثلة على كتبه وأبحاثه الأولى التى أثارت كثيراً من الجدل، وأعطته الشهرة الكبيرة مرتبة زمنياً:

١- بحث يظهر أن المعلومات المتوافرة قد أثبتت أن العلاج باستخدام فروض نظرية "التحليل النفسى" يعتبر "علاجًا غير فعال" بالنسبة لمن يعانون من اضطرابات عُصابية (١٩٥٠).

٢- علم النفس بين الاستخدام وإساءة الاستخدام Uses and Abuses of Psychology (١٩٥٣).

٣- السلالة(*)، والذكاء، والتعليم Race, Intelligence and Education (١٩٧١).

٤- الجنس، والعنف، ووسائل الإعلام Sex, Violence and the Media (١٩٧٨).

٥- التنجيم: هل هو علم أو خرافة؟ Astrology - Science or Superstition? (١٩٨٢).

٦- التدخين والشخصية وضغوط الحياة Smoking, Personaity and Stress (١٩٩١).

(*) تُرجمت Race على أنها السلالة (أو العنصر) الذى ينتمى إليه شعب ما من الناحية العرقية. أما كلمة "جنس" فهى المقابل لكلمة Sex. (المترجم)

المترجم فى سطور :

عادل نجيب بشرى

ولد فى مصر عام ١٩٥٨، ودرس وتخرج فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة فى عام ١٩٨١، وأمضى معظم حياته - بعد التخرج - فى الولايات المتحدة الأمريكية، وله مؤلفات وترجمات عديدة منها: «شال الصلاة» لنيك كارتر و«فهرنهيت ٤٥١» لراى برادبيرى، و«مدينة الله» لسانت أوغسطين، و«تعليم الأطفال» لألفريد أدلر، و«سقوط الإمبراطورية» وهانز ج. أيزينك، و«قصور القدرة على الانتباه» لنتو هارتمانى، و«فلسطين: سلام لا تفرقة عنصرية» للرئيس الأمريكى الأسبق «جيمى كارتر»، و«حالة الآنسة (R)» لألفريد آدلر، وسلسلة «جرائم حقيقية» التى صدر منها: «أمهات قاتلات»، و«خناق بوسطن»، و«الحقد الخالد»، و«جرائم لم تحل»، وساعد فى إعداد ترجمات جديدة لهملت. وقد شارك فى أعمال «المشروع القومى للترجمة» بترجمة كتاب «معنى الحياة» لألفريد آدلر، وكتاب "الطبيعة البشرية" للمؤلف نفسه.

المراجع فى سطور :

أ. د. محمد نجيب أحمد الصبوة

أستاذ علم النفس الإكلينيكى بجامعة القاهرة.

عمل رئيساً لقسم علم النفس بكلية الآداب – جامعة القاهرة.

ورئيساً لتحرير مجلة دراسات نفسية.

وعضو اللجنة العلمية الاستشارية الدولية لمجلة العلوم الاجتماعية بالكويت.

له ثمانية كتب مترجمة. وعشرة كتب مؤلفة. وستون بحثًا منشوراً .

التصحيح اللغوى: مـبروك يونس
الإشــراف الفنـى: حســن كــامل